اعداد مكتبة الروضة الحيدرية

المكتبة الرقمية

الرسائل الجامعية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية
قسم اللغة العربية

المظاهر البديعيّة
في خطب الإمام عليّ (عليه السلام)
((دراسة بلاغيّة))

رسالة تقدم بها

حيدر أحمد حسين الزبيدي

إلى مجلس كلية التربية في جامعة ديالى وهي جزء من متطلبات نيل
درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأستاذ المساعد الدكتور

فاضل عبود خميس التميمي

١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

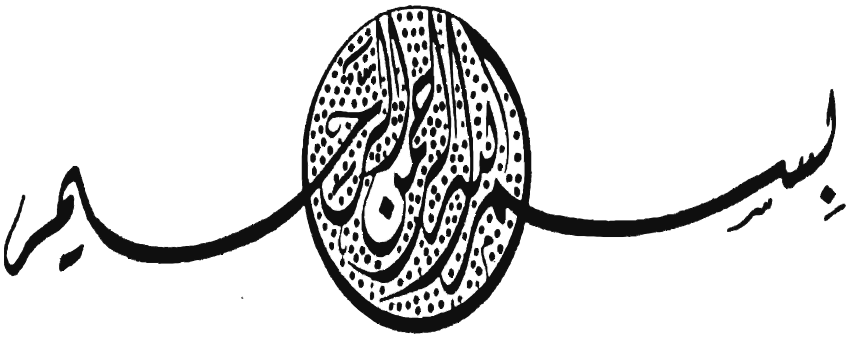

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ & عَنِ النَّبَأ العَظِيمِ & الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ & كلَّا سَيَعْلَمُونَ & ثُمَّ كلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

سورة النبأ الآيات (١-٥)

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

إقـرار المشــرف

أشهدُ أنّ إعدادَ هذه الرّسالة الموسومة بـ(المظاهر البديعية في خطب الإمام علي (عليه السلام) – دراسة بلاغية -) التي قدمها الطالب (حيدر أحمد حسين) ، قد جـرى تحـت إشـرافي في كليّة التربيّة / جامعة ديالى ، وهي جزءٌ من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

المشرف

الأستاذ المساعد الدكتور

فاضل عبود خميس التميمي

/ / ٢٠٠٨م

بناء على التوصيات المتوافرة نرشح هذه الرسالة للمناقشة .

رئيس قسم اللغة العربية

/ / ٢٠٠٨م

إقرار لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة ، نشهد بأننا اطلعنا على الرسالة الموسومة بـ(**المظاهر البديعية في خطب الإمام علي** (**عليه السلام**)-**دراسة بلاغية**-)، التي قدّمها الباحث (**حيدر أحمد حسين**) ، وقد ناقشنا الباحث في محتوياتها ، وفيما لهُ علاقتها ، ووجدنا أنـّها جديرةٌ بالقبول لنيل درجة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها ، بتقدير (جيد جدا).

التوقيع:
الاسم :أ. م .د إياد عبد الودود عثمان
التاريخ: / /٢٠٠٨
(رئيس اللجنة)

التوقيع:
الاسم : أ. م . د فاضل عبود خميس
التاريخ: / /٢٠٠٨
(عضواً ومشرفًا)

التوقيع :
الاسم : أ. م .د عهود عبد الواحد عبد الصاحب
التاريخ : / /٢٠٠٨
(عضواً)

التوقيع :
الاسم :أ. م .د قسمة مدحت حسين
التاريخ : / /٢٠٠٨
(عضواً)

صدَّقها مجلس كلية التربية في جامعة ديالى

التوقيع
عميد كلية التربية
التاريخ : / /٢٠٠٨

الاهداء

إلى

أبـي وأمي ...

إلى

أخي وأخواتـي ....

إلى

عمي الأستاذ محمود الزبـيـدي .

إلى

الأخ حيـدر الموسوي.

إلى

كل من أسهم في انـجاز هذا البـحث .

تصدير

كتب القاضي الفاضل

إلى العماد الأصفهاني ، قائلاً :

((إنِّي رأيت أنَّهُ لا يَكتُبُ إنسَانٌ كِتَاباً فِي يَومهِ إلّا قَال فِي غَدِهِ : لَوْ غُيرَ هَذا لَكَانَ أَحْسن ، و لَوْ زِيْدَ كَذَا لكانَ يُسْتَحَسْنُ ولَوْ قُدِّم هَذَا لَكَانَ أَفْضَل ، وَلَوْ تُرِكَ هذا لكان أَجمل ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَم العِبَر ، وَهُو دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاء النقْصِ عَلَى جُملَة البَشَرِ)).

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	ج – ح
التمهيد : بلاغة البديع في الخطب العلّية .	١-١٦
الفصل الأول : بلاغة الصوت .	**١٧- ٨٦**
المبحث الأول : التكرار :	١٩ – ٥٤
أولا : التكرار المتوالي .	٢٣
ثانياً : التكرار المتباعد .	٣٧
ثالثاً : التكرار المفرد .	٤٧
المبحث الثاني : الجناس :	٥٥ – ٧٣
أولاً : الجناس غير التام .	٥٨
ثانياً : جناس الاشتقاق .	٦٩
ثالثاً : الجناس التام .	٧١
المبحث الثالث : السجع والتوازن .	٧٤ – ٨٦
أولاً : السجع :	٧٤
١– السجع المطرف .	٧٧
٢– السجع المتوازي .	٧٩
٣– السجع المرصع .	٨١
ثانياً : التوازن :	٨٣
١– التوازن الثنائي .	٨٤
٢– التوازن الحر .	٨٥
الفصل الثاني : بلاغة التركيب	**٨٧ - ١٤٥**
المبحث الأول : تغير الأسلوب :	٨٩ – ١٠٨
أولاً : الالتفات :	٩٨
١– الالتفات الضمائري .	٩٢
٢– الالتفات الزمني .	١٠٢

المبحث الثاني : الجمل البديعية ذات التوجه النحوي .	١٠٩- ١٣٨
أولاً : الحذف :	١٠٩
١- حذف الحرف .	١١٠
٢- حذف الكلمة .	١١٢
٣- حذف الجملة .	١٢٤
ثانياً : العكس والتبديل :	١٢٧
١- العكس والتبديل الفعلي .	١٢٩
٢- العكس والتبديل الأسمي .	١٣٢
٣- العكس والتبديل المشترك ما بين الحروف والضمائر .	١٣٤
المبحث الثالث : طول الجملة البديعية وقصرها :	١٣٨ - ١٤٥
أولاً : طول الجملة في حسن المقدمة والخاتمة .	١٤٠
ثانياً : قصر الجملة في حسن المقدمة والخاتمة .	١٤٣
الفصل الثالث : بلاغة الدلالة :	**١٤٦ - ٢٤٤**
المبحث الأول : السياق القائم على حضور الطباق والمقابلة :	١٤٦ - ١٨٢
أولاً : الطباق :	١٤٨
١- الطباق الإيجابي .	١٥١
٢- الطباق السلبي .	١٥٤
٣- الطباق التأويلي .	١٥٥
٤- الطباق المجازي .	١٥٧
٥- الطباق الوهمي .	١٥٩
٦- الطباق الزمني .	١٦٠
٧- الطباق المكاني .	١٦٢
٨- الطباق العقائدي .	١٦٤
٩- الطباق النفسي .	١٦٦
ثانياً : المقابلة :	١٦٨
١- المقابلة الثنائية .	١٧١

٢- المقابلة غير الثنائية .	١٧٧
المبحث الثاني : السياق الناتج عن ارتباط الجمل البديعية مع بعضها:	١٨٣ - ٢٠٥
أولاً : الإجمال والتفصيل :	١٨٣
١- البنية الثنائية .	١٨٤
٢- البنية المتعددة .	١٨٧
ثانياً : اللف والنشر :	١٨٩
١- اللف والنشر المرتب .	١٩١
٢- اللف والنشر المفصل .	١٩٢
ثالثاً : التتميم .	١٩٦
رابعاً : حسن التعليل :	١٩٧
١- التعليل المثبت .	٢٠٠
٢- التعليل المنفي .	٢٠٣
٣- التعليل الشرطي .	٢٠٤
المبحث الثالث : النصوص القائمة على اختلاف الدلالة باختلاف السياق .	٢٠٦ - ٢٤٦
أولاً : التناص :	٢٠٦
١- التناص الديني .	٢١٠
٢- التناص الأدبي .	٢١٨
٣- التناص التاريخي .	٢٢٥
ثانياً : الاستغراب :	٢٢٨
١- الاستغراب من جهة اللفظ .	٢٣٠
٢- الاستغراب من جهة المعنى .	٢٣٤
ثالثاً : حسن الخروج .	٢٣٩
الخاتمة .	**٢٤٥ – ٢٤٨**
المصادر والمراجع .	**٢٤٩ - ٢٧١**
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية .	**A – C**

المقـــدمـة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب الأرض والسماء ، ناصر المؤمنين قاهر الأعداء ، والصلاة ، والسلام على أكرم الرسل ، والأنبياء أبي القاسم محمد ، وعلى اله الطيبين الكرماء ، وأصحابه الغر النجباء .

أما بعد : فقد اخترتُ دراسة المظاهر البديعية لهدف أساس يتمثل في الكشف عن بلاغة تلك المظاهر بعد أن واجهت نزعات تشكك في طبيعتها ، وتقلل من أهميتها ، وتزعم أنها مجرد حليٍّ مزوقة ! ، فهي عندها محسنات تلحق النصوص ، وتعمل على تجميلها من دون أن يكون لها اثر في التراكيب ، وهي في حقيقة الأمر بخلاف تلك النزعات ، بدليل ورودها في القرآن الكريم ، ونهوض قسم من النصوص البلاغية القديمة على فكرة أهمية البديع ، وفنونه ، فضلا عن قيام كثير من الدراسات الحديثة التي أعادت إلى البديع اعتباره البلاغي ، والفني ، وأسهمت في تقديمه بإطار نقدي متميّز ... لا سيما بعد أن تأكد صاحب الدراسة بالدليل القاطع أن عنوان الدراسة لم يسجل في أي جامعة عراقية، أو عربية بحسب جهده المتواضع الذي اطّلع على اغلب الفهارس الجامعية المعنية بتسجيل عنوانات الرسائل ، والاطاريح الجامعية .

وقد اعتمدت الدراسة (البديع) مصطلحا قارّا كاملا متكاملا ، لا سائباً يشير إلى فنون البلاغة باجمعها على طريقة البلاغيين الأوائل ، فهو فيها الفن الثالث من فنون البلاغة المعروفة.

وقد اشتملت الدراسة على جملة من المصادر ، والمراجع التي لها صلّة بالعنوان ، وتفرعاته ، وكان همها الأخذ من القديم والحديث معاً في محاولة منها لاغناء المتن ، وإخراجه بصورة تجل القديم ، وتنظر بعين الرضى لكل جديد منفتح على التراث الفاعل في حياتنا ؛ لكي تتشكل على وفق منهجية بلاغية وصفية تنزع نحو التحليل النصي التطبيقي الذي يسبر أغوار النص ليمسك ببلاغة التعبير من خلال النظر الدقيق في المستويات الثلاثة التي تتشكل منها بنية الخطاب الأدبي: الصوتي، والتركيبي، والدلالي ...

الدراسة وهي تنهج هذا النهج رأت من الضروري أن تشير إلى بعض الملاحظات التي لا غنى من توضيحها :

الأولى : إن نصوص الإمام ﴿ عليه السلام ﴾ تشتمل في نسيجها على فنون بلاغية ـبديعية – كثيرة لم يكن من وكد الدراسة الإشارة إليها ؛ لقلة تمظهرها في النصوص .

الثانية : إنها لم توثق الخطب ؛ لأنها لم تكن معنية بالجانب التاريخي ، والتوثيقي فهي معنية ببلاغة النص حصراً .

االثالثة : إنها استقت خطب الإمام علي ﴿ عليه السلام ﴾ من مصدرين مهمين هما : شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) الذي حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، ونهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة للشيخ محمد باقر المحمودي وهو كتاب استدرك فيه صاحبه على ما فات ابن أبي الحديد من خطب الإمام .

اشتملت هذهِ الدراسة على تمهيد ، وثلاثة فصول ، وخاتمة ، وسرد بأسماء لمصادر والمراجع ، والرسائل والبحوث ، فضلاً عن وجود ملخص لهذه الدراسة بالانجليزية .

أما التمهيد فكان عنوانه (بلاغة البديع في الخطب العلّية) وفيه حاولت الدراسة أن تعطي فكرة عن مصطلح البديع ، ومفهوم المظهر ، فضلاً عن بلاغة الإمام وخطابته.

وكان الفصل الأول بعنوان (بلاغة الصوت) بحجم ثلاثة مباحث اقتربت فيه الدراسة من التكرار وأنواعه ، والجناس وأشكاله ، والسجع والتوازن .

وكان الفصل الثاني بعنوان (بلاغة التركيب) بثلاثة مباحث كذلك اقتربت فيه الدراسة من الالتفات تحت عنوان (تغّير الأسلوب) ، ومن الحذف ، والعكس والتبديل تحت عنوان (الجمل البديعية ذات التوجه النحوي) ، ومن حسن المقدمة ، وحسن الخاتمة تحت عنوان (طول الجملة البديعية وقصرها) .

وكان الفصل الثالث بعنوان (بلاغة الدلالة) بثلاثة مباحث اقتربت فيه الدراسة من الطباق ، والمقابلة تحت عنوان (السياق القائم على حضور الطباق والمقابلة) ، ومن الإجمال والتفصيل ، واللف والنشر ، والتتميم ، وحسن التعليل تحت عنوان (السياق الناتج عن ارتباط الجمل البديعية مع بعضها) ، ومن التناص ، والاستغراب ، وحسن الخروج تحت عنوان (النصوص القائمة على اختلاف الدلالة باختلاف السياق) .

وكانت الخاتمة بمنزلة حزمة من النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

وعلى الرغم من تساوي عدد مباحث فصول الرسالة فإن التباين واضح في حجم الفصول مع بعضها ؛ والسبب يعود إلى هيمنة قسم من مظاهر البديع على الخطب وكثرة مادتها المتوافرة من تقسيمات وتفرعات جعلها لا تتساوى مع بعضها البعض .

لقد واجهت الدراسة جملة من المشكلات لعل من أهمها فقدان الأمن الذي حال بين الباحث وأستاذه من جهة ، وبين الباحث والكتاب من جهة أخرى ، وتلك لعمري مشكلة المشكلات .

وإذا كانت الدراسة ترغب في إزجاء التحية لمن أسهم في إخراجها بهذا الشكل – وهي راغبة حقّاً – فهي موصولة إلى أساتذة قسم اللغة العربية في كلية التربية جامعة ديالى ، ولاسّيما أستاذي المبجّل الدكتور فاضل التميمي الذي ذلل الصعاب لي ، صبوراً على خطإي وتقصيري ، جزاه الله عني أفضل الجزاء .

وإلى الدكتورة عروبة الدباغ ، وإياد الشمري ، وشاهر جلال ، والشيخ غضبان الربيعي ، والأخ هاني الزبيدي لما أبدوه من عون لي يتمثل في تيسير المصادر والمراجع من مكتباتهم الخاصة .

وأتقدم بالشكر الجزيل لكل من مدّ لي يد العون لإتمام هذا البحث ولأساتذتي أعضاء لجنة المناقشة شكران : على ما تجشموه من عنت في قراءة هذا البحث ، وعلى ما يهدونه من ملاحظات تحلّي هذه الدراسة لتكون نافعة عند القرّاء .

وأخيراً ...

آمل بعملي هذا أن أكون قد أنصفت البديع غاية الإنصاف من خلال كشف مظاهره في نص عربي متميز ، فعسى أن ينال جزاءً يسيراً من الثواب ورضا الله الذي فوق كل رضا إنه نعم المولى ونعم النصير .

الباحث

التمهيد

بلاغة البديع في الخطب العلية (عليه السلام) :

بلاغة البديع في الخطب العليّة :

إذا كانت البلاغة عند الإمام علي (u) ((إفصاح قول عن حكمة مستغلقة وإبانة عن مشكل))[١] ، فأنه في هذا التعريف ((أول من أعطى من العرب للبلاغة مقياسها الفني في ثلاثة مؤشرات تحدّث فيها عن العمق البلاغي في أصول رصينة لم أجد بحسب تتبعي أقدم منها زمناً ، أو أعرق أصالة لأنها ممتدة الجذور إلى المناخ العربي الصليب في بدء الرسالة الإسلامية))[٢] ، ولهذا تراه في خطبه قد أفصح بلسان عربي مبين عن أقوال تعددت دلالاتها ، وتنوعت صياغتها لتكشف عن حكمة مترعة بالمعرفة الخالصة بالإنسان ، والحياة وقد أبان فيها عمّا أشكل الحياة .

وإذا كانت بلاغته (u) مما يمكن وصفها ، وتحليلها ، وتقصي مصادرها للإحاطة بها، فإن الدراسة هنا لأسباب (منهجية) تلاحق فيض من المظاهر البديعية التي وردت في خطبه ؛ لتكشف عن بلاغتها ، وطرائق اتصالها بمستويات التحليل البلاغي .

البَدِيعُ في اللغة من ((بَدَع الشيء يَبْدَعُه بَدْعاً وابتَدَعه : أنشأه وبدأه))[٣]. ومنه قوله تعالى : **(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)** (الأحقاف/٩) أي لست أنا أول من يُرسل فقد أُرسل قبلي رسل كُثُرٌ. والبديع : الشيء الذي يكون أولاً ، وبمعنى المُحْدَث العجيب ، وإسم من أسماء الله الحسنى ، وبمعنى السقاء والحبْل ، وقيل بمعنى الزِّق الجديد والسقا الجديد ، ومن واقع معنى البديع في القرآن الكريم قوله تعالى : **(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** (البقرة /١١٧) أي خالقها ومبدعها[٤] .

إذن فالبديع هو الجديد ، والغريب ، والبارع ، والعجيب ، بل هو مستوى عالٍ يستعمله الأديب في صياغة كلامه .

---

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر – أبو هلال العسكري – تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم – ط٢ – دار الفكر العربي – ١٩٧١م : ٥٨ .

(٢) علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي – د. محمد حسين علي الصغير – الموسوعة الصغيرة – وزارة الثقافة والإعلام – ١٩٨٩م : ١٣ .

(٣) لسان العرب – ابن منظور – راجعه وصححه نخبة من الأساتذة المتخصصين – د.ط – دار الحديث – القاهرة – ٢٠٠٣م ، مادة (بدع) : ٣٥٢/١ .

(٤) المصدر نفسه ، مادة (بدع) : ٣٥٣/١ .

وفي (الاصطلاح) : ((علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[٥]. ويراه باحث معاصر نقلاً عن القدماء ((درجة خاصة من التميز يظفر بها الفنان المبدع)) [٦] ، فالبديع فن استعمله العرب في الشعر ، والنثر ، حتى وصل عند بعضهم في استعماله إلى درجة الإفراط ؛ لشغفهم وولعهم به ، فضلاً عن وجود قسم من أنماطه في القرآن الكريم .

ولشدة دفاع الجاحظ (ت٢٥٥هـ)عن العرب تراه يخصهم بالبديع دون غيرهم بقوله : ((والبديع مقصور على العرب ، ومن اجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان))[٧] ، ولكثرة استعمال الأدباء للصور البديعية ، ولاسيّما الشعراء منهم في العصر العباسي إلى حدِّ الإفراط اعتقد الناس أنهم من اكتشف البديع ، حتى ظهر عبد الله بن المتعز (ت٢٩٩هـ) ليضع الخطوط الأولى للبديع موّضحاً إن هذا الفن تم استعماله قديماً ، فهو يقول : ((قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم) ، وكلام الصحابة ، والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ؛ ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلَّ عليه))[٨] .

وحقيقة الأمر ما ذهب إليه ابن المعتز في كلامه السابق ؛ لأن ((لقب البديع ليس لقباً مستحدثاً في عهد ابن المعتز ، ولكنه إسم لهذه الألوان الساحرة في الأسلوب ، ولهذا الترف البياني في الأداة ... سمّاه مسلم بن الوليد الشاعر (م ٢٠٨هـ) ، وكان يعرف قبل

---

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة – القزويني – تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر – د.ط – مكتبة المثنى – بغداد – د.ت : ٣٣٤/٢ .

(٦) البديع تأصيل وتجديد – د. منير سلطان – د.ط – مؤسسة دار الأرقم – ١٩٨٦م : ١١.

(٧) البيان والتبيين – الجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط٧ – مكتبة الخانجي بالقاهرة – ١٩٩٨م :٥٥/٤-٥٦.

(٨) البديع – عبد الله بن المعتز – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي – ط١ – دار الجيل – بيروت – ١٩٩٠م : ٧٣-٧٤.

ذلك باللطيف ، ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء ، والأدباء))[٩]، ولهذا فإن ابن المعتز يُعدُّ واضع الحجر الأساس لقضايا الفنون البديعية الخمسة عازلاً عنها المصطلحات التي تخص (محاسن الكلام والشعر) في البديع ، مانحاً الحرية لمن يأتي بعده للنظر فيها ، أو الإضافة عليها ، فهو القائل: ((فمن أحب أن يقتدي بنا ، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة ، فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا ، فله اختياره)) [١٠] .

وكانت دعوة ابن المعتز إلى النقاد ، والبلاغيين وبالاً على فن البديع بحسب قول الدكتور منير سلطان : ((إذ تبارى البلاغيون في التقسيم ، والتشقيق حتى بلغ الأمر عند أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) إلى مئتين وخمسة وتسعين باباً في البديع ، ويسير تيار التجديد بين التأييد والمعارضة – والمؤيدون يعتبرونه ابتكاراً وبديعاً ، والمعارضون يسمونه (صنعة) وتجاوزاً))[١١].

فأبن المعتز حينما فسح المجال لغيره في الإضافة على فنون البديع ليزيدوه رونقاً وتجديداً ؛ لا أن يجعلوه في أنظار المتلقين مستكرهاً وأكثر تعقيداً .

وعلى الرغم مما حلَّ بالبديع من العلماء الذين أخرجوه من معناه الحقيقي تجد أن هناك من تناوله في كلامه في إطار النص الأدبي المميز ، فابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) يأتي على معنى البديع في معرض كلامه على المولَّدين الذين تناولوا المعاني عمن سبقهم بطريقة عجيبة حيث ((لطفوا في تناول أصولها منهم ، ولبّسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها فسلّمت لهم عند إدعائها ، للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها))[١٢] ، ويتعرض لمحنة الشعراء في زمانه ويعدَّها أشد على من كانت قبلهم ((لأنهم سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة .

---

(٩) البديع :١٩. ويؤكد أنيس المقدسي قِدم البديع في معرض كلامه عن اقتران السجع بالبديع بقوله ((والبديع كالسجع قديم في النثر العربي ، على أنه لم يجعل فناً إلا في صدر العصر العباسي)) . تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي – ط١ – دار العلم – بيروت – ١٩٦٠م : ٢٠٩ .

(١٠) البديع : ١٥٢ .

(١١) البديع تأصيل وتجديد : ١٤ .

(١٢) عيار الشعر – ابن طباطبا العلوي – تحقيق د. طه الحاجري . د. محمد زغلول سلام . د.ط . المكتبة التجارية الكبرى . ١٩٥٦م : ٨ .

فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ، ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول))[١٣]. فان طباطبا في هذين القولين يرى أن شعراء زمانه فئة كانت تغرف ممن سبقهم من الشعراء بوجود الإبداع – البديع – والزخرف الجميل فلا يعترض أحد على كلامهم ، والفئة الأخرى يطالبها أن تكون معاني أشعارها بديعة ، وفصيحة لا تقل جودة عن الذين سبقوهم ، فجودة الكلام عند ابن طباطبا تكمن في أمرين : البديع في إغراب المعاني ، والفصاحة والبلاغة فيما ينظمونه من الألفاظ .

وأما قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فله كلام جميل ((وأحسن البلاغة الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، والاستقامة ، وعكس ما نظم من بناء ، والاستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصبح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم ، والمبالغة في الرصف ، بتكرير وتكافؤ المعاني في المقابلة ، والتوازي ، وأرداف اللواحق ، وتمثيل المعاني))[١٤]، فكلامه في هذا النص يدور في فلك فنون البديع دون تسميتها بصورة مباشرة ، ويكفي هذه الفنون البديعية أن يسميها (أحسن البلاغة) فقليل ما تجد مثل هذا الكلام في فاعلية البديع ، وأثره في البلاغة .

وسجَّل أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) حضوراً بين البلاغيين ، والنقاد فيما يعني البديع من خلال الحديث عن أهميته بالإشارة إلى ((أن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف ، وبرأ من العيوب كان في غاية الحسن ، ونهاية الجودة))[١٥] ، وكلامه صحيح ؛ لأن التكلف، والعيوب يفسدان أي نص أدبي سواء أكان من البديع ، أو من غيره.

ويحاول ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) أن يبحث في كتابه (سر الفصاحة) عن خصائص الإبداع ، والفصاحة في الكلمة وفي التركيب تارة ، وفي اللفظ والمعنى تارة أخرى ، وإن لم يهتم بالوقوف عند تعريف البلاغة ، أو الفصاحة ، أو البديع إلا أنه عني بالعناصر التي تؤدي إلى تحقيق الفصاحة ، والبلاغة ، والبديع[١٦].

---

(١٣) عيار الشعر : ٩ .

(١٤) جواهر الألفاظ – قدامة بن جعفر – مطبعة الخانجي – مصر – ١٩٣٢م : ٣ .

(١٥) كتاب الصناعتين : ٢٧٣ .

(١٦) ينظر : سر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي – صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي – د.ط – مطبعة محمد علي صبيح وأولاده – مصر – ١٩٥٣م .

ولعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وقفة رائدة أمام بعض فنون البديع مثل (السجع) ، و(التجنيس) بقوله : ((فأنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سَجْعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقُّه بالحُسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه))[١٧] ، فضلاً عن انه تصدى للذين أفرطوا في استعمال البديع لاعتقادهم أنه سيسهم في رُقي أشعارهم ، لكنه في الحقيقة سيصبح ضرباً ((من التعمل الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة ، وإنّ الخِلْقَة إذا أُكثر فيها من الوَشْمُ ، والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلى ، والوشى ، قياس الحلى على السيف الدَّدان ، والتوسع في الدعوى بغير بُرهان ... وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع ، إلى أن ينسى انَّه يتكلم لِيُفهم ، ويقول لِيُبين ، ويُخيَّل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ... كمن ثقّل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها))[١٨].

وأما محمد بن علي الجرجاني (ت ٧٣٩هـ) فقد عدَّ وجود البديع مع البيان ، والمعاني ضرورة تمليها البلاغة في تكاملها الفني ؛ لأن نسبة صناعة البديع إلى صناعة المعاني ، والبيان هي نسبة صناعة النقش إلى صناعة النساجة ، بل أن الكلام عنده إذا كان يحتوي على صناعة البديع فهو أقصى مراتب الكمال[١٩] .

وكذلك الحال مع علي بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) فقد أنزل البديع منزلة عالية من الفكر البلاغي العربي بقوله : ((اعلم إن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع

---

(١٧) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – ط١ – مطبعة المدني – القاهرة – ١٩٩١م : ١١.

(١٨) المصدر نفسه : ٨- ٩ .

(١٩) ينظر : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة – محمد بن علي الجرجاني – تحقيق عبد القادر حسين – دار نهضة – القاهرة – د.ت : ٢٥٧-٢٥٨.

التراكيب ، ولا يكون وقفاً في المفردات ، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان ومصاص سكرهما))[٢٠] .

وأما صفي الدين الحلي (ت ٧٥٢هـ) فله رأي يختلف عن سابقيه بحق البديع، وإن كان قد تأثر بمقولة أبي هلال العسكري فيما يخص الربط ما بين فكرة الإعجاز القرآني ، والبلاغة ، حيث عدَّ البديع من أحق العلوم بالتقديم ، وأجدرها بالاقتباس ، والتعليم بعد معرفة الله عز وجل ، وفهم ما انزل ، إذ لا سبيل إلى ذلك إلاَّ بمعرفة علم البلاغة ، وتوابعها من محاسن البديع ... اللذين بهما تعرف أوجه إعجاز القرآن وصحة نبوة محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) [٢١] .

أما ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) فقد كشف عن ولع المغاربة بالبديع ، إذ جعلوه ((من جملة علوم الآداب الشعرية ، وفرعوا له ألقاباً ، وعدوا أبواباً ، ونوعوا أنواعاً ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب))[٢٢] ، ويرى أن ثمرة هذا الفن ((هي في فهم الإعجاز من القرآن ؛ لأن أعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال ومفهوم، وهي أعلى مراتب الكلام ، مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها ، وجودة رصفها ، وتركيبها ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الإفهام عن إدراكه))[٢٣]. ولعل ابن خلدون في كلامه هذا فيما يعني البديع ، والإعجاز القرآني قد قارب إلى ما ذهب إليه صفي الدين الحلي .

وكلام علماء البلاغة والنقد السابق لم يأت من فراغ ، وإنَّما جاء عن إدراكهم العميق ، ونظرهم الثاقب تجاه هذا الفن ، وما يتركه من أثر على النصوص الأدبية ، وعلى هذا الأساس جاء البحث ليكشف من جديد أسرار البديع اعتماداً على ما ذهب إليه القدماء ، واستناداً إلى مقولة الدكتور أحمد مطلوب التي قال فيها : ((إنه لمن المفيد حقاً أن يعاد النظر فيه – البديع – لأن العصر الحاضر لن يستغني عن دراساته مادام مقياساً بلاغياً

---

(٢٠) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي – د.ط – مطبعة المقتطف بمصر – ١٩١٤م : ٣٧٤/٣ .

(٢١) ينظر: شرح الكافية – صفي الدين الحلي – تحقيق د. رشيد العبيدي– ط١– بغداد – ٢٠٠٤م:٦٥-٦٦.

(٢٢) مقدمة تاريخ ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون – ضبطه الأستاذ خليل شحادة – ط٢ – دار الفكر – بيروت – ١٩٨٨م : ٧٦٢/١ .

(٢٣) المصدر نفسه .

جمالياً يقاس به أدبنا الموروث ، وأدبنا الحديث))[٢٤] ؛ لأن ((البديع ليس محسنات لفظية ومعنوية يؤتى بها لتحسين الكلام ، وإنما هي ألوان من صور التعبير ولولا ذلك ما حفل بها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر العربي ، وبذلك تعود للبديع أهميته في التعبير ويكون خيطاً من خيوط النسيج الأدبي)) [٢٥] .

ويبقى البديع سرّاً من أسرار البلاغة العربية ، لا يعرف قيمته الجمالية ، والتأثيرية في المتلقي إلا من استعمله في كلامه ، أو واظب على دراسته ، ولهذا يسعى البحث أن يُقدِّم تلك القيمة الجمالية ، والتأثيرية في البديع إلى المتلقي من خلال دراسته في خطب الإمام (**u**) بإطار حديث لعلها تنصف هذا الفن .

المَظْهَرُ في اللغة (مَفْعَل) ، ويجمع على (مَفَاعِل) أي (مَظَاهر) ، والحديث عن هذا اللفظ في لسان العرب يعطي معنى واحداً وهو المصعد ،أو الارتفاع ،وذلك من خلال ما نقله ابن منظور (ت ٧١١هـ) حينما أنشد النابغة الجعدي الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) قوله :

((بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤنَا وإنّا لَنَرجُو فَوقَ ذَلِك مَظْهَرا[*]

فغضب وقال : إلى أين المَظْهَرُ يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة يا رسول الله ، قال : أجل إن شاء الله)) [٢٦] ، فالمظهر إذن الحّيزُ الذي تتجلى فيه ظاهرة ما ، وفي البلاغة العربية (البيان) مظهر، وكذلك البديع ، والمعاني. وعند (تودوروف) المظهر: المستوى ، ومظاهر التحليل عنده مستويات أربعة : اللفظي ، والدلالي ، والتركيبي ، والصوتي[٢٧] ، ولم يجد البحث تعريفاً له ، ولكنه يقترح بالاستناد إلى ما قاله المعجم ، وتودوروف تعريفاً مؤدّاه أن المظهر : مستوى من الصياغات البلاغية التي يمكن للمتلقي أن يتلقاها ويتفاعل معها

---

(٢٤) القزويني وشروح التلخيص – د. أحمد مطلوب – ط١ – مكتبة النهضة – بغداد – ١٩٦٧م : ٤٣٢ .

(٢٥) في المصطلح النقدي – د. أحمد مطلوب – د.ط – مطبعة المجمع العلمي – بغداد – ٢٠٠٢م : ٣٢٧ .

(٢٦) لسان العرب ، مادة (ظهر) : ٣٦/٦ ، ٤٠ .

(*) شعر النابغة الجعدي . ط . منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر . دمشق . ١٩٦٤م : ٥١ .

(٢٧) ينظر : الشعرية – تودوروف – ترجمة شكري المبخوت ، ورجاء بن سلامة – ط١ – دار توبقال للنشر – المغرب – ١٩٨٧م : ٩٦ .

بوصفها انماطاً بلاغية على أعلى الدرجات ، فالرابط ما بين المبدع ، والمتلقي هو المظهر بجميع أشكاله ، وتنوعاته في النص الأدبي .

والمظهر البلاغي – البديعي – حاضر في خطب الإمام علي (**u**) من خلال مستويات ثلاثة (الصوتي–التركيبي– الدلالي)[٢٨] ؛وذلك لكثرة استعمال الإمام لفنون البديع بأشكالها المختلفة إلى درجة ترتقي لأن يكون كل واحد من هذه الفنون مظهراً يستحق الدراسة، والتتبع من أجل الكشف عن سبب وجوده بهذه الكثرة ، وتأثيره في المتلقي .

الخطابة لغة : أُخِذت لفظة (الخَطَابة) من قولهم : ((خَطَبتُ أخطُبُ خطابة ... وأشتُقَّ ذلك من (الخَطْب) ، وهو الأمر الجليل ؛ لأنه إنَّما يقام بالخُطب في الأمور التي تجلُّ وتعظم ، والاسم منها (خاطب) مثل (راحم) ، فإذا جُعِل وصفا لازماً قيل : (خَطيب) كما قيل في (راحم) (رحيم) ، وجُعِل (رحيم) أبلغ في الوصف ، وأبين في الرحمة ، وكذلك لا يُسمَّى خطيباً إلا من غلب ذلك على وصفه ، وصار صناعة له . والخُطبة الواحدة من المصدر...))[٢٩]، ((والمُخَاطَبَة ، مُفَاعلة ، من الخطاب والمشاورة))[٣٠] ، والخطابة ((إذا جمعتها قلت : (خُطَب) مثل (جُمْعَة) و(جُمَع)))[٣١].

والخطابة (اصطلاحاً) :-

قيل في الخطابة انها ((قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مطنونة من شخص معتقد فيه . والغرب منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ))[٣٢].

---

(٢٨) للمزيد عن قضية البديع والمستويات الأسلوبية ينظر : البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي (من الرؤية البلاغية، إلى الرؤية الأسلوبية . د. فاضل التميمي . جامعة واسط / كلية التربية . ابحاث المؤتمر العلمي الثاني . دار الضياء للطباعة والتصميم . النجف الاشرف . ٢٠٠٧م .

(٢٩) البرهان في وجوه البيان – ابن وهب الكاتب – تحقيق د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثي – ط١ – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٧م : ١٩٢–١٩٣ .

(٣٠) لسان العرب ، مادة (خطب) : ١٣٧/٣ .

(٣١) البرهان : ١٩٣ .

(٣٢) التعريفات – السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني – مكتبة لبنان – بيروت – ١٩٨٥م : ١٠٤ . للازادة ينظر : معجم النقد العربي القديم – د. أحمد مطلوب– ط١– دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٩م : ٤٦٢/١–٤٧٢.

ونقل ابن منظور عن أبي أسحق ((أنَّ الخُطْبَة عند العرب الكلام المنثور المُسَجَّع))[٣٣]، ويبدو أن أبا أسحق لم يراع الدقة حينما أطلق هذا التعريف على الخطابة وجعلها نثراً مسجوعاً ، فالأحرى به أن يسمي العصر الذي تردد فيه على هذه الهيأة ؛ لأن الخطابة عبر العصور المختلفة تأخذ أشكالاً متعددة ، ولم تكن على نوع واحد ، وإنما تتغير بحسب متطلبات العصر الذي تستعمل فيه ، ولذلك ترى (محمد أبو زهرة) قد أفاد من التعريف السابق مع الإضافة عليه لتصبح الخطابة عنده ((الكلام المنثور المسجوع ، أو المزدوج ، أو المرسل الذي يقصد به التأثير والإقناع))[٣٤].

ومن تعريفات المحدثين للخطابة قولهم : ((نوع من منثور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق ، وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن ، ولا تكلف في الأداء ، ومن النظم سلاسته وتأثيره في النفس)) [٣٥] .

فالخطابة ميدانها واسع وتحتاج إلى من يمتلك موهبة الخطيب القادر على التأثير في نفوس المتلقين ، فربّما تجد من الخطباء من هو كثير العلم ، والإطلاع ولكنه غير قادر على القيام بواجباتها تجاه الناس ؛ لأنها ((راسخة في نفوس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول ، لمحاولة التأثير في نفوس السامعين ،وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم ...))[٣٦]،بل أبعد من ذلك فهي ((كالمصباح – الذي – ينير الطريق للسالك ، ولا يحمل على السلوك ، ويرشد إلى المسالك ولا يحمل على السير فيها))[٣٧].

والخطابة في نظر البحث فن أدبي متميز تحتاج إلى أديب مقتدر عالم بأصولها ، خبير في خفاياها ، له القدرة على التأثير في مستمعيها في كل الأوقات .

والذي ينعم النظر في تاريخ الخطابة يجد أنها فن قديم بدءاً من اليوم الذي خلق الله سبحانه وتعالى الكلام وابتدأ به ، حينما خطب على تلكم العوالم الغيبية من الذر ، والملائكة

---

(٣٣) لسان العرب ، مادة (خطب) : ١٣٧/٣ .

(٣٤) الخطابة (أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب) – محمد أبو زهرة – ط١ – مطبعة العلوم – ١٩٣٤م : ١٢ .

(٣٥) القديم والحديث – محمد كرد علي – ط١ – المطبعة الرحمانية بمصر – ١٩٧٥م : ١١١ .

(٣٦) الخطابة – محمد أبو زهرة : ١٢ .

(٣٧) فن الخطابة الحسينية – د. الشيخ محمد باقر المقدسي – ط١ – مؤسسة الإرشاد والتوجيه الديني – النجف الاشرف – ١٤٢٧هـ : ١٨ .

، والأجنة ... وعلى هذا العالم ، وترى هناك العديد من الخطباء من الملائكة ، والجن ، والناس ، بل وحتى من الحيوانات مثل النمل ، والهدهد[٣٨] ، وهذا ما أفصح عنه السياق القرآني[٣٩] .

وسجّل التاريخ القديم عناية للشعوب بالخطابة مثل الأشوريين ، والبابليين ، والفراعنة الذين تفننوا فيها ، والرومان ، ويقال أن يوذا استعملها لإخضاع المجاميع الهندية لتعاليمه ... وصولا إلى عهد المسيح (u) حيث نبغ خطباء من ملته يرجون فكرته ، وينشرون مبادئ [٤٠].

أما في عصر ما قبل الإسلام فكان للعرب الحظ الوافر فيها ؛ لأن العرب آنذاك كانت الخطابة عندها من ضرورات مجتمعهم من أجل إظهار مواهبهم البيانية ، ومقدرتهم الكلامية ، فضلاً عن كونها عامل دعم لكثير من مفاخراتهم ومنافراتهم ، أو لحضهم على القتال ، أو الأخذ بالثأر ، أو إصلاح ذات البين ، أو الدعوة إلى السلم وحقن الدماء ، أو خطب الزواج ، أو المحافل العظام ، أو النصح والإرشاد ، أو الوفادة على الملوك والأمراء ، وكل ما يراد بيانه للناس[٤١].

والملاحظ على عرب ما قبل الإسلام أنهم لم يعرفوا ((من ضروب الخطابة إلَّا ما اقتضته بيئتهم وحياتهم العامة، فكل هذه الضروب تتصل بالحياة القبلية التي كانت سائدة آذ ذاك وتلائم حياة العرب العقلية والسياسية والاجتماعية في ذلك العصر))[٤٢]، ولذلك تجد أن الخطابة تحظى عندهم بمكانة عالية، والخطيب فيها على منزلة رفيعة حيث تراه ((

---

(٣٨) ينظر: دروس في الخطابة الحسينية– السيد مجتبى السويج– ط١ – مطبعة فروردين– ١٤١٥هـ: ١٩.

(٣٩) في خطاب النملة للنمل ، قال تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل / ١٨) ، وقول الهدهد لسليمان (u) ، قال تعالى : ﴿ ... فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ (النمل / ٢٢) .

(٤٠) ينظر : دروس في الخطابة الحسينية : ١٩ .

(٤١) فعلى سبيل المثال ينظر : خطبة هاني بن قبيصة الشيباني التي يحرض فيها قومه للقتال في كتاب الامالي – لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي – دار الكتب المصرية – د.ت ، ١ / ١٦٩ ، وينظر : أغلب خطب هذه الموضوعات في كتاب جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة – أحمد زكي صفوت – ط١ – دار الحداثة للطباعة والنشر – لبنان – ١٩٨٥م .

(٤٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي . إحسان النص . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٣م : ٩ .

يقف جنباً إلى جنبٍ مع الشاعر في إعلاء صوت القبيلة وصيتها بين القبائل الأخرى ، معدِّداً مآثرها، ورافعاً الضيم من أهلها ، ومُرِّهباً بسلطان بلاغته عدّوها)) [٤٣] .

وكان للخطيب قبل الإسلام ((أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ؛ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر، أو يهادن، أو يحرّض قومه على قتال، أو يدافع عن أحساب قومه ...))[٤٤]، ولدار الندوة في مكة الأثر الواضح في ثقافة الخطباء حيث تُعدُّ واحدة من المنابع التي ينهل منها الخطباء ثقافتهم، وهذه الدار مجلس يجتمع فيه سادات قبائل قريش للتشاور في أمورهم [٤٥] ، فضلاً عن الأسواق التجارية التي كانوا يجتمعون فيها لتبادل ((تجارة الفكر إلى جانب تجارة المال))[٤٦] ، ولهذا عرفت الخطابة عصر ما قبل الإسلام أنها تتميز بوحدة الخواطر في الموضوع المراد تقديمه للمتلقي ، والمباشرة في الموضوع المراد طرحه، وبكونها لا تخلو من الحكمة، والأمثال، والشعر في قسم من الأحيان، واستفادتها من بيتها بكل ما تحمله من مُثل عليا، ومآثر عديدة تنصب في ترسيخ عناصر الخير في نفوس مستمعيها ، وكذلك كونها تميل إلى التعميم والإطلاق ، وحضور النزعة الصورية ، والتكرارية في نصوصها، فضلاً عن كون الألفاظ فصيحة وصريحة لايشوبها أي شائب [٤٧] .

وبدخول العصر الإسلامي أخذت الخطبة شكلاً جديداً في بعض جوانبها حيث كانت ((سبيلاً للدعوة وسبيلاً عليها ، تؤازرها حينا، وتفتُّ في عضدها حينا آخر، متغذية من الصراع، مكتسبة منه تجارب ومعاني وأساليب جديدة للتعبير))[٤٨]، فالخطابة في العصر الإسلامي تعد دعامة أساس من دعائم الدعوة الجديدة حيث اتخذها (صلى الله عليه واله وسلم) أداة في دعوته للدين الحنيف طوال مقامه بمكة يعرض على قومه من قريش وكل

---

(٤٣) أمراء البيان . محمد كرد علي . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ١٩٣٧م : ١ / ٩ .

(٤٤) الخطب والمواعظ . محمد عبد الغني حسن . ط٢. دار المعارف بمصر . ١٩٦٨م : ١٩ .

(٤٥) ينظر : السيرة النبوية . ابن هشام . تحقيق وضبط وشرح مصطفى السقا، والابياري، وشلبي . ط٢ . مطبعة البابي الحلبي . القاهرة . ١٩٥٥ : ١/ ١٢٥ .

(٤٦) فن الخطابة وتطوره عند العرب . ايليا الحاوي . دار الثقافة . بيروت . د . ت : ٣٢ .

(٤٧) ينظر : فن الخطابة وتطوره عند العرب : ٥٨ . ٦٣ .

(٤٨) المصدر نفسه : ٧٠ .

من يلقاه آيات القرآن الكريم ، داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[٤٩] . وخطبه (صلى الله عليه واله وسلم) أغلب معانيها تدعو إلى عبادة الله (U) ، وترك عبادة الاصنام والاوثان مُحذِّراً إياهم من عذاب شديد، ومبشرهم عند العمل بالخير. بجنة النعيم، ومن يقرأ خطبه يجدها على هذا المنوال [٥٠] .

وبعد أن انتقل (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى ترك للمسلمين من بعده تراثاً ضخماً من كلامه، إلَّا أن كتب الأدب ، والسيرة ، والتاريخ لم تحفظ إلا نصوصا قليلة، وهذا السبب ((يعود إلى ندرة استعمال العرب للكتابة في تدوين آثارهم الأدبية . وبضمنها الخطب . وإنها لم تدون في حينها ، فضلاً عنه بعد المدة الزمنية بين عهدها وعهد تدوينها ، ولصعوبة حفظها بالموازنة مع الشعر))[٥١] .

وأما ثقافته (صلى الله عليه واله وسلم) فقد كانت قبل بدء الدعوة الإسلامية عن طريق أبي طالب عمه، وعبد المطلب جده، وهما من سادات قريش ، فضلاً عن اتصاله بالعالم الخارجي من خلال تسيير القوافل التجارية [٥٢] وخير دليلٌ يُقال أنه (صلى الله عليه واله وسلم) قبل نبوته أدرك قس بن ساعدة الإيادي ((خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها في عصره))[٥٣] . رآه في سوق عكاظ وروي عنه كلاماً سمعه منه، وهذا ما أثبته الجاحظ [٥٤] .

---

(٤٩)ينظر : تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) . د. شوقي ضيف . ط٩ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٣م : ١٠٦ .

(٥٠) للازادة حول خطب الرسول (صلى الله عليه واله) ينظر : الكامل في التاريخ . ابن الأثير . دار صادر . بيروت . ١٩٦٥م : / ٦١، البداية والنهاية . ابن كثير الدمشقي تحقيق د. أحمد أبي ملحم وآخرون . ط١ـ دار الحديث . القاهرة . ١٩٨٥م : ٣ / ٣٧ .

(٥١) خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام (دراسة فنية) ـ بثينة إبراهيم دهش . أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب . جامعة بغداد . ١٩٩٧م : ٣٤ .

(٥٢) ينظر : خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام (دراسة فنية) . بثينة إبراهيم دهش . أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب . جامعة بغداد . ١٩٩٧م : ٤٧ .

(٥٣) الأغاني . أبي الفرج الاصفهاني . تحقيق عبد الستار أحمد فراج . دار الثقافة بيروت . ١٩٥٥ م : ١٥ / ١٩٢ .

(٥٤) ينظر : البيان والتبيين : ١/ ٥٢، ٣٠٨ . ٣٠٩ .

وأما في بدء الدعوة الإسلامية ، حيث كان الله سبحانه وتعالى كفيلاً بتعليم نبيه أحسن تعليم، قال تعالى : **(وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)** (النساء/ ١١٣) ، ولهذا تراه على درجة عالية من الفصاحة، والبلاغة لا ترى في كلامه أي تكلف ((يعلم ألسنة العرب ، ويخاطب كل قبيلة بلسانها ..... فكان أفصح الفصحاء ، وأذكى الأذكياء ، كلامه سهل جميل يفهمه كل من يسمعه))[٥٥] .

والذي ينعم النظر في خطبه (صلى الله عليه والهِ وسلم) يجدها ذات نزعة جمالية بين ألفاظها ومعانيها ، تحمل في أكثر جوانبها لغة تشريعية للناس ؛ حتى يلتزموا بها وتصبح سُنَّة معروفة في فضائها ينبوع الروح، وفلسفة الدين من جنة ونار، وثواب وعقاب، وغير ذلك، فضلاً عن كون هذه الخطب متميزة في مقدمتها ومنتهاها[٥٦] ؛ لتبقى في نفوسهم ، ولا تغادر أسماعهم، أو أنظارهم من أول مرة، وهذه الميزة لم تكن موجودة في عصر ما قبل الإسلام .

أما الإمام علي (**u**) الذي عُدَّ معدن الحكمة ، فهو أسبق الناس إلى الإسلام ، وأعظمهم جهاداً ، و((أول هاشمي لأبوين هاشميين ، فأجتمع له أحسن صفاتهم ، من النبل والشجاعة ، والفضل والمروءة ، والعلم والذكاء))[٥٧]، ويكفيه من الفخر أنه تربى في بيت النبوة ، وأستقى من منبعها الصافي فكان خطيباً عالماً، فقيهاً قاضياً، بل أنه أعلم الناس بعد الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بالسُنَّة بشهادة الصحابة الأبرار (**y**) [٥٨] .

ولعل الإمام كان ذلك الخطيب المصقع الذي يعتمد عليه في المهمات الصعاب ، ولاسيّما قبل، وبعد الخلافة وما أصبح الناس عليه في زمانه من فوضى، وخروج عن أحكام الدين، فكانت المهمة كبيرة في حجمها ، صغيرة على شخص مثله، ولذلك ترى أن خطبه (**u**) ((كانت تتطور بفعل واقعه السياسي ، تنزع عنه وتصدر منه ، ممثلة آراءه وعقيدته

---

(٥٥) محمد في فصاحته وأحاديثه . محمد عطية الابرشي . دار مصر للطباعة . القاهرة . د. ت : ١ .

(٥٦) ينظر : فن الخطابة : ٨٦ . ٨٨ .

(٥٧) الخطابة في صدر الإسلام (العصر الديني ، عصر البعثة النبوية) – د. محمد طاهر درويش – دار المعارف بمصر – ١٩٦٥م : ٣١٧/١ .

(٥٨) ينظر : تاريخ الخلفاء – جلال الدين السيوطي – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط٣ – مطبعة المدني – ١٩٦٤م : ١٧١ .

في ما يطرأ على المسلمين ، فهو حيناً يشير وينصح ، وحيناً آخر يعظ ويبشر ، وفي معظم الأحيان يحض ويحرض ، دون أن يتخلى عن النزعة الدينية ، التي استأثرت بخطبه وارتبطت بها ارتباطاً بالأغراض السياسية))[٥٩] ، فخطبه فتعددت الموضوعات بين السياسة ، والأدب ، والحكمة ، والفصاحة ، والبلاغة ، والوصف العجيب ، والبيان الزاخر .

والذي يقرأ خطب الإمام (u) يرى رصانة ألفاظها ، وجزالة معانيها من خلال التعبير عن الأفكار المجردة بصور بلاغية رائعة تنطلق من وحي القرآن ومعانيه ، وترى أن العامل الوجداني لا يفارقها ، واختلاط الأمور السياسية في كثير من المواقف بالأمور الدينية ، فعلى سبيل المثال تجد الخطب العسكرية تكاد تكون سياسية بحتة يُسيِّرها العامل الديني ، فضلاً عن التأثيرات الإيقاعية ، الصادرة منها، التي أسهمت بشكل كبير من العلماء ، والأدباء ، والباحثين قديماً وحديثاً ، ومن يستقرئ تلك الأبحاث سيتأكد من بلاغته وتمكنه في فصل الخطاب .

جُمع كلامه (u) في (نهج البلاغة) وهو كتاب للشريف الرضي ، وأن كلام الإمام كان في قسم من كتب العلماء الأكابر قبل تصنيف النهج أمثال (غريب الحديث) لأبي القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) ، و(البيان والتبيين) للجاحظ ، و (غريب الحديث) و(عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، و(الكامل في اللغة والأدب) للمبرد (ت٢٨٥هـ) ، وغيرها من المصادر الأخرى التي أخذت من كلام الإمام حسب ما يلائم موضوعاتها.

وقد تصدى لشرح كتاب (نهج البلاغة) كثير من العلماء الأفاضل ما بين مُبسّط ومختصر فمنهم أبو الحسن البيهقي ، والقطب الراوندي (ت٥٧٣هـ) ، وفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، وابن أبي الحديد المدائني (ت٦٥٦هـ) ، وكمال الدين البحراني (ت٦٧٩هـ) من المتقدمين ، وحبيب بن محمد الهاشمي ، ومحمد نائل المرصفي ، والشيخ محمد عبده ن والدكتور صبحي الصالح ، ومحمد جواد مغنية من المتأخرين . وذكر السيد هبة الله أن شروح النهج تنوف عن الخمسين شرحاً [٦٠] .

---

(٥٩) فن الخطابة : ١٢٦ .

(٦٠) ينظر : باقي أسماء الشروح للنهج في كتاب (ما هو نهج البلاغة) – السيد هبة الله الشهرستاني – دار الثقافة – النجف – ١٣٨٠هـ .

ومرَّت الشهور ، والسنون حتى ظهر كتاب آخر عُنِي بكلام الإمام الذي غاب عن ذهن الشريف الرضي وهو كتاب (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة) للشيخ محمد باقر المحمودي مستنداً على مقولة الشريف الرضي في جمعه لكلام الإمام (**u**) ولا أدّعي مع ذلك أنني أحيط بأقطار جميع كلامه (**u**)[٦١]. ليفصح في كتابه عن مجموعة من الخطب ، والرسائل ، والأقوال ، والأشعار ، بأسانيد صحيحة ومعتبرة .

ولجودة ألفاظه ومعانيه (**u**) ترى أن عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢هـ) الذي كان مع حداثة سنه معلماً في الكوفة قيل له ((ما الذي خرَّجك في البلاغة ؟ قال : حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت)) [٦٢]، وقيل إن ابن نباته (ت ٣٧٤هـ) قال : ((حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب))[٦٣]. فابن نباتة فعل مثل سابقه عبد الحميد الكاتب ، وعرف أن لا طريق للوصول إلى البلاغة إلاَّ بتعلم الفصاحة ، والفصاحة تكمن في أحد منابع الحكمة وهو كلام الإمام علي (**u**) .

ولعل معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ) كان محقاً في ردَّه ، محْفن الضبيّ حينما قال له متملقاً : ((جئتك من عند أعيا الناس ، قال له : ويحكَ كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره))[٦٤].

ويكفي البحث فخراً ما قاله أديب العربيّة الجاحظ ((ما قرع سمعي كلام ، بعد الله ، وكلام رسوله ، إلا عارضته ، إلاَّ كلمات لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– فما قدرت على معارضتها))، وهي مثل قوله ((**مَا هَلَكَ امرؤٌ عَرَفَ قَدَرَهُ**)) ، و((**اسْتَغن عَمَّن شِئْتَ تكُن نَظيرَه ، وَأحْسن إلى من شِئْت تَكُن أمِيرَه ، وأحْتج إلى من شِئْت تَكُن أسِيرَه**))[٦٥]. ترى ما سرّ العناية بخطب الإمام ؟ يخيّلُ للبحث أن ما نقلَه أبو هلال العسكري عن أبي داود في قوله : ((رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة وجناحاها رواية

---

(٦١) شرح نهج البلاغة – أبن أبي الحديد – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط١ – دار الكتاب العربي – بغداد – ٢٠٠٥م : ٧٤/١ .

(٦٢) رسائل البلغاء – محمد كرد علي – دار الكتب العربية – مصر – د.ت : ١٢ ، أمراء البيان : ٤٥/١ .

(٦٣) شرح نهج البلاغة : ٤٩/١ .

(٦٤) شرح نهج البلاغة : ٤٩/١ .

(٦٥) الطراز : ٦٧/١ .

الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه))[٦٦].

وهذا يتوافق مع خطب الإمام التي هي في حقيقة الأمر نصوصاً أدبيّة تفيض شعرية ، وحكماً .

إنَّ المظاهر البديعية في خطب الإمام علي (**u**) سمة أسلوبية استطاع البحث أن يضع إصبعه على أبرز تجلّياتها النصيّة التي تكرّرت بشكل لافت مشكّلة ظواهر تمتُّ إلى الأسلوب ، وأن يدرسها على وفق خصائصها الفنية في تقسيمات ستكشف عنها الفصول الآتية .

---

(٦٦) كتاب الصناعتين : ٦٤ .

الفصل الأول

بلاغة الصوت :

١. التكرار

٢. الجناس

٣. السجع والتوازن

يُعد الصوت عاملاً مهماً في النص الأدبي سوء أكان شعرياً أم نثرياً ، فكل نوع له إيقاعه الخاص به فقد يكون النص على درجة عالية من جهة اللغة ، والمعنى من دون إيقاع متميز مما يؤدي إلى نفور منه ؛ وذلك لأن النفس تألف الإيقاع قبل كل شيء. فالأديب حينما يلقي نصاً أدبياً غايته التأثير في النفوس ، والعمل على تحريك كوامنها ، فإذا خلا النص من المؤثرات الصوتية التي هي جزء من الإيقاع فما الفائدة التي تحصل منه ؟ .

وما حصل إلى ماسرجويه[١] هو خير دليل على ما يذهب إليه البحث ، ويحكى انَّه بكى ((من قراءة أبي الخوخ ؟ فقيل له كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به ؟ قال : إنما أبكاني الشجا))[٢] . ولهذا فقد أولى العلماء عناية كبيرة بهذا الأمر ، ومنهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) في كتابه (العين) حيث بّين أهمية جرس الأصوات ومالها من مزية لتحسين النطق باللفظ ووضوحه[٣]. وكذلك الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي قال : ((أمر الصوت عجيب ، وتصرفه في الوجوه أعجب))[٤]. فعجبه هنا لما يحققه من تثبيت للمعنى ، وكيفية التصرف تكون تابعة للمنتج وهي تختلف من مبدع إلى آخر.

ويرى ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) أنَّ ((لتأليف اللفظة في السمع حُسنا ومزية على غيرها ، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة ، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حُسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه ، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه))[٥]. والمفهوم من هذا الكلام أن تكون الحروف متناسقة فيما بينها داخل الكلمة حتى تتناسق الكلمة مع باقي الكلمات الأخرى ، وهذا لا يكون إلاّ بتساوي الحروف مع بعضها.

أما ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) فأنه يرجع سبب فصاحة اللفظ إلى حسن الأصوات التي تتألف منها الكلمة ولذلك يقول عن الفصيح من الألفاظ ((إنما كان ظاهراً بيَّناً ، لأنه مألوف

---

(١) ينظر : هامش كتاب الحيوان – الجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٤٠م : ١٩٢/٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ينظر : كتاب العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي – تحقيق د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي – د.ط – مطبعة الرسالة – الكويت – ١٩٨٠م : ٥٣/١ .

(٤) كتاب الحيوان : ١٩١/٤-١٩٢ .

(٥) سر الفصاحة : ٦٧ .

الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع. والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف مما أستلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح))[٦] .

فقد وصف أبن الأثير الصوت غاية الوصف حينما جعل اللفظ الفصيح غاية في الفصاحة ؛ بسبب تناسب الأصوات في الكلمة الواحدة .

أما علماء اللغة العربية المحدثون فقد درسوا الصوت وما له من تأثير في النص من خلال بحث التشكيلات الصوتية (((الفونولوجي) والذي يعني .. بأثر الصوت اللغوي في تركيب الكلام نحوه ، وصرفه))[٧] ، ولا يختلف الدكتور أحمد مختار عمر في استعمال مصطلح (فونولوجي) ، أو علم التشكيل الصوتي في الدراسات التي تصف النظام الصوتي الوظيفي الخاص في أي لغة معينة[٨] ، ولو عاد البحث إلى النثر بصورة عامة ، وإلى خطب الإمام علي (عليه السلام) بصورة خاصة لوجدها ذات نظام صوتي واضح ؛ وذلك من خلال الإيقاع ، والتنغيم الواضح للفظة وعذوبتها في إطار أدى إلى التأثير في ذائقة المتلقي . وهذا الإيقاع في خطب الإمام كوَّنته المظاهر البلاغية التي تتضافر في لغته التي منها المظاهر البديعية التي ترد في كثير من خطبه من سجع وتوازن ،
وجناس ، وتكرار وغيرها.

ولهذا سيدرس البحث هذه المظاهر التي برزت في تلك الخطب على النحو الآتي:

١- التكرار .
٢- الجناس .
٣- السجع والتوازن .

---

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين أبن الأثير – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – د.ط – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٣٩م : ١/٦٦-٦٧ .

(٧) الأصوات اللغوية – د.إبراهيم أنيس – ط ٤ – مطبعة محمد عبد الكريم حسان – ١٩٩٩م : ٧ .

(٨) ينظر دراسة الصوت اللغوي – د. أحمد مختار عمر – ط١ – عالم الكتب – ١٩٧٦م : ٤٦-٤٧ .

إنَّ القراءة الدقيقة في خطب الإمام تحيل الباحث على كثير من المظاهر البديعية ، ولاسّيما تلك التي تعُنى ببلاغة الصوت دون غيرها ومنها .. التكرار . وهذا طبيعي ؛ لأن هذا المظهر يعمل على إغناء الجانب الصوتي والدلالي للخطبة عن طريق الحروف المكررة ، أو الكلمات ، أو العبارات ، أو المعاني ، كلها تعمل على إثارة انتباه السامع وهذا ما يريده أي خطيب مفّوه .

لقد تحدَّث عن التكرار كثير من علماء العرب من بينهم الفراء (ت٢٠٧هـ) حيث قال: ((والكلمة تكررها العرب على التغليظ ، والتخويف فهذا من ذلك))[٩]. ما قاله الفراء صحيح ؛ لأن من العرب من إلتزم هذا الأسلوب وهو النَّخّار بن أوس الُعذْري فإنه إذا حضر إصلاح ذات بين ، أو أنه حضر في الحمالات أي – تحمل الدية – فيكون من كلامه التكرار وذلك على سبيل المثال التهويل والتخويف[١٠] . وتحّث الجاحظ عن التكرار تحت مسمى(الترداد) وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدٌّ ينتهي إليه،ولا يؤتى على وصفه . وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عز وجل ردَّد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود . وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة)) [١١]. فالجاحظ يوضح هنا أن هذا النمط موجود في كلام الله سبحانه وتعالى . ولا ضير أن يتعلم الإنسان من هذا الأسلوب. أما الخطابي (ت٣٨٨هـ) فله رأي في التكرار مؤدّاه ((وأما ما عابوه من التكرار فإن تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوا ، وليس في القرآن شيء من هذا النوع))[١٢]،والضرب الآخر((ما كان بخلاف هذه الصفة،فأن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه وبحسن استعماله

---

(٩) معاني القرآن – أبو زكريا بن زياد الفراء – تحقيق د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي – د . ط – الهيأة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٢م : ٢٨٧/٣ .

(١٠) ينظر : البيان والتبيين : ١٠٥/١ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) بيان أعجاز القرآن – الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في أعجاز القرآن) – تحقيق محمد خلف الله – د. محمد زغلول سلام – ط٢ – دار المعارف بمصر – ١٩٦٨م : ٥٢ .

في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها))[١٣]، فالخطابي يرى أن التكرار في الموضع الذي تقتضيه الحاجة ، وإذا كان بخلاف ذلك فإنه سيكون دخيلاً ومتكلفاً . وأحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) يرى أن التكرار سنّة من سنن العرب كانت تستخدمه في أغراضهم الأدبية بحسب متطلباتهم ، وقد تمثل بما جاء في كتاب الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**﴾ (الرحمن : ١٣) [١٤] .

وللتكرار غايات عديدة فقد يكون وجوده في النص للتقرير ، أو للتوبيخ ، أو على جهة التشوق والاستعذاب ، أو لشدة القريحة التي تصيب المتفجع ، أو في الهجاء على سبيل الشهرة [١٥]. أو للمدح ، أو للوعيد والتهديد ، أو يكون للاستبعاد[١٦] .

أما المحدثون فلا يبالغ البحث إذ قال:إنهم درسوا التكرار بصورة مفصلة أكثر من القدماء؛لعل أحد أسبابه كثرة النظريات والمدارس الأدبية والنقدية ، فالبحث يتفق مع الدكتور نعمة العزاوي بشأن ما ذهب إليه من إن ((كلام النقاد العرب على التكرار يمكن أن يوصف بالقلة والاقتضاب إذا قيس بما للمحدثين من تفصيلات بشأنه واستنتاجات ، ويظهر أن المحدثين انتفعوا في دروسهم للتكرار وفي استنباطهم ... بما توصل إليه علم النفس في هذا العصر))[١٧].أما الدكتور جميل سعيد فيرى أن التكرار((حالة نفسية كثير
ما يجريها المرء من غير تفكير أو تعمد))[١٨]. والبحث يتفق ويختلف معه في هذا القول.

---

(١٣) بيان أعجاز القرآن : ٥٢ .

(١٤) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها – أحمد بن فارس – عُني بتصحيحه المكتبة السلفية – د.ط – مطبعة المؤيد – القاهرة – ١٩١٠م : ١٧٧ .

(١٥) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط١ – مطبعة حجازي بالقاهرة – ١٩٣٤م : ٢/٧٠-٧٢ .

(١٦) ينظر بديع القرآن – ابن أبي الأصبع المصري – تحقيق حفني محمد شرف – ط١ – مكتبة نهضة – مصر– ١٩٥٧م : ١٥١.

(١٧) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري – د. نعمة العزاوي – د.ط – وزارة الثقافة والفنون – بغداد – ١٩٧٨م : ٢٦٦-٢٦٧ .

(١٨) دروس في البلاغة وتطورها – د. جميل سعيد – د.ط – مطبعة المعارف – بغداد – ١٩٥١م : ٢٦١ .

فأما اتفاقه فهو كونه ((حالة نفسية)) . وأما اختلافه معه في كون المرء يجريه كثيراً من غير تفكير أو تعمد .

فالذي يطالع النصوص القديمة والحديثة على حد سواء يجد وراء كل تكرار غاية،وبعد كل غاية قصداً معيناً ،فالبحث يرى أن القليل منهم من كان يرد التكرار في كتاباته من غير تفكير أو تعمد ، وعلي الجندي يرى أن التكرار الفني البليغ ((لابد أن يتحفنا بشيء من التلوين اللفظي والمعنوي الصوتي،فيه جدة وطرافة لا توجد في الفقرة السابقة عليه))[١٩]. وما قاله الجندي معروف ومدرك عند كل من قرأ نصاً يحمل في داخله أنواعاً من التكرار. ونازك الملائكة تراه يشكل إلحاحاً على جهة مهمة لعبارة معينة يعني بها الأديب أكثر من سواها . فالتكرار عندها ((يسلط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها،وهو بهذا المعنى ، ذو دلالة نفسية قّيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه))[٢٠].وما قالته نازك يتناغم مع ما ذهب إليه القدماء في كون التكرار يقصد منه إثارة شيء معين له علاقة بقائله من خلال الإلحاح في العبارة ،وهذا طبيعي في كونه ذا دلالة نفسية تساعد الناقد الأدبي في تحليل نفسية الكاتب.إذن فالتكرار أصبح يكشف أيضاً الجانب النفسي لقائله، ولهذا قال فاليري : ((إن تكرار كلمات بعينها عند كاتب ما يعني إنها ذات رنين عنده ، وإنها ذات قوة إبداعية ملموسة أقوى كثيراً من الاستعمال الجاري))[٢١] .

فالتكرار أصبحت فوائده لا تقتصر على الجانب النغمي الموسيقي للنص ، بل أبعد من ذلك لتشمل أموراً عديدة من بينها قراءة الجانب النفسي لكل من يستعمل هذا الفن .

وهو عند الدكتور محمد عبد المطلب((الممثل للبنية العميقة التي تحكم حركة المعنى في مختلف ألوان البديع))[٢٢]. فهو يرى هذا الفن متواجد في كثير من المظاهر البديعية الأخرى وإنه ((لا يمكن الكشف عن هذه الحقيقة إلاّ بتتبع المفردات البديعية في شكلها

---

(١٩) البلاغة الغنية – علي الجندي – ط٢ – مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٦٦م : ٢٣٨ .

(٢٠) قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ط٢ – مطبعة دار التضامن – بغداد – ١٩٦٥م : ٢٤٢ .

(٢١) الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي – د. شفيع السيد – دار الفكر العربي – الكويت – ١٩٨٦م : ١٧٠ .

(٢٢) بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي) – د. محمد عبد المطلب – د.ط – ١٩٨٨م : ١٠٩ .

السطحي ثُـمَّ ربطها بحركة المعنى))[٢٣].والكلام عن هذا اللون البديعي لا يلم به مبحث فهناك من درسه بصورة مفصلة[٢٤].

ان استعمال الإمام(عليه السلام) التكرار ثقة في أنماطه التي تعمل على إرساء الجانب الإيقاعي في كلامه وتأديته المعنى المطلوب على أتم وجه .

ولذلك نرى التكرار يأخذ أشكالاً ثلاثة في خطب الإمام (عليه السلام) وهي :

١- التكرار المتوالي . ٢. التكرار المتباعد . ٣ . التكرار المفرد .

والمخطط الآتي يوضح أقسام كل نوع من هذا التكرار :

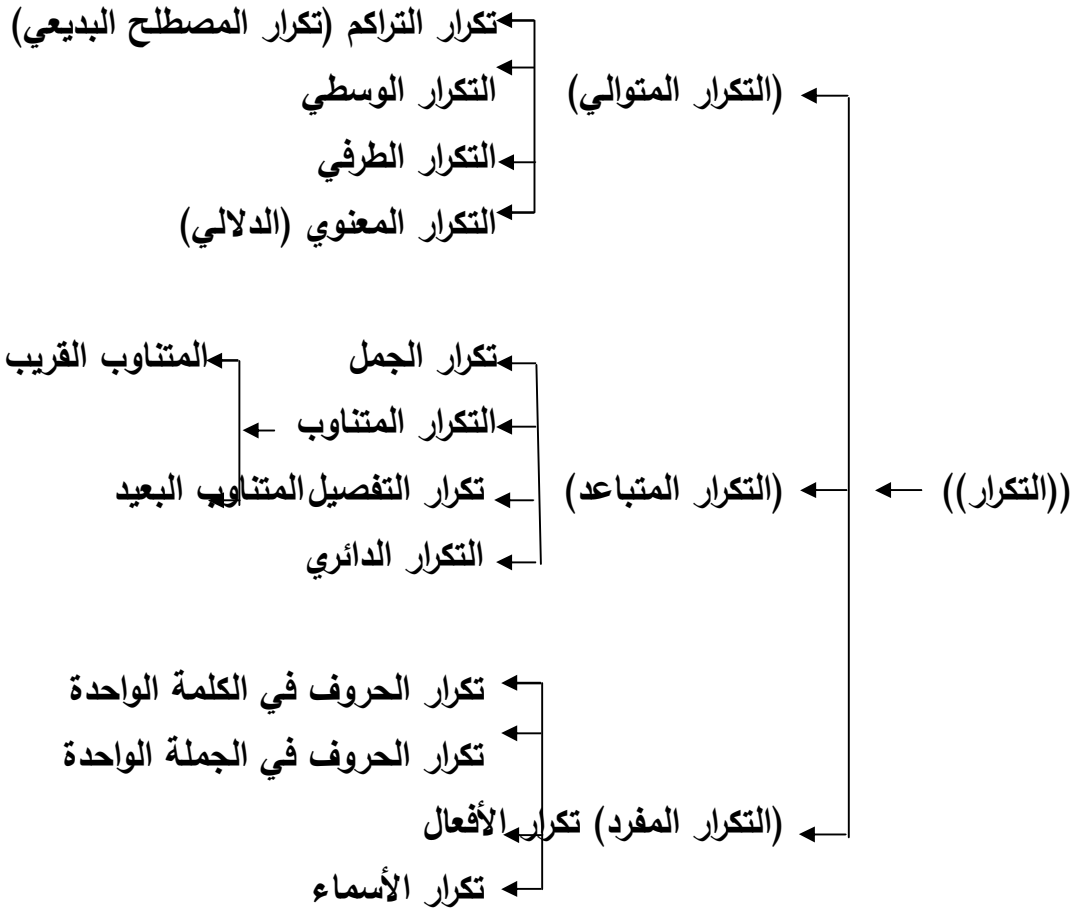

(٢٣) بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي) : ١٠٩ .

(٢٤) يُعدُّ الباحث صميم كريم الياس خير من درس التكرار بصورة مفصلة في رسالته الموسومة (التكرار اللفظي أنواعه ، ودلالاته ، قديماً وحديثاً) المقدمة إلى مجلس كلية التربية – جامعة بغداد – ١٩٨٨م .

أولا ـ : التكرار المتوالي :

١- تكرار التراكم (تكرار المصطلح البديعي) :

وهو تكرار المصطلح البديعي في سياق الكلام في الخطبة الواحدة مرات عديدة ومتوالية ؛ لأجل خلق دلالة مكثفة تعمل تلك بدورها على إيجاد إيقاع منظم هدفه التأثير في نفوس المتلقين(٢٥).

وهناك كثير من المظاهر البديعية التي برزت على هيأة – تراكم – في سياق الخطبة الواحدة لعل من أبرزها (الطباق – المقابلة)مشكلاً مظهراً بديعياً يهيمن على جو الخطبة خالقاً تنغيماً يختلف فيه عن الخطب الأخرى . فمن الأمثلة التي ورد فيها الطباق تراكمياً قوله (عليه السلام) : ((**فَإِنِّي أُوصِيكُم بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدأ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيهِ يَكُونُ مَعادُكُم ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلَبَتِكُم ، وَإِلَيهِ مُنْتَهى رَغْبَتِكُم ، وَنَحوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُم ، وَإِلَيهِ مَرامِي مَفْزَعِكُم ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُم ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُم ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُم ، وَصَلاحُ فَسَادِ صُدُورِكُم ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنفسكم ، وَجِلاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُم ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُم ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُم**))(٢٦) . يمكن النظر إلى ما صنعه تكرار الطباق في هذا النص ، فإن الإمام في واحدة من خطبه يبين فيها فضل الإسلام والقرآن ويكرر في هذه الخطبة ويوصي بتقوى الله ، فالمرة الأولى يكون الحث بالتزام تقوى الله من باب التذكير أنه هو الذي خلقهم وإليه يرجعون ، وهو هنا يبدأ بالطباق ، ولكن حينما ذكر في المرة الثانية تقوى الله فقد كان الإيقاع أكثرة شدة من الكلام الذي سبق التكرار ؛ لكونه أفتتح هذا التراكم – بالتعليل – ثم جاءت بعده الصور المتراكمة ليوضح للناس عظم التقوى وما تعود عليه بالفائدة ، مُحدِثاً به تواً إيقاعياً ، ونغماً متصاعداً . وإذا دُقِّق النظر تجد أن الإمام ركزَّ على الجانب النفسي (قلوبكم – صدوركم – أنفسكم – جأشكم)رابطاً هذه الكلمات بالجانب الآخر المتمثل بالماديات المتمثلة في الطباق .

---

(٢٥) ينظر : رماد الشعر – د. عبد الكريم راضي جعفر – ط١ – دار الشؤون الثقافية – بغداد – ١٩٨٨م : ٢١٧ ، ويود أن يشير البحث إلى مسألة مؤداها أنه استعمل اسم التعريف (تكرار التراكم) بدون الرجوع إلى فحواه ، فما ذهب إليه د. عبد الكريم يختلف عن ما يذهب إليه البحث . وللتأكيد راجع المصدر نفسه .

(٢٦) شرح نهج البلاغة : ١٠/١٤٧ .

ومنه قوله (عليه السلام): ((**وَلْيغتَنِم كُلُّ مغتَنِم مِنْكُم صِحَّتَهُ قَبْلَ سَقَمِه، وَشَبِيبَتَهُ قَبْلَ هَرَمِه ، وَسَعَتَهُ قَبْلَ فَقْرِهِ وَفَرَاغَتَهُ قَبْلَ شُغْلِه ، وَحَضَرَهُ قَبْلَ سَفَرِهِ قَبْلَ تَكَبُّرٍ وَتَهَرُّمٍ وَتَسَقُّمٍ**))[٢٧]. وهذا الكلام ذكره الإمام في إحدى خطبه المعروفة بين المسلمين بـ(المونقة)[٢٨]. فالإمام يكلم من كان جالساً معه في خطبة طويلة يصل فيها إلى هذا المقطع ، ومن الطبيعي إذا كانت الخطبة طويلة فإن الالتفاتات تكثر فيها ، فمن جملة كلامه ذكّرهم بالفرصة التي بين أيديهم في أبسط الصور معتمداً على التكرار في قوله من خلال التراكمات الحاصلة في الطباق مبتدأ بالترتيب من الصحة إلى الموت. وحتى لا يقول قائل منهم أنا أعمل في كذا يوم أو سنة. والبديع في هذا النص الترتيب ما بين الألفاظ فهو حينما يذكر الصحة فهي أهم الأشياء عند الإنسان وبدونها لا يتحقق ما ذكره، وهكذا الحال مع الشباب والسعة وفراغ الإنسان وفي حضره . والملاحظ على هذا الكلام أنه يأخذ طابعاً تصاعدياً مرة ، وطابعاً تنازلياً مرة أخرى . والمخطط يوضح ذلك :

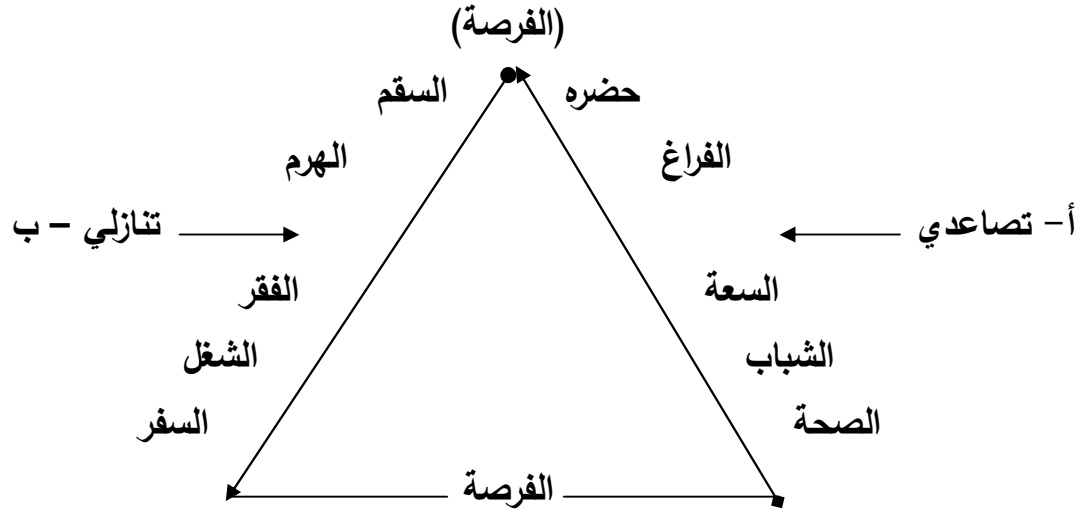

فالسهم (أ) تصاعدي يكون من قبيل الفرصة التي تكون بيد الإنسان في تحقيق العمل الصالح واغتنام الفرصة قبل ذهابها. والسهم (ب) تنازلي يوضح إنه كلما انخفض انعدمت الفرصة في تحقيق الخير وتصبح صعبة الاغتنام إلى أن تؤدي إلى فقدانها بصورة كاملة عند الموت، ويخرج العبد عند ذلك خاسراً من الدنيا. فالإمام من خلال هذا التكثيف

---

(٢٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة – تحقيق محمد باقر المحمودي – ط١ – مؤسسة الطباعة والنشر – طهران – ١٤١٨هـ : ١٠١/١ .

(٢٨) " المونقة " : الحسنة المعجمية . وسميت بهذا الاسم لأنها تعجب من سمعها : المصدر نفسه : ٩٨/١ .

الصاعد والنازل استطاع أن يخلق جواً موسيقياً موحياً من خلال تصويره للمراحل التي يجب استغلالها. والطباق ((من الفنون التي تتعامل مع المعنى ونقيضه، ولا يحرص على الإيقاع إلا إذا جاء عفواً بلا تعارض مع الوفاء بالمعنى)) [٢٩]. وهذا ما وُجِد في المثالين السابقين فإن المعنى منسجم مع الإيقاع غاية الانسجام .

أما عن – المقابلة – يقول الإمام (عليه السلام) في وصف الحال : ((**لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْها في حَبْرَةٍ إلا اعْقَبَتْهُ بَعْدَها عَبْرَةً ، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِها بَطْناً ، إلا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِها ظَهْراً ، ولم تَطُلْهُ فِيها دِيمَةُ رَخَاءٍ ، إلا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاءٍ . وَحَرِيٌّ إذا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً وَإِنْ جَانِبٌ مِنْها أَعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى ، أَمَرَّ مِنْها جَانِبٌ فَأَوْبَى ! لا يَنَالُ إمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِها رَغَباً ، إلا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِها تَعَباً ، ولا يُمْسِي مِنْها في جَنَاحِ أَمْنٍ ، إلا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ**))[٣٠]. فلكي تخلقَ إيقاعاً ذا جرس متزن يجب أن تكون المعاني مترابطة مع الألفاظ ؛ حتى لا تكون دخيلة عليها، ويمكن القول إن المقابلات التي صنعها الإمام في هذا النص تجد أن كل واحدة منها لا تصلح لغيرها ، فهو لم يكرر (يلق) في الضراء وذلك ؛ لأن اللقاء يكون بمحض إرادة الإنسان ، وحالها في المسرة يختلف عنها في الضراء فالأمر يفرض عليه قسراً وإن كان كارهاً لها. فضلاً عن استعماله كلمة (بطنا) في السراء ؛ لن حال الدنيا تسعى إليه بوجها وطبيعي أن تكون بطنها مقابل وجهه والحال بالعكس في الضراء والظهر .وكذلك في قوله (ديمة) مع الرخاء للدلالة على طول الخير عليه ، واستعماله (مزنة) مع البلاء ، في كون المصائب قد تكون عليه لمدة معينة ، ولو استبدل هذين اللفظين الواحد مكان الآخر لكان إسرافاً ومبالغاً فيه؛ لشدة الجزع الذي سيصيب الإنسان. وفي قوله ترابط ما بين الأصباح والانتصار والمساء أو الليل والتنكر ، فالليل عبارة عن شيء مبهم لا يرى فيه أغلب الموجودات . وهذا هو حال الدنيا فيها ، فالناس يرون بعضهم بأبصارهم ، ولا يبصرون ببصيرتهم . واستعماله (الجناح) مع الأمن ، و(القوادم) مع الخوف ؛ وذلك لأن القوادم مكان. ضعيف وهو مقاديم الريش والتي يركب عليها يعرض للخطر ويسقط في مكان قريب وهذا هو فعلاً حال الدنيا لا تختلف عن القوادم في شيء . واستعماله للجناح معروف ؛ لأنه يحمي الطائر في كثير من المواقف الخطرة فضلاً عن

---

(٢٩) البديع تأصيل وتجديد : ١١٩ .

(٣٠) شرح نهج البلاغة : ١٧٧/٧ .

كونه يحميه من البرد القارص[٣١]. فهذه الصور المتوالية التي جسدتها – المقابلة – خير تجسيد ، جعل الإمام من تكرارها إيقاعاً يلفت المستمعين والناظرين ، وليصف الدنيا حق وصفها .

وقوله (عليه السلام) : ((**أهلُ الجَنَّة فيها يَتَنَعَّمون ، وَأهْلُ النّار فيها يُعَذَّبون هؤلاء في السُّنُس وَالحَرير يَتَبَختَرون ، وَهؤلاء في الجَحيم والسَعير يَتَقَلَّبون ، هؤلاء تُحشَى جَماجِمُهم بِمسك الجِنان ، وهؤلاء يُضرَبون بِمَقامع النِّيران ، هؤلاء يُعانِقُون الحُور في الحِجال ، وهؤلاء يُطوَّقُون أطواقاً في النَّار بالأغلال**))[٣٢]. يستعمل الإمام هنا الترغيب والترهيب في محادثة المسلمين ، وهو أسلوب مستوحى من القرآن الكريم حيث بدأ بذكر الصفات التي تخص المؤمنين وهذا هو الصحيح ، والملاحظ على الخطاب القرآني إنه دائماً يبدأ بآيات الرحمة قبل آيات الوعيد والإنذار . وهو هنا يقدم مشهدين من مشاهد يوم القيامة ، والتي يمكن أن تُسمى ثنائية الجنة والنار ، فهو لم يعمد إلى ذكر صفات الجنة مرة واحدة ليأتي بعدها بصفات النار ، بل اعتمد على أسلوب الالتفات في الانتقال من حالة إلى أخرى .متخذاً من تكرار هذه الصور المتضادة إيقاعاً متنوعاً . وأي إيقاع يبعثه مشهد أهل النار ، أو أهل الجنة . وأجمل ما في هذه المقابلات إنها جاءت مسجوعة بحرف النون (يتنعمون – يعذبون) (يتبخترون – يتقلبون) ، (الجنان – النيران) . وما أحدثه تكرار (هؤلاء) من خلق إيقاع مرعب في نفوس المتلقين . فحينما تسمع باحتراق شخص ما في أي مكان تقشعر الجلود ، وتحزن القلوب ، فما بالك في ذلك اليوم العظيم ، يوم الحشر ، ولاسّيما إذا كان الاحتراق لهم جميعاً ؟ وأي نار تلك نار الآخرة ؟ لقد قدم الإمام للمتلقي صورة رائعة ، ومخيفة عن ذلك اليوم من خلال هذا التراكم الحاصل وهذه هي ((وظيفة الكاتب عموماً في تقديم المألوف بطريقة مدهشة ومؤثرة))[٣٣] .

ويختم البحث الكلام في هذا النوع من التكرار بكلام لأمير المؤمنين (عليه السلام) في إحدى خطبه والذي يمكن أن يُسمى – تكرار التكرار – حيث يقول : ((**لا تَنُومُ حَيْرَتُها ، وَلا**

---

(٣١) ينظر شرح نهج البلاغة : ١٨١/٧ .

(٣٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٣٤/١ .

(٣٣) الأسلوب والأسلوبية – كراهام هاف – ترجمة كاظم سعد الدين – د.ط – دار أفاق عربية – بغداد – ١٩٨٥م : ٥٥ .

تُؤْمِنُ فَجْعَتُهَا . غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَاقِذَةٌ بَائِدَةٌ ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ))[٣٤]. فقد ذكر في هذا النص أربعة أنواع من التكرار ، وهذا من بديع قوله :

الأول : (التكرار المعنوي) وسيأتي الكلام عليه ضمن هذا النوع وذلك من خلال تأكيد الإمام لأحوال الدنيا ، فالألفاظ التي ذكرها تؤدي جميعها إلى غرض واحد وهو (الخداع والفناء) فهي لا تدوم لأحد أبداً ولهذا كانت أوصافه مطابقة بحق الدنيا .

الثاني : تكرار حرف (التاء) فقد تكرر هذا الحرف ست مرات في الكلمات التي اشتملت على وصف الدنيا ، وأربع مرات في باقي الكلمات الأخرى ، والتاء عملت على توحيد هذه الكلمات رويا في إطار النص الواحد ، ورويا ووزناً مع بعضها . ولاسيما إنها تعرف من الأصوات الشفوية [٣٥] ، ويعرف بأنَّه ((صوت شديد مهموس)) [٣٦] .

الثالث : التكرار الدائري (من جهة الصياغة اللغوية) ، فقد بدأ بقوله ((**غَرَّارَة ضَرَّارَة.. أَكَّالَة غَوَّالَة**)) أي ((**فَعَّالَة فَعَّالَة، فَاعِلَة فَاعِلَة، فَاعِمَة فَاعِلَة، فَعَّالَة فَعَّالَة**)) فالإمام بدأ بصيغة المبالغة وختم كلامه أيضاً بها. والبديع في هذه الصياغة اللغوية إنه يكرر صيغة المبالغة مرتين في أول العبارة وفي منتهاها عند الوصف.

الرابع : (تكرار الأسماء) فقد استعمل الإمام في وصفه للدنيا صيغتين هما: (اسم الفاعل) بصيغة (فاعل) ، و(صيغة المبالغة) بصيغة (فعَّال) لغايتين أولاهما : الجرس الموسيقي الذي تحققه هاتين الصيغتين . ثانيهما : لتلائم كل واحد منهما للمعنى المراد عرضه . فهو لم يستعمل في عرض ما يريده على سبيل المثال بصيغة الفعل المضارع ؛ وذلك لأن دلالته تقضي بأنه يكون في مدة معينة ثم تنقضي ، بعكس اسم الفاعل الذي يدون الحدث فيه[٣٧] .

---

(٣٤) شرح نهج البلاغة : ١٧٧/٧ .

(٣٥) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٤ .

(٣٦) المصدر نفسه : ٥٦ .

(٣٧) ومثاله قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣). فقد استعمل سبحانه وتعالى (يعذب) مع الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)لأنه ليس باق معهم إلى الأبد واستعمل(معذب)لأن الاستغفاءات معهم إلى يوم القيامة وهو غير زائل.والحال نفسه مع كل صيغ اسم الفاعل.

وهذا التنوع الإيقاعي والمعنوي يحتاج إلى شخص لديه ملكة قوية ، وخبير بأصول الصنعة وخفاياها . فهو على الرغم من تنوع التكرار هنا بقي المعنى رشيقاً ولم يظهر عليه أي تكلف .

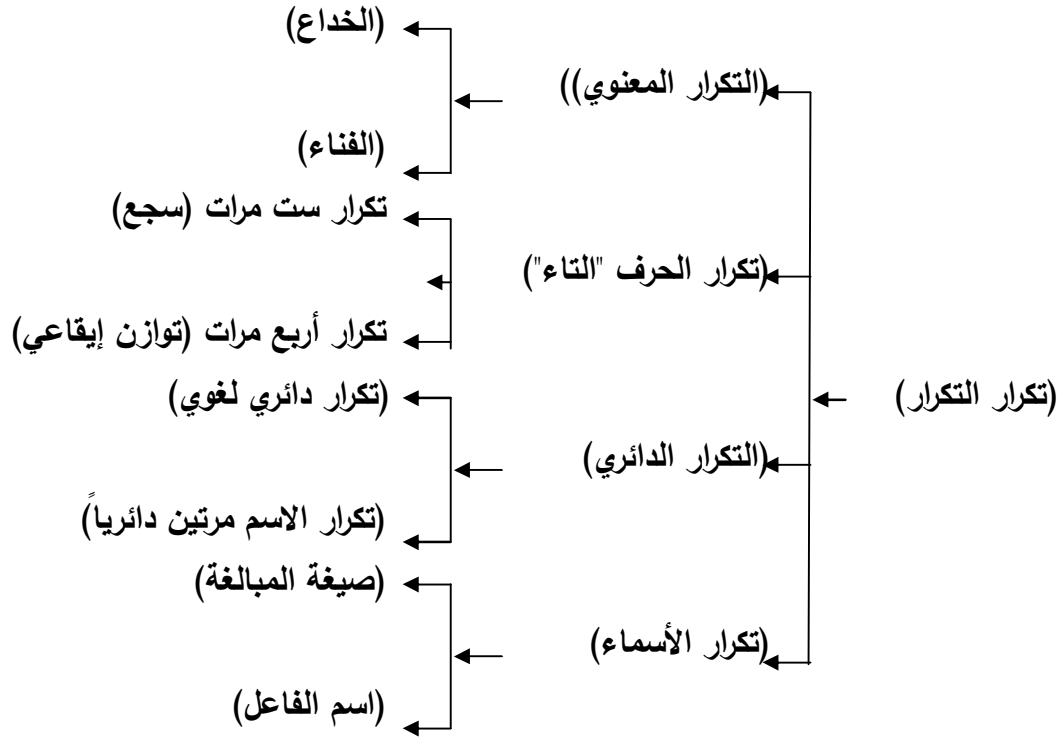

والمخطط أعلاه يوضح أن كل تكرار أدى غرضين مهمين ليخرج السياق على أحسن صورة .

٢- التكرار الوسطي :-

وهو التكرار الذي يرد وسط الكلام[٣٨] .

ومثالُ قولهُ (عليه السلام) : ((**وَكَأَنِّي أنظُرُ إليكُم تَكِشُّونَ كَشيشَ الضِّبَابِ**))[٣٩]. وهذا الكلام قاله لأصحابه في ساحة الحرب ، ومن الطبيعي أن يكونُ أسلوبه في التعبير يختلف مما لو كان في مَعرِض زهد ووعظ ، أو في كلام عن الله سبحانه وتعالى ، بل أكثر من هذا

---

(٣٨) هناك أسماء لأنواع التكرار قد تمَّ ذكرها في هذا المبحث وهي ((التكرار الوسطي ، التكرار الطرفي ، التكرار المتناوب)) سبق أن ذكرت عند الباحثة أروى عبد الغني سعيد في رسالتها الموسومة (الحديث النبوي الجاري مجرى المثل– دراسة أسلوبية في الصحيحين) – مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد – ٢٠٠٢م .

(٣٩) شرح نهج البلاغة : ٢٣٧/٧ .

أن الكلام قبل اشتباك الطرفين يختلف مما لو كان داخل الساحة ، ولاسيَّما في أوقات الكرَّ والفرِّ ؛ ولهذا استعمل الإمام هذا التكرار المشحون بالنغمات الصوتية العالية على مستوى تكرار الكلمة ، أو تكرار الحرف داخل الكلمة، مع خرج هذا التكرار بصيغة المبالغة (فعيل – كشيش) للتعبير عن حال قِسم من المسلمين لما أصابهم من جبن وفشل فكأنه يقول إليهم:((لكأني أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي اعتراكم))[٤٠]. كذلك تكرار حرف (الشين) وما حققه من خرج الجانب الصوتي بالدلالي . فمن جهة الجانب الصوتي إنه تكرر في هذه العبارة أربع مرات ويتميز هذا الحرف بكونه ((من الأصوات الاحتكاكية))[٤١]. وكونه ((صوت رخو مهموس)) [٤٢]. فاجتماعه في كلمتين عكس المعنى الذي يريده الإمام وهو الجانب الدلالي ، فالكشيش : هو الصوت الذي تحدثه الضِّباب أثناء احتكاك جلودها مع بعضها البعض اثناء الزحام[٤٣] . فالإمام استعمل تكرارين في آن واحد ليخلق جرساذا إيقاع عالٍ يؤثر في أنفس المقاتلين في المعركة.

ومن كلامه في إحدى خطبه قوله (عليه السلام) : ((**عَباد اللهِ الموتُ لَيْسَ منه فَوْتٌ ، إنْ أقْمتُم لَه أَخَذَكُم وإنْ فَرَرتُم منه أدْرَكَكُم المَوتُ مَعْقُودٌ بنَواصِيكُم فالنَّجا النَّجا والوَحا الوَحا وَراءكُم طَالِبٌ حَثِيثٌ القَبْرَ أحذَرُوا ضَنْكَهُ وظُلْمَتَهُ وضِيقَهُ**))[٤٤] . يُلاحظ في كثير من الخطب أن الإمام يكرر عبارة ((عباد الله)) [٤٥] ؛ وذلك ليذكرهم أنهم مملوكين لرب لابد أن يعودوا إليه في يوم من الأيام .وهذه المرة يأخذ التكرار الوسطي جانباً تحذيرياً من خلال وجوده في مقطع يعكس صوراً رهيبة تتمثل بالموت وكيفيه وصوله إليهم ، وبالقبر وعلاماته وكيف سيحويهم – فالإمام حينما قال لهم (النجا النجا والوحا الوحا) خير دليل على عظم

---

(٤٠) شرح نهج البلاغة : ٢٣٧/٧ .

(٤١) المدخل إلى علم أصوات العربية – د. غانم قدوري الحمد – د.ط – المجمع العلمي – بغداد – ٢٠٠٢م : ١١٠.

(٤٢) الأصوات اللغوية : ٦٨ .

(٤٣) ينظر هامش نهج البلاغة – محمد عبده – ط١ – مؤسسة الأعلمي – بيروت – ٢٠٠٣م : ٢٦٧//٢ . ويذكر صاحب (اللسان) معنى آخر ((للكشيش)) وهو الصوت الذي يصدر من جلد الأفعى ، وبمعنى هدير الفحل. ينظر اللسان ، مادة (كشش) : ٦٦٩/٧-٦٧٠ .

(٤٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١١٢/٣ .

(٤٥) فعلى سبيل المثال في نهج البلاغة (١١٨/٥ ، ٢٨٢/٦-٣٠٠-٣٠٦ ، ١٩٥/٧ ، ١٦٠/٩-١٨٣ ، ١٦/١٠-٧٣ ، ١٣٨ (مرتين) ، ٨٤/١٣-٨٥-١٠٤) وفي نهج السعادة (٣٥٠/١ ، ٢٨٥/٢ ، ١٢١/٣-١٢٥-١٢٩-١٥٣) .

الموقف الذي سيشاهدونه إن لم يتداركوا أنفسهم بالأعمال الصالحة التي تنقذهم في المرحلتين الموت ، والقبر . فالإمام وضعهم بالصورة الحقيقية للموقف الذي يتعرضون له من خلال التكرار الوسطي الذي عمل فيه على تحذيرهم وتنبيههم عمّا سيحل بهم . ولعل التكرار هو خير من يُعبّر عن مثل هذه الأفكار أحسن تعبير ، بل هو يتناسب ذكره مع هذا الموقف وقوله (عليه السلام) : ((**لَتُبلبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَلَتُغْرَبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْر ، حَتَّى يُعودَ أسفَلُكُم أعلاكُم ، وأعْلاكُم أَسفَلَكُم وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا ، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُون كَانُوا سَبَقُوا**))[٤٦]. هذا الكلام جزء من خطبة قالها حينما بُويع في المدينة لخلافة المسلمين . والملاحظ على هذا المقطع الإيقاع التصاعدي من خلال القسم الذي ذكره الإمام ، ثُمَّ ذكر التكرار الذي أفاد التوكيد بصيغة المفعول المطلق (بلبلة – غربلة) ، وهذا بدون شك ينسجم مع الحديث الذي دعاه إلى أن يستعمل مثل هذه العبارات . فالإمام مزج التكرار الوسطي بصيغة المفعول المطلق وعمل على ربطه بسياق الكلام الآخر . فمعنى قوله (لتبلبلن) أي أنكم ستجمعون سواية ، ثُمَّ تتغربلون فيعرف الصالح من الطالح ، كما يتميز الدقيق عن النخالة بالغربال ، وأكثر من هذا إنهم سوف يساطون في (القِدْر) ، والسَّوْطُ هنا بمعنى ((خلط الشيء بعضه ببعض ومنه سمي (المِسَواط)))[٤٧]. أي أنكم ستخاطون بسوط القدر ((كما تختط الأبزار ونحوها في القدر عند غَليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها[٤٨] ، وكل ذلك حكاية عما يؤولون إليه من الاختلاف ، وتقطع الأرحام ، وفساد النظام[٤٩] ... فالإمام هنا استعار لفظ السَوْط ليعبر عن حجم الأذى الذي لحق الأصحاب والتابعين[٥٠]. والمعنى لم ينته إلى – العكس والتبديل – بل أمتد عن طريق حرف العطف (الواو) إلى – المقابلة –ليتم المعنى بها ، بأن السابقين الذين قُسِّروا سيكونون من الأوائل في خلافته ،

---

(٤٦) شرح نهج البلاغة : ٢٥٣/١ .

(٤٧) لسان العرب ، مادة (سوط) : ٧٤٨/٤ .

(٤٨) الشيخ محمد عبده لم يراع الترتيب والدقة مثل الإمام (عليه السلام) في شرحه حال من كان في القدْر عكس الإمام في التزامه الدقة عند الوصف ؛ لأن القدر عندما يغلي يصعد الماء إلى الأعلى ، ثم إلى الأسفل وليس مثلما ذكره الشيخ محمد عبده .

(٤٩) نهج البلاغة : ٦٩/١ .

(٥٠) راجع خطبة الإمام بحق أبي ذر الغفاري وما حصل له من مضايقات . شرح نهج البلاغة : ١٩٣/٨ .

وإن الذين قَصَّروا عن الإسلام في زمن النبي (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وكانوا سبَّاقين سيعودون إلى وضعهم الطبيعي. والبديع في هذا القول إن الإمام راعى مسألتين:

الأولى: أنه قال (السابقون) وهي – تناص – من القرآن الكريم في حق أصحابه. قال تعالى : ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ (الواقعة:٩-١٠)

الثانية :وصف الذين قَصَّروا عن الإسلام (سبَّاقون) وهو وصف موّفق بحقهم ؛ لأنه أشد التصاقاً بهم لشدة حبهم للدنيا المتمثلة بالمناصب والمال فهم يستحقون الوصف بصيغة المبالغة (فعَّال) (سبَّاق) (سبَّاقون) فهي تعكس الحال التي هم عليها. ويلاحظ أن التكرار لم ينته ، بل لجأ الإمام إلى التكرار كل من (الباء) و(اللام) في التكرارين على المستوى الصوتي ، فـ(الباء) معروف عنه إنه من الأصوات الانفجارية وهو صوت شديد[٥١].فقد تكرر ست مرات.واللام معروف عنه إنه مجهور[٥٢].وقد تكرر ثمان مرات. ودور الحرف هنا لم يقتصر على إثارة الجانب الصوتي فقد بل تعدى إلى الجانب المعنوي في الكلمتين (لتبلبيلن – لتغربلن) للتوكيد تأكيد للتكرار. فهذان الحرفان أسهما في خلق إيقاع بطيء وثقيل ، وجرس عال يحاكي الصورة التي أرادها الإمام من خلط ، وغربلة ، وسوط ، وصعود ، ونزول ، وغيرها من الصور الإيقاعية التي وضعها الإمام في هذا المقطع من كلامه . والذي زاد من قوة الإيقاع – السجع المتوازي الحاصل ما بين اللفظتين (بلبلة – غربلة) . والذي رفع من قيمة التكرار هنا حضور الكناية ، والاستعارة في هذا النص . فالكناية في اللفظتين المسجوعتين المتوازيتين للتعبير عمّا كان يقع على المسلمين من ظلم وجور وكيف إنه سيعمل على غربلتهم حتى يفصل المحسن عن المسيء ، وأما الاستعارة فتم الكلام عنها في السَوْط . لقد كان بودلير على حق حينما قال ((لقد قرأت عند ناقد أنه لكي تكتشف عقلية ... ما ، أو على الأقل تكشف ما يشغل فكره أساساً دعنا نفتش عن الكلمة أو الكلمات التي تتردد عنده كثيراً ، فسوف تعبر هذه الكلمة عما يستحوذ تفكيره))[٥٣]. فالبحث عن طريق التكرار استطاع أن يكشف عن بعض الأمور التي تدور في نفسية الإمام (عليه السلام).

٣- التكرار الطرفي :

---

(٥١) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ١١٠ .

(٥٢) ينظر : الأصوات اللغوية : ٥٩ .

(٥٣) الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي : ١٧٠ .

وهو أن يجيء اللفظ مكرراً أما في بدء الكلام ، أو في منتهاه أي في طرفيه، فمن التكرار الذي يرد في بدء الكلام قوله (عليه السلام) : ((**فَالحَذَر الحَذَر أيُّها المُسْتَمِعُ ! وَالجِدَّ الْجِدَّ ، أيُّها الغَافِلُ ،(وَلا يُنَبِئُكَ مِثْلُ خَبير)**))[٥٤]. فالإمام في هذا المقطع رَبط التكرار بصيغتين مختلفتين من اسم الفاعل (المستمع – الغافل)؛ لأنه أراد أن يذكرهم أنهم في كل مرة يوعظون فلا يتَّعظون ، والحال نفسه مع غفلتهم فهم غافلون دائماً ، وما مجيء الإمام بهاتين الصيغتين إلاّ ليوضح الحال الذي هم عليه . والنص لم يقف عند حدِّ التكرار، بل إن الإمام ربطه بنص قرآني – تناص – من (سورة فاطر:١٤) ليخبرهم أنه لا يعلم بالحقائق إلا العالم بكنه الأمور الخفية . فالذي زاد التكرار جمالاً اقترانه مع اسم الفاعل ، وتعزيزه بنص قرآني ، وهذا من أسلوبه (عليه السلام)[٥٥] .

ومن الأمثلة التي يرد فيها التكرار في منتهى الكلام قوله (عليه السلام) : ((**[وَ] كُشِفَ عَنِ الآخِرَةِ غِطَاؤُهَا ، وَظَهَرَ لِلخَلْقِ انبَاؤُهَا ، فُدُكَّت الأرضُ [الجِبَالُ "خ"] دَكًّا دَكًّا ، وَمُدَّتْ لأمرٍ يُرَادُ بِهَا مَدًّا مَدًّا ، وَأشتَدَّ المُشَارُونَ إلى اللهِ شَدّاً شَدداً ، وَتَزَاحَفَت الخَلائِقُ إلى المَحشَرِ زَحْفاً زَحْفاً ، وَرُدَّ المُجْرِمُون عَلَى الأعقَابِ رَدًّا رَداً ، وَجَدَّ الأمْرُ وَيحَكَ يا إنسانُ – جَدّاً جَدّاً ، وَقُرِّبُوا لِلحِسَابِ فَرداً فَرداً ، وَجَاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفاً ، [وَ] يَسْأَلُهُم عَمَّا عَمِلوا حَرْفاً حَرْفاً**))[٥٦] ، يستعمل الإمام التكرار في هذا النص لتوضيح مشهد من مشاهد يوم القيامة بما ستكون الأمة عليه في ذلك اليوم من خلال الترتيب المنسق الذي ذكره الإمام. ويا له من موقف ! فالإنسان حينما يسمع بزلزال بسيط تذهل نفسه ويرتجف جسمه ، فما باله بالجبل المرتفع إلى اعنان السماء في لحظة معينة يكون بأمر الله سبحانه وتعالى متناثراً على الأرض من خشية الله . فإذا كان حال الجبل العظيم في ذلك اليوم هكذا فما حال هذا الإنسان الضعيف ؟ وبعد الدكِّ والمدِّ يأتي (المثارون) الذين هيجوا إلى فصل القضاء في

---

(٥٤) شرح نهج البلاغة : ١٢٢/٩ .

(٥٥) حينما ذكر البحث مثالاً من نهج البلاغة عن التكرار الذي يقع في بدء الكلام فهذا لا يعني عدم وجود مثل هذا النوع في نهج السعادة ؛ ولكن الغرض الذي يسعى إليه البحث هو الكشف عن المظاهر الفنية في الخطب من جهة ، وعدم الإطالة في الكلام من جهة اخرى . فهذا النوع موجود في نهج السعادة نحو قوله (عليه السلام)((إنَّ اللهَ عِبادَ اللهِ قَبْلَ جُفوفِ الأقلامِ ، وَتَصَرُّمِ الأيامِ ، وَلُزُومِ الآثامِ)) ١٢١/٣ . وكذلك نهج البلاغة حينما يرد في منتهى الجملة نحو قوله (عليه السلام)((إنَّ الشيطانَ يُنسيَّ لكُم طُرقَه ،وَيُرِيدُ أن يَحُلَّ دينكُم عُقَدَةً عُقْدَةً)) ٢٢٦/٧.

(٥٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٣٥/١ .

المحكمة الإلهية، ثُمَّ تقوم الخلائق للحساب ، فهناك من يمشي على رجليه ، وآخر على ركبتيه ، وآخر على المقعد قليلاً قليلاً ، وجيء بالمجرمين ولا تنفع أعذارهم في ذلك اليوم ؛ لأن الله يعلم ظاهرهم وباطنهم . مروراً بحساب العباد واحد بعد آخر . ويبدو أن التكرار هنا قد هيمن على المقطع بصورة كاملة من خلال تجسيده للمعاني التي تدور في عقل الإمام على شكل مدٍّ يتصاعد وينفجر عند منتهى كل مقطع . وكذلك ما فعله الحرف الصائت الطويل (الألف) في منتهى الكلمات من إضافة توازنات موسيقية في جميع التكرار يعمل بدوره على إيصال النغمة واستمراريتها إلى المتلقي. وهذا النص يضم في فضائه – التكرار الدائري – والذي سيرد الكلام عليه في(التكرار المتباعد) من خلال:

(دكت ← دكا) ، (تزاحفت ← زحفا)

(ردَّ ← ردا) ، (جدَّ ← جداً)

فهذا التنوع في التكرار يدل على ثقل ذلك اليوم وطوله وهذا ما وُجِد من خلال الألفاظ المكررة في هذا النص .

ومن الخطب التي يذكر فيها التكرار الطرفي في البدء والمنتهى قوله (عليه السلام) : **((العَلَى العَلَى ، ثُمَّ النِّهَايَةَ، والإستِقَامَةَ الإستِقَامَةَ ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ والوَرَعَ الوَرَعَ!))**[٥٧]. يأتي الإمام بالتكرار في هذا المقطع بعد كلام طويل يحذرهم وينهاهم عن البدعة. فقد جاء اللفظ مكرراً في البدء والمنتهى ، وبعد كل تكرار نجده يعطفه بـ(ثُمَّ) . فهو حينما يأمرهم بالعمل تأكيداً منه عليهم بلزوم العمل الصالح، والمحافظة عليه حتى المنتهى؛ وذلك لأن الأمور بخواتيمها ، وكذلك حينما يأمرهم بالاستقامة لكي يحافظوا على أداء الفرائض بأتمَّ وجه، ومعروف أن أداء الفرائض ليس بالعمل السهل لما يتعرض له الإنسان من ((مقاومة الهوى لئلا ينقاد إلى قبائح اللذات فيخرج عن الصراط))[٥٨]. من جهة ، ولكي يحتمل الأذى الناتج عن أداء تلك الفرائض من جهة أخرى . ولهذا أمرهم بالصبر ، والورع أي غضِّ النظر عن المحارم وعدم الخوض فيها. وقد يسأل سائل لم عطف النهاية على العمل، والصبر على

---

(٥٧) شرح نهج البلاغة : ٢٢/١٠ .

(٥٨) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني – صححه عدد من العلماء الأفاضل – مؤسسة النصر ، المطبعة الحيدرية – طهران – د.ت : ٣٥٧/٣ .

الاستقامة بـ(ثُمَّ) ؟ فيكون الجواب ((إنّما عطف النهاية والصبر بثّم لتأخر نهاية العمل عنه ، وكون الصبر أمراً عدميا فهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو معنى وجودي بخلاف الاستقامة على العمل فإنها كيفية له، والورع فأنه جزء منه، وكرر تلك الألفاظ للتأكيد .. ثم أشار إلى أن تلك النهاية هي النهاية التي لهم وأمرهم بالانتهاء إليها وهي الأمر الذي خلقوا لأجله أعني الوصول إلى الله طاهرين عن رجس الشيطان))[٥٩] . فهو في هذا المقام عطف الجانب الروحاني المتمثل بـ(النهاية – الورع والصبر) ، على الجانب المادي المتمثل (العمل – الاستقامة) .

٤- التكرار المعنوي (الدلالي) :

وهو التكرار الذي يستعمل للتعبير عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة . الغرض منه الزيادة في إيضاح المعنى المطلوب وتثبيتاً في أذهان المتلقين . وقد أطلق بعض من البلاغيين عليه تسمية (الترادف اللفظي)[٦٠] .

ومثله قوله (عليه السلام): ((**ثُمَّ أَدَاءَ الأمانَة ، فقَدْ خَابَ مَنْ لَيسَ مِنْ أهلِها إنَّ ها عُرِضَت عَلى السَّمَوات المَبنيَّة ، والأرضينَ المَدْحُوّة ، والجِبالِ ذَات الطُّولِ المنصُوبة ، فَلا أطولَ وَلا أعْرَضَ ، ولا أعلَى وَلا أعْظَم مِنْها . وَلَو أمتَنَع شَيءٌ بطول ، أو عَرْض ، أو قُوَّة ، أو عِزٍّ ، لامتَنَعن ، وَلَكن أشفَقْنَ مِنَ العُقُوبَة ، وعَقَلنَ مَا جَهِلَ مِنْ هُوَ أضعفُ مِنهُنَّ ، وَهُو الإنسَان﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾**))[٦١].

يتحدث الإمام في خطبة له عن ثلاث مسائل وهي الصلاة ، والزكاة ، والأمانة وقد وقع اختيار البحث على الأمانة لكثرة التكرار المعنوي الوارد هنا فهو ابتداء يذكر عرض الأمانة على (السموات المبنية ، والأرضين المدحوة ، والجبال ذات الطول) وكلها تشترك في معنى واحد ذي وجهين الأول :كونها من أعظم ما خلقه الله سبحانه وتعالى شكلاً وحجماً ، وقياس الإنسان لها لا شيء من جهة القوة . الثاني : لا تحفظ الأمانة .

---

(٥٩) شرح نهج البلاغة –البحراني : ٣٥٧/٣ .

(٦٠) ينظر : خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام : ٢٤٣ .

(٦١) شرح نهج البلاغة : ١٥٨/١٠-١٥٩ .

ثُمَّ جاء بالتكرار المعنى الثاني بقوله (فلا أطول ولا أعرض ، ولا أعلى ولا أعظم منها) والإمام في هذا التكرار جاء بمظهرين بديعين وهما – اللف والنشر ، والتتميم المعنوي[٦٢] – (فاللف) واضح يتمثل في التكرار المعنوي الأول ، و(النشر) في التكرار المعنوي الثاني ، ثم جاء بالتتميم ليقطع على السائل من أن يقول أحُد ما أن هناك أعظم من هذه الوصاف التي ذكرها .ثُمَّ جاء بالتكرار المعنوي الثالث في قوله لو أن هناك من أمتنع عن حمل الأمانة لامتنعن فجاء بقوله ((بطول ، أو عرض ، أو قوة، أو عز)) . فقوله لامتنعن ليس من باب الإباء والاستكبار ، وإنما هذا لسان حالها المعبر عن قصورها وعدم صلاحيتها لهذا الأمر . فجاء القول (أشفقن من العقوبة) وهو لفظ مجازي ، فإطلاق ((لإشفاق هنا على إباء السماوات والأرض بلسان حالها مجازاً إطلاقاً لأسم السبب على المسبب وقيل : إن ذلك الإباء والإشفاق على وجه التقدير وإنما جيء بلفظ الواقع لأن الواقع أبلغ من المقدَّر))[٦٣]، وقوله (عقلن) وكان لهن عقل في معرفة الصواب من الخطأ في من هو أضعف منهن في حملها فكأنه يقول : ((إذا كانت هذه الأجرام العلوية التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها))[٦٤] فلكان الجواب مستوحاً من آية في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:٧٢) والرسم الآتي يوضح العلاقة ما بين التكرار والمظاهر الأخرى :

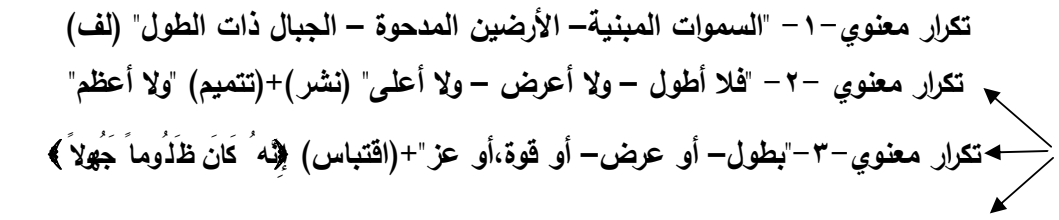

إن اجتماع المظاهر البديعية مع التكرار ليس بجديد ، فالإمام يحاول أن يخرج الصورة البديعية بأحسن حال .

---

(٦٢) سيأتي الحديث عن هذين المظهرين في فصل بلاغة الدلالة .

(٦٣) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٤٦٧/٣ .

(٦٤) المصدر نفسه .

وقوله (عليه السلام) بحق عمار بن ياسر (رضي الله عنه) : ((**ذَاكَ أَمرُؤٌ خَلَطَ اللهُ الإيمانَ بِلحمه وَدَمه وَعَظمه و شَعرِه وَبَشرِه لا يُفارِقُ الحَقَّ سَاعَةً ، حَيثُ زَالَ مَعَهُ ، ولا يَنبَغي للنَّارِ أَنْ تَأكُلَ مِنْهُ شَيْئاً**))[٦٥] .

فهذه شاهدة بحق هذا الصحابي الجليل ، تضاف إلى الشهادات السابقة . فالإمام يجيب بعض المسلمين في سؤالهم عن عمار ؛ وذلك لأنه في بدء الدعوة الإسلامية وقع في أسر مشركي قريش مع أبويه وقد عُنِبَّ من التعذيب ما لم يتعذبه أحد لرفضه الكفر بالرسول ، وبالدعوة التي جاء بها إلى أن وصل إلى مرحلة اضطر فيها أن يذكر الرسول بسوء لساناً لا قلباً ، وحينما علم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بفعل عمار مع المشركين لم يتأذ من ذلك الفعل ؛ لعلمه من عمار أن ذلك بغير قصد . فنزل قوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ**﴾ (النحل:١٠٦) ، وباجماع المفسرين قالوا : إنها نزلت بحق عمار بن ياسر[٦٦]. فجواب الإمام تأكيداً لقول الله عز وجل من خلال التكرار المعنوي (لحمه – عظمه– شَعره– بشره) كل هذه الألفاظ تنصب في معنى واحد وهو (قوة وصلابة إيمانه) . كما إنه أكد لهم بأنه لا يفارق الحق ولو ساعة ، وهذا دليل على قوة إيمان هذا الصحابي .

إن التكرار المعنوي بالرغم من قلة الدارسين له إلا أنه يسهم في إثراء المعنى إلى حدٍّ كبير من خلال تأكيده للمعنى بألفاظ مختلفة ، فضلاً عن الإيقاع الخفي الحاصل باختلاف اللفظ مع وحدة المعنى .

ثانيا: التكرار المتباعد :

١- تكرار الجمل :

---

(٦٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٤٤/٢ .

(٦٦) ينظر : تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) – لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري – ط٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٩م : ٦٥١/٧ ، ينظر الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي – تحقيق أبو اسحق ابراهيم اطفيش – د.ط – دار إحيار التراث العربي – بيروت – ١٩٦٦م : مج٥ : ١٨٠/١٠ ، ينظر الميزان في تفسير القرآن – السيد محمد حسين الطباطبائي – تصحيح الشيخ حسين الأعلمي – ط٢ – مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – ٢٠٠٢م : ٣٥٨/١٢ .

يُعد هذا النمط من التكرار أكثر رونقاً في النص من التكرار المفرد ، فهو يحقق الفائدة المعنوية، والقيمة الجمالية الأسلوبية التي تضفي على النص إيقاعاً متميزاً . كما إنه يعمل على ترسيخ المراد في ذهن المتلقي من خلال الجرس المنبعث من تلك الجمل . فمن أمثلة هذا النوع قوله (عليه السلام) : ((**الحَمْدُ لله كلَّما وَقَبَ لَيلٌ وغَسَقَ ، والحَمْدُ لله كُلَّما لاحَ نَجْمٌ وخَفَقَ ، والحَمدُ لله غَيرَ مَفْقُودِ الإنْعام ، وَلا مُكافَأ الإفْضَال**))[٦٧]. هذا الكلام قاله حينما أراد التوجه إلى صفين أي أنه في حالة تأهب للحرب ، والكلام في هذا الموقف يحتاج إلى خطيب مصقع ، عالم بخفايا الأمور وظواهرها ، بارع في وضع الحروف والكلمات في مواضعها. وهذا ليس بالكبير على الإمام فهو يبدأ خطبته بحمد الله وتكرارها ثلاث مرات على أمور يستحق لها الخالق أن يحمد فيها ، وأن يحمد على ما سواها ، فهو في أول الحمدين يجعلهما مصحوبا بـ(كلما) ؛ لعظم الموقف المتمثل بتعاقب الليل والنهار فهو يلتزم في هذه المسألة دوام الحمد ، وكذلك في طلوع الكواكب، وغروبها لحكمة يقتضيها فهو مستحق على ذلك جزيل الحمد .

والحمد الثالثة لكون نعمه متتالية على العباد وغير مفقودة مثلما وصفها الإمام. وما زاد الإيقاع قوة وجود السجع الحاصل بين (غسق – خفق) حتى تترسخ الفكرة وأصلها عند من يتكلم معه ويقرأ كلامه .

ومن كلامه (عليه السلام) : ((**اللهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمدٍ وَآلِ مُحَمَّد ، وَبارِكْ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّدٍ وتَحَنَّنْ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد ، وَسَلِّمْ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد كأفْضَلِ ما صَلَّيْتَ وَباركتَ وتَرَحَّمْتَ وَتَحَنَّنْتَ وَسَلَّمْتَ عَلى إبراهِيمَ وَآلِ إبراهِيم إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**))[٦٨]هذا الكلام قاله في خطبة له يوم الجمعة ، ولاسيما حينما وصل إلى الدعاء . وهذا النص يختلف عن بعض الأدعية ؛ وذلك من خلال التكرار الحاصل على مستوى العبارة أربع مرات والذي أضفى نوعاً من التناغم الجرسي والانسجام الموسيقي بين أجزاء النص. ليظهر هذا الانسجام طبقات صوتية تخدم الصنعة الأسلوبية. فاستعماله أفعال الأمر المجازية التي أفادت الدعاء من جانب ، وما أفادته من حصول تكرار معنوي في جانب آخر (صل – بارك – تحنن – سلم) والتي تَنْصَبُّ في معنى واحد (المنزلة والدرجة العالية)، أضفى إيقاعاً ثنائياً من خلال

---

(٦٧) **شرح نهج البلاغة : ١٥٧/٣ .**

(٦٨) **نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٤٤/٣ .**

فصله ما بين التكرارين المعنويين بـ(أفضل) وتسلسلها كلمة بعد أخرى في مقام ذكر إبراهيم وآله (عليهم السلام) . وما بدى من الإمام في هذا المقام الغاية منه تعريف الناس بمقام أهل البيت (عليهم السلام) من خلال تكرارهم خمس مرات فهُ م لا يقلون شأناً عن إبراهيم وآله ، ولعل التكرار هنا أوضح علو مقامهم وسمو درجتهم بين الناس.

فتكرار العبارة ليس بالأمر الجديد في هذه الخطب ، بل هو معروف منذ القدم. ويعجب البحث ممن يقول ويستغرب ((إنه إذا كان تكرار الجملة في الشعر مستحبا فأنه في النثر مكروه))[٦٩] . والبحث لا يُحاجج صاحب هذا القول بما جاء من تكرار في أحاديث الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، ولا كلام الإمام (عليه السلام) ، وإنما يقول له : ألم تلتفت إلى أثر التكرار في العبارة حين تقرأ القرآن الكريم ؟ ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**﴾ (الرحمن: ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر:١٧) ، فالأمر لا يتعلق بالحسن والكره بقدر ما يتعلق بالغاية التي يحققها التكرار حين وروده في النص مع علم البحث أنّ القرآن ليس بشعر أو نثر، فكم نصاً شعرياً أفسده تكرار العبارة لعدم موافقته لغوض النص والمعنى المقصود ؟ وكم نصاً نثرياً بلغ به قائله إلى أبعد الحدود ، وجفت لوجود التكرار فيه القلوب والعقول . وقد يكون العكس بالعكس . إذن فالمسألة لا تعني الشعر وتستثني النثر بقدر ما تعني منتج النص وقدرته الإبداعية في توظيف أي نوع من التكرار في أي مجال كان .

٢- التكرار المتناوب :

وهذا التكرار يكون على قسمين :

أ- التكرار المتناوب القريب .

ب- التكرار المتناوب البعيد .

---

(٦٩) علم البلاغة – د. محمد بركات حمدي أبو علي ، د. محمد علي أبو حمدة ، د. عبد الكريم الحياري – ط٢ – منشورات جامعة القدس المفتوحة – الأردن – ٢٠٠٣م : ٣٩٧ .

أما الأول وهو (المتناوب القريب) فالذي يراد به أن يفصل بين اللفظ المكرر كلمة واحدة.

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ من الأَحْكَامِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِ قَوْلِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ**) [٧٠] .

فبنية التكرار المتناوب القريب تظهر عند منتهى النص من خلال تكرار كلمة (واحد) ثلاث مرات مع كل كلمة، وكان بامكانه أن يختصر الكلمات التي حصل معها التكرار بلفظ واحد، ولكن لأهمية الموقف ورد النص هنا بهذه الصيغة. فهو يتحدث عن العلماء الذين يختلفون في المسألة الواحدة الظاهرة للعيان عند الناس والتي أوضحها الله عز وجل في كتابه العزيز، أو أمر بإيضاحها رسوله الكريم؛ حتى لا يختلف الناس من بعد، فالخلاف الحاصل مابين أولئك العلماء ليس بتعدد الآلهة أو كثرة الأنبياء، أو تحريف الكتب، وإنما جرَّاء الجهل الحاصل عندهم جميعاً، لأن الرب واحد، والرسول محمد (عليه السلام) خاتم الأنبياء، والكتاب الذي بين ايديهم واحد . ولعل التكرار المتناوب الحاصل بيَّن الجهل الحاصل عند هؤلاء العلماء .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ قَبْلَ جُفُوفِ الأَقْلاَمِ ، وَتَصَرُّمِ الأَيامِ وَلُزُومِ الآثَامِ**))[٧١]. فالإمام في هذا المقطع يذكر نوعين من التكرار الأول : الطرفي الواقع في بدء الجملة من خلال تكراره لفظ الجلالة مرتين .

الثاني : التكرار المتناوب القريب حينما فصله بلفظه (عباد ، عن التكرار الأول في أمر يستحق جمعهما وهو تنبيه المسلمين بالإسراع إلى العمل الصالح قبل فوات الأوان قبل الصيحة الكبرى ، وفي ذلك الحين لا يفيد العمل صاحبه ، وبالإسراع قبل انقضاء هذه الأيام التي تجري بالإنسان جريا نحو الموت ، فإذا مات أصبح الإثم لازماً له وهو محاسب عليه لا محال .

---

(٧٠) شرح نهج البلاغة :١/ ١٦٦ .

(٧١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٢١/٣ .

ب- التكرار المتناوب البعيد :

وهو أن يفصل بين اللفظة المكررة أكثر من كلمة [٧٢] .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**إنْ كَانَ في الغَافِلِينَ كُتِبَ في الذَّاكِرِينَ ، وإنْ كَانَ في الذَّاكِرِين لَمْ يُكتَبْ مِنَ الغَافِلِين**))[٧٣] . فالإمام في هذا الكلام يذكر صفات المتقين من خلال ذكرهم لله عز وجل في أكثر الأوقات . والإمام على طبيعته يجمع بين تكرارين الأول المتناوب البعيد بتكراره لفظة (الذاكرين) وهي بمعنى التسبيح والذكر القلبي أي أن الناس إذا جعلته في عداد الغافلين ، لعدم ذكره الله سبحانه وتعالى ، ولكونه مع الغافلين فعلى الرغم من ذلك فهو من الذاكرين لتسبيه بقلبه ، و(الذاكرين) الثانية واضحة وهو تسبيحه وذكره لله بلسانه فيعد من الذاكرين لكونه معهم .

الثاني : التكرار المعنوي : الجمع ما بين العبارتين تحت معنى واحد وهو كونه من (المتقين) في كلتا الحالتين سواء كان في عداد الغافلين ، أو الذاكرين للسبب الذي أوضحه البحث . فالإمام بهذين التكرارين أضفى نوعاً من الإيقاع المميز من خلال الانتقالات التي يحدثها ما بين الألفاظ مع الحفاظ على المعنى .

وكذلك تحرك الطباق في هذه الخطبة على المستويين العمودي والأفقي بشكلين من أشكاله جاعلاً المعنى يترسخ في أذهان المتلقين . والرسم الآتي يوضح الحركة الدائرية الحاصلة في هذا المقطع :

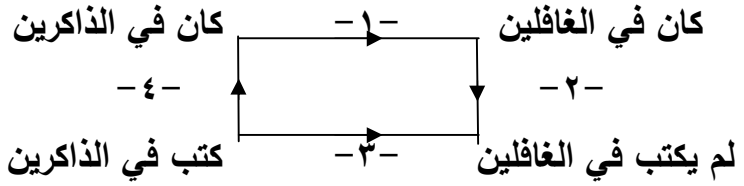

فالسهم رقم -١- يشير إلى وجود ((طباق الإيجاب)) .

والسهم رقم -٢- يشير إلى وجود ((طباق السلب)) .

---

(٧٢) ينظر الحديث النبوي الجاري مجرى المثل : ٥٢ .

(٧٣) شرح نهج البلاغة : ١١٧/١٠ .

والسهم رقم –٣– يشير إلى وجود ((تكرار معنوي)) .
والسهم رقم –٤– يشير إلى وجود ((تكرار متناوب – بعيد –)) .

وقوله (عليه السلام) : ((**إنَّما يُقَالُ مَتَى كَانَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَزَلْ بِلا كَيْفٍ يَكُونُ [وَ] كَانَ بِلا كَيْنُونَةٍ كَائِنٍ [وَ] لَمْ يَزُلْ قَبْلَ الْقَبْلِ وَبَعْدَ الْبَعْدِ [وَ] لا يَزَالُ بِلا كَيْفٍ وَلا غَايَةٍ ، وَلا مُنْتَهَى إِلَيهِ غَايَةٌ ، انْقَطَعَتْ دُونَهُ الْغَايَاتُ فَهُوَ غَايَةُ كُلِّ غَايَةٍ**))[٧٤].

هذا الكلام قاله حينما سأله يهودي متى كان ربّنا عز وجل؟ فأجابه بهذه الكلمات، والنصب يحمل في فضائه أنواعاً عديدة من التكرار منها التكرار المتناوب البعيد في لفظة (غاية) التي تكررت خمس مرات . فالإمام أراد أن يوضح لليهودي أنه لا يقال هذا السؤال لرب العالمين ؛ لأنه قبل كل شيء وبعده ، وإنما يقال لمن كان مسبوقاً بالعدم ثُمَّ وجد في هذه الحياة ، ثُمَّ يقطع الإمام شك اليهودي بقوله (انقطعت دونه الغايات) أي أن كل غاية يقال لها متى كانت إلا غايته هو – غاية كل غاية – والتكرار الوسطي حاضر في هذه العبارة ممزوجاً بالطباق – في قوله (قبل القبل × بعد البعد) ، وتكرار – الفعل – كان بمعاني مختلفة (كان – يكن – يكون – كائن) ، فكل هذه التكرارات أسهمت في خلق جوٍّ من التناغم الموسيقي والدلالي .

٣- تكرار التفصيل :

وهو التكرار الذي ترد فيه اللفظة المكررة متداخلة مع الكلمات الأخرى من جهة المعنى والصوت . ويعرف هذا الأسلوب عند القدماء بـ(ترديد الحبك) وهو ((أن تبني البيت من جمل تردّ فيه كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية ، وكلمة من الثالثة في الرابعة))[٧٥] . وعند المحدثين بـ(تصعيد المعاني) [٧٦] .

---

(٧٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٩٢/١ .

(٧٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن – ابن أبي الإصبع المصري – تحقيق د.حفني محمد شرف – د.ط – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة – ١٣٨٣هـ : ٢٥٥/٢ .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الإخلاص لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَن قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ ،وَمَن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ**))[٧٧]؛ وهذا الكلام جزء من خطبة قالها في ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم. أما عن هذا النص فهو يذكره في مقدمة الخطبة وهي من غرر كلامه فيما يتعلق بالأمور الإلهية . وهذه الألفاظ تحتاج إلى مباحث طويلة فيما يخص الأمور العرفانية والعقائدية ، ولكن سيوضح البحث هذا الكلام بالقدر الذي يتلائم معه ، وكيف أن هذه الكلمات خلقت ألواناً من التكرار فالتكرار جاء شرطاً لتحقق العبارة التي بعدها ، والعبارة المحققة تكون أيضاً شرطاً لما بعدها وهكذا إلى تحقيق المطلوب .

فهو حينما يقول (أول الدين معرفته ... إلى نفي الصفات عنه) أي أن الإنسان عليه أن يعرف أن لهذا العالم مدبراً ويُسّيره بقدرته وحكمته . ولا معبود سواه . وما فعله إبراهيم (عليه السلام) خير دليل على ما يريده البحث[٧٨]. وبعد المعرفة يأتي التصديق به لا عن رغبة أو رهبة بل عن يقين مطلق ، وبعدها توحيده إجلالاً وتعظيماً له على تلك القدرة التي يعجز عنها أي كائن ، بل لكونه أهلاً للعبادة . وبعدها يأتي الإخلاص له أن لا يعتقد بوجود إلهاً غيره مطلقاً [٧٩]. فإذا سار الاعتقاد والإقرار بالعبودية لله عز وجل، يجب أن تنفى عنه الصفات المتعلقة بالجسمية والعدمية ، فقد يكون توحيدك له بدون في الصفات عنه ناقصاً . ولكن إذا تحقق ما قاله الإمام : أن الله لا تجب عليه الصفات عن طريق – التعليل – عن

---

(٧٦) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية – د.عز الدين علي السيد – د.ط– مكتبة وهبة – ١٩٧٣م : ٢٤٥.

(٧٧) شرح نهج البلاغة : ١٩٢ .

(٧٨) يوضح السياق القرآني كيف إن إبراهيم آمن بالله من خلال الصور التي يعرضها لنا ، كما في قوله تعالى :﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ٧٦-٧٩) . فهذه الآية تعكس ما يريده الإمام بعد معرفة الله من تصديق به وتوحيده والإخلاص له ونفي الصفات عنه .

(٧٩) ينظر شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٢٢/١ .

الشهادة الاستدلالية في كون الصفة لا تقوم بدون الموصوف ، وكون الموصوف يستغى عن الصفة ويقوم بذاته ، فلا تكون الصفة نفس الموصوف . أي أن الله قائم بحد ذاته ولا يكون مثل الصفة والموصوف.ثُمَّ يأتي المقطع الثاني ليكمل المقطع الأول في كون الذي يصفه فأنه سيقرنه بصفة أخرى ، وهذا سيؤدي إلى التثنية وعن وجود شيئين ، وهذا سيؤدي إلى الإقرار بالتجزئة نتيجة التثنية ، والتجزئة ستؤدي إلى الجهل ، وهذا صحيح لأن ((الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به))[٨٠]. والجهل سيؤدي إلى الإشارة إليه وهذا لا يجوز على الله عز وجل ؛ وذلك لأن الإشارة تكون للأشياء المرئية والملموسة فإذا كانت في جهة معينة فإنها لا تكون في إحدى الجهات الثلاث الأخرى . وتمام القول إنَّه إذا حُدَّ في جهة فأنه سيُعد ويعرف وهذا لا يجوز في حال من الأحوال .

وقد زيد التكرار جرساً وجوده بأشكال مختلفة ، فمرة على جهة التفصيل ، وثانية بتكرار اللفظ (كمال) أربع مرات ، وأخرى تكرار العبارة عند كل انتقال إلى الجملة الثانية من المقطع الأول . وكذلك تكرار حرف التحقيق (قد) سبع مرات في المقطع الثاني من هذا النص .والشيء المميز في هذا التكرار أنك إذا حذفت مقطعاً ما أصبح الكلام ناقصاً ؛ والسبب ذُكِر سابقاً في كون كل عبارة متحققة عن طريق الأخرى . فالإمام حينما يتناول هذه الفكرة بصياغات متعددة من خلال بنية التكرار السائدة هنا نبعث بالمتلقي إلى التمييز والمفارقة بين صاحب هذا الكلام وبين مبدع آخر.

وقوله (عليه السلام) : ((**فَجَفَى السَّيِّئَةَ ذَنْباً ، وَالذَّنْبَ فِتْنَةً ، وَالفِتْنَةَ نَسَاً وَجَعَلَ الْحُسْنَى غُنْماً وَالْعُقْبَى تَوْبَةً وَالتَّوْبَةَ طُهُوراً**))[٨١] ، فتكرار التفصيل واضح في هذا المقطع (الذنب – الفتنة – التوبة) فضلاً عن ثنائية الطباق التي تواجدت مع إيقاع التكرار والتي تتمثل بإيهام الطباق (السيئة – الحسنى) [٨٢] ، والثانية (نساً –طهوراً). كذلك تكرار الصائت الطويل

---

(٨٠) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٢٢/١ .

(٨١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٧٠/٣ .

(٨٢) سيأتي الحديث عن إيهام الطباق في مبحث (الطباق) إن شاء الله ، ولكن يريد أن يوضح الكلام الحاصل هنا ، فالسيئة ليست ضد الحسنى وانما السوأى ؛ وذلك لأن الحسنى مرتبة عالية لا ينالها إلا ذو حظ عظيم ، والسوأى أدنى مراتب العقوبة وأشدها وهي النار ، ولكن استعمل (السيئة) ؛ لكي يتوب الإنسان مادامت الفرصة سانحة ، واستعمل (الحسنى) من باب التنافس والتشويق .

(الألف) في الكلمات (ذنباً –دنساً – الحسنى– غنما – العتبى –طهوراً) أسارع نوعاً من التوازن الصوتي والذي يتلائم مع معنى النص .

٤- التكرار الدائري :

وهو مجيء اللفظ مكرراً إما في طرفي الجملة ، أو في حشوها ونهايتها . ويسمى هذا النوع عند البلاغيين بـ(التصدير) أو (رد الأعجاز على الصدور) ومن بين الذين تحدثوا عن هذا المظهر البديعي عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٩هـ) حين جعل الباب الرابع تحت عنوان (رد العجز على الصدر) من كتابه ، ومّثل له شعراً ونثراً للدلالة على أنه يرد في الكلام بنوعيه[٨٣] . وذكروا من بعده علماء البلاغة القول نفسه ، ومنهم الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) ويسميه مثل سابقه ويعرفه ((وهو في النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين ، أو الملحقين بهما ، في أول الفقرة ، والآخر في آخرهما))[٨٤]. وغيره سّماه بالتصدير ((لأن هذه التسمية في نظرهم أدل على المطلوب وأليق بالمقام وأخف على المستمع)) [٨٥] .

ولا يختلف ابن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ) عن الخطيب القزويني في تعريفه له إلا في النزر القليل فهو بين مفهومه حينما يرد في النثر بقوله ((أن يجعل أحد اللفظين المكررين أعني المتفقين في اللفظ والمعنى أو المتجانسين وهما المتشابهان في اللفظ دون المعنى أو الملحقين بالمتجانسين وهما اللفظان اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه في أول الفقرة واللفظ الآخر في آخرها))[٨٦] ، وهناك من يرى أن التصدير ولاسّيما في النثر قد يكون بين دالّين أحدهما في حشو الفقرة والآخر في منتهاها [٨٧]. وهو الدكتور محمد عبد المطلب

---

(٨٣) ينظر : البديع : ١٤٠ .

(٨٤) الإيضاح في علوم البلاغة – جلال الدين أبي محمد القزويني – تحقيق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر – د.ط – مكتبة المثنى – بغداد – د.ت : ٣٩٠/٢ .

(٨٥) علم البديع – د. عبد العزيز عتيق – د.ط – دار الآفاق العربية – القاهرة – ٢٠٠٤م : ١٧٥ .

(٨٦) أنوار الربيع في أنواع البديع – السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني– تحقي شاكر هادي شكر– ط١ – مطبعة النعمان – النجف الأشرف – ١٩٦٩م : ٩٤/٣ .

(٨٧) ينظر البلاغة العربية قراءة أخرى – د. محمد عبد المطلب – ط١ – الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – ١٩٩٧م : ٣٦٨ .

واستشهد بآية من الذكر الحكيم ، قال تعالى :﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُم لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾ (سورة طه:٦١) . والسبب الذي جعل البحث يدرس التصدير ضمن التكرار لما يحدثه من إيقاع دائري نتيجة التكرار الذي يحدثه في داخل الجملة. وفيه ((تأخذ اللفظة المكررة أبعاداً مكانية تعمل على تنسيق الدلالة بحيث يكون هناك اتفاق بين حركة الذهن وحركة الصياغة فيكون الناتج بعيد الأثر في أدبية الصياغة))[٨٨]. وإذا بُحِثَ عن السبب تراه ((عودة المعنى في الطرف الثاني إلى الطرف الأول لأحكام العلاقة بين البداية والنهاية))[٨٩] ، وخطب الإمام غنية بمثل هذا النوع من التكرار فمنه قوله (عليه السلام) : ((**فَبِالإيمَانِ يُستَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُعَمَّرُ الفِقهُ ، وَبِالفِقهِ يُرهَبُ المَوتُ ، وَبِالمَوتِ تُختَمُ الدُّنيا ، وَبِالدُّنيا تُجزَى القِيَامَةُ وَبِالقِيَامَةِ تُزلَفُ الجَنَّةُ ، وَالجَنَّةُ حَسرَةُ أهلِ النَّارِ ، وَالنَّارُ مَوعِظَةُ المُتَّقِينَ ، وَالتَّقوَى سِنخُ الإيمَانِ**))[٩٠]. فالإمام جمع تكرارين في آن واحد ، فقد استعمل التكرار الدائري ما بين (الإيمان – الإيمان) ؛ لأن الإمام جعل الإيمان مما يستدل به على الصالحات ، ثم عاد وجعل التقوى أصل الإيمان . واستعمل التكرار التفصيلي ما بين التكرار الدائري ليعطي للفظ جرساً سلساً ، وتناغماً مميزاً . فهذا النوع من التكرار أي – الدائري – كأنه نوع من الموسيقى التي يتطلب فيها ترداد قسم من الألفاظ ، والتي يدركها السامعون إدراكاً وهلياً بمجرد سماعهم لتلك الكلمات . ومع كل ذلك فأنك تجد فيه الرزق لحسن السبك في الصناعة ومائية الطلاوة من جمال المعرض[٩١].

وقوله (عليه السلام) : ((**وَمَنْ ضَاقَ عَلَيهِ العَدْلُ ، فَالجَورُ عَلَيهِ أضْيَقُ**))[٩٢].

وهذا الكلام يجري مجرى الأمثال للتعبير عن حال الإنسان في الحالتين اللتين ذكرهما الإمام . فهو يستعمل ثنائية الطباق (العدل – الجور) ليبني عليها حكما من خلال التكرار الدائري بصيغة الاشتقاق (ضاق – أضيق) ومعناه أن العبد إذا ضاقت به الأمور من الحاكم في الدنيا فهذا أمر هيِّن ؛ لأن فيه إحقاق الحق ونصرته ، وإن كان هذا الحق قد

---

(٨٨) بناء الأسلوب في شعر الحداثة : ١٥٥ .

(٨٩) المصدر نفسه : ٣٩٨ .

(٩٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦١٦/١-٦١٧ .

(٩١) ينظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان –د.إبراهيم سلامة– ط٢ – مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٥٢م : ١٢٩.

(٩٢) شرح نهج البلاغة : ١ /٢٥٠ .

ضَيّق عليه ما يريد. أما إذا لم يستطيع في العدل إحقاق الحق فكيف به في الجور ؟ فأنه سيكون أضيق ؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة وذلك من خلال نصرته للظالم ، وهذا ما لا يرضاه سبحانه وتعالى وسيحاسبه عليه في الآخرة .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَمَنْ فَطَنَ بِما بَطَنَ رَأى مَكنُونَ الفِطَنِ**))[٩٣]. وهذا الكلام يجري مجرى المثل أيضاً ، فهو يحمل في صورته البنية الصوتية إلى جانب المستوى الدلالي ، فالإمام بدأ بالتكرار الدائري (فطن – الفطن) مرورا بالجناس المضارع (فطن – بطن) ، وصولا إلى تكرار حرف (النون)خمس مرات والذي خلق إيقاعاً خاصاً بهذه الجملة تجعلها قائمة بحدِّ ذاتها .

وأما المعنى الذي حملته فهو يراد الاستبصار بخفايا الأمور في هذه الدنيا ، فإذا الإنسان فطن فيها فأنه سيراها . وهذا لا يكون إلا لمن حاز رضا الله عز وجل .

ثالثا: **التكرار المفرد** :

عند قراءة الإمام تجد ما بين سطورها كلمات تتكرر فيها أصوات معينة لسبب يقتضيه السياق والمعنى ، فإذا كان السياق في معرض وصف لأمور هادئة مثل الجنة وغيرها تأتي الأصوات سلسلة وهادئة تتلائم مع المعنى المطلوب ، أما إذا كان الموقف يتطلب القوة والخشونة فإن تلك الأصوات ستكون هادرة وخشنة بحسب السياق الذي يقتضيه.

ومثاله قوله (عليه السلام) في إحدى خطبه : ((**دَعَوْتُكُم إلى نَصْرِ إخْوَانِكُم فَجَرْجَرتُم جَرْجَرةَ الجَمَلِ الأسَرِّ ، وَتَثَاقَلْتُم تَثَاقُلَ النِّضْوِ الأدْبَرِ**))[٩٤]. وهذا الكلام خطب به حينما عاد النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر[٩٥] لحث المسلمين على التصدي له ، فلما تثاقل المسلمون آنذاك في نصرته خاطبهم بهذا الكلام . ويلاحظ إن الصوت المهيمن على العبارة الأولى هما صوت (الجيم) حيث تكرر مرتين في كل كلمة ومعروف عن هذا الصوت إنه

---

(٩٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٧٣/٣ .

(٩٤) شرح نهج البلاغة : ٢٣٦/٢ .

(٩٥) عين التمر : بلدة واقعة في طرف البادية على غربي الفرات . أغار عليها النعمان بن بشيرؤ بألفي فارس من الشام لإرهاب أهل العراق وكان عليها أحد عمال أمير المؤمنين وهو مالك بن كعب الارحبي . ينظر : المصدر نفسه : ٢٣٧/٢ .

من الأصوات الانفجارية الشديدة [٩٦]. و(الراء) الذي تكرر مرتين أيضاً وهو من جهة الصوت متوسط بين الشدة والرخاوة [٩٧] أدى إلى خلق إيقاع ثقيل بطيء يتناسب مع الحالة التي هم عليها ؛ لأن الجَرْجرة : صوت يردِّده البعير في حنجرته ، وأكثر ما يكون ذلك في حالة الضجر نتيجة التعب[٩٨] ، ثم قرن هذه الجرجرة بتشبيه بليغ بوصفهم بالجمل الأسر: أي ((المصاب بداء السرر وهو مرض في الكركرة ينشأ من الدبرة))[٩٩]. ولم يكتف الإمام بهذا الوصف وإنما أكملها بتكرار وصفين (الجمل الأسر– النضو الأدبر) ، فالنَّضْو: ((الدابة التي هزلتها الأسفار وأذهبت لحمها))[١٠٠] ، والأدبر من الدُّبر: ((الجرح الذي يكون في ظهر البعير))[١٠١]فكل هذه التكرارات جاءت لخدمة النص صوتياً ودلالياً ، بل إن البنية الصوتية عكست تماماً الحال الذي هم عليه من تثاقل وتذمر من القتال .

وقوله (عليه السلام) يصف أصحابه حينما سأله الأحنف بن قيس عن حالهم عند رؤيته لهم كأنهم قربة ماء يابسة (((أ) من قلة الطعام أم من هول الحرب))[١٠٢] ؟ فأجابه : بكلام كان منه : ((**فَلَو رَأيتَهم في لَيْلِهم وَنَهارِهم وَقَد نامَت العُيونُ وَهدأت الأَصواتُ وَسَكَنت الحَرَكاتُ مِنَ الطَّيرِ في الوُكورِ ، وَقَد نَهْنَهم يوم الوعيد [و] ذلك قوله تعالى :﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[٩٧ – الأعراف]فاسْتَيقَظُوا لَها فَزِعين يُوِلْوِلُونَ [مَرَّةً] وَ يَكُونَ تَارَةً ، وَيَبِّحُونَ لَيْلَةً مُظلِمَةً بَهْمَاء**))[١٠٣]. فالتكرار حاصل في (نهنهم) وهي وصف دقيق لحال أصحابه فـ(النون) معروف عنه إنَّه من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة [١٠٤]. وحرف (الهاء) إنَّه من الأصوات الحلقية وهو ((صوت رخو مهموس))[١٠٥].

---

(٩٦) ينظر : الأصوات اللغوية : ٢٤ .

(٩٧) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ١١٤–١١٥ .

(٩٨) ينظر : لسان العرب : مادة (جرر) : ٩٣/٢ .

(٩٩) نهج البلاغة – محمد عبده : ١١٣/١ .

(١٠٠) لسان العرب ، مادة (نضا) : ٥٩٥/٨ .

(١٠١) المصدر نفسه ، مادة (دبر) : ٢٩٠/٣ .

(١٠٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٣٤/١ .

(١٠٣)نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٣٥/١ .

(١٠٤) ينظر : الأصوات اللغوية : ٦١ .

(١٠٥) المصدر نفسه : ٧٧ .

فاجتماعهما في كلمة واحدة خلق نوعا من الانسجام الدلالي الصوتي نتيجة تكرار هذين الحرفين ، ولاسّيما حرف (الهاء) والذي يبدو أنه مهيمن على الكلمة ، لا بل حتى على مستوى العبارة التي ذُكِرت ، فهذا الثقل الصوتي المنبعث من هذا التكرار في هذه الكلمة جاء موافق مع قوله (عليه السلام) في كون يوم الوعيد زجرهم لشدة خوفهم من ذلك اليوم ، في حين أن العيون قد نامت والأصوات قد هدأت ، وانقطعت الطير عن الحركة. وإذا دُقق النظر وُجِد حضور – الطباق المعنوي – المتمثل بين ما ذكره الإمام سابقاً ، وحال أصحابه أي (سكون – حركة) .وما زاد التكرار جمالاً وجود النص القرآني – تناص – ليوضح مدى خوفهم من الله سبحانه وتعالى حتى في الليل ، ولذلك كان حالهم كما قال الإمام مرة يبكون مرة ومرة يسبحون(١٠٦) .

٢- تكرار الحروف في الجملة الواحدة :

ويقسم إلى قسمين :

أ– تكرار الحروف التي تؤدي معنى من المعاني النحوية .

ب– تكرار صوت من الأصوات أكثر من مرة في ألفاظ الخطبة الواحدة .

أما النوع الأول فمثاله قوله (عليه السلام) : ((**إنَّ البَهائِم هُمُّها بُطُونُها وإنَّ السِّباعَ هُمُّها العُدوانُ عَلَى غَيرِها ، وإنَّ النِّساءَ هُمُّهنَّ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنيا والفَسادُ فِيها . إنَّ المؤمِنِينَ مُستَكِينُونَ ،إنَّ المُؤمِنِينَ مُشفِقُونَ ، إنَّ المُؤمِنِينَ خائِفُونَ**))(١٠٧). فتكرار ((إنَّ)) ست مرات في هذا النص ((لم يرد اعتباطاً ومن دون فائدة ، وإنما جاء لتقرير هذه الحقائق في أذهان المتلقي وإعطائها صفة الثبوت وتأكيد حقيقة وقوعها ... وما تشيعه (إنَّ) التوكيدية من شعور بالاطمئنان النفسي لدى المتلقي بفضل توكيدها للحقائق التي تليت عليهم))(١٠٨).

---

(١٠٦) هناك آية في السياق القرآني بعد هذه الآية التي ذكرها الإمام في النص المذكور أعلاه لم يذكرها وحي أيضاً توضح نزول عذاب الله ولكن نهاراً وهي : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف : ٩٨) فأغلب الظن أنه لم يذكرها لكون أصحابه في ذلك الوقت مستيقظون مع الناس ويؤدون الأعمال على أتم وجهها . وحتى لا يقول قائل في حال ذكره آية النهار أن العباد شأنهم كذلك وهذا ليس بصعب . فالإمام اقتصر على ذكر آية الليل لأنه أثقل على العباد من جهة اداء العبادات . ويجوز كونه اقتصر على هذه الآية لأنها أوقت بدلاً عن الأخرى ، لأنه إذا كان حال أصحابه في الليل هكذا فما هو حالهم في النهار؟ .

(١٠٧) شرح نهج البلاغة : ٩/١٢٤ .

(١٠٨) خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام : ٢٣٥ – ٢٣٦ .

فالإمام في قوله له هذا يفصح عن ثلاث قوى ، الأولى : الشهوانية المتمثلة بالطعام والشراب وغيرهما ، فإذا صار الإنسان يطلبها، ولا تعنيه غيرها كان قوله مثل البهائم الثانية : الغضبية المتمثلة في حب الانتقام والتغلب على الأمرين : فإذا كان الإنسان همه هذا أنطبق عليه ما يكون على السباع . والثالثة : الجامعة لتلك القوتين وتتمثل في النساء فقوله (همهن زينة الحياة الدنيا) شهوانية ، وقوله (والفساد فيها) غضبية[١٠٩] . ومثلما قال البحث سابقاً في حق النساء ، فالقول لا يشملهن جميعاً . ثم جاء بعدها ذكر صفات المؤمنين لتكن كل عبارة ترجع إلى أختها – لف ونشر – فمقابل الشهوانية الخضوع له ، ونتيجة القوة الخوف من غضبه ، ونتيجة الفساد الحذر من عقابه ، ولم يكن التكرار يقتصر على الحرف فقط ، وإنما كان لتكرار اللفظين (همها – المؤمنين) ثلاث مرات أثراً في إثراء البنية الإيقاعية الأسلوبية للنص .

وقوله (عليه السلام) : ((**إنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى لمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أَرادَ أنْ يَكُونُوا عَلى آدابٍ رَفِيعَةٍ ، وَأخلاقٍ شَرِيفَةٍ ، فَعلِم أنَّهم لَمْ يَكُونُوا كَذلكَ إلا بِأنْ يُعرِّفُهم ما لَهُم وَما عَلَيهِم ، وَالتَّعرِيفُ لا يَكُونُ إلا بالأمرِ وَالنَّهيِ ، وَالأَمْرُ وَالنَّهيُ لا يَجْتَمِعانِ إلا بالوَعْدِ وَالوَعِيدِ ، وَالوَعْدُ لا يَكونُ إلا بالتّرغيبِ ؛ وَالوَعِيدُ لا يَكُونُ إلا بالتّرهيبِ ، وَالتَّرغِيبُ لا يَكونُ إلا بِما تَشْتَهِيهِ أَنْفُسُهم وَتلَذُّ [بِهِ] أَعْيُنُهم وَ التَّرهِيبُ لا يكُونُ إلا بِضدِّ ذلك**))[١١٠]. فقد كرر (إلا) سبع مرات والتي أفادت معنى الحصر، وكرر (لا) النافية ست مرات وذلك لفائدتين الأولى : فائدة نحوية وهذا يتعلق بـ(إلا) الحصرية ؛ لأن شرط وجودها بالجملة أن تسبق بكلام منفي[١١١]والثانية : فائدة صوتية من خلال تكرارها لتفيد معنى التوكيد من جهة، ولتناغمها مع (إلا) من جهة أخرى. وهناك من يرى في الحرف (لا) فوائد نغمية في عدة مواضع، فأنك إذا انطلقت بنغمة هابطة فأن الجملة ستكون تقريبية ، وإذا انطلقت بنغمة صاعدة هابطة صاعدة تدل على دهشة واستنكار وإذا نطقت بنغمة صاعدة هابطة فأنها توكيدية [١١٢].

---

(١٠٩) ينظر : شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٤٦/٣ .

(١١٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠١/٣ .

(١١١) ينظر: موسوعة النحو والصرف والإعراب – د. أميل بديع يعقوب – ط١ – دار العلم للملايين – طبعة مصوّرة في قُم – ٢٠٠٥م : ١٣٦.

(١١٢) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٣/٥ .

كذلك وجود التكرار التفصيلي بالنوع نفسه وآخر جديد ، فالنوع نفسه كان في تكرار (الأمر والنهي) والنوع الآخر هو تكرار كل كلمة على إحدى (الوعد – الوعيد– الترغيب– الترهيب) وهذا ما لم يعهده السامع والقارئ في كلامه . ووجود الطباق (لهم–عليهم) ، (الأمر– النهي) ، (الوعد– الوعيد) ، (الترغيب– الترهيب) كل هذا أسهم في رفع القيمة المعنوية للنص بحيث يؤدي إلى جذب المتلقي لمثل هذا النوع من الكلام .

ب– وأما النوع الثاني والمتمثل في تكرار صوت من الأصوات في ألفاظ الخطبة الواحدة قوله (عليه السلام) في أحد خطبه : ((**أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِسْلاَماً لِعِزَّتِهِ وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ**))[113]. حيث كرر الإمام حرف (الميم) ثمان مرات ومعروف عن إنه من الأصوات المتوسطة[114]. وتكرار حرف (السين) خمس مرات ومعروف عنه إنه من الأصوات الاحتكاكية المهموسة[115]. وتكرار حرف (العين) خمس مرات ، فهو يحمل خاصية تختلف عن بقية الحروف فوجوده في أي جملة يعمل على تحسين بنيتها ؛ لأنه من أطلق الحروف ، وأضخمها جرسا فإذا تواجد في الجملة مع حرف آخر مثل (السين) فأنه يولّد إيقاعاً عالياً نتيجة تكراره مع أحد الحروف التي ذُكرت هنا[116] .

وقوله (عليه السلام): ((**رُوَيْداً عَمّا قَلِيلٍ تَحْصُدُونَ جَمِيعَ مَا زَرَعْتُمْ وَتَجْنُونَ وَخِيمَ مَا اجْتَرَمْتُمْ وَمَا اجْتَلَبْتُمْ**))[117]، وقوله هذا بحق من ترك كلامه ونصائحه وسار إلى غيره عند من لا علم له ولا دراية بعواقب الأمور ، ويلاحظ على هذا النص تكرار العديد من الحروف ، حيث تكرر حرف (الميم) أحد عشر مرة ومعروف عنه إنه من الحروف الذلقية[118]، وتكرار حرف (التاء) سبع مرات وقد عرف عنه إنه من الأصوات الانفجارية والتي تتميز بكونها شديدة الهمس[119]، ووجوده في الجملة يعمل على تنبيه المتلقي لإرساء المعنى

---

(١١٣) شرح نهج البلاغة : ١٣٩/١ .

(١١٤) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٤ .

(١١٥) ينظر : علم الأصوات العام (أصوات اللغة العربية) – د. بسام بركة – د.ط – مركز الأنماء القومي – لبنان – د.ت : ١٢٣ .

(١١٦) ينظر : العين : ٥٣/١ .

(١١٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٢/١–٦٣ .

(١١٨) ينظر : العين : ١٥١ .

(١١٩) ينظر : الأصوات اللغوية : ٥٦–٥٧ .

المطلوب في ذهنه. وتكرار كل من (الجيم – الياء) أربع مرات ، كذلك تكرار (ما) أربع مرات أضفت على المقطعدعماً صوتياً ودلالياً . فالنص يفصح عن نفسه بالغضب نتيجة جهل هؤلاء المسلمين بعد كل ما قدّمه لهم الإمام من أدلة وبراهين تغنيهم عن غيره.

٣- تكرار الأفعال :

وهو تكرار بعض الأفعال في الخطب لغاية يقتضيها السياق . فعلى سبيل المثال قوله (عليه السلام) : ((**لَطِيفٌ لا يُوصَفُ بِالخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لا يُوصَفُ بِالجَفَاءِ ، بَصِيرٌ لا يُوصَفُ بِالحَاسَّةِ ، رَحِيمٌ لا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ**))[١٢٠]. وهذا الكلام جزء من خطبة قالها حينما سأله ذعلب اليماني: هل رأيت ربك ؟ فأجابه وكان هذا الذي ذُكِر من كلامه. والتكرار هنا حاصل للفعل (يوصف) الذي تكرر أربع مرات مصاحباً بـ(لا) النافية ، وقد أضفى كل واحد منهما فائدة معنوية وصوتية ، فوجود (لا) مع الفعل المتكرر أفاد بنفي الصفات التي تقع على البشر وغيرهم من جفاء ، وحاسة ، ورِّقة ، وتكرار هذا الفعل أفاد معنى – التتميم – فهو حينما قال أنه لطيف أتّمها بكونه لا يوصف بالخفاء ؛ وذلك لأن العرب إذا أطلقت هذه اللفظة على شيء معين إرادة بأنه صغير الحجم ، وهذا ما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى ، وإنما قد يكون لمعنيين أحدهما: لكونه لا يُرى فأطلق عليه هذا الوصف. الثاني : لكونه لطيف بعباده من جهة الرحمة والرفقة بهم[١٢١].وقوله كبير أتّمها بأنه لا يوصف بالجفاء ؛ وهذا صحيح لأن الكبير قد يكون منه الغلظة والجفاء بسبب طوله وتباعد أقطاره وهذا مما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى ، وإنّما استعمل هذا اللفظ ليدل على عظمته وقوة سلطانه . وقوله بصير أتمها أنه لا يوصف بالحاسة فهذا معلوم . وقوله رحيم أتّمها أنه لا يوصف بالرِّقة ؛ لأن هذه اللقطة إنما تطلق على عباده إذا رق الملك منهم على رعيته ، أما سبحانه وتعالى فهو رحيم في كل حالاته وعلى جميع مخلوقاته ، وهذا لا يكون مع الإنسان[١٢٢].

وقوله (عليه السلام) : ((**كَانَ حَيّاً بِلا كَيْفٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَانٌ ، وَلا كَانَ لِكَانِهِ كَيْفٌ ، وَلا كَانَ لَهُ أَيْنٌ ، وَلا كَانَ فِي شَيءٍ وَلا كَانَ عَلَى شَيءٍ ، وَلا ابْتَدَعَ لِكَانِهِ مَكَاناً ، وَلا قَوِيَ**

(١٢٠) شرح نهج البلاغة : ٥١/١٠ .

(١٢١) ينظر: شرح نهج البلاغة : ٥٢/١٠ .

(١٢٢) يقترب هذا المقطع من قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣).

بعدما كوَّن شيئاً ، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوِّن شيئاً ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً ؛ ولا يشبهه شيئاً ولا كان خلواً عن الملك قبل إنشائه ؛ ولا يكون خلواً منه بعد ذهابه ، كان إلهاً حيّاً بلا حياة))[١٢٣]. يمكن النظر إلى هذا التركيب البديعي الذي أحدثه تكرار الفعل (كان) عشر مرات ، وباشتقاقات مختلفة (يكون – كوَّن – يكوِّن – يكون) حيث هيمن هذا الفعل على النص بصورة واضحة خالقاً جواً من التناغم الموسيقي ما بين الكلمات (لم يكن له كان – ولا كان لكانه كيف – ولا ابتدع لكانه مكانا) فتجاور هذه الألفاظ مع بعضها لم يخل بسياق النص ، وإنما زادهقوة وجمالاً . وتكرار (لا) أربع عشرة مرة ، مصحوباً اغلبها بحرف العطف ، ووجود – المقابلة – في قوله ((ولا كان خلوا عن الملك قبل إنشائه ؛ ولا يكون خِلوا منه بعد ذهابه)) كل هذا أسهم في خلق تنغيم موسيقي تناغم مع المعنى المراد إيضاحه . فقوله ((لم يكن ... كيف)) قصد أنه لم يكن له زمان، ولا يقال لزمانه كيف هيأته، بل أن وجوده أزلي .والمقطع الذي بعده ((ولا كان في شيء ... ولا كان على شيء)) نفي واضح بأنه منزه عن الجسمية أو العرضية ؛ لأن الجسم هو الذي يكون داخل الشيء أو فوقه وهذا ما لا يجوز على الله عز وجل.

٤- تكرار الأسماء :

هناك نوعان من تكرار الأسماء في خطب الإمام (عليه السلام) :

أ- تكرار الاسم بعينه .

ب- تكرار المشتقات (صيغة الاسم) في الجملة الواحدة .

فمثال الأول قوله (عليه السلام) : ((**عباد الله ! أوصيكم بتقوى الله ، فإنَّها حقُّ عليكم، والموجبةُ على الله حقَّكم ، وأنْ تستعينوا عليها بالله ، وتستعينوا بها على الله**))[١٢٤]. فقد كرر لفظ الجلالة (الله) خمس مرات لغرض التأكيد على التقوى . والبديع في هذا النص أن ورود لفظ الجلالة (الله) في كل عبارة تجد فيها مظهر بديعي آخر ، فأنك تجد إلى جانب

---

(١٢٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/٦٠-٦١ .

(١٢٤) شرح نهج البلاغة : ١٣/٨٨ .

تكرار الاسم (التعليل – التكرار الدائري – تكرار الفعل – عكس وتبديل) وهذا بدون شك يتلائم مع المعنى الذي يريده الإمام والرسم الآتي يوضح ذلك :

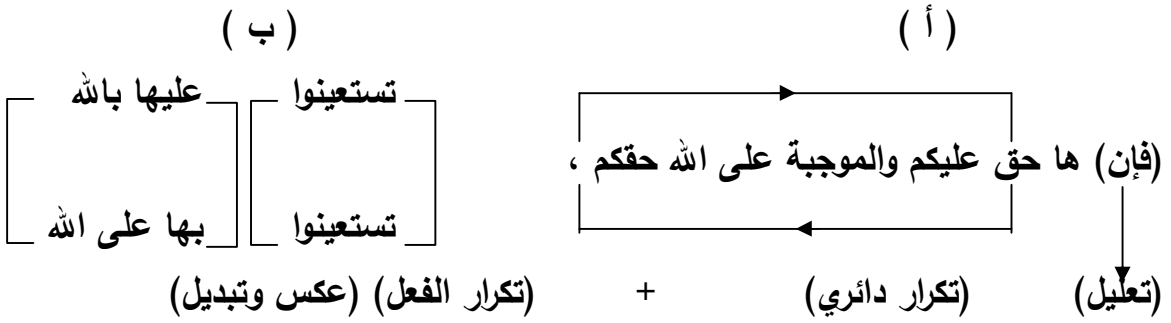

وهناك كلام جرى بين الإمام (عليه السلام) وبين نوف البكالي كرر الإمام فيه اسم نوف أحد عش مرة مصحوبا بـ(يا) النداء ، وجميع التكرار الذي ورد يحمل معنى التذكير والنصح[١٢٥] .

ومثال الثاني قوله (عليه السلام) : ((**الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلا نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ . وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ**))[١٢٦] ، فقد استعمل الإمام في هذا صيغة (اسم المفعول) أربع مرات (محدود ، موجود ، معدود ، ممدود) فهو في قوله هذا يحقق المستوى الصوتي مع مسحة جمالية تتمثل بالسجع – المتوازي – الذي يجمع هذه الكلمات ، والجناس – اللاحق – الحاصل بين اللفظتين (معدود – ممدود) ، كل هذا التناغم الصوتي أدى إلى لفت أنظار المتلقي ، ولاسيّما أن هذا الكلام يقع في مقدمة الخطبة ، ومن الطبيعي أن يكون حافلاً بما ذُكِر سابقاً .

وقوله (عليه السلام): ((**الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ ؛ الْحَكِيمِ الْمَجِيدِ ؛ الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ ، عَلَّامِ الْغُيُوبِ ؛ وَسَتَّارِ الْعُيُوبِ ؛ وَخَالِقِ الْخَلْقِ**))[١٢٧] ، فالبحث اشتمل على أنواع من التكرار مثل (الحميدَ – الحكيَم – المجيد) وهي من أسماء الله الحسنى ، ويمكن عدّها من تكرار الأسماء ، ويمكن أن تكون صيغ مبالغة على وزن (فعيل). والبحث يرى إن الأمر

---

(١٢٥) ينظر نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٩١/١-٤٩٢ .

(١٢٦) شرح نهج البلاغة : ٨١/١ .

(١٢٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٤١/١ .

الثاني هو الأرجح ، وذلك لعدم تكرار هذه الأسماء في الخطبة. وكذلك كون هذه الأسماء صفات تطلق على الله سبحانه وتعالى لأنه أهل لها وهي عين الوصف . ويرجع الإمام مرة أخرى ليؤكد التكرار بصيغة المبالغة (فَعَّال) (فَعَّال – علّام –ستّار) ، مع نوع من أنواع الجناس وهو – الُصَّحف – (الغيوب–العيوب) ليكون المعنى بالمظهر الصوتي أكثر تقريراً .

فالتكرار بوصفه بنية أسلوبية يستطيع تحقيق أعلى المستويات في خطب الإمام (عليه السلام) من خلال انسجامه مع الموقف أو الحدث الذي يراد لأجله ، وسواء أكان الحدث أو الموقف خطبة يتحدث فيها عن عظمة الله عز وجل ، أو خطبة حربية ، أو خطبة زهدية ، فالبحث لم يجد أي تكلف عند حضوره في تلك الخطب . من غير أن يغيب الأثر الإيقاعي الذي يتركه في نفسية كل متلقٍ .

يتمتع الجناس بصفة أسلوبية متميزة فهو يجمع ما بين دفتيه مظهرين صوتيين وهما التكرار والسجع ، وإن شئت قلت حلقة الوصل ما بينهما . فمن جهة التكرار تجد أن الكلمة في أغلب حروفها مكررة عند الجناس مع تحقيق الإيقاع الجديد والمعنى المتميز ، ومن جهة السجع تجد أن كثيراً من الكلمات منتهى الحروف فيها متطابقة مع بعضها . ولعل هذا الأمر جعل الجناس يحظى باهتمام كبير من المبدعين الذين استعملوه في كلامهم ليكون مدعاة إثارة على مستوى النغم والدلالة للبلاغيين والمتلقين .

ذكر ابن المعتز أن الأصمعي (ت٢١٦هـ) ألف كتاباً سماه (الأجناس) والذي عنى به ((أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها))[١٣١]. وهذا يعني وجود إشارات لهذا الفن قديماً قبل أن يتناوله أصحاب البلاغة بالتفصيل . ويسمي ثعلب (ت٢٩١هـ) ((تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين (تطابقاً)))[١٣٢]. ثم مثل بشواهد نظم الجناس التام والجناس الناقص مع طباق السلب. ويبدو أن ثعلب قد أعجبته تسمية (المطابق) والتي لا غبار عليها فهي لا تخرج عن تعريف الجناس. ثم أتى ابن المعتز مؤسس علم البديع ليجعل الباب الثاني من كتابه تحت عنوان (التجنيس) متوسعاً في مفهوم الأصمعي ، وقسّمه على قسمين ((فمنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ... أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى))[١٣٣] وبهذا يكون الجناس قد دخل البديع من أوسع أبوابه. وأما قدامة بن جعفر(ت٣٣٧هـ) فقد أخذ مظهر (المطابق) من ثعلب وحوله عنوانا للجناس التام ، فهو يرى المجانس ((بأن تكون المعاني ، اشتراكهما في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق))[١٣٤]. ولا يختلف أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)عن الذين تقدموه من ناحية التعريف ، بل تراه يتّبع ابن المعتز في تعريفه للجناس[١٣٥].وكذلك الحال مع الباقلاني(ت٤٠٣هـ) أنه أشار في تعريفه إلى من سبقوه

---

(١٣١) البديع : ١٠٧-١٠٨ .

(١٣٢) قواعد الشعر – أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب – شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم خفاجي – ط١ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٤٨م : ٥٦ .

(١٣٣) البديع : ١٠٨ .

(١٣٤) نقد الشعر – لأبي الفرج قدامة بن جعفر – تحقيق كمال مصطفى – ط٣ – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٩٧٨م : ١٦٢-١٦٣ .

(١٣٥) ينظر : كتاب الصناعتين : ٣٢١ .

، بل خص بالذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي[١٣٦]. وكأنه يحاول أن يشير بطريقة غير مباشرة إلى التعريف اللغوي الذي قدَّمه الخليل بقوله((الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو))[١٣٧]. وأما ابن سنان الخفاجي فقد عدَّ التناسب بين الألفاظ أو اشتقاق بعضها من بعض من الجناس[١٣٨].

والتعريفات كثيرة إذا أراد البحث تتبعها في بطون الكتب ، ولكن الذي يَهمّه انسجام هذا الفن مع المعنى الذي يراد من أجله ، فعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) يقول ((أما التجنيس فأنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع ببينهما مرمى بعيدا))[١٣٩]. فهو على ما يحدثه من نغمات صوتية أسلوبية هائلة للنص ، إلا أنه في بعض الأحيان قد يكون مكروهاً ومستكلفاً ، وذلك إذا خرج عن المعنى المراد إليه .

والزمخشري (ت٥٣٨هـ) يرى أنه من ((محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يضعه عالم بجوهر الكلام، ويحفظ معه صحة المعنى وسداده))[١٤٠]. فهو يتفق مع عبد القاهر الجرجاني فيما ذهب إليه ، إلا أنه اشترط فيمن يستخدمه أن يكون عالماً باللغة حتى لا يقوده الجناس إلى التعسف بالمعنى واللفظ . وترى ابن الأثير يندفع إليه بدرجة يصفه بها ((أعلم أن التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام))[١٤١]. وهو على حق فيما يقوله ، بل أكثر من هذا أنه فن فطري يمس الأذن والنفس بجمعه بين تناسب الصورة المتأتية عن التماثل الحاصل بين اللفظتين المتجانستين[١٤٢]. وكذلك قدرته على إثارة المفاجأة والدهشة عند وقوعه على المتلقي وذلك من خلال إيراد اللفظ بمعنى آخر

---

(١٣٦) ينظر : إعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني – تحقيق السيد أحمد صقر – د.ط – دار المعارف بمصر – ١٩٦٤م : ٨٣ .

(١٣٧) البديع : ١٠٨ .

(١٣٨) ينظر : سر الفصاحة : ٢٢٦-٢٢٧ .

(١٣٩) أسرار البلاغة : ٧ .

(١٤٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري – صححه محمد عبد السلام شاهين – ط١ – دار الكتب العلمي – بيروت – ١٩٩٥م : ٣/٣٤٨-٣٤٩ .

(١٤١) المثل السائر : ١/٢٤٦ .

(١٤٢) ينظر : فن الجناس – علي الجندي – د. ط – دار الفكر العربي – مصر – ١٩٥٤م : ٣٠ .

خادعاً [١٤٣]. وللأديب في استعماله غايات عديدة منها قدرته العالية على إحداث موسيقى مميزة داخل النص الواحد ، وقدرته على لفت النظر إلى وجود أسلوب آخر موجود معه ، أو يرد لمعنى خاص وهو لأجل التقارب بين مدلولي المتجانسين بالاعتماد على تناسبهما كأن يأتي بلفظين مترادفين على الرغم من اختلاف أصل كل واحد منهما[١٤٤].

فالسر في قوة الجناس ((كامن في كونه يُقرِّب بين مدلولي اللفظ وصورته من جهة ، وبين الوزن الموضوع فيه اللفظ ... من جهة أخرى))[١٤٥] .

إذن فالجناس : هو اتفاق اللفظتين في وجه من الوجوه مع اختلاف معنيهما[١٤٦].

وخطب الإمام (عليه السلام) حافلة بأنواع الجناس لقدرة هذا المظهر على تحريك مشاعر المسلمين بوجه خاص سواء أكان في وعظ ، أم حرب ، أم غيرهما ، والمتلقين بوجه عام .. وهذا ما سيدرسه البحث في الصفحات الآتية :

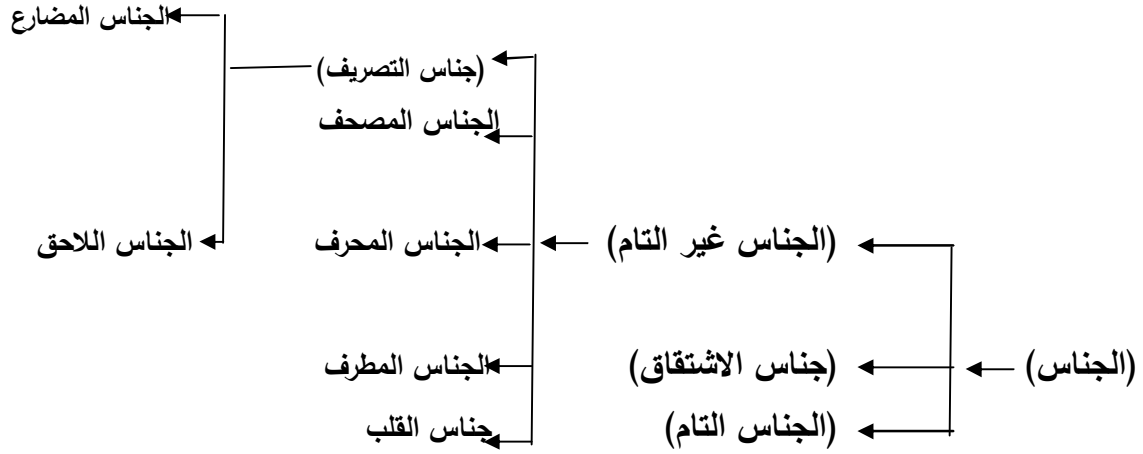

أولاً : الجناس غير التام :

(١٤٣) ينظر : بلاغة ارسطو بين العرب واليونان : ٣٨١ .

(١٤٤) ينظر :خصائص الأسلوب في الشوقيات – محمد الهادي الطرابلسي – د.ط – منشورات الجامعة التونسية– ١٩٨١م : ٦٨-٦٩ .

(١٤٥) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – د. عبد الله الطيب – ط٢ – دار الفكر – بيروت – ١٩٧٠م: ٦٦٣/٢ .

(١٤٦) ينظر : مفتاح العلوم – أبو يعقوب السكاكي – تحقيق د. عبد الحميد هنداوي – ط١ – دار الكتب العلمية– بيروت – ٢٠٠٠م : ٥٣٩ .

وهو الجناس القائم بين مقطعين صوتيين مختلفين من جهة الإيقاع مختلفين من جهة المعنى[١٤٧]. ويتناول البحث هنا (جناس التصريف) والذي يراد به اختلاف المقطعين في هيأة الحروف مما يؤدي إلى الاختلاف في مسافة الإيقاع[١٤٨]. ويكون هذا الجناس على نوعين :

١- الجناس المضارع .

٢- الجناس اللاحق

فأما النوع الأول أي الجناس المضارع : وهو الجناس الذي يكون الحرفان المختلفان فيه متقاربان في المخرج[١٤٩] .

وهذا النوع موجود في خطب الإمام (عليه السلام) فمنه قوله : ((**اللَّهُمَّ فَأَرْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ ، وَحَنِينَ الحَانَّةِ!**))[١٥٠]، فالجناس حاصل ما بين اللفظين (أنين – حنين) فالهمزة والحاء في هاتين الكلمتين تُعدّان من ((الأصوات الحلقية))[١٥١]. (فالهمزة) صوت حنجري يتميز بكونه شديداً ومهموساً ومرققاً[١٥٢]. وأفاد دخوله على اللفظة خلق معنى يختلف عن اللفظة التي بعدها ، حيث أفادت معنى المرض والألم والتعب الذي تعانيه الشياه والتي رمز لها الإمام بـ(الآنة) ، و(الحاء) يتميز بكونه صوت صامت احتكاكي مهموس[١٥٣]. والذي أفاد دخوله على الكلمة بمعنى الشوق وتوقان النفس ، أو بالأخص الصوت الذي تطلقه النياق والتي أشار لها الإمام بـ(الحانَّة) نتيجة عودتها إلى مراعيها فلا تجد ما كانت تعتاد عليه من مأكل ومشرب.

---

(١٤٧) البديع تأصيل وتجديد : ٧٦ .

(١٤٨) المصدر نفسه : ٧٧ .

(١٤٩) ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب – أبو بكر بن علي ابن حجة الحموي – د.ط – مطبعة بولاق – القاهرة – ١٢٩١هـ : ٣٦ ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع – محمد القاسم الانصاري السجلماسي – تحقيق علال الغازي – ط١ – مكتبة المعارف – المغرب – ١٩٨٠م : ٤٨٥ .

(١٥٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠٥/٧ .

(١٥١) الأصوات اللغوية : ٧٦ .

(١٥٢) ينظر : مناهج البحث في اللغة – د. تمام حسان – د.ط – دار الثقافة – المغرب – ١٩٧٩م : ١٢٥.

(١٥٣) ينظر : علم الأصوات : ١٢٦ .

فيا له من مشهد مؤثر تنبسط الروح له وتهش ، فبينما ترى الإمام يتوجه بالدعاء إلى الله ليرحم العباد تراه ينتقل إلى تلك المخلوقات التي لا تتكلم بإيقاع حزين عبَّر عنه الجناس بأروع تعبير وقوله (عليه السلام):((**أنا القَمرُ الزَّاهِرُ – بِا لعِلمِ الّذي عَلَّمَني رَبِّي– وَالفُرَاتُ الزَّاخِرُ، أشْبَهْتُ مِنَ القَمرِ نُورَهُ وَبَهَاءَهُ ، وَمِنَ الفُرَاتِ بَذْلَهُ وَسَخَاءَهُ**))[١٥٤]. فالمعنى واضح للقارئ من خلال تفصيله في كونه قمرا ، وفراتا فقد أعطى سبب تشبيهه لهما. والجناس غير التام حاصل ما بين اللفظتين (الزاهر – الزاخر) والهاء والخاء حرفان مهموسان يُعدّان من (الأصوات الحلقية)[١٥٥] ووروودهما في الجملة أحدث نغمة صوتية وتغيراً دلالياً مع التأكيد على المعنى. واللطيف في هذا النص أنه بعد العبارة الأولى – استدرك – بكلام (بالعلم الذي علمني ربي) حتى لا يقول قائل أنه فخر بنفسه ، فالعلم يرفع أقواماً ، والجهل يضع آخرين . وما قوله إلا لكون العلم قد رفعه إلى درجات عالية ، وهذا صحيح .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَالمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ ، وَالمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ**))[١٥٦]. فالجناس غير التام حاصل ما بين اللفظتين (المغبون – المغبوط) فالنون والطاء من الأصوات المتقاربة المخرج[١٥٧]. والإمام يضع صورتين الأولى : الحسرة والندامة المريرة المتمثلة في المغبون ؛ وذلك لأنه خدع نفسه وتبع شيطانه ونسى جنانه فحكم عليه بالشقوة الأبدية في ذلك اليوم ، فهل يوجد شخص أكثر غبناً منه ؟ والثاني : البشرى والسعادة الأكيدة ؛ لأنه قهر ذاته، وهزم شيطانه ، وفكر بإعماله في ذلك اليوم فحكم له بالسعادة الدائمية ، فهل يوجد شخص أكثر غبطة منه ؟ .

الجناس يكون ممتعاً ومتميزاً إذا تحقق بالتناسب ما بين الألفاظ كلها ، أو بعضها وأن يكون هناك تجاوب موسيقي نتيجة تماثل الكلمات تماثلاً تاماً أو ناقصاً فإن الأذن تطرب لذلك ، وأن النفس تتأنق لذلك وتهتز أوتار القلوب لها[١٥٨].

٢- الجناس اللاحق :

---

(١٥٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٩/٣ .

(١٥٥) الأصوات اللغوية : ٧٦ .

(١٥٦) شرح نهج البلاغة : ٢٧٥/٦ .

(١٥٧) الأصوات اللغوية : ٤٤ .

(١٥٨) ينظر : فن الجناس : ٢٩ .

وهو الجناس الذي يكون الاختلاف فيه بين حرفين متباعدي المخرج[١٥٩]. وهذا الاختلاف سواءكان في بدء الكلمة أو في وسطها ، أو منتهاها فأنه لا يخرج عن دائرة الجناس اللاحق مادام الاختلاف حاضرا ما بين الصوتين .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الوَلَدُ غَيْظَاً ، وَالمَطَرُ قَيْظَاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضَا ، وَتَغِيضُ الكِرَامُ غَيْضَا**))[١٦٠]. فالجناس اللاحق وقع في موضعين (غيظا – قيظا) فالبحث أمام إيقاع سلس يعجبك ظاهره أكثر من باطنه . فالعجب من توالي حرفي (الظاء – الضاد) في (غيظا – غيضا) والذي شكّلا جناسا مضارعا لتقارب مخرجيهما واختلاف معنييهما.

فتكرار (الغين) الصوت المجهور مع (القاف) الذي يُعد من الأصوات المهموسة والذي يوصف بكونه صوتاً لهوياً ، ومع (الفاء) المهموس والذي يُعدُّ من الأصوات الصفيرية[١٦١]، أسهم في خلق تناغم موسيقي متنوع نتيجة هذه الانتقالات ما بين الأصوات من كلمة إلى أخرى. فالإمام يخبر عن أمور ستكون في آخر الزمان نتيجة المعصية التي يقترفها العباد في أرض الله. فجاء بكناية خفية لطيفة يعبر بها عن كون الولد غيظا أي مكروها بعدها كان اعز شيء ، نتيجة المحن التي ستصيبهم ، والمطر قيظا أي نقمة يفسد الزرع لكونه لا يخرج النبات به أو يسقط في أوقات يفسد الثمار فيها ، ثُمَّ جاء باستعارة ألطف في تعبيره عن فيض اللئام ؛ لكثرة الكذب الذي سيكون بينهم آنذاك . وعن غيض الكرام لقلة الصدق . موشحاً هذا المقطع بالمقابلة – ما بينهما . وما أصدق ما قاله (عليه السلام) في هذا الوقت .

وقوله (عليه السلام) : ((**إِيَّاكُم وَكُفْرَ النِّعَمِ لا تَحِلُّ بِكُمُ النِّقَمُ**))[١٦٢].

فالجناس اللاحق قائم بين اللفظتين (النعم – النقم) فالعين والقاف أدّى وجودهما في هاتين الكلمتين إلى خلق معنى – طباق – متنافر من خلال تحذير الإمام بعدم الكفر

---

(١٥٩) ينظر : أنوار الربيع : ١٤٠/١ ، بلاغة العربية تأصيل وتجديد – د.مصطفى الحاوي الجويني – د. ط – مطبعة شركة الآت ولوازم الكتب – الإسكندرية – ١٩٨٥م : ١٩١ .

(١٦٠) شرح نهج البلاغة : ١٤٩/٧ .

(١٦١) ينظر : الأصوات اللغوية : ٦٦-٧٦ .

(١٦٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٧٥/٢ .

بالنعمة التي يهبها الله إلى عباده ، فإذا أساء التصرف فيها حلّت عليه النقمة ، أي غضبه سبحانه وتعالى . ولو أُمعِنَ في النظر لُوجِد أن – التعليل – قد توسط ما بين المتجانسين ؛ وذلك لأن الكفر بالنعمة هو السبب في نزول النقمة . فإذا ارتفع الكفر زالت تلك النقمة . فمثلما أن التنافر حاصل من جهة المعنى فأنه حاصل من جهة الإيقاع أيضاً ، (فالعين) معروف عنه أنه من (الأصوات الحلقية)[١٦٣] . و(القاف) معروف عنه انه من الأصوات المهموسة والتي تعرف بكوها حنكية[١٦٤] . والرسم الآتي يوضح الفكرة أكثر :

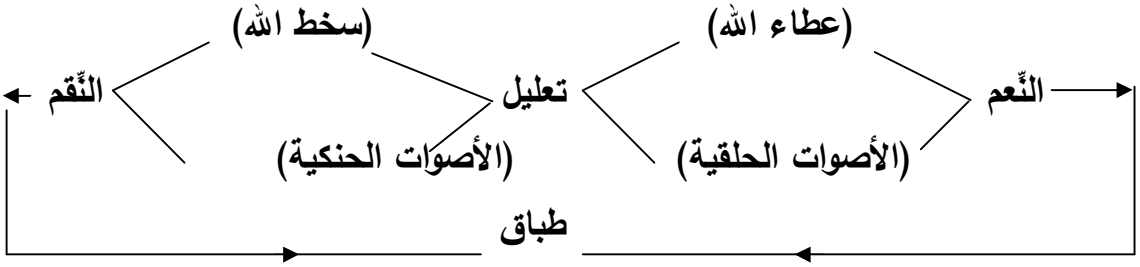

وقوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ أَنْشَأَ الملائكةَ مِنْ أَذَ وَارِ ابتَ دَعَها ، وَأنواعِ اختَ رَعها**))[١٦٥]. فالجناس اللاحق حاصل ما بين الكلمتين (أنوار – أنواع) فالراء معروف عنه أنه من الأصوات الذلقية[١٦٦]. وأفاد وجوده في الكلمة إلى أن يختلف مع الكلمة الأخرى المتجانسة ليعطي معنى الهيأة التي تكون عليها الملائكة ، والعين معروف وقد تحدث عنه البحث سابقاً ، ووجوده أعطى معنى أقسام الملائكة . ويمكن العودة إلى إحدى خطب الإمام ومراجعة هذه الأقسام[١٦٧].

وقد يجتمع كل من الجناس المضارع واللاحق في نص واحد كما في قوله (عليه السلام): ((**قَدْ بُ نِيَ عَلى الخَرابِ فَناؤُها ، وَشُيِّدَ بِالتُّ رابِ بِناؤُها ، فَمَحَلُّها مُقْتَ رِبٌ وَساكِنُها مُقْتَ رِبٌ**))[١٦٨]. فالجناس المضارع حاصل بين (فناء – بناء) فالفاء والباء من الحروف

(١٦٣) الأصوات اللغوية : ٧٦ .
(١٦٤) ينظر : المصدر نفسه : ٧٣ .
(١٦٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥١٢/١ .
(١٦٦) ينظر : الأصوات اللغوية : ٥٨ .
(١٦٧) ينظر : شرح نهج البلاغة : ١٠٦-١١٠ .
(١٦٨) شرح نهج البلاغة : ١٩٧/١١ .

الذلقية[١٦٩]. والجناس اللاحق حاصل بين (الخراب – التراب) ، و(مقترب – مغترب). فهذا التكثيف في الجناس جيء به لغاية لفت أنظار المتلقي إلى معنى هذا النص المليء بالأوصاف في حق الدنيا فهي ترفع أقواماً ، وتذل آخرين ، والمطلوب هو عدم الركون إليها والوثوق بها . ومما زاد من قوة هذه الجناسات المتكررة كونها جاءت مسجوعة بعضها بحرف (الباء) وهذا من أسلوبه (عليه السلام) .

٣- الجناس المصحف :

وهو الجنلس الذي تكون النقط فيه فرقاً ما بين الكلمتين . أي تحقق التماثل في اللفظتين خطا واختلافهما نطقاً [١٧٠] .

وهذا النوع من الجناس موجودة آثاره في خطب الإمام (عليه السلام) فمنه قوله : ((**وَمَنْ فَخَرَ فَجَرَ**))[١٧١]. وهذا المقطع يجري مجرى الأمثال والحكم في مخاطبة الناس وهذا واضح بغاية الوضوح ، والتصحيف واقع ما بين (الخاء – الجيم) ومعناه من أدعى العِظَم والكِبر فقد فجر أي كفر؛لأن الفجور هو الدخول في المعاصي ، والدخول تؤدي إلى النار.

وقوله (عليه السلام) : ((**وَعَلَيكُم بِكِتَابِ الله ، فَإِنَّهُ الحَبلُ المَتِينُ ، وَالنُّورُ المُبِينُ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ، وَالرِّيُ النَّاقِعُ**))[١٧٢]، فهذا الكلام هو وصية الإمام للناس بالتمسك بكتاب الله عز وجل – معللا – إياه بالأوصاف التي ذكرها . والبحث يرى في هذا المقطع نوعين من الجناس أحدهما : الجناس اللاحق (المتين – المبين) موشحا بالاستعارة . الثاني: الجناس المصحف (النافع – الناقع) فهو شفاء لمن أراد أن يشفي من ألم الجهل ، ورِواء لمن أراد أن يرتوي من شدة العطش .

وقوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ إنَّ الدُّنيا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ**))[١٧٣] .

---

(١٦٩) ينظر : كتاب العين : ٥١/١ .

(١٧٠) ينظر : البديع في نقد الشعر – أسامة بن منقذ – تحقيق د. أحمد أحمد بدوي ، د. حامد عبد المجيد – د.ط – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – د.ت : ١٧ ، ينظر : البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) – د. بكري شيخ أمين – ط١ – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٧م : ١٤٣ .

(١٧١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٦٩/٣ .

(١٧٢) شرح نهج البلاغة : ١٥٥/٩ .

(١٧٣) شرح نهج البلاغة : ١٩٥/٧ .

فالإمام هنا كان في معرض وصف الدنيا ، وقد جاء بجناسين أحدهما : الجناس اللاحق ما بين اللفظتين (فناء – عناء) فمعروف عن (الفاء) إنه من الأصوات المهموسة و(العين) من الأصوات المجهورة[١٧٤]. والثاني : الجناس المصحف (غير – عبر) ولكن هذه المرة جاء الجناس ملوناً في هاتين الكلمتين إلى أكثر من حرف ليزيد من قوة الإيقاع والذي بدوره قدَّم معنى إضافياً إلى النص ن والرسم الآتي يوضح ذلك .

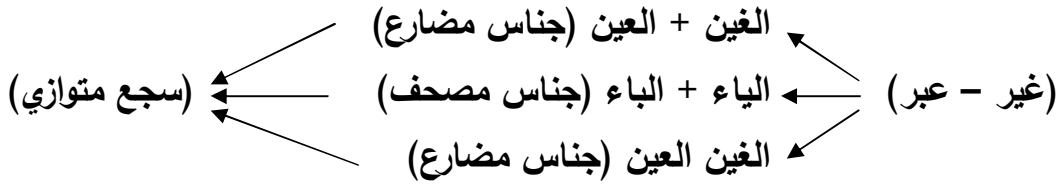

فهي داء فناء ؛ لأنه لا يدوم فيها أحداً ، وعاء لما تسببه لأهلها من غصص وآلام بين الحين والآخر. وغير لا تدوم لأحدٍ على حالة ما فهي اليوم معك وغداً ضدك . وعبر إتمام للوصف الذي ذكره الإمام لها .

٤- الجناس المحرف :

وهو الجناس الذي يتفق فيه ركناه من جهة الحروف في ترتيبها ، وتختلف فيه الحركات على الحروف في شكلها [١٧٥].

وهذا النوع من الجناس له درجة كبيرة على أحداث تغيير في المعنى والإيقاع ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَكُلُّ مُحْدَثٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ مُحْدِثٍ مُبْتَدِعٌ ، وَمَنِ ابْتَدَعَ فَقَدْ ضَيَّعَ وَمَا أَحْدَثَ مُحْدِثٌ بِدْعَةً إِلا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ**))[١٧٦].

فالجناس المحرف حاصل بين اللفظتين (مُحدَث – مُحدِث) فالفتحة والكسرة لعبت أثراً مهماً في تحريك المعنى ، فالمحدَث بالفتح يراد به كل أمر لم يكن معروفاً في كتاب أو سُنَّة ولم يكن إجماعاً عليه[١٧٧]. فهذا يُعدُّ مبتدعا أي جديداً .

---

(١٧٤) ينظر : المدخل إلى علم أصوات العربية : ١٠٣ .

(١٧٥) ينظر : التلخيص في علوم البلاغة – جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني – ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي – ط٢ – المكتبة التجارية الكبرى – ١٩٣٢م : ٣٨٩ ، خزانة الأدب : ٤٥ ، ينظر : علم البديع : ١٦١.

(١٧٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٥٢/٢ .

(١٧٧) ينظر : لسان العرب مادة (حدث) : ٣٤٩/٢ .

والمحدِث بكسر الدال الشخص الفاعل ، أو القائم بأحداث الأمر الجديد أو بإظهار الأمر المنكر . ولهذا ترى أن الإمام يكمل بكلامه – بالتعليل المعنوي – عن الأحداث وذلك ؛ لأنه سيضيع السُنَّن التي أمر بها الله ورسوله والتي هي أحق بالأتباع من غيرها ، ثمَّ يتم كلامه أنه نتيجة هذه البدعة سيترك الناس السُّنة وستحل هي محلها لدوام الناس عليها .

وقوله (عليه السلام): ((**ذَاكَ حَيْثَ يَكُونُ الْمُعْطَى أعظَمَ أجْرَاً مِنَ الْمُعطِي**))[١٧٨].

المحرف حاصل بين (الْمُعْطَى) وهو الفقير ، و(الْمُعْطِي) وهو الغني . وقد جاء الإمام هنا بمعنى لطيف مجنس موشح بالطباق ليقدم للناس حقيقة غريبة لم تكن تعرفها من قبل ، فالعادة جرت على أن من يتصدق بماله يكون ذا أجرٍ عظيم عند الله ، ولكن الإمام هنا قلب المعنى الأصلي إلى معنى أخر ! وهذا الذي ذكره يكون في آخر الزمان وهو من ضمن المغيبات التي أخبر عنها ، وهذا يكون في حالتين الأولى : وهو في كون الأول أعظم من الثاني ؛ وذلك لأن الُمعطِي إذا أراد أن ينفق ماله أعطاه على سبيل الرياء ولم يقصد به وجه الله عز وجل . فيذهب أجره بذلك. أما الُمعطَى فهو حينما يأخذ هذا المال َيسدُّ به رمق نفسه وعياله ، ولا يعنيه المال الحرام . فنتيجة أكسائه عياله وعدم تقربه إلى المال الحرام حصل على الأجر وكان أفضل من المعطي .

الثاني : وهو في كون المعطَى أعظم أجراً من الُمعطِي أنه لما كان من الثاني من صرف أمواله على الم حرمات والملذات كان هذا الفعل ُيسّجل عليه في سبحانه ويحاسب عليه يوم القيامة ، ولكن إذا استطاع الفقير أن يلفت نظره ويستعطفه وبدأ المعطي ينفق ماله عليه فأنه زحزحه عن النار وبدأت الحسنات تكتب للمعطي ، فبهذا العمل استحق المَعطى الأجر وكان أعظم منه[١٧٩] .

لقد برع الإمام في تقديم صورة ذات بنية أسلوبية صوتية مفعمة بالمعاني الدقيقة تعكس واقع الناس وحالهم في هذه الدنيا .

فهذه هي حلاوة الجناس ((فبينما هو يريك انه سيعرض عليك معنى مكرراً ولفظاً مرددا لا تجني منه غير التطويل والانقباض والسآمة إذا هو يروغ منك فيجلو عليك معنى

---

(١٧٨) **شرح نهج البلاغة : ٧٢/١٣ .**

(١٧٩) **ينظر : المصدر نفسه : ٧٣/١٣ .**

مستحدثاً يغاير ما سبقه كل المغايرة وإن حكاه في نفس الصورة وذات المعَرض ، فتأخذك الدهشة لهذه المفاجأة السارة اللذيذة التي أجدت عليك جديداً مفيداً لم يقع في حسابك))[١٨٠].

وقوله (عليه السلام) : ((**فإنَّ التَّقوَى في اليوم الحِرْزُ وَالجُنَّةُ ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إلى الجَنَّة**))[١٨١]، وهذا الكلام قاله يوصيهم لغرض التمسك بالتقوى ، ثم جاء – التعليل – في سبب مناشدته لهم بذلك مقدماً لهم الصورة على هيأة جناس محرف ما بين الكلمتين (الجُنة – الجَنة) حيث جعل الكلمة الأولى شرطاً في الوصول إلى الثانية. والنص لا يخلو من (طباق معنوي) وذلك لقوله اليوم وقصده دار الدنيا في أن تكون التقوى لهم شيء يحميهم من عوارض الآخرة التي ستصيبهم ، وقوله غداً المراد به دار الآخرة في كونهم ملتزمين ومحافظين على التقوى . فإذا حَصَّنوا أنفسهم بها فأنها ستقودهم إلى الجنة التي لا شيء بعدها.

الجناس المط ـ رف :

وهو الجناس الذي يكون بزيادة أحدى الكلمتين على الأخرى بحرف واحد وسواء كانت هذه الزيادة في أول الكلمة أو وسطها أو منتهاها فإنه لا يخرج عن هذا النوع[١٨٢].

والشيء اللافت في هذا الجناس إن الإيقاع تزداد قوته بزيادة الحرف على الكلمة فضلاً عن حصول المعنى الجديد . ومنه قوله (عليه السلام): ((**وَلَعمري لَوْ كُنَّا نَأتي ما أتَيتُم، مَا قَامِ لِلدِّينِ عَمودٌ ، وَلا أخضَرَّ لِلإيمَانِ عُودٌ . وايمُ الله لَتَحْتَلِبَنَّهَا نَماً ، وَلَتُبغَّهَا نَدَماً!**))[١٨٣]. فالإمام بهذا النص يكلم المسلمين الذين أقروا بالصلح أثناء واقعة صفين ، وكان مسبوقاً بها معناه أنه كان مع أصحابه في زمن الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) على غير ما شهد منهم في هذا اليوم .

والكلام الذي قاله يبلغ الإيقاع فيه ذروته والمعنى غايته ، فمما زاد من جرس هذا المقطع أنه سبق الجناس المطرف بقسم (لعمري – أيم الله) وهذا يدل على إن الإيقاع

---

(١٨٠) فن الجناس : ٢٩-٣٠ .

(١٨١) شرح نهج البلاغة : ٨٨/١٣ .

(١٨٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٨٥/٢ ، ٣٨٦، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) : ١٤١.

(١٨٣) شرح نهج البلاغة : ٢٦/٤ .

تصاعدي نتيجة غضبه عليهم لعدم الامتثال إلى أوامره. ليأتي دور الجناس (عمود–عود)، (دما – ندما) مزيناً بالكناية والاستعارة مع مراعاة –السجع المطّرف– . فقد كّنى بالعمود للدين تعبيراً عن قوته وعن العود للإيمان لنظارته . واستعار حلب الدم نتيجة تقصيرهم وعدم الاستماع إليه والأخذ بنصائحه ، فعند ذلك سيكون الندم الذي تتبعه الويلات ثم الويلات. والكلام قائم على التشبيه البليغ. ما بين أصحاب الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) والمقاتلون في جيش الإمام (عليه السلام) فأنهم لو كانوا يفعلون الصحابة مثل ما فعل المقاتلين لما قامت للإسلام قائمةً . ولهذا جاء التعبير بمستوى الموقف .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَما رَأيتُم الَّذينَ يأْملُونَ بَعيداً ، وَيبنُونَ مَشيداً ، وَيجمعُونَ كَثيراً ، أَصبَحتْ بُيوتُهم قُبوراً ، وَما جَمعُوا بُوراً**))[184] .

فالجناس المطرف حاصل بين اللفظتين (قبوراً – بورا) وهما في معرض وصف أهل القصور والأموال ، فإنه ما أن يموت حتى تذهب كل ثروته التي كان يبني عليها آمالا عريضة ، وقصوره التي كان يظن أنه سيعيش فيها سنوات مديدة. فأصبحت بوراً لا تعود عليه بنفع، ولا تدفع عنه ضراً، بل أنه سيحاسب على جمعها من أين مصدرها وموردها ؟ فهذا الكلام يهزُّ أصحاب القلوب الحية وكأن الإمام يقول : اعتبروا يا أولي الألباب .

وقوله (عليه السلام): ((**لَم يَزُلْ وَلَن يَزُولَ**))[185]، فهو هنا في كلامه عن الله سبحانه وتعالى يُحدث جناسين الأول : الجناس اللاحق ما بين الحرفين (لم – ولن) فالميم من الأصوات الشفوية[186].و(النون) من الأصوات الذلقية[187]. وقد اختلفا أيضاً في عملِّهما، فـ(لم) حرف جزم ونفي وقلب ، و(لن) حرف نفي ونصب واستقبال . والثاني : الجناس المطرف في (يزل – يزول) فمعنى قوله هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يزل ماضياً ، ولن يذهب مستقبلا ، أي أنَّ (يزل) نفت ذهابه في الماضي . فهو حاضر في كل الأوقات والأزمان . فالمسافة القياسية للجناس لا تعتمد على كتابة اللفظ خطا ، وإنما البعد الزماني الحاصل عند النطق باللفظين .

---

(١٨٤) شرح نهج البلاغة : ٢٠٦/٨ .

(١٨٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٩٩/١ .

(١٨٦) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٤ .

(١٨٧) ينظر : المصدر نفسه : ٥٨ .

٦- جناس القلب :

وهو الجناس الذي تختلف الكلمتان فيه من جهة الحروف بالتقديم والتأخير(١٨٨).

فالأمر اللطيف في هذا الجناس أن الكلمة هي نفسها من جهة الحروف ، إلا أن المواقع لتلك الحروف تتغير ما بين الكلمتين مغيرة معها الإيقاع والمعنى . ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَقَدْ فُتِحَ بَـ ـابُ الحَربِ بَينَكُم وَبَيْنَ أَهْلِ القِبلَـةِ ، وَلا يَحمِلُ هَذا العِلم إلا أَهلُ البَصَرِ وَالصَّبرِ وَالعِلمِ بِمَواقِعِ الحَقِّ**))(١٨٩). وهذا الكلام يخاطب به أصحابه قبل حرب الجمل ، وذلكَ لأن الناس كانوا في حيرة من أمرهم كيف نقاتل القبلة ؟ فشقَّ ذلك عليهم في بدء الأمر ، ثم تعلموا فقه هذا الأمر من عنده (عليه السلام) . وهنا جاء جناس القلب (البصر – الصبر) ليوضح لهم أن هذه المسألة لا يعي فهمها إلا بعض العباد وهم قليلون يتمتعون ببصيرة ثاقبة ولديهم صبر جميل .

وقوله (عليه السلام): ((**وإنَّ العَالِمَ العَامِلَ بِغَيرِ عِلْمِه كَالجَاهِلِ الحَائِرِ الَّذي لا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِه ، بَلِ الحُجَّةُ عَليه أَعْظَمُ وَالحَسْرَةُ لَـهُ أَلْزَم ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلَوم**))(١٩٠).

والبحث هنا أمام بنية أسلوبية ثنائية متمثلة في ثنائية الإيقاع والمعنى ، فمن جهة الإيقاع جناس القلب الحاصل بين (العَالم – العامل) ، ومن جهة المعنى الطباق الحاصل بين (العالم – الجاهل) الموشح بالتشبيه لكونهما اشتركا في صفة الجهل وترك الحق وعدم الانتفاع بالعلم ، بل أن العالم أشد ضرراً من الجاهل لكونه علم كثيراً من خفايا الأمور ن بخلاف ألجاهل . والبحث يرى أن – التتميم – حاضر هنا من بعد عبارة (بل) للتأكيد على أن المتضرر الأكثر هو العالم ؛ لأنه في بدء الأمر كان اقتصاره على تشبيهه بالجاهل ، فلما رأى الإمام إن هذا لا يفي بالوصف أتمها بهذه المقاطع الثلاثة التي تؤكد عِظم الغبن الذي سيشهده يوم يجمع الله الخلق للحساب .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللهُمَّ إنَّا نَعوذُ بِكَ مِنَ الشِّركِ وَهَوَابِيـهِ وَالظُّـلمِ وَنَوَاهِيـه ، وَالفَقْرِ وَنَوَاعِيـهِ**))(١٩١) ، والنص يحمل في داخله نوعين من الجناس الأول : جناس القلب بين

---

(١٨٨) ينظر : كتاب الصناعتين : ٣٣١ ، الإيضاح في علوم البلاغة : ٢٩٢ .

(١٨٩) شرح نهج البلاغة : ٢٥١/٩ .

(١٩٠) المصدر نفسه : ١٧٣/٧ .

(هواديه – دواهيه) و((هوادي الشرك مقدماته وأوائله من الرياء والسمعة وغيرهما من المعاصي))[١٩٢] .

والدواهي ما يصيب الإنسان من مصائب ونوائب في الدنيا ، وما يلقاه من عقوبات في الآخرة . أو الأمر العظيم الذي يصيب الإنسان[١٩٣] .

الثاني : الجناس المضارع الحاصل بين (دواهيه – دواعيه) فالهاء والعين ((من الأصوات الحلقية))[١٩٤]. ووجودهما قد غير معنى الكلمتين ، فالدواعي من أخطر ما يصيب الإنسان ؛ لأنه قد يجره إلى الفقر ، والفقر إلى الخوض في محارم الله ، والمحارم على غضب الجبار ، وغضب الجبار إلى النار . وبذلك يخسر الدنيا والآخرة .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَكَم مِنْ زَفْرةٍ تُضْنِيهِ وَحَسْرَةٍ تُنْضِيهِ في مَوْقِفٍ مَهُولٍ وَمَشْهَدٍ جَلِيلٍ بَيْنَ يَدَي مَلِكٍ عَظِيمٍ ، وَبِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ عَلِيمٍ**))[١٩٥].

فالإمام في هذا الكلام يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة يوم تبعثر القبور، ويعرض الناس للحساب. فجاء بجناس القلب المتمثل ما بين (تضنيه – تنضيه) ليترجم لنا أحد الحالات التي يمر بها الإنسان آنذاك . فالإيقاع البطيء الثقيل واضح من خلال اللفظين ، فالضنو ما تحسه النفس من مرض ، وهو معنى موافق المعنى الذي قصده الإمام ومن الطبيعي أن يكون نتيجة المرض الهزل والتعب . فالانسجام حاصل ما بين اللفظين ، وأثرهما واضح صوتيا على النص . فضلاً عن ذلك وجود الجناس المضارع مابين (عظيم . عليم) في منتهى كل مقطع والذ اضفى بذلك مسحة صوتية رائعة .

ثانيا: جناس الاشتقاق :

وهو أن تأتي بلفظتين مجنسين يجمعهما أصل واحد في اللغة[١٩٦] .

---

(١٩١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢١٩/٣ .

(١٩٢) ينظر : هامش المصدر نفسه .

(١٩٣) ينظر : لسان العرب ، مادة (دها) : ٤٤٢/٣ .

(١٩٤) الأصوات اللغوية : ٧٦ .

(١٩٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٣/١-١٠٤ .

(١٩٦) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري – تصحيح أحمد الزين – د.ط – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – د.ت : ٩٥/٧ .

ويتميز هذا الجناس بسرعة ((جريانه على اللسان إذ تتداعى الألفاظ المتجانسة بتداعي المعاني في الذهن))[١٩٧] وأمثلته كثيرة في خطب الإمام (عليه السلام) فمنه قوله: ((**فَلا أَمَلٌ يُدرِكُ ، وَلا مُؤَمَّلٌ يَتْرُكُ**))[١٩٨]، والمقطع يحمل بداخله للقارئ جناسين أولهما: جناس الاشتقاق الحاصل ما بين (أمل – مؤمل) فأصلهما واحد في اللغة ، إلا إنهما اختلفا لفظا ومعنى ، فالأمل بمعنى الرجاء أو الشيء البعيد المنال ، والمؤمل هو الشخص الطالب للأمل . وقصد بـ(يترك) أي انه سيموت عاجلاً أم أجلاً .

وثانيهما : الجناس المضارع ما بين (يدرك – يترك) فالدال والتاء من الأصوات المتقاربة المخرج[١٩٩] . فهذا النص عبارة عن جناس متحرك على جميع الأطراف غايته إيصال الفكرة إلى المتلقي على أتم وجه .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقْوُدِ ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ**))[٢٠٠] ، وهذا الكلام من بديع قوله ، لأنه جعل جناس الاشتقاق في – العكس والتبديل – والاشتقاق حاصل بين (التابع – المتبوع) ، (القائد – المقود) فالاشتقاق الأول يشتركان في أصل واحد من الفعل (تَبَع) فأولهما اسم الفاعل والذي جاء بمعنى الشعب أو الرعية ، وثانيهما : اسم مفعول والذي جاء بمعنى السلطان أو الوالي .

والاشتقاق الثاني يشتركان أيضاً في أصل واحد وهو من الفعل (قَادَ) فأولهما: السلطان وثانيهما : جاء بصيغة (مفعل) الذي عني به الشعب . والمعنى أجمالا أنه في يوم القيامة سيحدث هذا الأمر أن تتبرأ فئة من أخرى[٢٠١]. فالإمام قام بإخراج المعنى من مظهرين بديعين محدثاً بذلك تناغماً موسيقياً دلالياً موضحاً فيها الفضيحة التي سيكون

---

(١٩٧) الحديث النبوي الجاري مجرى المثل : ١٩٦/٧ .

(١٩٨) شرح نهج البلاغة : ١٩٦/٧ .

(١٩٩) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٤ .

(٢٠٠) شرح نهج البلاغة : ١٠٥/٩ .

(٢٠١) وهذا القول قريب من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت : ٢٥) .

عليها الولاة يوم القيامة. فهو من جهة العكس والتبديل وأن اختلفت الألفاظ في الشق الثاني إلا أن معناها واحد . وهذا من محاسن القول .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَإِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، وَيُعْطِي كُلَّ جُلَسَائِهِ نَصِيبَهُ [مِنْهُ]**))[٢٠٢]. وهذا الكلام في معرض وصف خُلُق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما سأله الإمام الحسين (عليه السلام) فكان من ضمن الكلام النص المذكور هنا . وجناس الاشتقاق متنوع بين (جلس) بمعنى القعود ، و(المجلس) على زنة (مَفْعِل) اسم المكان الذي يجلس فيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم ينتقل إلى لفظ (جلسائه) وهم أصحابه الذين يكونون معه في ذلك المكان فالإمام خلق من لفظ واحد عن طريق تلك الاشتقاقات معاني متعددة غايتها لفت أنظار السامع ، والقارئ إليه .

وقوله (عليه السلام) : ((**يَا مُعْطِيَ الْخَيْرَاتِ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَمُوَسِّلَ الْبَرَكَاتِ مِنْ مَعَادِنِهَا؛ مِنْكَ الْغَيْثُ الْمُغِيثُ ، وَأَنْتَ الْغِيَاثُ الْمُسْتَغَاثُ وَنَحْنُ الْخَاطِئُونَ وَأَهْلُ الذُّنُوبِ ، وَأَنْتَ الْمُسْتَغْفَرُ الْغَفَّارُ**))[٢٠٣]. فقد ورد جناس الاشتقاق مرتين الأولى : في (الغيث) والذي جاء بمعنى المطر ، (المغيث) الذي يحيي الزرع والدواب ، بل حتى الأنفس، وهذا من باب – التتميم – أن يقول المغيث ؛ لأن كثرة المطر قد تؤدي إلى إفساد الزرع وإهلاك المخلوقات . ثم قال (الغياث) مبالغة في الدعاء وتوداً من الإمام بأسمه ؛ لأن من أسمائه (المغيث) فلما جاء بصيغة المبالغة (فَعَّال) دلالة للتعبير عن حجم الأذى الذي لحقهم في ذلك الوقت نتيجة قلة المطر. و(المستغاث) أي الذي يفزع إليك عند الشدائد ولا يجود بسواك. الثاني : (المستغفر– الغفار) واللفظين فيهما دلالتين أولهما : أي أنك الذي تطلب منه المغفرة والعفو. وثانيهما: جاء باسم من أسماء الله الحسنى أي أنك كثير الغفران لتؤكد اللفظة التي سبقتها والتي اشتقت منها . فهذا الكلام مؤثر يعبر عمّا في نفس صاحبه ، ويعرفه حق المعرفة معاشر البشر،فكيف إذا كان بين العبد والرب ؟

فالتنعيم المنبعث من هذه الكلمات المتجانسة كان مهيمنا على النص وقد جاء معبراً عن واقعهم آنذاك .

---

(٢٠٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/١٢٠ .

(٢٠٣) المصدر نفسه : ٣/٢١٩-٢٢٠ .

ثالثا : الجناس التام :

وهو ورود مقطعان صوتيان قد اتفقا من وجه الإيقاع واختلفا من جهة المعنى(٢٠٤).

وهذا النوع من الجناس قياسا بغيره وجوده قليل في خطب الإمام (عليه السلام) ولهذا جُعِلَ الكلام عليه في خاتمة الجناس . فمنه قوله : ((**الحَمْدُ لله المُتَجَلِّي لِخَلْقِه بِخَلْقِه ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِم بِحُجَّتِه ، خَلَقَ الخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَويَّة**))(٢٠٥).

فالجناس التام الحاصل ما بين (لخلقه – بخلقه) فالخلق الأولى بمعنى العباد بصورة خاصة . والخلق الثانية : ابتداعه وإيجاده لهم ، وضع غيرهم من المخلوقات التي تذهل العقول والذي ميز هذا المعنى (اللام – والباء) ، ثم عاد الإمام في نفس الجملة مقدماً هذه المرة صفة الابتداع ومؤخرا الخلق بقوله (خلق – الخلق) من أجل نقل السامع والقارئ من جو إلى آخر مع رشاقة المعنى وقوة الإيقاع المنبعث من هذه الإنتقالة بدون الخروج عن الغرض المطلوب .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاسْتَقْرِبُوا الأَجَلَ ، فَبَادِرُوا العَمَلَ ، وَكَفَّى بِالمَوْتِ وَاعِظاً ، فَلاَحَظُوا الأَجَلَ**))(٢٠٦). فهو هنا يتحدث عن عباد الله الذين التزموا تقوى فكانت من جملة ما فعلت بهم قوله هنا في هذا النص. والجناس التام حاصل بين اللفظين (الأجل – الأجل) فالأولى قصد بها المدة الزمنية ، والثانية جاءت بمعنى الموت نفسه ؛ وذلك لأنه قرن الأولى بالاستقراب الزمني (قَرُبَ × بُعَدَ) ، وقرن الثانية بالملاحظة أي معاينة الموت ورؤيته حتى تتعظ به النفوس .

وقوله (عليه السلام) : ((**قُرُبَ فَبُعْدَ ، وَبُعْدَ فَقُرُبَ**))(٢٠٧) . فالجناس التام حاصل ما بين العبارتين اللتين تمثلان – العكس والتبديل – فالعبارة الأولى (قرب فبعد) فالقرب هنا ذات معنى تصوري ، أي أنه سبحانه وتعالى يدور ذكره على ألسن العباد ليل نهار، وتدور ماهيته في عقولهم لكنهم لا يستطيعون وصفه ، ولذلك جاءت كلمة (فبعد) لتعطي المعنى الذي يكمل اللفظة الأولى والذي يكمن في كون عقول العباد عجزت عن وصف كنهه .

---

(٢٠٤) ينظر : البديع تأصيل وتجديد : ٧٦ .

(٢٠٥) شرح نهج البلاغة : ١٤٢/٧ .

(٢٠٦) المصدر نفسه : ١٩٥/٧ .

(٢٠٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٠/١ .

والعبارة الثانية (فبعد وقرب) فالبعد هنا مجازي أي أنه لا يستجيب في بعض الأوقات إلى دعاء عباده[٢٠٨] ، وذلك لكونهم خلطوا العمل الصالح بالمعاصي ، وهذا ما أوضحه أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حينما سأله بعض المسلمين عن سبب عدم الاستجابة لدعائهم فكان من ضمن كلامه : ((**إنَّكم تَخافُونَ مِنَ النَّار وَأنْتُم فِي كُلِّ وَقْت تُقْدِمُونَ عَلَيْها بِمَعاصِيكُم فَأَيْنَ خَوْفُكُم ؟ .. فَأيُّ دُعاء يُسْتَجاب لَكُم مَع هَذا ؟ وَقَد سَدَدتُم أبْوابَها وَطُرُقَه**))[٢٠٩]. و(القرب) الثانية بمعنى أنه أقرب إلينا من نفوسنا ويعلم ظاهرنا وخفايانا ، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ (قّ : ١٦) فالإمام من خلال العكس والتبديل أحدث تقديماً وتأخيراً في الإيقاع الذي جاء بصيغة الجناس التام. والذي بدوره خلق معان متجددة تتجدد بانتقال الكلمات من موضع إلى آخر.

وقوله (عليه السلام) : ((**فَعِنْدَ ذَلِكَ لا تَأْمَنُونَ البَيَاتَ ، فَيا لَهُ مِنْ بَيات مَا أشَدَّ ظُلْمَتُهُ ؟ وَمِنْ صَائِحٍ مَا أفْضَعَ صَوْتَهُ ؟! ذَلِكَ بَيَاتٌ لا يَتَمَّى صَبَاحُهُ صَاحِبُه**))[٢١٠]. فقد ورد هنا نوعان من الجناس الأول: الجناس التام بين (البيات – بيات) فالإمام يتحدث عن الفتن التي ستعصف بالعباد آخر الزمان محذراً المسلمين من ولوجها وعواقبها إذا لم ينتهوا منها ، وإذا أصرُّوا على دخولها فسيكون حالهم مثلما وصفهم بالنص. فالبيان بمعنى ملازمة المكان الآمن الذي لا يوجد فيه أي خطر ، وبيات بمعنى الهجوم ليلاً . ومعنى القول أنه لشدة الفسق الذي هم عليه فإنه سيُدَّبر لهم أمر بليل سيذهلون له . ولذلك جيء بالصياح تعبيراً عن هول الموقف .

الثاني : جناس القلب بين (صباحه – صاحبه) والمعنى واضح وهو مكمل للسياق الذي قبله .

---

(٢٠٨) قد يقول قائل كيف يتلائم (بعده) مع قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة : ١٨٦) . أليس في هذا الكلام تناقض مع قولكم الذي ذكرتموه سابقا؟ فيكون الجواب إن البحث بعيد عن التناقض ، فالبعد حاصل من جهة العباد وليس من الله سبحانه وتعالى فإنه قريب في كل الأوقات ولكن نتيجة غرق العباد في المعاصي أدى إلى بعدهم عن الله عز وجل . وأما الاستشهاد الحاصل في هذه الآية فلها شرطها وشروطها والتي تتمثل بحسن النية والشعور بالذنب ، مع العمل الصالح ، فإذا تحقق كل هذا ارتفع البعد ما بين العبد والرب .

(٢٠٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٢٨/٣ .

(٢١٠) المصدر نفسه : ٤٦٣/٣ .

إذن فالجناس لا يقل شأناً عن المظهرين الصوتين – التكرار والسجع – بما يبعثه من إثارة في نفسية المتلقي من خلال ألوانه المذكورة في البحث ، بل إنه ((ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه الكلي أو الجزئي في تركيب الألفاظ ، فهذا التشابه في الجرس يدفع الذهن إلى التماس معنى تنصرف إليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى))[٢١١] .

والبحث يرى إن الإمام استطاع من خلال الجناس أن يلهب العقول ، ويأسر القلوب لما يحققه هذا المظهر من دعم صوتي دلالي يعمل على تحقيق مأُيراد الوصول إليه .

(٢١١) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب – د. ماهر مهدي هلال – د.ط – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٨٠م : ٢٨٤ .

أولاً : السجع :

إذا أراد البحث أن يتحدث عن الجنس الثاني من الأدب وهو النثر بصورة عامة ، والخطب بالتحديد بصورة خاصة ، فأنه لا يمكن أن يتجاوز السجع بدون أن يقف عنده متأملاً المظاهر الصوتية التي يحدثها في النص والتي تلفت أنظار الناقد والقارئ على حدٍّ سواء . فالسجع له ((منزلة سنية بين العرب في الجاهلية وكان يغمر كلامهم ، وكان فيه سلامة الطبع وقوة السليقة ، ووضوح الفطرة))[٢١٢]. فهو ركن أساس كانت تعدَّه العرب لسبيل ارتقاء خطبهم وإذاعتها بين الناس .

ولهذا حينما سُئِل ((عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ؛ فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ؛ وهو أحق بالتقييد وبقلة التَّفلُّت. وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيِّد الموزون))[٢١٣] . وما ذكره الرقاشي غاية كل أديب ومبدع ولا يختلف عليه أحد . ((ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لذَّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له))[٢١٤]. وهذا الفضل يرجع إلى الإيقاع المحبب الذي يتركه في الأذن مما يؤدي إلى الاستئناس بمقاطعه مهما كان الكلام طويلاً .

وأما عن سبب تسمية هذا الفن البديعي بهذه التسمية فالأستاذ علي الجندي يرى انه يرجع ((إلى ما في الكلام المسجوع من حلاوة التنغيم ، وجمال الموسيقية ، فأشبه سجع الحمام وترجيع البنات في ارتياح النفس إليه وانعطافها نحوه ، وتأثيرها به ، فالجامع بين السجعتين حسن الإيقاع ، ولعله يشهد لذلك أن معاني (السَّاجع) الوجه المعتدل الحسن

---

(٢١٢) البديع في ضوء أساليب القرآن – د.عبد الفتاح لاشين – ط ١ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٩م : ١٢٥.

(٢١٣) البيان والتبيين : ٢٨٧/١ .

(٢١٤) الخصائص – لأبي الفتح عثمان بن جني – تحقيق محمد علي النجار – ط٢ – مطبعة دار الكتب المصرية– القاهرة – ١٩٥٢م : ٢١٦/١ .

الخلقة))[٢١٥]، والبحث يتفق مع ما ذهب إليه الجندي فهو يترك أثراً صوتياً وحلاوة نغمية في النص قد لا يتركها مظهراً صوتياً آخر .

أما علماء البلاغة فقد تحدثوا عنه ، فهو عند ابن سنان الخفاجي ((تماثل الحروف في مقاطع الفصول))[٢١٦]. والأمر مختلف عند عبد القاهر الجرجاني في قبوله ورفضه . فمن جهة القبول يستحسنه غاية الحسن ولا ينكر فضله وذلك من خلال إشادته بخطب الجاحظ لكونها اعتمدت الأسجاع والأوزان فهو يقول في حقها ((فإنها تروى و تتناقل تَنَاقل الأشعار ، ومحلُّها محل النسيب والتشبيب من الشعر))[٢١٧] . فما بالك بخطب الإمام علي (عليه السلام) القائمة على الأسجاع والتوازن ؟ وأما رفضه للسجع فإنه يريد أن يقع السجع على المعنى لا العكس فهو يريد أن ((يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ، ولا تجد عنه حولا))[٢١٨] .فمتى كان السجع منسجماً مع المعنى عُدَّ مثالاً حسناً ، ومتى كان غريباً عنه عُدَّ قبيحاً مستكرهاً .وأما الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) فقد نقل عن ((علي بن عيسى:أنه تكلف التقفية من غير تأدية الوزن))[٢١٩]. وهو في بعض أنواع السجع . وأما ضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) فيرفضه ويذمه إذا كان في غير موضعه وذلك حينما يريد الأديب أن يصوغ معنى من المعاني بلفظ مسجوع ولا يأتيه ذلك إلا بزيادة في الكلام أو نقص فيه فعند ذلك لا حاجة لنا به لأنه سيكون متكلفاً . وإن كان بخلاف ذلك غير متكلف محمولاً على الطبع عند ذلك سيكون النص أعلى درجات الكلام[٢٢٠].

---

(٢١٥) فن الأسجاع – علي الجندي – د.ط – دار الفكر العربي – د.ت : ٢٦/١ .

(٢١٦) سر الفصاحة : ٢٠١ .

(٢١٧) أسرار البلاغة : ٩–١٠ .

(٢١٨) المصدر نفسه : ١١ .

(٢١٩) نهاية الإيجاز في دراسة الأعجاز – فخر الدين الرازي – تحقيق د. إبراهيم السامرائي ، محمد بركان حمدي أبو علي – د.ط – دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان – ١٩٨٥م : ٦٥ .

(٢٢٠) ينظر : الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور – ضياء الدين ابن الأثير – تحقيق د. مصطفى جواد ، د. جميل سعيد – د.ط – المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٥٦م : ٢٥٣ .

والسكاكي يضفي عليه مسحة رائعة حينما يقول : ((الأسجاع وهي في النثر كما القوافي في الشعر))[٢٢١]. لاشتراكهما في إثارة الإيقاع والوزن إلا أن ((الفرق بين القافية ليس نوعياً ، فهو لا يعدوكون أحدهما منتظماً ملزماً ، والآخر حراً . وحين يمارس الناثر السجع عن اختيار يخضع نفسه لمقتضيات القافية من حيث التفاعل الصوتي الدلالي فيطلب منه التمكين وتجنب الإبطاء))[٢٢٢] .

فالعرب ألتزمت هذا الفن قديماً وحديثاً لما يحدثه من رنين على مستوى اللفظة الواحدة والتي تلقي بأثرها على كل متلقٍ. يقول حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) ((ولشدة حاجة العرب إلى تحسين كلامها اختص كلامها بأشياء لا توجد في غيره من ألسن الأمم. فمن ذلك تماثل المقاطع في الأسجاع والقوافي لأن في ذلك مناسبة زائدة))[٢٢٣] ، فمقصده أن العرب استحسنته وإشاعته في كلامهم ليتميز عن الأمم الأخرى ؛ فضلاً عن الذائقة الصوتية التي يحدثها في النص .

ويرى كارل بروكلمان أن نظام السجع من أول مظاهر ارتقاء العربية إلى لغة شعرية بفضل ما يقدمه من تنظيم إيقاعي فهو يجمع إلى صفة البيان ضرباً من الإيقاع[٢٢٤]. فالسجع بطبيعته الصوتية ((إيقاع محبَّب إلى النفس والقلب وكأنه تمهيد للشعر وصورة مصغرة عنه يحبه الرجل كبيراً ، ويأنس إليه صغيراً بل لا يكاد الطفل يغفو في حضن أمه إلا إذا هدهدته بأنشودة مسجوعة إيقاعية رتيبة النغمات))[٢٢٥] ، وفي ضوء هذه الأقوال التي تقدمت يكون السجع ((تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد))[٢٢٦].

---

(٢٢١) مفتاح العلوم : ٦٧٢ .

(٢٢٢) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها– د.محمد العمري– د.ط – افريقيا الشرق– بيروت – د.ت :٤٦٤.

(٢٢٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء – أبي الحسن حازم القرطاجني – تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة – د.ط – دار الكتب الشرقية – تونس – ١٩٦٦م : ١٢٢ .

(٢٢٤) ينظر :تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – ترجمة عبد الحليم النجار – ط٣ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٤م : ١٥١ .

(٢٢٥) البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) : ١٢٦ .

(٢٢٦) المثل السائر : ١٩٣/١ ، زهر الربيع في معاني والبيان والبديع – الشيخ أحمد الحملاوي – ط٧ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – ١٩٧١م : ٢٥٢ .

ويود الإشارة إلى مسألة مهمة إن البحث لم يتحدث عن المصطلحات التي تدور في فلك هذا الفن ؛ وذلك بسبب الخلط الذي قام به العلماء القدماء من جهة ، ولكونها لا تخرج عمّا يذهب إليه السجع أمثال الازدواج وغيره بل أنه جعل – لزوم ما لا يلزم – من ضمن السجع ، وهذا ما ذهب إليه أيضاً الدكتور عبد الفتاح لاشين في عدِّه ((ضرباً من السجع وإن وقع في الشعر))[٢٢٧] .

فإنك حينما تقرأ خطب الإمام لا تخرج من كلمة موزونة حتى تقع في أخرى مسجوعة ، ولا تخرج من عبارة ذات توازن ثنائي حتى تقع في أخرى ذات سجع متوازي. وعلى هذا الأساس اعتمد البحث المظاهر الصوتية البارزة في السجع وهي :

١- **السجع المطّرف .**

٢- **السجع المتوازي .**

٣- **السجع المرصع .**

السجع المطرف :

وهو أن يتفق اللفظ الأخير من الجملة مع نظائره في الجمل الأخرى في حرف الروي دون الاتفاق في الوزن أو عدد الحروف[٢٢٨] .

ومثال هذا النوع من السجع قوله (عليه السلام) : ((**الحَمدُ لله الذِي لا يَفُوهُ المَنْعُ وَالجُمُودُ ، وَلا يُكْدِيهِ إلا عَطاءُ وَالجُودُ**))[٢٢٩] . فالسجع المطرف حاصل بين اللفظين (الجود – الجمود) والمعنى واضح ، والذي زاد السجع جمالاً ونصاعة أنه ينطلق منه الجناس المطرف أولاً ، والطباق المعنوي الحاصل ما بين اللفظين المسجوعين ثانياً . وهذا طبيعي لأن الإمام في معرض افتتاح في خطبته – حسن الابتداء – وهذا يتطلب قدرة على لفت أنظار المتلقين ، والرسم الآتي يوضح المظاهر البديعية المنطلقة من هذين اللفظين :

---

(٢٢٧) البديع في ضوء أساليب القرآن : ١٥٤ .

(٢٢٨) ينظر : التلخيص في علوم البلاغة : ٣٩٨ .

(٢٢٩) شرح نهج البلاغة : ٣٠٩/٦ .

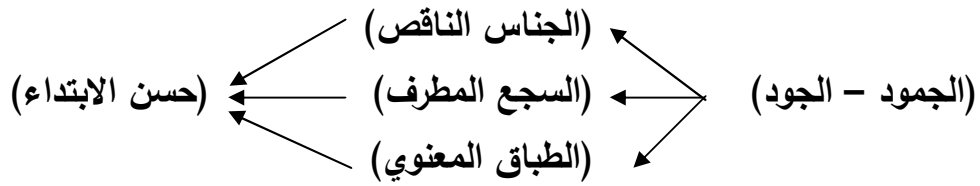

وقوله (عليه السلام) : ((**جَاءَ بالحَقِّ مِنْ عِنْد الحَقِّ ، لِيُنذر بالقُرآنِ المُنير ، وَالبُرهَانِ المُستَنير**))[٢٣٠]. فالسجع حاصل بين (المنير – المستنير) وكأنه بهذا السجع يضفي إيقاعاً عالياً من خلال هيمنة حرف (الراء) ومعروف عنه أنه من الأصوات المكررة عند النطق به[٢٣١] ، ومما زاد هذا النص جرساً وتنغيماً انه سبق بالجناس التام بين (الحق – الحق) فالأولى جاءت بمعنى القرآن الكريم ، والثانية بمعنى الله سبحانه وتعالى. فهو بهذين المظهرين الصوتيين خلق جواً من التناغم الموسيقي والتواشح الصوتي.

وقوله (عليه السلام) : ((**أَصبَحَتْ بُيوتُهُم قُبوراً ، وَما جَمَعوا بُوراً ، وَصارَتْ أموالُهُم لِلوارِثِينَ ، وَ أزْوَاجُهُم لِقَومٍ آخَرِينَ ، لا في حَسَنةٍ يَزيدُونَ وَلا مِنْ سَيِّئَةٍ يَستَعتِبُونَ**))[٢٣٢]، فالإمام هنا يصف حال الذين سعوا إلى الدنيا بأعظم وصف من خلال السجع المطرف المتوالي (قبوراً –بوراً) (وارثين – آخرين) ، (يزيدون – يستعتبون) والبديع في هذا النص أن الإمام جمع الأمور الثلاثة والتي يتحسر عليها الإنسان قبل وفاته وهي (البيت – الأموال – الزوجة)والتي لا تدور في خلده غيرها ، ثُمَّ جاء بالمقابلة ليكتمل النص (لا في حسنة يزيدون ، ولا من سيئة يستعتبون) ليقول لهم ان الفرصة قد فاتتهم بعد ما كانت سانحة ما بين أيديهم.

---

(٢٣٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٣٥/١ .

(٢٣١) ينظر : الأصوات اللغوية : ٦٠ .

(٢٣٢) شرح نهج البلاغة : ٢٠٦/٨ .

٢- السجع المتوازي :

((وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظريتها في الوزن والروي))[٢٣٣]. وهذا النوع من السجع تحفل خطب الإمام به وذلك لما يشكله من حضور بارز في كثير من المواقف والتي يتطلب حضوره فيها لإتمام المطلوب . ومثاله قوله (عليه السلام): ((**وَأعظُم مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الحَمِيم ، وَتَصلِيَةُ الجَحِيم ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ ، لا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ ، وَلا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ**))[٢٣٤]. فانظر إلى هذا التلوين الصوتي الذي يُصوِّر مشهداً من مشاهد يوم القيامة والذي عكسهُ السجع المتوازي بألفاظه الإيقاعية (الحميم – الجحيم) ، (مريحة – مزيحة) ، (حاجزة – ناجزة) مع توسط السجع المرصع (فورات السعير – سورات الزفير) مع اشتراك الجناس بنوعين هما الجناس اللاحق (حاجزة – ناجزة) ، والجناس المصحف (مريحة – مزيحة) كذلك الحضور الواضح – للتناص – في الألفاظ المسجوعة (حميم – جحيم) [٢٣٥] ، فهذا التنوع الصوتي اقتضاه معنى السياق ليوضح لهم هول ذلك اليوم . والبحث يرى أن هذا التصاعد الإيقاعي جاء موازياً للدلالة التي فرضها النص .

وقوله (عليه السلام) : ((**عَلِمَ فَسَتَرَ ، وَبَطَنَ فَخَبَرَ وَمَلَكَ فَقَهَرَ وَعُصِيَ فَغَفَرَ [وَعُبِدَ فَشَكَرَ]**))[٢٣٦]. فالسجع المتوازي حاصل بالألفاظ المتصلة بالفاء (ستر – خبر – قهر – غفر – شكر) كيف إنها وردت بإيقاع سريع سلس لا يشوبه أي غلظة ، ولو أنك جعلت كل عبارة على حدة لكان المعنى واضحاً مثلما هو الحال عليه . والطباق حاضر في هذه الألفاظ المسجوعة (ستر – خبر) ، (قهر – غفر) فإيهام الطباق حاصل في العبارة الثانية ؛ لأن القهر لا يقابل المغفرة فالإمام هنا استعمل المسبب (القهر) ، وترك السبب وهو (الغضب) أي أن نتيجة الغضب القهر . وهذا من لطيف كلامه .

---

(٢٣٣) ينظر : حسن التوسل إلى صناعة الترسل – شهاب الدين محمود الحلبي – تحقيق أكرم عثمان يوسف – د.ط – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٨٠م : ٢٠٩ ، علم البديع : ١٧٠ .

(٢٣٤) شرح نهج البلاغة : ٢١٢/٦ .

(٢٣٥) ورد ذلك في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾(الواقعة:٩٣-٩٤).

(٢٣٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٩٩/١ .

وقوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ زَيَّنَها بِزِينَةِ الكَواكِبِ ، وَضِياءِ الثَّواقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَقَمَراً مُنِيراً ، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ**))[٢٣٧]. فالسجع المتوازي حاصل ما بين الألفاظ الثلاثة (دائر – سائر – مائر) وأن شئت قلت – لزوم ما لا يلزم – ، وكذلك السجع الحاصل في بدء المقطع (الكواكب – الثواقب) جاعلاً السجع المطرف متوسطاً ما بينهما (مستطيراً –منيراً) ليخرج النص بأبهى صورة . فهو حينما قال (الثواقب) قصد بها المنيرة المشرقة وهذه الإثارة عائدة على السماء وقوله (رقيم مائر) فالرقيم : ((اسم من أسماء الفلك ، سمي به لأنه مرقوم بالكواكب . مائر : متحرك ويفسر الرقيم باللوح . وشبه الفلك باللوح ؛ لأنه مسطح فيما يبدو للنظر)) [٢٣٨] .

وقوله (عليه السلام) : ((**رَحْمَتُهُ جَنَّةٌ عَرِيضَةٌ مُونِقَةٌ وَعُقُوبَتُهُ جَحِيمٌ مَسْعُودَةٌ مُوبِقَةٌ**))[٢٣٩]. فالإمام هنا يقدم صورتين تجمعهما – المقابلة – وهي الرحمة والعقوبة من الله سبحانه وتعالى إذا صدرت بحق العبد ، ويا لهما من موقفين عظيمين قد صورهما الإمام أحسن تصوير حينما اختار لهذه المقابلة ثنائية صوتية تكمن في السجع المتوازي ، والجناس المصحف (مونقة – موبقة) لتبقى صورته في الأذهان. فيقدر ما تطيب النفوس للصورة الأولى المتمثلة بالرحمة، يكون مقابلها ما يرعب القلوب عند تحليلها ، وقد يسأل سائل عن البحث يكثر من النصوص التي يكون فيها السجع مقترنا مع المظاهر الأخرى ؟ فالجواب إن السجع الذي استعمله الإمام هو عام في خطبه وواقع على المظاهر البديعية وعلى غيرها،فمن أين غرفت فالنتيجة واحدة وهي انك أما فيض من النصوص البلاغية الرائعة.

٣- السجع المرصع :

(٢٣٧) شرح نهج البلاغة : ١٠١/١ .

(٢٣٨) هامش نهج البلاغة – محمد عبده : ٣٩/١ .

(٢٣٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٠/١ .

مقابلة كل لفظ بلفظ على وزنه وروّيه[٢٤٠]. ((فهو أحسن وجوه السجع))[٢٤١]. وأفضلها لما يحققه من موسيقى إيقاعية من خلال المقابلات ما بين الألفاظ بالوزن والروي . فالمتلقي حينما يسمع المقطع الأول من العبارة في النص تألف نفسه إلى أن تكون التي بعدها على نفس الصيغة التي وردت بها الأولى. والهدف من استعمال مثل هذا النوع من السجع هو لغرض ((المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضاً))[٢٤٢] ، ولكنه لا يستحسن في بعض المواضع ولا يصلح لكل حال إلا إذا اتفق مع المعنى المقصود .فيجب أن يعتمد على ((سهولة المأخذ وعدم التكلف ، وهو أن يكون المتكلم مستمراً على ديدنه ، والكلام جارياً على سُتَنِه حتى إذا عرضت له فرصة السجع وعنت نزهت الترصيع متيسرة من غير عسف ، سهلة من غير عنف ، انتهزها حذرا من التكلف الغثّ والبارد الرثّ))[٢٤٣]، وهذا النوع من السجع موجود في خطب الإمام(عليه السلام)نحو قوله:((**اللَّهُمَّ أغفِر لِي رَمَزَاتِ الألحَاظِ ، وسَقَطَاتِ الألفَاظِ وسِهوَاتِ الجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ**))[٢٤٤]. فالبحث يلاحظ أن هذا الدعاء العلوي قائم على الترصيع لفظة بلفظة ، فهو يطلب من الله عز وجل المغفرة من تلك الرمزات عن طريق الألحاظ أي مؤخر العين أي ما شاهده من محرمات بعينه ، وسقطات الألفاظ أي اللغو الحاصل بغير ذكر الله وطلب استغفاره ، وسهوات الجنات ما عقده القلب من سوء النية تجاه الآخرين ، وهفوات اللسان أي زلاته وعثراته ، وحاشا لمقام الإمام أن يكون هذا حاصلاً منه ، وما قاله جاء من باب التواضع والخشوع والرهبة والخوف فهذا هو كلام الأنبياء والأولياء ، وهذا ما رفع مقامهم في الدنيا والآخرة. وما يميز المقطع الأول أنَّه جاء موشحاً بالجناس اللاحق (الألحاظ – الألفاظ) ليزيده نصاعة إلى جانب جماله الصوتي .

---

(٢٤٠) ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الأعجاز: ٦٧، خزانة الأدب : ٥١٥، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) : ١٢٩ .

(٢٤١) كتاب الصناعتين : ٢٦٩ .

(٢٤٢) نقد الشعر : ٥٠ .

(٢٤٣) المنزع البديع : ٥٠٩ .

(٢٤٤) شرح نهج البلاغة : ١٤١/٦ .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَحِينَئِذٍ يُلجِمُه عَرَقُه ، وَيُحصِرُه قَلَقُه عَبْرَتُه غَيْرَ مَرْحُومَةٍ وَصَرْخَتُه غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ**))[٢٤٥] ، فالإمام يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة بأسلوب مخيف مهول سُخِّراً الجانب الصوتي والمعنوي في إبرازه ، ويمكن ملاحظة ما فعله الترصيع في الكشف عن عظم ذلك اليوم من خلال الألفاظ المتقابلة في الوزن والروي (يلجمه– يحصره) (عرقه– قلقه) ، (عبرته– صرخته) ، (مرحومة– مسموعة) كل هذه التراكمات جاءت بجرسٍ عالٍ وإيقاع تتفجر فيه الكلمات عند النطق بها. ولعل هذا ما أراده الإمام. فلو تأملت أيها المتلقي في واحدة من هذه العبارات لكففت عن الدنيا وما فيها، ولاحظ قوله (يلجمه عرقه) فالإنسان قد يتضايق من الرائحة التي يفرزها جسمه من العرق نتيجة الحرارة ، أو التعب فما بالك إذا ألجمه هناك ؟ ففي أي صورة يكون في ذلك الموقف ؟ فالترصيع تنبعث الطباع إليه نتيجة توافق الألفاظ وتشابه الصيغ ولهذا تكون ألذ في الأسماع من الألفاظ المختلفة والمتباينة [٢٤٦].

وقوله (عليه السلام): ((**فَكَفَى بِالجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوالاً ، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً**))[٢٤٧]. فهذا النص يحمل في فضائه ثنائية الصوت والدلالة ، فمن جهة الدلالة أنه جاء على هيأة – مقابلة – ، ومن جهة الصوت جاء مرصعاً (ثواباً ونوالاً –عقاباً ووبالاً) . وهذه مسالة طبيعية ؛ لأنه جعل هذا النص آخر الخطبة – حسن الانتهاء – وما سبقه تحذير للعباد نتيجة تجاهلهم يوم الحساب .

فهذا هو السجع ، فهو ((مقصد من مقاصد العقلاء يميل إليه الطبع وتتشوق إليه النفس))[٢٤٨]. من خلال الدور الواضح الذي يقوم به من ((تكوين الإيقاع ... وإظهاره ، من خلال التقسيم المنظم للجمل والعبارات من ناحية ، ولوجود النغمة الموسيقية التي يوفرها السجع أخر السجعة من الناحية الأخرى))[٢٤٩] .

---

(٢٤٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٤/١

(٢٤٦) ينظر جوهر الكز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة) نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن اُير – تحقيق د. محمد زغلول سلام – د.ط – منشأة المعارف بالإسكندرية – د.ت : ٢٥٤ .

(٢٤٧) شرح نهج البلاغة : ٢٠٨/٦ .

(٢٤٨) الطراز : ٢١/٣ .

(٢٤٩) الإيقاع ، أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم (دراسة أسلوبية دلالية) – عبد الواحد زيارة اسكندر – رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب – جامعة البصرة – ١٩٩٥م : ٣٩ .

وفضل السجع لا ينكره منكر ،ولا يبطله مبطل لما له في النص من نغمة وحلاوة ، وفي النفس لذة وطلاوة ، حينما يكون موافقاً للمعنى المطلوب أما إذا كان دخوله قسراً فالواجب تركه حتى لا يكره في ذلك الموقع وفي غيره .

ثانيا: التوازن :

وهو أن تكون الجملة أو بعض من أجزائها متعادلة من جهة الوزن دون التقفية ، أو على الأقل فوصلها تكون من أحرف متقاربة المخرج[٢٥٠].

وقد وقع اختيار البحث على هذا المظهر الصوتي لما يعلمه من تنظيم للعبارات داخل الخطبة الواحدة ، وكذلك قربه للسجع ، ومعروف عن السجع انه من المظاهر الإيقاعية التي تترك أثراً في أُذن المتلقي . وهناك من الباحثين من جعل السجع ضمن التوازن ومنهم الباحثة أروى عبد الغني سعيد ، فالبحث يتفق معها ويختلف في بعض الأمور.

فهي تقول : ((أن التوازن مرادف للاعتدال ، الذي هو جوهر السجع))[٢٥١]. فقولها صحيح فالاعتدال قائم ما بين المظهرين ، ولكن الاختلاف مع الباحثة أن تُعدَّ السجع من ضمن التوازن لسببين :

الأول : إن السجع في أقسامه (المطرف – المتوازي – المرصع) يحدث اتفاق من جهة الروي بينما التوازن لا يحدث اتفاق فيه وإن الاتفاق حاصل من جهة الوزن .

الثاني : وهو مما قالته الباحثة في أن التوازن جوهر السجع لاشتراكهما في الاعتدال ، ثم تعرف – التوازن الحر – بقوله ((ما كانت جملة متفقة في جميع أو اكثر ألفاظها في الوزن دون الروي ، بمعنى أنها تحررت من قيد السجع))[٢٥٢] . فإذا تحرر التوازن الحر من قيد السجع فكيف بقولها أن التوازن يجمع بين السجع والازدواج ! فهذا تناقض ما بين القولين . والبحث يرى أن الموازنة هي الأقرب إلى تعريف الباحثة للتوازن الحر .

وهناك نوعان من التوازن يكثر وجودهما في الخطب العلوية وهما :

---

(٢٥٠) ينظر : كتاب الصناعتين : ٢٦٩ .

(٢٥١) الحديث النبوي الجاري مجرى المثل (رسالة ماجستير) : ٣٢ .

(٢٥٢) المصدر نفسه : ٣٣ .

١- التوازن الثنائي .

٢- التوازن الحر .

فأما **التــوازن الثنــائي** : فهو الذي تكون فيه ألفاظ الجملتين أو فاصلتهما قد تساويا من جهة الوزن دون الروي .وهذا النوع شكل حضوراً كبيراً في الخطب ؛ وذلك لما يحققه من توافق للمعاني إلى جانب إرساء الإيقاع عن طريق الألفاظ التي يرد فيها .

فعلى سبيل المثال قوله (عليه السلام): ((**لا يَغشَاهُم نَوْم العُيونِ ، وَلا سَهْو العُقُولِ**))[٢٥٣] . فالتوازن حاصل بين العبارتين بالكامل (فَعْل – فعول) وهو هنا في معرض كلامه عن الملائكة حيث ذكرهم بجملة أمور وكان هذا المقطع المتوازن من ضمنه . والمعنى واضح أن كل من النوم والسهو لا يجوزان على الملائكة ، وإنما هما من الأمور التي تحصل للإنسان . وذلك لأن الجمع بين الذكر والنوم مستحيل . ولاسّيما إن الإمام قد وضعهم في غير مقام أنهم بالمسبحين .

وقوله (عليه السلام) : ((**الحَمْدُ لله الَّذي لا يُقَدِّم لما أخَّرَ ، وَلا يُؤَخِّر لما قَدَّم**))[٢٥٤]، فالتوازن حاصل بين العبارتين بالصيغتين (مُفَعِّل –فَعّل) فضلاً عن كون العبارة بحد ذاتها – عكس وتبديل – ، فالنص ورد في بدء الخطبة ومن الطبيعي أن يكون مطرقاً للإسماع ، وملفتاً للأذهان ؛ حتى تكون النفس مصغية إليه .وقد يكون التوازن حاصلاً على مستوى الفواصل دون الألفاظ الأخرى مثل قوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ أنْتَ أهلُ الوَصْفِ الجَمِيلِ ، وَا لتَّعدَادِ الكَثِيرِ**))[٢٥٥]. فالتوازن حاصل ما بين الكلمتين بصيغة (فعيل) ، والله سبحانه وتعالى أهلٌ لهذه الكلمات ؛ لما يقدمه للمخلوقات من أوصاف يعجز عنها البشر ، ومن نِعم لا يكون منهم العِبر. فهذا الكلام الذي جيء بهيأة التوازن هو في منتهى الخطبة هو في مقام الدعاء ، ومن الطبيعي أن يكون التوازن فيه ذات ((صياغة دقيقة مصقولة ... تبنى على دعائم من التلوين واتساق النغم))[٢٥٦] .

---

(٢٥٣) شرح نهج البلاغة : ١٠٦/١ .

(٢٥٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٩٢/٣ .

(٢٥٥) شرح نهج البلاغة : ٢٦/٧ .

(٢٥٦) فن الأسجاع : ٥١/٢ .

وقد يرد التوازن في الخطبة بكلا الشكلين اللذين نُكرا سابقاً نحو قوله (عليه السلام) : ((**وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجِعٍ**))[٢٥٧]. فالتوازن حاصل بين العبارتين (ذكر المرجع – خوف المحشر) ، (خائف مقموع – ساكت مكعوم) ، والتوازن حاصل في الفواصل (مخلص – موجع) وهذا الكلام جزء من خطبة يقسم فيها الإمام الناس ، والنص هنا هو القسم الأخير والذي يتكلم فيه عن المتقين فقد وصفهم بألفاظ بغاية الروعة فهم لشدة ذكر المرجع لم تغمض لهم جفن من شدة الخوف لذلك اليوم العظيم فتراهم شاردين عن بلدانهم تاركين أهلهم حذرين من سلاطينهم ، لأن هيأتهم لا تعجب الناس . وقصد بـ(مكعوم) أي أثقلتهم الأعمال الباطلة نتيجة السكوت عنها. وتسببت لهم بالمرض.. فالإمام جاء بهذا التكوين الصوتي ؛ حتى يبقى في أذهانهم ولا يغادرهم معناه.

٢- التوازن الحر :

وهو التوازن الذي يكون بين الألفاظ والفواصل بأكثر من مقطعين متوازنين .

وهذا النوع من التوازن لا يقل شأناً عن النوع الذي ذُكر سابقاً ، فإنك حينما تقرأ الخطبة وتجد مثل هذا الترتيب ما بين الكلمات أو الفواصل تحس أن الكلام مترابط مع بعضه البعض في نسق واحد تاركاً أثراً صوتياً على مستوى الخطبة .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ ... وَمَا ضَمَنَتْهُ أَكِنَّةُ الْقُلُوبِ وَغَيَايَاتُ الْغُيُوبِ ، وَمَا أَصْغَتْ لاسْتِرَاقِهِ مَصَائِخُ الأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفُ الذَرِّ ، وَمَشَاتِي الْهَوَامِّ**))[٢٥٨]. وهذا الكلام يوضح فيه قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه بأدق الأشياء وأصغرها ، وأعظم الأجساد وأكبرها ، فهو في سياق هذا الكلام يأتي بالتوازن الثلاثي ما بين (مصائخ – مصائف – مشاتي)خالقاً انسجاماً ما بين هذه التوازنات المتوالية جاعلاً المقابلة قائمة عند طرفها (مصائف الذرِّ – مشاتي الهوام) ليزيد من جمال المقطع الصوتي هنا .

شتاء × صيف ، الذرِّ (النمل) × الهوام (الحيوانات الكبيرة) .

---

(٢٥٧) شرح نهج البلاغة : ١٣٨/٢ .

(٢٥٨) المصدر نفسه : ١٩/٧ .

وقوله (عليه السلام) : ((**إنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُه وَاحِدٌ بِغَيْرِ تَشْبِيه ، وَدَائِمٌ بِغَيْرِ تَكْوِينٍ [وَ] خَالِقٌ بِغَيْرِ كُلْفَةٍ**))[٢٥٩] ، فالتوازن الثلاثي متحقق في الألفاظ الثلاثة التي جاءت على زنة (فاعل) (واحد – دائم – خالق) لتؤكد المعنى الذي يريده الإمام أن الله سبحانه وتعالى لا شبه له ، وأنه دائم الوجود ، وأن الكلفة (التعب) لا تقع عليه ، وإنما توجب على غيره من المخلوقات .

وقد يكون رباعياً نحو قوله (عليه السلام) : ((**قَوْمٌ وَاللهِ مَيامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ الحِلْمِ ، مَقَاوِيلُ بِالحَقِّ ، مَتَارِيكُ لِلبَغْيِ**))[٢٦٠] ، فالإمام هنا في معرض وصف أصحابه الذي تمنى أن يلحقهم إلى دار الآخرة نتيجة ما رأى من ظلم وهوان من المسلمين في وقته ؛ لتقاعسهم عن القتال وعدم الامتثال لأوامره . فجاءت الكلمات متوازنة توضح الصفات التي كان يحملها أصحابه (عليه السلام) . واللطيف في هذا النص أنه جعل – المقابلة – في المقطعين الأخيرين حتى يكون المعنى قد بلغ غايته ومراده .

وقد يكون التوازن أكثر من الرباعي نحو قوله(عليه السلام) : (**وَلَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وسلم يَأْكُلُ عَلَى الأرضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ العَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ العَارِيَ ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ**))[٢٦١]. فالتوازن متحقق في الأفعال المضارعة (يأكل – يجلس – يحصف – يرقع – يركب – يردف) فكل هذه الأفعال المتوازنة المئوالية جاءت لتؤكد حقيقة التواضع الذي كان يتحلى به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو وإن كان نبي هذه الأمة فهو مثل حالهم . والتكرار المعنوي حاضر في هذا النص من خلال توالي هذه الأفعال والتي كما قيل تنصب في معنى واحد وهو (التواضع) .

إذن فالتوازن من الأعمدة الصوتية البارزة في لخطب العلوية من خلال إشاعته وقعاً صوتياً جميلاً عن طريق الوزن والتفعلة الواحدة وهذا بدوره يخلق نغماً موسيقياً يترك أثره في نفوس المتلقين .

---

(٢٥٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤١/٣ .

(٢٦٠) شرح نهج البلاغة : ٢١٧/٧ .

(٢٦١) المصدر نفسه : ١٧٨/٩ .

الفصل الثاني

بلاغة التركيب

١ـ تغير الأسلوب

٢ـ الجمل البديعية ذات التوجيه النحوي

٣ـ طول الجمل البديعية وقصرها

بعد أن تمَّ الكشف عن الأثر الصوتي ، والتنغيم الإيقاعي الصادر عن الجمل ، والكلمات ، والحروف في الخطب العلوية ، لابد من النظر إلى هذه الإنبعاثات الصوتية كونها لم تخرج عن طريق الصدفة ، وإنّما هناك مستوى عمل على رصفها وترتيبها إلى أن خرجت إلى المتلقي بهذه الصورة المميزة ، وإلا ما الفائدة من انبعاث الصوت من جهة ما بدون فهم معناه ؟ فالفضل يعود في كل ذلك إلى الأثر التركيبي قبل غيره من الآثار الأخرى ، ويراد به : المبادئ والعمليات التي تنهض بها الجمل في اللغة[١] ، التي عادة ما ((تؤدي مجتمعة إلى إنتاج معنى .. إن تلك المبادئ ، والعمليات التي تنظم السياق تقدمها أعراف ، وتسهم في فاعليتها سنن يمكن كشفها ، وتمثل تحولاتها وصولا إلى تحديد عناصر قوتها المشكلة لفضاء النص الأدبي))[٢] .

والبحث حينما يذكر التركيب لا يقصد أنه سيتناول الجمل والعبارات من جهة الاسم والفعل والحرف ، بل يريد أبعد من هذا ، وهو الكشف عن ما يختبئ وراء هذه التراكيب من قيم بلاغية وأسلوبية جسدتها المظاهر البديعية من خلال ما منحته للخطب من بُعدٍ أسلوبي يتناسب مع السياق الذي وردت فيه الخطب ، وحتى لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه متى بن يونس (ت٣٢٨هـ) حين قال لأبي سعيد السيرافي(ت ٣٦٨هـ) ((يكفيني من لغتكم هذا الاسم والفعل والحرف ، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لي يونان))[٣]. فما كان من أبي سعيد إلا أن ردَّ عليه قائلاً : ((أخطأت ، لأنك في هذا الاسم والفعل فقير إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها))[٤].

وللسيرافي رؤيته الثاقبة ، حيث أدرك إأن التركيب هو أبعد مما ذكره متى بن يونس ، ولهذا أردف على قوله السابق قائلاً : ((وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في

---

(١) ينظر : البنى التحويلية – جومسكي – ترجمة يوئيل يوسف عزيز ح– دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد– ١٩٨٧م : ١٣ .

(٢) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٢٧ .

(٣) الإمتاع والمؤانسة – أبي حيان التوحيدي – تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين – د.ط – دار مكتبة الحياة– بيروت – د.ن : ١١٥/١ .

(٤) المصدر نفسه : ١١٥/١ .

المتحركات))[٥]. فمثلما أن البلاغة الصوتية تحدث أثراً في النص من خلال الإيقاع المنبعث من فضاء النص ، كذلك البلاغة التركيبية ؛ لأن ((أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغيير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى أخر))[٦]. ولذلك ترى أن اختلاف ((البنية التركيبية للنص يتم على وفق المتغير الأسلوبي الذي يحمل بين طياته سمات أسلوبية متفردة . فيعدل بالصيغ عن الوجه المعتاد والمطرد إلى معان أخرى تفهم من خلال دلالة السياق عليها ، وهذا بحد ذاته يُعدُ من باب التوسع في الكلام الذي يزيد من القيمة الفنية للنص))[٧].

فالذي يؤسس علم النحو للناس ، لا غرو أن تجد الإبداع حاصل في التركيب في فضاء خطبه ، لأن هذا الأخير هو الذي ينظم تلك الخطب في سياقات تبهر المتلقي حين سماعها ، وتلقيها . ولهذا فإن البحث سيدرس في هذا الفصل المباحث الآتية :

١- تغير الأسلوب .
٢- الجمل البديعية ذات التوجه النحوي .
٣- طول الجمل البديعية وقصرها .

---

(٥) الإمتاع والمؤانسة : ١١٥/١ .
(٦) البلاغة والأسلوبية : ٢٥٠ .
(٧) الآيات القرآنية المتعلقة بالرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، عدنان جاسم محمد – (أطروحة دكتوراه – مقدمة إلى مجلس كلية التربية – ابن رشد – جامعة بغداد – ٢٠٠٣م : ٦٥ .

الالتفات :

يُعد الالتفات من المظاهر البديعية المميزة ، وذلك من خلال ما يحدثه من انتقالات زمنية ، ونحوية ، وعددية بين الجمل كداخل النص الواحد ، والتي تلقي بأثرها على المتلقي لضمان عدم نفوره من هذا النص ، فمن غير المعقول أن يكون هناك خطاب أدبي محكم الصنعة والصياغة على أسلوب واحد فحسب ، وإنَّما الصنعة المحكمة التي تحكمه تنبأ عن وجود علاقة تواصلية بين انساق الكلام المختلفة فيه .

وللعلماء رأي في هذا الفن ، فالأصمعي (ت ٢١٦هـ) أول من تكلم عنه حينما أشار إلى التفاتات جرير الذي قال :

((أَتَنْسَى إذ تُودِّعُنَا سُلَيْمى بِعودِ بشامةٍ سُقي البشامِ(*)

ألا تراه مقبلاً على شعره ... ثم ألتفت إلى البشام فدعا له))[٨]. ويمكن القول إن ما ذهب إليه الأصمعي هو الإشارات الأولى لهذا الفن .

وذكره عبد الله بن المعتز (ت٢٩٩هـ) بعد الفنون البديعية الخمسة مُعرّفه : ((انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الأخبار وعن الأخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى أخر))[٩] . ويضع قدامة (ت٣٣٧هـ) تعريفاً له ما بين علماء البلاغة بحق الالتفات جاعلاً إياه من نعوت المعاني، ويعرفه ((هو أن يكون الشاعر آخذا في معنى . فكأنه يعترضه إمّا شك فيه أو ظن بأن رادًّا يرد عليه قوله ، أو سائلاً يسأله عن سببه ، فيعود راجعاً على ما قدّمه ، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشك فيه))[١٠]. فقدامة يجعل من الشك والظن سبباً لانتقال الأديب من نصٍ إلى آخر ، وهذا مما لم يتطرق إليه أحد قبله .

وأما الباقلاني (ت٤٠٣هـ) فهو يرى إن الالتفات ((اعتراض في الكلام))[١١].

---

(٨) كتاب الصناعتين : ٤٠٧ .

(*) البشام : شجر ذو ساق وافنان ورق ولاثمر له . ينظر : لسان العرب مادة (بشم) : ١/ ٤٢٩ .

(٩) كتاب البديع : ١٥٢ .

(١٠) نقد الشعر : ١٤٦-١٤٧ .

(١١) إعجاز القرآن : ٩٩ .

وهذا صحيح ؛ لأنك حينما تسير بكلامك على نمط واحد في أثناء النص تعترضه بكلام أخر إحساساً منك بكونه هو الأفضل للمتلقي .

والسكاكي(ت٦٢٦هـ) تراه يدخله مرة في علم المعاني ، وأخرى في علم البديع ، ويقول فيه : ((... أن هذا النوع ، اعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة ، لا يختص السند إليه ، ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الأخر .. والعرب يستكثرون منه ، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أخر أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن تطرية لنشاطه ، واصلاً باستدار إصغائه))[١٢]. فالسكاكي يرى أن الانتقالات تحدث في الغيبة والخطاب والحكاية ، مع ذكر الفائدة التي تعود على المتلقي عند من يستعمل هذا اللون البديعي .

ويرى ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) أن ((حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا ، كذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه يتنقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماض))[١٣] .

ويُقدِّم ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) تعريفاً يختلف فيه عن سابقيه بقوله: ((هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى فيّمر فيه إلى أن يفرغ من التعبير عنه على وجه ما، فيعرض له أنه متى اقتصر على هذا المقدار كان معناه مدخولاً من وجه غير الوجه الذي بنى معناه عليه فيلتفت إلى الكلام ، فيزيد فيه ما يخلصّ معناه من ذلك الدخل))[١٤].والبحث يرى أن هذا التعريف الذي ذهب إليه المصري هو أقرب إلى المظهر البديعي – التتميم – الذي سيتم دراسته ضمن بلاغة الدلالة .

أما حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) فله تعريف لطيف بقوله : ((والصور الالتفاتية هي أن يجمع ما بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض ، وأن ينعطف من إحداهما إلى الأخرى انعطافاً لطيفاً من غير واسطة ، تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخر

---

(١٢) مفتاح العلوم : ٢٩٦ .

(١٣) المثل السائر : ٤/٢ .

(١٤) تحرير التحبير : ١٢٥/١ .

على جهة من التحول))[١٥].ويكفي هذا الفن تسميته بـ(شجاعة العربية) ؛((لأن الشجاعة هي الإقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتوّرد ما لا يتوارّده سواه ، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات))[١٦]. ولذلك ترى العلوي (ت ٧٢٩هـ) يقول ((من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها ، والواسطة في عقودها وقلائدها))[١٧]. كما أن الالتفات يدخل ((في تعالق أسلوبي مع ظواهر من أهمها الانقطاع ... إذ يشغل الانقطاع على المفارقة الداخلية في إحداث الخطاب على حين يشتغل الالتفات على المفارقة الخارجية . ذلك أنه في الانقطاع تتحول لغة النص على بنى تكاد تكون معزو لة الواحدة عن الأخرى بفعل قطع الحدث وإدخال أخر غريب عنه بْيَد انه في الالتفات الحدث يظل واحداً مستمراً))[١٨]. والذي ((يتشتت ، أو يتغير هو بنية شخوص الحدث ، إذ يتم قطع الحدث مع شخص ، واستكماله مع أخر ،أو غير ذلك ... إن الصدع الذي يخلقه الانقطاع على كل مستويات النص الداخلية والخارجية أوجزء من الخارجية يحققه لـه تمظهر الالتفات على المستوى الخارجي))[١٩]. وحتى يكون الكلام أكثر وضوحاً إن الانقطاع ((خصيصة نصية صرفة ، بْيَد أن الالتفات خصيصة مرجعية بالدرجة الأولى ،ثم نصية. لذلك فهو يركز على السياق أولاً في أشغاله،ذلك إن النص في الالتفات يحيل على زمن خارجي متغاير لحدث واحد،أو يحيل على رواة يشتركون في إخراج حوار واحد على بعدين مكاني وزماني بينهما))[٢٠].

والخطب العلوية تزخر بالالتفاتات بين نصوصها بحكم السياق الذي ترد فيه. ولذلك فالبحث سيدرس تلك الانتقالات في هذا المظهر على النحو الآتي :

١- الالتفات الضمائري .

٢- الالتفات الزمني .

---

(١٥) منهاج البلغاء : ٣١٥ .

(١٦) المثل السائر : ٣/٢ .

(١٧) الطراز : ١٣١/١ .

(١٨) التوازي في القرآن الكريم – وداد مكاوي حمود الشمري (اطروحة دكتوراه) – مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات – جامعة بغداد – ٢٠٠١م : ١٧٥ .

(١٩) المصدر نفسه .

(٢٠) المصدر نفسه .

أولاً : الالتفات الضمائري :

١ـ الانتقال من ضمير التكلم إلى ضمير الخطاب:

ومثال هذا النوع قوله (عليه السلام) : ((**وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الْآجَالَ ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَرْفَغَ لَكُمُ الْمَعَاشَ**))[٢١].

هذا الكلام جزء من خطبة عرفت باسم (الخطبة الغرّاء) ؛ لما يذكر فيها من أمور عجيبة تخص المسلمين ، ويخرج من بين فضاء هذا النص مظهر الالتفات من خلال الانتقال من ضمير التكلم العائد على (أشهد) ، الخطاب في الضمير المتصل بحرف الجر (لكم) ، فالإمام بعد ما كان في مَعْرض الإقرار بما أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من تنفيذ أوامره ، وإنهاء عذره في أفعاله وأقواله ، وتقديمه لهم نذره من جهة تخويفهم بما سيحل بهم في حال عدم طاعته ، تراه ينتقل إلى توصيتهم بتقوى الله الذي ضرب الأمثال لهم وهي كثيرة في القرآن الكريم[٢٢] ، ووقت الآصال لهم إلى يوم مسمى ، مذّكرهم بفضائل الله عليهم مثل إلباسهم الرياش ، وإطابة المعاش ، كل ذلك من أجل أن يستحوا من مجاهرته بالمعصية . ولعل البلاغة الصوتية حاضرة في هذا النص من خلال – التوازن – (إنفاذ – إنهاء)، والسجع – (أمره – عذره – نذره) ، (الأمثال – الآجال) كل ذلك من أجل ترسيخ المعنى في نفوس المتلقين .

وقوله (عليه السلام) : ((**مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمَاكِنَ بِهِ تَحِيطُ لَزِمَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالتَّخْلِيطُ ، بَلْ هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ الرَّحْمَانِ ، بِخِلَافِ التَّنْزِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، فَصِفْ لِي جِبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ هَيْهَاتَ**))[٢٣].

تبرز بلاغة هذا المقطع من خلال وجود مظهر الالتفات الحاصل في انتقال الكلام من ضمير التكلم المتصل (إلهنا) إلى الخطاب (كنت) ، فالكلام معناه انتقل بوجود الالتفات

---

(٢١) شرح نهج البلاغة : ٦/١٩١-١٩٣ .

(٢٢) مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة : ١٧١) .

(٢٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/٦٠٠ .

من وصف حال من يجسم الله عز وجل إلى التحدي بوصف أحد ملائكته ، وهذا النص صدر عنه ردًّا عن ما طلبه قسم من اليهود حينما سألوه أن يصف لهم الله سبحانه وتعالى فكان جوابه واضح على أن من يدَّعي محدودية الإله في مكان معين فهذا جاهل ، وأصابته الحيرة فيما يتصور ، فالإنسان لا يستطيع أن يتصور كيفية خلق الملائكة الذين خُلقوا مثله ، فكيف بالخالق العظيم ؟ فالله اعز وأجل من أن يدرك بالعقول البشرية . والنص لا يفارقه الجلب الصوتي والذي أعطاه إيقاعاً مميزاً يعمل على خلق صور متعددة تنطلق من أفق بلاغي .

وقوله (عليه السلام) : ((**سِرَاجُ الْمُؤْمِنِ مَعْرِفَةُ حَقِّنَا ، وَأَشَدُّ الْعَمَى مَنْ عَمِيَ عَنْ فَضْلِنَا، وَنَاصَبَنَا الْعَدَاوَةَ بِلا ذَنْبٍ ... لَنَا رَايَةُ الْحَقِّ مَنِ اسْتَظَلَّ بِهَا كَنَّتْهُ وَمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا فَازَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهَا نَجَا ، أَنْتُمْ عُمَّارُ الأَرْضِ [الَّذِينَ] اسْتُخْلِفْتُمْ فِيهَا ؛ لِيُنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ...**))[٢٤] ، فمظهر الالتفات حاصل من خلال انتقال ضمير التكلم المتصل (حقنا) إلى الخطاب في قوله (أنتم) ، فالإمام استعار لفظ (السراج) للمؤمن بمعرفة أهل البيت (عليهم السلام) فكما أن السراج يضيء للسالك دربه ويجنبه العثور والظلمة ، كذلك معرفة أهل البيت والأخذ بعلومهم تجنب العبد الوقوع في الجهل والحيرة. ثُمَّ شددَّ بلفظ (العمى) من غفل عن فضلهم للدين ، والمعنى فيه – طباق معنوي – ومناصبة العداء لهم ، فراية الحق معهم (من تخلف عنها هلك × من تمسك بها نجا)

– مقابلة – ، ثمَّ انتقل بالكلام إليهم أن الله جعلهم عمار هذه الأرض ليرى كيف يعملون ، هل يسيرون خلف راية الحق ؟ .

٢- الانتقال من ضمير التكلم إلى ضمير الغياب :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجِلَهُ ، وَإِنَّ مَعِيَ لَبَصِيرَتِي ، مَا لَبَّسْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَلا لُبِّسَ عَلَيَّ وَأَيْمُ اللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ ، لا يَصْدُرُونَ عَنْهُ ، وَلا يُودِثُونَ إِلَيْهِ**))[٢٥].

---

(٢٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣/٤١٥-٤١٦ .

(٢٥) شرح نهج البلاغة : ١/٢٢٥ .

هذا الكلام قاله حينما خلع بعض الناس بيعته وأخذوا يجمعون الناس ضده لمقاتلته، ويظهر على هذا النص الإيقاع الصاعد من خلال حضور المظاهر البلاغية ، لاسّيما البديعية منها مثل الالتفات الحاصل هنا من خلال الانتقال من ضمير التكلم (معي) إلى ضمير الغياب (لهم) ، و(الحذف) الحاصل في المضاف إليه ممن ماتح وتقديره : (أنه ماتح ماؤه) ؛ لأن (الحوض لا يوصف بالمتح)[٢٦] ، وصولاً إلى الاستعارة من خلال إفراط الحوض لهم ، مكّنيها بقوله (أنا ماتحه) ؛ وذلك لأن الحرب قد تشبه ((بالبحر وبالماء الّجم فيستعار لها أوصافه فيقال فلان خوّاص غمرات وفلان منغمس في الحرب جاز أن يستعار هيهنا لفظ الحوض وترشح تلك الاستعارة بالمتح والفرط والإصدار والإيراد))[٢٧]. فالإمام نّبه إلى وسوسة الشيطان من خلال تضليل الناس بجمعه حزبه ، واستجلابه خيله ورجله ، قائلاً الإمام لهم أنه غير متأثر بتلك الوسوسة فهو على عهده القديم مذ كان مع رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، ولم يضله أحد ، متوعداً بمن سار خلف الشيطان بحرب صوَّرتها الكناية بمنظر رائع من كونهم لا يصدون أي : قتلهم وإزهاق أرواحهم ، ولا يعودون أي: من فرّ من هذه الحرب لا يعود في غيرها أبداً . وخلاصة الكلام أن الالتفات حاصل هنا بالانتقال من معنى التحذير إلى معنى الوعيد .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمانٍ قَد اتّخَذَ أَكْثُر أَهْله الغَدْر كَيْساً ، وَنَسَبَهم أَهْلُ الَجْهْلِ فِيه إلى حُسْنِ الحِيلَـة. مَا لَـهم قَاتَلَهُمُ اللهُ قَدْ يَرى الُحوَّ لُ الُقلَّـبُ وَجْـهَ الحِيلَـة وَدُونَهَا مَـ انِعٌ مَنْ أمـرِ اللهِ وَنَهْيِـه ، فَيَـدَعُهَا رَأيَ عَـيْنٍ بَعْدَ القُـدْرَةِ عَلَـيْـه**))[٢٨]. فمظهر الالتفات يؤسس حضوره في هذا النص من خلال انتقال ضمير التكلم في (أصبحنا) إلى الغيبة في قوله (ما لهم) ، فالإمام عدل عن ذكر الاسم الظاهر الذي يتصف بهذه السمة لينقل المتلقي من فكرة ذكر حالهم ، ورأي أهل الجهل فيهم إلى أسلوب الدعاء عليهم بمقاتلة الله لهم ، وقتال الله كناية عن معاداته والبعد عن رحمته ، والنص يوضح كيفية استعمال قسم من الناس للغدر وجعله وسيلة لبلوغ المرام وعدِّه من حسن الحيلة ، فالفرق بين تفطن الغادر ،والكيس هو أن الغادر ((يستعمله في استنباط الحيلة وإن خالفت القوانين الشرعية

---

(٢٦) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٨٦/١ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) شرح نهج البلاغة : ٢٤٥/٢ .

وفاتت المصالح الكلية في جنب مصلحة جزئية تخصه ، وتفطن الكيس إنما يستعمله في إيقاع رأي أو حيلة تنتظم مصلحة العالم وتوافق القوانين الشرعية ، ولدقة الفرق بينهما استعمل الغادرون غدرهم في موضع الكيس))[٢٩]، وأيدهم أهل الجهل بذلك ، بينما ترى أن الذي لديه بصرة في الحوادث والخطوب – الحوَّل القلب – يرى الحيلة عيانا لكنه يتركها ؛ لأنها تؤدي إلى الرذيلة وهذا ما لا يرضاه الله من عباده .

وقوله (عليه السلام) : ((**نَـ عوذُ بِربٍّ قَدير ، مِنْ شرِّ كُلِّ مَصيرٍ ، وَنَسْألُهُ عَفْوَ مَنْ رَضيَ عَنْهُ وَمَغْفِرَةَ مَنْ قَبِلَهُ ، فَهُوَ وَلِيُّ مَسْألَتي وَمُنْجِحُ طَلِبَتي**))[٣٠]. فالعدول بمظهر الالتفات حاصل في هذا النص من خلال الانتقال من ضمير التكلم المحذوف من (نعوذ) إلى الغائب في الضمير المنفصل (هو) من أجل خلق حالة من التعليل الباطن في هذا النص ، فالإمام بعد ذكره حال الموتى وما يجري عليهم بعد الموت من أمور يذهل لها كل لبيب ، تعّوذ بالله عز وجل من شرِّ كل مصير ، وطلب العفو والمغفرة منه ، وكأنه أراد تعليل دعائه ليعلم المتلقي أن الله ولي كل مسألة ، وإليه ترجع الأمور . ولعل الاتساق من جهة الإيقاع في هذا النص واضح للعيان تاركاً أثراً في المتلقي ، وهذا من أسلوبه (عليه السلام) .

٣- الانتقال من الخطاب إلى التكلم :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**بِكُم أضْرِبُ المُدْبِر ، وَأرْجُو طَاعَةَ الـ مُقْبِل ، فَأعِينُونِي بِمُنَا صَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الغِشِّ ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ، فَوَ الله إنِّي لأَوْلَى النَّاسِ بالنَّاسِ**))[٣١]. الكلام هنا خاطب به الأنصار بعد فراغه من حرب الجمل ، ومن بين هذه الكلمات يخرج مظهر الالتفات من خلال الانتقال من ضمير المخاطب (بكم) إلى ضمير المتكلم وهو الإمام في قوله (أرجو) ،متخذاً من – الطباق – (المدبر × المقبل) أسلوباً لإبراز هذا المظهر، فهو يطلب نصرتهم له من أجل القضاء على المدبر من خلال وجودهم مجتمعين، وكذلك من خلالهم يرجو طاعة المقبل ، ويريد مناصرتهم له بصدق لا أن يكون مبيناً على غش أو ريب.

---

(٢٩) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٠٦/٢ .

(٣٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٥/١ .

(٣١) شرح نهج البلاغة : ٢٢١/٧ .

وقوله (عليه السلام) : ((**ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يا عَقِيلُ ! أتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أحْمَاهَا إنسَانُهَا لِلَعِبِه، وَتَجُرُّنِي إلى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِه ! أتَئِنُّ مِنَ الأذى وَلا أئِنُّ مِنْ لَظَى**))[٣٢]. الخطاب موجه هنا إلى أخي الإمام عقيل حينما طلب منه أن يعطيه من بيت المال كونه خليفة المسلمين ، وهو تحت يده ، فقام الإمام وأحمى حديدة له فلما أمسكها عقيل صرخ لشدة حرارتها ، فجاء الالتفات ليصور الخطاب الذي دار مع عقيل ، والذي حدث من خلال انتقال الضمير المخاطب المتصل في قوله (ثكلتك) إلى ضمير التكلم (تجرني) ، ويلاحظ على النص التوازن الصوتي ما بين عبارته ، فهو لم يقل أحماها إنسان ، بل إنسانها لتكون مقابل جبارها صوتياً [٣٣] ، وأجمل ما في هذا النص انه أعاد أسلوب الالتفات نفسه حينما مزجه بـ(طباق السلب) في قوله (أتئن من الأذى × ولا أئن من لظى) . وحاصل الكلام انه قال لأخيه إذا لم تحتمل ألم حديدة أحماها الإنسان للعبه ، فكيف بي وبك في نار سجرها الجبار لغضبه .

وقوله (عليه السلام) : ((**أوصِيكُم وَنَفسِي بِتَقوَى اللهِ العَظِيم ، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِلْمُتَّقِينَ المَخْرَجَ مِمَّا يَكْرَهُونَ ، وَالرِّزْقَ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُونَ**))[٣٤]. بعد أن انتهى الإمام مما قاله في مقدمة خطبته بدء بأسلوب الالتفات حينما انتقل من الضمير المخاطب (أوصيكم) إلى ضمير التكلم في قوله (نفسي) ، وكان بالإمكان عدم ذكر لفظ (ونفسي) لكنه ذكرها ليوضح للمتلقين أن الوعظ لا يقتصر على المستمعين ، وإنما على من يقوم بوعظ الناس كذلك ، وتّنبه الشارح أبن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) إلى مثل هذه الانتقالة ، وعدَّها ((لطافة رشيقة ، وذلك لأنه طيَّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم في هذا التحذير ، ليكونوا إلى الانقياد له أقرب ، وعن الإباء والنُّفرة أبعد ، بطريق جَدِلٍ لاحب))[٣٥]. ولذلك تراه يوصيهم بالتقوى –معللاً – ذلك لكونها تخرج المتقي مما يكره من حوادث دنياه ، وتأتيه برزقه من حيث يشاء الله . وفضل التقوى كثير وأكبر من أن يلم بها نص أو خطبة .

٤- الانتقال من الخطاب إلى الغيبة :

---

(٣٢) شرح نهج البلاغة : ١٨٨/١١ .

(٣٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٩٠/١١ .

(٣٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١١٦٧ .

(٣٥) شرح نهج البلاغة : ١٢٢/٩ .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَاعلَمُوا –وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ – بِأَنَّكُم تَارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا .وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَةً) ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِم فَلا يُدْعَونَ رُكْبَانا**))[٣٦] .

فمظهر الالتفات حاصل من خلال الانتقال من ضمير الخطاب (أنتم) إلى الغيبة في قوله (قالوا) ، والسبب في ذلك من أجل تفخيم الأمر المراد تقديمه للمتلقي، ولذلك ترى أن الإمام أثناء تحذيره الناس عدل من الخطاب إلى الغيبة من خلال التناص القرآني من سورة (فصلت / ١١٥) والذي ساقه لهم في هذا النص لتكتمل الحجة عليهم ، ولا يبقى أي عذر لديهم ، فهم على الرغم من علمهم بأنهم لن يبقوا في هذه الدنيا ، ساق لهم مثلاً وهو قول أصحاب عاد في النص القرآني الذي ذكره من كونهم أطول أعماراً منهم ، فأين هم الآن ؟ فحري أن يتعظوا بغيرهم قبل أن يتعظ الناس بهم .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَأَعْلَمُوا أَنَّكُم لَنْ تَفِدُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَفِدُوا الَّذِي تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأخُذُوا بِمِيثَاقِ الكِتَابِ حَتَّى تَفِدُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَفِدُوا الَّذِي نَبَذَهُ . فَالتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ، فَأَنَّهُم عَيْشُ العِلمِ ، وَمَوْتُ الجَهْلِ**))[٣٧]. فالبنية الحضورية تكمن في هذا المقطع من خلال مظهر الالتفات الحاصل بالانتقال من الخطاب (أنكم) إلى ضمير الغيبة (أنهم)، والإمام في هذا المقطع ساق صورة رائعة للمتلقي بدءاً من الالتفات، والشرط لمعرفة الرشد ، والأخذ بميثاق الكتاب ، والتمسك به لا يكون إلاّ بمعرفة نقيض كل واحد من هذه الأمور الثلاثة ، مروراً – بالتكرار – على نوعيه تكرار الحرف (لن) ثلاث مرات ، و(حتى) ثلاث مرات ، وتكرار الكلمة من خلال تكرار كلمة (تعرفوا) أربع مرات ، وكل ذلك جاء من أجل التأكيد على مسألة مهمة تكمن في أنهم لن يصلوا إلى ما أشترطه لهم حتى يعرفوا الفئة الضالة لهم ، وصولاً إلى – المقابلة – (عيش العلم × موت الجهل) الممزوجة بالاستعارة ووجه الاستعارة ((أن بهم يكون وجود العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به ... – أو– يكون عدم الجهل وعدم التضرر به كما يكون بموت

---

(٣٦) **شرح نهج البلاغة : ١٧٨/٧ .**

(٣٧) **المصدر نفسه : ٨٣/٩ .**

الشرير عدمه وعدم مضرته))[٣٨] ، وحتى لا يكون الناس في حيرة من أمرهم أختصر لهم الطريق بقوله "فالتمسوا ذلك من عند أهله" إشارة إلى نفسه وأهل بيته (عليهم السلام) .

وقوله (عليه السلام) : ((**أعقَدْ بَيدِكَ يا صَعْصَعةُ ، إذا أَماتَ النَّاسُ الصَّلاةَ ، وَأضاعُوا الأَمانَةُ ، واسْتَحَلُّوا الكِذْبَ ، وَأكَلُوا الرِّبا ، وأخَذُوا الرُّشَا، وَشيَّدُوا البنَاءَ ، وَاتَّبعوا الأَهْوَاءَ ، وَبَاعُوا الدِّينَ بِالدُّنْيا ...**))[٣٩].

يجيب الإمام بخطبة طويلة أحد أصحابه حينما سأله عن إحدى علامات قيام الساعة، وهي ظهور الدجال ، فكان الكلام الذي جاء به البحث هو ما يبرز فيه مظهر الالتفات من خلال الانتقال من ضمير الخطاب (بيدك) إلى ضمير الغائب (أضاعوا) ، فظهور الدجال يعتمد على ما تقوم به أيدي الناس من ترك للصلاة ، وإضاعة للأمانة ، والولوج في الكذ ب ، وباقي الصفات التي ذُكِرَت هنا . وغيرها ممن لم يذكرها البحث هنا، ولعل أكثرها حصل وبقي القليل منها .

٥- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا ، وَقُهِروا حَتَّى ذَلُّوا ، وَقُتِلُوا حَتَّى فَلُّوا . فَلْتَ كُن الدنْيا فِي أعْيُنِكُم أصغَر مِنْ حُثَالَةِ القَرَظِ ، وَقُراضَةِ الجَلَمِ**))[٤٠].

فمظهر الالتفات حاضر في هذا النص من خلال الانتقال من الغيبة (وعظوا) إلى الخطاب في قوله (أعينكم) ، وهذا الكلام عن المتقين ، وأن لم يذكرهم الإمام بصريح العبارة ، حيث قسم الناس أربعة أقسام ، وجعل ما ذكره بحق المتقين خارج عن دائرة التقسيم الرباعي ، وما قاله بحقهم ينطبق عليهم ، فهم ملُّوا من وعظ الخلق؛ لعدم انتفاع الخلق بنصائحهم ، وقهروا إلى درجة الإذلال ، وقُتِلوا ؛ لعدم مشاركتهم أهل الباطل فيما يفعلونه ، ولذلك ترى أن الإمام توجه إلى أصحابه بالموعظة والنصيحة بعد ذكر حال الناس في هذه الدنيا ، وأمر أصحابه أن يجعلوا هذه الدنيا في أعينهم أصغر ما يسقط من ورق السَّلَم الذي يدبغ به ، وما يكون من قراضة المقص الذي تُجَزّ به أوبار الإبل ، وكل هذا الوصف إنما

---

(٣٨) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٠٤/٣ .

(٣٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٣٢/٣ .

(٤٠) شرح نهج البلاغة : ١٣٨/٢-١٣٩ .

جاء من اجل استحقار الشيء واستصغاره ، مع تركه والأعراض عنه . وجمالية هذا النص تنبعث من اتساق الإيقاع ما بين الألفاظ في هذا النص من – سجع – (وعَظوا –قُهروا – قُتلوا) ، و – جناس – (ملُّوا –ذلُّوا –فلُّوا) وهذا من بديع كلامه .

وقوله (عليه السلام) : ((**مَصَارِعُهُم دُونَ النُّطْفَةِ ، وَاللهِ لا يُفْلِتُ مِنْهُم عَشَرَةٌ ، وَلا يَهْلِكُ مِنْكُم عَشَرَةٌ**))[٤١]. فهذا الكلام يحمل في طياته الالتفات من خلال الانتقال من الغيبة (مصارعهم) إلى الخطاب (منكم) ، وهذا الكلام قاله حينما عزم على ملاقاة الخوارج ، ويعدُّ ما قاله من الكرامات التي أعطاها الله له فلا يوجد قائد عسكري يقول لأصحابه أنكم ستقتلون كذا ، ويموت منكم أقل عدداً ، بينما ترى الإمام أنبأ أصحابه قبل بدء المعركة فحدَّثهم أن الخوارج في هذه المعركة لا يفلت منهم عشرة، وهذا دليل على أنهم سيقتلون بسيوفهم ، وكان باستطاعته أن يصمت ، ولكن حتَّى تطمئن قلوب أصحابه عدل من ذكر حال أعداءه إلى ذكر حال أصحابه أنهم كذلك لا يهلك منهم عشرة ، وهذا يدل على أن النصر حليفهم في هذه المعركة . وهذا ما حصل فعلاً بما قاله الإمام (عليه السلام) .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَهَفْوَةٍ عَنِ العَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ . أَعْمَلُوا – رَحِمَكُمُ اللهُ – عَلَى أَعْلامٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ إِلَى دَارِ السَّلامِ**))[٤٢] .

فمظهر الالتفات يكمن بعدول الإمام في هذا النص بالانتقال من الغيبة من خلال الضمير المتصل (أرسله) العائد على الله سبحانه وتعالى إلى الخطاب في قوله (رحمكم) ، فهذا الكلام كان موضع انتقال المتكلم من – المقدمة – وما فيها من إقرار ببعث الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وما كان قبله من معاصي وزّلات ترتكب ، وجهل في الأمور ، إلى أن انتقل بحديثه إلى الناس يوصيهم بالعمل الصالح حيث – استعار – ((لفظ الإعلام لأئمة الدين وما بأيديهم من مصابيح الهدى ، وكّنى بكونها بّينة عن وجودها وظهورها بين الخلق))[٤٣]. وقصد بالطريق : الشريعة ، ونهجُ : واضح ، ومعنى ذلك أن الشريعة واضحة في زمانه (عليه السلام) لقرب العهد بالرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وكل ذلك يؤدي إلى

---

(٤١) شرح نهج البلاغة : ٥/٥ .

(٤٢) المصدر نفسه : ٧/٤٨–٥٠ .

(٤٣) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٣٩٨ .

الجنة – دار السلام – ، وكذلك ((إسناد الدعوة إلى الطريق مجاز إذ الداعي قيّم الطريق وواضعها)) [٤٤] .

٦- الانتقال من الغيبة إلى التكلم :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ ، وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ**))[٤٥]. فالالتفات هنا حاصل من خلال انتقال الكلام من الغيبة في (أرعدوا) ، إلى المتكلم في (لسنا) العائد على الإمام ، وهذا الخطاب موجه إلى أصحاب الجمل ، وفيه استعارة لطيفة للرعد والبرق ، فهو يحكم عليهم بالفشل في رعودهم وبرقهم ؛ لأن ذلك ينم عن الجبن والضعف قبل اللقاء في المعركة ، فهم يصدرون الضوضاء ظناً منهم أنها ستفيدهم .

أما الإمام فأجابهم بكلام بغاية السبك حينما قال : نحن لا نُرعد حتى نوقع كلام صحيح ؛ لأن من شيم الفارس السكون والهدوء قبل اللقاء ، فإذا حان وقت النزال كان سيفه خير من يُعبِّر عن ذلك ، والحال نفسه مع المطر والسيل ، فالسيل لا يكون قبل المطر ، وإنما بعده وليس مثل زعم أصحاب الجمل .

وقوله (عليه السلام) : ((**بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً ، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً. نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ**))[٤٦].

قد يرد مظهر بديعي في أحد نصوص هذه الخطب ، وهذا أمر طبيعي ؛ لقدرة وانسيابية هذا المظهر على عمل كثير من الأشياء ، ولكن البديع أن ترى في نص واحد بلاغة (الصوت ، والتركيب ، والدلالة) مجتمعة سوية ، وهذا ما حصل هنا في هذا النص بدءاً بالالتفات من خلال الانتقال من ضير الغائب المستتر العائد على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله (بلغ) إلى ضمير التكلم (نحن) ، وما بين الانتقال من الغيبة إلى التكلم تجد صورة صوتية دلالية منحها – الجناس اللاحق – (معذراً –منذراً) ، مع – المقابلة – (دعا إلى الجنة مبشراً ×خوف من النار محذراً) كل هذا التنوع في

---

(٤٤) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٣٩٨ .

(٤٥) شرح نهج البلاغة : ٢٢٣/١ .

(٤٦) المصدر نفسه : ١٦٩/٧-١٧٠ .

المظاهر البديعية إنما جاء ليخدم السياق الذي أراده الإمام والذي بدوره يعمل على منح النص بُعداً معنوياً عالياً ، يلاحظ المتلقي ، ولا يغادر عقله معناه .

وقوله (عليه السلام) : ((**قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ، وَأَرَزَ الْمُؤمِنُونَ ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ ، وَالخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ : وَلا تُؤْتَى الْبُيُوتُ أَبْوَابِهَا ، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً**))[٤٧].

فالالتفات يؤسس حضوره في هذا النص من خلال الانتقال من الغيبة (خاضوا) إلى المتكلم في قوله (نحن) ، فالإمام هنا يتطرق إلى وصف فئة ضالة استعار لهم لفظ البحار ؛ لما خاضوه من الفتن وحروب ، وما أخذوه من بُدع ، وتركهم للسُنن ، بينما تجد أن المؤمنين قد اجتمع بعضهم إلى بعض ، والضالين المكذبين ينطقون بغير الحق . منتقلاً بالكلام إلى نفسه من خلال استعمال ضمير الجمع (نحن) ، وهذا من طبيعة كلامه ، واصفاً نفسه بالشِّعار وهو لفظ مستعار ووجه المشابهة ملازمته للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واختصاصه به مثلما يلزم الثوب الجسد؛ لأن الشِّعار : ((ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب))[٤٨]، والأصحاب أي أنه صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدنيا والآخرة ، والخزنة والأبواب تناص نبوي من جهة المعنى لحديث قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد الحكمة فليأت الباب))[٤٩] ، ثمَّ رجع وأخذ تناص قرآني معنوي أخر من كون البيوت لا تؤتى إلا من أبوابها ، وهذا نصَّ عليه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله : ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (البقرة /١٨٩) . منَّبهاً على كون من يدخل من غير الباب يسمى سارقاً ، ومعنى كل هذا أن من يتسّور طلب العلم ، والحكمة ، وأسرار الشريعة من غير أستاذ محقق يكاد يكون سارقاً . والذي يمعن النظر في النص يجد أن مظاهر البديع البلاغية الثلاثة حاضرة هنا ، فالصوت يمثله – السجع – الحاصل في (الفتن – السنن ، المؤمنون – المكذبون) ،

---

(٤٧) شرح نهج البلاغة : ١٢٧/٩ .

(٤٨) لسان العرب ، مادة (شعر) : ١٢٨/٥ .

(٤٩) ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة – علي بن محمد أبن الأثير – تحقيق الشيخ علي محمد معّوض ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – بيروت – د.ت : ٤٩٥ ، شرح نهج البلاغة: ١٢٨/٩.

(الأصحاب – الأبواب) ، والتركيب مثله الالتفات ، والدلالة مثلها – التناص – القرآني ، والنبوي من جهة المعنى ، فضلاً عن مشاركة الاستعارة في مثل هذه المقاطع بين الحين والآخر .

فهذا هو الالتفات من جهة الضمائر ، فانك حينما تقرأ الخطبة الواحدة مع وجود هذا التنوع في الضمائر من خطاب ، ومتكلم ، وغائب ، فأنك لا تحس بأي ملل يصيبك ، أو يصيب النص ، من جهة أخرى فالتنوع الذي يتمثل في العدول من ضمير إلى أخر مطلوب وضروري ؛ ليخرج النص بأبهى صورة ، وأروع منظر .

ثانيا: الالتفات الزمني :

يأخذ الالتفات هنا أشكالاً متعددة لا تقل أهمية عن النوع الذي سبقها وهي كذلك من أجل الخروج بالنص من الملل الذي قد يوقعه على المتلقي ، ولذلك في هذا النوع من الالتفات تتعدد انتقالاته ، التي منها :

١- الانتقال من المضارع إلى الأمر :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**إنَّما مَثَلي بَيْنَكُم كَمَثَلِ السِّراجِ في الظُّلْمَةِ يَسْتَضيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَها . فَاسمَعُوا أيُّها النَّاسُ وَعُوا وأحضِرُوا آذانَ قُلُوبِكُم تَفْهَموا**))[٥٠]. فالالتفات حصل هنا بالانتقال من المضارع (يستضيء) إلى الأمر (اسمعوا) موضحاً لهم أنه مثل السراج الذي يستضيء به الناس في الظلمة ليروا طريقهم ، وجاءهم باستعارة حينما طلب منهم إحضار آذان قلوبهم ؛ لأنه لا فائدة من حصول الإسماع بالآذان المحسوسة فقط ، بل أن استحضار العقل مع القلب ضروري لمعرفة ما يقال لهم .

وقوله (عليه السلام): ((**إنْ سَرَّكَ أنْ تَلْقَى اللهَ وَهوَ عَنْكَ راضٍ فَكُنْ في هذه الدُّنيا زَاهِداً ، وَفِي الآخِرَةِ رَاغِباً ، وَعَلَيْكَ بِالصِّدقِ فِي جَميعِ أُمورِكَ تَنْجُو مَعَ النَّاجِينَ غَداً**))[٥١]. خاطب الإمام الحسن البصري بكلام يوّعظه فيه ، ومن بين فضاء هذا النص يخرج مظهر من مظاهر البديع ، الأول: الالتفات من خلال الانتقال من المضارع (تلقى) إلى الأمر (كُنْ) ، فالوعظ في هذا النص كان بين الشرط والأمر والذي تجسد في الالتفات بأروع صورة .

---

(٥٠) شرح نهج البلاغة : ٩٧٢ .

(٥١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٩١/١ .

الثاني : – المقابلة – في قوله (في هذه الدنيا زاهداً ×وفي الآخرة راغباً) .

إنَّ هذين المظهرين جسَّدا حقيقة مهمة تكمن في رضا الله عن العبد إذا زُهد عن الدنيا ، ورغب في الآخرة ولزم الصدق في جميع أموره .

وقوله (عليه السلام) : ((**إنَّ يَوْمَكم هَذا يَوْمٌ يثَابُ فِيه الْمُحسِنُون ، وَيَخْسَرُ فِيه الْمُسِيئون وَهُو أَشْبَهُ يَوْمٍ بِيَوْمِ قِيامكُم [قِيَامَتِكُم] (خ ل) فَاذْكُروا بِخُرُوجِكُم مِنْ مَنَازِلِكُم إِلى مُصَلَّاكُم خُرُوجَكُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّكُمْ**))[٥٢]. تكمن أسلوبية هذا النص بوجود الالتفات مع – المقابلة – مرة أخرى في المقطع نفسه ، ولكن هذه المرة تكون المقابلة طرفاً في الالتفات من خلال الانتقال من المضارع (يثاب) ، إلى الأمر (أذكروا) ، موضحاً لهم إن يومهم هذا فيه المحسن مجاز على العمل الصالح ، والمسيء معاقب على العمل الطالح ، مذكرهم بخر وجهم من بيوتهم إلى مُصلَّاهم بخروجهم من القبور إلى يوم الحساب ، وهذا من باب التذكير ، والتزهيد ، والتحذير من فتن الدنيا .

٢- الانتقال من الماضي إلى الأمر :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَألْقى إِلْيكُم الْمَعْذِرَةَ ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُم الْحُجَّةَ ، وَقَدَّم إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُم ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُم**))[٥٣]. حذّر الإمام في هذا النص الناس من مغبة التهاون ، وعدم استغلال الفرصة التي بين أيديهم وهي العمل الصالح ، والتمسك بالتقوى ، قبل الخروج من الدنيا خاسرين ، وهذا المعنى جَسَّدهُ الالتفات من خلال الانتقال من الفعل الماضي في قوله (ألقى) والذي يأخذ الكلام ما بعده طابع التحذير ، إلى فعل الأمر (استدركوا) الذي يأخذ الكلام هنا طابع الحث على تدارك ما بقي من أيام من عمر الإنسان قبل الموت فجمالية الالتفات هنا إنها خرجت بالكلام من التحذير عمَّا قدَّمه الله سبحانه وتعالى للبشر من حجج وبراهين ، وألزمهم بها ، إلى الحث بالتزام هذه المحاذير وأخذها بعين الحقيقة والاعتبار .

---

(٥٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٤٧/٣ .

(٥٣) شرح نهج البلاغة : ٢٧٢/٦-٢٧٤ .

وقوله (عليه السلام): ((**إيَّاكُم والفُرقَةَ ، فَإنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ ، كَما أنَّ الشَّاذَّ مِنَ الغَنَمِ لِلذِّئْبِ. ألا مَنْ دَعَا إلى هذا الشِّعارِ فَاقْتُلُوه ، ولَو كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هذِه**))[٥٤]. في هذا الخطاب وضح الالتفات مسالة اشترك معه فيها – التعليل– الحاصل هنا ، وهي الفعلة التي قام بها الخوارج مع المسلمين ، من قتل ودمار من جهة ، ومن تفريق في صفوف المسلمين من جهة أخرى .فالإمام يبدأ محذراً من الفرقة ، معللاً عواقبها من خلال التشبيه الذي استعمله في يكون الشاذ من الناس أي الجماعة مثل الشاذ من الغنم ، فهناك يفترسه الشيطان ، وهنا يفترسه الذئب ، والجامع بينهما الهلاك ، ولهذا جاء الالتفات ليمنع حصول مثل هذا الأمر من خلال الانتقال من الماضي (دعا) ، إلى الأمر (اقتلوه) ، والعبارة التي صاغها لطيفة في كون الذي يعمل على تفريق المسلمين يستحق القتل ولو كان تحت عمامته (عليه السلام) ؛ حتى لا ترتاب قلوب الناس من بعده لما سيفعله قسم من الناس بدعوى أنهم يسلكون طريق الإمام ، ولكنهم حقيقة أضروا بالمسلمين ، فكلامه كان أبلغ كناية في القرب منه .

وقوله (عليه السلام) : ((**ألا إنَّ هَذا يَوْمٌ جَعَلَهُ اللهُ لَكُم عِيداً ، وَهُوَ سَيِّدُ أيَّامِكُم وَأفْضَلُ أعْيادِكُم ، وَقَدْ أمَرَكُمُ اللهُ تَعَالى فِي كِتَابِهِ بِالسَّعيِ فِيهِ إلى ذِكْرِهِ فَلْتَعْظُم فِيهِ رَغْبَتُكُم وَلْتَخْلُصْ نِيَّتُكُم ، وَأكْثِرُوا فِيهِ مِنَ التَّضَرُّعِ إلى اللهِ وَالدُّعاءِ**))[٥٥].

فالالتفات حاصل من خلال الانتقال من الماضي (جعله) ، إلى الأمر في قوله (فلتعظم) ، والحديث هو عن يوم الجمعة وما فيه من ثواب عظيم ؛ لكونه بحسب ما قيل عنه أنه سيد الأيام ، وأفضل الأعياد ، فالمطلوب في مثل هذا اليوم أن تكون القلوب متصافية، وأن تخلص النية ، وأن تعظم الرغبة في قيام ذلك اليوم لما فيه من أجر وثواب. فالالتفات كان ما بين عرض أهمية ذلك اليوم ، وما على المسلمين من واجب تجاهه . وأما ما ذكره من كون الله سبحانه وتعالى قد أمرهم بقيامه ، فهذا صحيح وذلك في محكم كتابه [٥٦]، كل هذا يدل على أهمية ذلك اليوم المبارك .

---

(٥٤) شرح نهج البلاغة : ٩١/٨ .

(٥٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ك ٥٤٥/١ .

(٥٦) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ (الجمعة : ٩) .

٣- الانتقال من الماضي إلى المضارع :

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**نَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ ، قَدْ حَلَى الكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ ، يُؤَمِّنُ النَّاسَ مِنَ العَظَائِمِ ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الجَرَائِمِ**))[٥٧] وصف الإمام الذي يدعي نفسه عالماً ؛ طلباً للرياسة عن طريق الالتفات الموشح بالاستعارة من خلال الانتقال من الماضي (نصب) ، إلى المضارع (يؤمن) ، فهو استعار لفظ الإشراك والحبائل لوجود المشابهة بينهما وبين ما يفعله عالم السوء ، فهو يغري الناس بالأقوال الباطلة ، والأعمال المزخرفة ، كذلك الشرك والحبائل فإنها تجلب إليها الذي يعاينها ، ولذلك رشح تلك الاستعارة بلفظ (نصب)[٥٨]. وأكثر من هذا أنه يفسر كتاب الله على رأيه ، ويعطف الحق بما تشتهيه نفسه ويضمن مصلحته ، بل تراه يؤمن الناس من العظائم حينما يسألونه ، ويهون كبير الجرائم لهم من خلال التقليل من عواقب فعلها مما يؤدي إلى ممارستها، والعودة إليها مرات عديدة ، وبالتالي خسران السائل والمسؤول .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَضَاءَت بِهِ البِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ المُظْلِمَةِ ، وَالجَهَالَةِ الغَالِبَةِ ، وَالجَفْوَةِ الجَافِيَةِ ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الحَرِيمَ ، وَيَسْتَذِلُّونَ الحَكِيمَ**))[٥٩].

هذا الكلام في مدح الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وطبيعي حينما يكون الكلام عنه فهو يختلف مما لو كان على باقي البشر ، ولذلك تجد أن الإمام جعل من الالتفات المزين طرفيه بالاستعارة ، و – الجناس – وسيلة لإبراز هذا المعنى وهذا يليق بمقامه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو انتقل من الماضي (أضاءت) ، إلى المضارع (يستحلون) ، حيث استعار لفظ الإضاءة تعبيراً عن تنوير عقول الناس من الجهل الذي كانوا يعيشونه ، ولفظ الظلام تعبيراً عن الكفر ، وجمع اللفظين المستعارين يحصل بهما – الطباق– ، كذلك ما يحملونه من غلظة في قلوبهم التي وُصِفت بالجافية ، مع كونهم (يستحلون الحريم – ويستذلون الحكيم) – جناس لاحق – ، مع – السجع المرصع – ، أي أنهم كانوا لا يظهرون الاحترام للشخص الحكيم الذي لا ينهب معهم ، كل ذلك أزاله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما قدم عليهم .

---

(٥٧) شرح نهج البلاغة : ٦/٢٨٩ .

(٥٨) ينظر : شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢/٢٩٧-٢٩٨ .

(٥٩) شرح نهج البلاغة : ٩/١٠٥ .

وقوله (عليه السلام): ((**وَرَجَعَ عَنْهُ وَلِيُّهُ وَصَفِيُّهُ وَنَدِيمُهُ وَنَسِيبُهُ ، وَتَبَدَّلَ بِهِ قَرِينُهُ وَحَبِيبُهُ فَهُوَ حَشْوُ قَبْرٍ وَرَهِينُ قَفْرٍ ، يَسْعَى بِجِسْمِهِ دُودُ قَبْرِهِ وَيَسِيلُ صَدِيدُهُ مِنْ مَنْخَرِهِ**))[٦٠]. شكّل مظهر الالتفات حلقة وصلٍ في الكلام ما بين الدنيا ، وما بعدها، والتي تتمثل في ما يحصل للإنسان في القبر ، حيث انتقل من الفعل الماضي (رجع) ، إلى المضارع (يسعى) ، فبعد أن رجع أحباء الإنسان بعد دفنه ، تبدأ مرحلة جديدة لم يراها الإنسان من قبل حيث يبدأ الدود بالانتقال إلى جسمه ، والصديد يسيل من منخره ، ومسائل يتعرض لها هناك حسب العمل الذي صنعه في الدنيا ، فإن كان خيرا عاد عليه بالخير ، وإن كان شراً عاد عليه بالشر ، وهذا النوع من الكلام يصوره الالتفات يُقدِّم صورة بلاغية تلقي بأثرها على المتلقي ، ولهذا ترى أن هناك من يرجح طريقة الإخبار عن الماضي بالفعل المضارع ، وهو الدكتور عبد العزيز عتيق من أن الإخبار بالفعل المضارع ((أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي . والسبب في ذلك أن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي))[٦١].

٤- الانتقال من المضارع إلى الماضي :

ومثاله قوله (عليه السلام): ((**لَمْ يَحْلُلْ فِي الأَشْيَاءِ فَيُقَالَ : هُوَ فِيهَا كَائِنٌ ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالَ : هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ . لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ ، وَلا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ**))[٦٢]. الكلام هنا عن الله سبحانه وتعالى حيث كان الإخبار عنه بحدوث الانتقال بالكلام من المضارع (يحلل) ، إلى الماضي (وقف) ، وما بين الانتقال تجد – الطباق – (لم يحلل – لم ينأ) ، والجناس اللاحق – (كائن – بائن) ، والكلام يعكس ما يتمتع به عز وجل من قدرة ، فهو لم يكن في الأشياء لشدة قربه فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها من جهة البعد فيقال بائن ، ولم يتبعه ما خلق من مخلوقات ، وتكمن البلاغة العلوية في هذا المقطع إن الإمام لم يقل أعياه ؛ لأن هذا القول يقال لذي الأعضاء من الحيوان ، والله سبحانه

---

(٦٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٣/١ .

(٦١) علم البديع : ١١٧ .

(٦٢) شرح نهج البلاغة : ١٢٤/٥ .

وتعالى ليس بذي آلة أو قوة جسمانية ؛ فضلاً عن أن كلمة يؤده أكثر دلالة من الإعياء[٦٣]ولم تدخل عليه شبهة فيما قضى من الأمر فقدر ، تعالى عز وجل عمَّا يصفون.

وقوله (عليه السلام): ((**الحَمْدُ لله الفَاشِي في الخَلْقِ حَمْدُه ، وَالغَالِب جُنْدُه ، وَالْمُتَعالِي جَدُّه ، أحمَدُه عَلَى نِعَمِه التُّوءَامِ ، وَآلائِه العِظَامِ ، الَّذي عَظُمَ حِلْمُه فَغَفَرَ ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى**))[٦٤]. تبرز القيمة الأسلوبية في هذا النص من خلال وجود الالتفات الحاصل هنا بالانتقال من المضارع (أحمده) ، إلى الماضي (عظم) ، وجمالية هذا النص الذي يدخل ضمن ما يسمى (حسن المقدمة) ، احتواء هذا النص مع الالتفات ، الجناس المُطرف (جنده – جده) ، وهذا هو واجب كل خطيب حينما يفتتح خطبته عليه أن يعمل على توحيد قلوب مستمعيه بما يمتلك من قدرات بلاغية تعمل على وضع الألفاظ في عبارات متميزة.

وقوله (عليه السلام) : ((**يَوْمٌ تَذُوبُ مِنَ النُّفُوسِ أَحْدَاقُ عُيونِهَا ، وَتَضَعُ الحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا ، وَيُفَرَّقُ بَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ وَحَبِيبِهَا وَيَحارُ فِي تِلكَ الأَهْوَالِ عَقْلُ لَبِيبِهَا إِذْ تَنَكَّرَتِ الأَرْضُ بَعْدَ حُسْنِ عِمَارَتِهَا ، وَتَبَدَّلَتْ بِالخَلْقِ بَعْدَ أَنِيقِ زُهْرَتِهَا**))[٦٥]. عرض الإمام مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، مخرجا من بين هذا الكلام مظهر الالتفات من خلال الانتقال من المضارع (تذوب) إلى الماضي (تنكرت) ، وكيف يكون حال الخلق في ذلك اليوم ، فيا له من يوم ومشهد ، إليك أن تتصور أحداق العيون ذائبة ، والحامل قد وضعت ما في بطنها ، والحبيب الذي كان في الدنيا لا يفارق حبيبه قد تخلى عنه هناك ، والأرض تغيرت بعد حسن عمارتها وجمالها ، فهو حينما يخاطبهم بصيغة الماضي عن أمور ستكون في المستقبل ، فهذا يعني أن حدوثها كائن لا محال ، وليعلموا أن هذه الدنيا التي يسعون من أجلها زائلة .

فجمال الالتفات يكمن في كونه ينظم هذه الجمل والعبارات في تراكيب مختلفة مرة ضمائرية، وأخرى زمنية، تخرج من خلالها تلك العبارات في أطر فنية بلاغية رائعة ؛ إذ تعمل على إضفاء نوع من التناسق بين مفرداتها ، التي تلقي بأثرها على المتلقي . وهذا ما تبحث عنه الصنعة الأسلوبية ، وهو كل ما يثير المتلقين من مظاهر بلاغية ، ولاسّيما البديعية منها .

---

(٦٣) ينظر : شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٧٦/٢ .

(٦٤) شرح نهج البلاغة : ٨٨/١٣ .

(٦٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٣٤/١ .

أولاً : الحذف :

يتمتع هذا المظهر البديعي بمستوى أسلوبي عالٍ ؛ وذلك بما يمنحه للنص من قوة تعبيرية في سياق الكلام من خلال المقومات التي يمتلكها ، والتي تتمثل في قدرته الأسلوبية التي يتركها على النص من خلال كسر النسق ، والتتابع في الكلام الواحد داخل العبارة ، تاركاً مسحة جمالية على النص الذي يحويه بتعداد أسبابه التي يقدِّرها المبدع للمتلقي ، لعل من أهمها الإيجاز .

((فالإيجاز هو المسلك الأسلوبي الشامل (السياق الكبير) ، والحذف والذكر هو المسلك الأسلوبي السياقي (السياق الصغير) فالسياق الكبير أو الشامل لا يلغي السياق الصغير أو الجزئي ، بل يجعله منه وسيلة أولية للإثراء الأسلوبي وقيمه التعبيرية))[٦٦].

وعلى الرغم من قوة هذا المظهر البديعي في الساحة البلاغية ، يُقدِّم علماء البديع المتأخرين منهم مظهراً آخراً لا يختلف عن الحذف وهو (الاحتباك) وهو ((أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول))[٦٧]. وهناك من يسميه بـ(الحذف المقابلي) وهو ((أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه))[٦٨].

ولعل الذي جعل البحث يتمسك بالحذف لكشف مظاهره في الخطب العلوية بدلاً عن الاحتباك ، كون ((الاحتباك احد أقسام الحذف))[٦٩] . بل أن هناك من يرى أن الاحتباك يمكن ((أن تدرك بنيته من خلال :

أ- تعلقه بالحذف ، أي قيامه على بنية إيجازية ، والإيجاز وجه من وجوه تراكيب الجمل في العربية .

ب- تضمنه لمبدأ الحضور، والغياب .. حضور الدلالة ، مع غياب الكلمة المحذوفة))[٧٠].

---

(٦٦) الأسلوبية في دراسات الإعجاز القرآني – عواطف كنوش مصطفى (أطروحة دكتوراه) – مقدمة إلى مجلس كلية الآداب – جامعة البصرة – ١٩٩٥م : ٢١٣ .

(٦٧) الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي – ط٣ – مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ١٩٥١م : ٦١/٢ .

(٦٨) البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط١ – المكتبة العصرية – بيروت – ٢٠٠٤م : ٨٤/٣ .

(٦٩) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – د. أحمد مطلوب – د.ط – المجمع العلمي العراقي – ١٩٨٣م : ٥٥/١ .

(٧٠) البديع في الدرس البلاغي والنقد العربي : ٢٨ .

فالاحتباك بأي صورة ظهر لا يتجاوز في معناه الغرض الذي ذهب إليه الحذف . والحذف مثلما يقول الجرجاني (ت٤٧١هـ) فيه ((باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى له ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد))[٧١]. فلولا لطافة هذا المظهر وبداعته لما وصفه الجرجاني بهذا الوصف ، فهو يُعد انحرافاً عن مستوى التعبير الاعتيادي لذلك تراه ((يُفجِّر في ذهن المتلقي شحنة فكرية توقظ ذهنه وتجعله يتخيل ما هو مقصود))[٧٢].

أما الحموي (ت٨٣٧هـ) فهو يرى أن الحذف لا يقتصر على الكلمات ، وإنما الحروف كذلك، لذلك تراه يعرفه ((عبارة عن أن يحذف المتكلم من كلامه حرفاً من حروف الهجاء ، أو جميع الحروف المهملة بشرط عدم التكلف والتعسف))[٧٣].

وبهذا سيدرس البحث ثلاثة أنواع من الحذف وهي :

١- حذف الحرف .

٢- حذف الكلمة .

٣- حذف الجملة .

١- حذف الحرف :

تحمل الخطب العلوية في فضائها أنواعاً من الحروف التي تحمل سمات بلاغية ، أو نحوية ، أو غير ذلك بحسيب الموقع الذي ترد فيه باشتراكها مع الكلمات الأخرى محدثة في قسم من الأحيان مظاهر بديعية يسعى البحث الأسلوبي لكشفها . ومن بين ذلك حذف الحرف في الكلمات ، وهذا الأمر ألتمسه البحث بصورة واضحة في كلام الإمام (عليه السلام) مثل قوله: ((**وَمَنْ قَالَ : (فيم) فَقَدْ ضَمَّنَهُ ، وَمَنْ قَالَ : (عَلَام) فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ**))[٧٤]. فالمسلك الأسلوبي واضح من خلال الحذف البارز في الكلام ، والذي تحدث فيه عن الله

---

(٧١) دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – د.ط – مكتبة الخانجي – ٢٠٠٠م : ١٤٦.

(٧٢) الأسلوبي مدخل نظري ودراسة تطبيقية – د. فتح الله أحمد سليمان – د.ط – الدار الفنية للنشر والتوزيع ، المطبعة الفنية – ١٩٩٠م : ١٣٩ .

(٧٣) خزانة الأدب : ٥٣٦ .

(٧٤) شرح نهج البلاغة : ٩٢/١-٩٣ .

سبحانه وتعالى بحذف حرف الألف من (ما) الاستفهامية التي اشتركت مع حرف الجر ؛ والسبب في ذلك حتى تعرف عن (ما) الموصولة ، والحال نفسه مع (علام) التي حُذف منها الألف للسبب ذاته(٧٥).

وقوله (عليه السلام) : ((**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ**))(٧٦). فهذا الكلام يحمل في دلالته إحدى سمات الحذف ، والتي تتمثل في حذف (أَنْ) المصدرية من الفعل المضارع المنصوب ؛ وذلك لكون هذا الفعل مسبوق بـ(لام التعليل) التي تعمل على نصب الفعل مع حذف (أَنْ) المصدرية. والكلام هو لغرض الوعظ والإرشاد لهم مذكرهم أنه بعث إليهم الأنبياء والرسل من عنده ليتمسكوا بما جاء به ، وهو عبادة الله حق عبادته ، وليذكرهم بالأفضال والنعم التي جعلها الله لهم ، وهم تناسوها .

وقوله (عليه السلام) : ((**يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ ، وَأَدَّعَى الْوَلِيجَةَ . فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ . وَإِلا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ**))(٧٧).

في هذا النص تجد أن الحذف يأخذ أشكالاً متعددة ، فهو يحذف (الياء) من (يأت) ؛ وذلك لكون هذا الفعل مجزوم بلام الطلب ، وعلى حُذف الحرف الأخير منه، وتجده حذف (النون) من (إنْ) الشرطية ؛ لاقترانها مع (لا) النافية ، والتي أصبحت فيما بعد (إلا) ، وأنه حذف فعل الشرط ، والذي يقدر (وإن لم يأت فليدخل). لعلم المتلقي به لأنه ذُكِر سابقاً . فهذا الحذف منح النص قوة وانسيابية في اللفظ والمعنى ، والذي يمكن لأي متلقٍ أن يتخيله .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ ، وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ ، وَأْمَضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ**))(٧٨). فالمظهر الأسلوبي واضح في هذا النص ، والذي يتجلى في حذف حرف النداء (يا) من لفظ – عباد الله – ، وهذا يجوز إذا وقع المنادى في

---

(٧٥) ينظر في ظلال نهج البلاغة – شرح محمد جواد مغنية – ط١ – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٢م: ٢٠/١ .

(٧٦) شرح نهج البلاغة : ١٢٣/١ .

(٧٧) المصدر نفسه : ٢١٧/١ .

(٧٨) المصدر نفسه : ٣٠٢/١ .

حكم المضاف[٧٩]. ومعنى المقطع واضح من خلال الأمر الموجه لهم بالفرار إلى رحمة الله من عذابه ، عن طريق التمسك بالأمر الذي نهجه لهم .

وقد يكون الحذف بأحد حروف الهجاء ، أي أن هذا الحرف لا يرد أبداً في جميع مقاطع الخطبة كما هو الحال في الخطبة الطويلة الخالية من (الألف) التي قالها الإمام ارتجالاً بين صحابة رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، وذلك حينما اجمعوا أن حرف الألف هو أكثر الحروف دخولاً في الكلمات العربية ، ونادراً ما يستغنى عنه فكان هذا السبب في قوله تلك الخطبة ، فضلاً عن كونها تُعدُّ من روائع خطبه لما تتميز به من ديباجة في الصياغة ، وروعة في الدلالة بدون الإخلال في ألفاظها[٨٠]. أو خطبة من خطبه تكون خالية من النقط ، وهي لا تقل أهمية عن غيرها من الخطب[٨١]. وهذا عن دل على شيء فإنما يدل على قدرة قائلها في صياغة أي خطبة تحوي على أشكال متعددة من الحذف بدون الإخلال في الألفاظ ، أو المعاني .

٢- حذف الكلمة :

أ- حذف المبتدأ أو الخبر :

يُعدالمبتدأ أمراً ضرورياً في الجملة ؛ لكونه الركن الأساس فيها ، ولا يمكن أن يُتصور جملة اسمية من دونه . لكن قد يحذف أحياناً في مواضع إذا دلَّ عليه دليل ، ولم يتأثر التركيب أو المعنى بحذفه .

ولا يقتصر الحذف عن المبتدأ فقط ، فالخبر لا يقل أهمية عنه ، فهو يأتي لإغراض عدة منها :((

١- إفادة المخاطب بحكم يحصله ويسمى هذا النوع (فائدة الخبر) .

٢- إفادة المخاطب أن المتكلم يعرف أيضاً ما يعرفه المخاطب . ويسمى هذا النوع (لازم الفائدة)))[٨٢].

---

(٧٩) ينظر : موسوعة النحو والصرف والإعراب : ٦٧٤ .

(٨٠) ينظر : نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/٩٨-١٠٦ .

(٨١) ينظر : المصدر نفسه : ١/١٠٩-١١١ .

(٨٢) موسوعة النحو والصرف والإعراب : ٣٦٠ .

وقد يأتي ((ليفيد أغراضاً أخرى تستفاد بالقرائن ، ومن سياق الكلام ، وأهمها الاسترحام ، والاستعطاف، والتحريض ، والتحسر ... وتغيرها))[٨٣].

ويجوز حذفه إذا دلَّ عليه دليل ، مع عدم الإخلال بسياق الكلام ، أو لحضور الفائدة البلاغية من حذفه .

ومثل هذا الحذف – المبتدأ والخبر– تحفل به الخطب العلوية ، ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**ألا وإنَّ الخَطَايا خَيـ ـلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا ، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. ألا وإنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا ، فَأَوْرَدَتْهُمُ الجَنَّةَ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ**))[٨٤]

هذا الكلام قاله حينما بُويع في المدينة ، والذي يُعد من غرر كلامه ، وهذا ما أشار إليه السيد الشريف الرضي ، والقيمة الأسلوبية فيه تظهر في حذف المبتدأ من (حق × باطل) ليخلق مظهرا آخرا وهو – الطباق – ؛ وسببه أن الإمام دلَّ عليه بقوله الذي رسمه على شكل مظهر – المقابلة – ما بين (الخطايا ... × التقوى ...) ليكون تقدير الكلام : (التقوى حق ، والخطايا باطل) ، فالإمام حينما خيّرهم بين الحق والباطل مكتفياً بالخبر من دون ذكر المبتدأ ؛ لأنه أصبح معلوماً عندهم أن الكلام هو عن (التقوى والخطايا) في العبارة التي سبقت حذف المبتدأ منها ، وهذه العبارة حتى تكون لافتة للنظر أكثر مزج المقابلة بالاستعارة من خلال استعمال لفظ الخيل للخطايا ، ثُمَّ وصفها وصفاً منفراً وهو الشُموس ، والشيء المانع من ركوب هذه الخيل كونها مع شموسها مخلوعة اللجم ((ووجه الاستعارة ظاهر فإن الفرس الشموس التي خلع لجامها لّما كانت تتقحم براكبها المهالك وتجري به على غير نظام فكذلك راكب الخطيئة لما جرى به ركوبها على غير نظام الشريعة وخلع بذلك لجام الأوامر الشرعية وحدود الدين))[٨٥]. والحال نفسه باستعارة لفظ المطايا لغرض وصف الحسن الموجب لكونها ذُللا ، وكيف أنه أشار بالأرمة إلى حدود الشريعة التي يلزمها صاحب التقوى ولا يتجاوزها[٨٦]. فكل هذه الدلالة المتفجرة المعاني كانت عوضاً وبدلاً من أن

---

(٨٣) موسوعة النحو والصرف والإعراب : ٣٦٠ .

(٨٤) شرح نهج البلاغة : ٢٥٣/١ .

(٨٥) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٣٠١/١ .

(٨٦) ينظر : المصدر نفسه .

يعيد ذكرها، ويجعلها مبتدأ للخبر، فالحذف كان أبلغ .وبهذا فالإمام خلق مظهرين: أحدهما: المقابلة الممزوجة بالاستعارة ، وثانيهما: الحذف الممزوج بالطباق ، والرسم الآتي يوضح الفكرة :

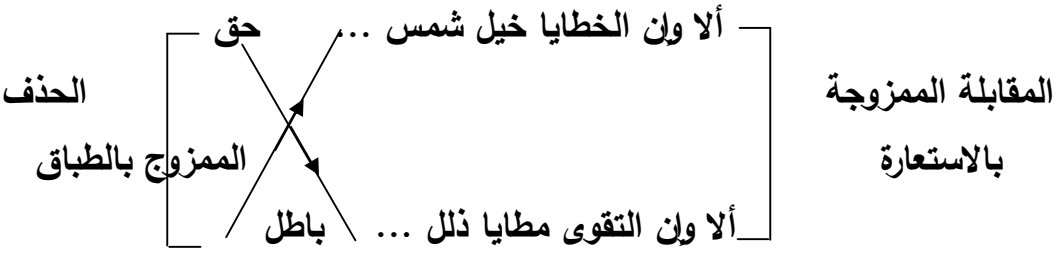

وقوله (عليه السلام) : ((**كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِل ، نَعم ، إِنَّـهُ لا حُكْمَ إِلاَّ لله ، وَلَكَنَّ هَؤُلاء يَقُولُونَ : لا إِمْرَةَ . وإِنَّهُ لابُدَّ للنَّاس مِنْ أمير بَرٍّ أو فَاجِر**))(٨٧).

فالمسلك الأسلوبي واضح من خلال حذف مبتدأ خبر (كلمة حق) ، والذي يقدر بـ(هي كلمة حق) ؛ وذلك لعلم المخاطب في كون الكلام لا ينصرف معناه إلاَّ لما قاله الخوارج للإمام في (أن لا حكم إلا لله) ، وهذا ما أعاده في خطابه تأكيدا على دحض مقولتهم ، فكان حذف المبتدأ في هذا الموضع أبلغ ، فضلاً عن أن الكلام وقع في معرض ذم لقول الخوارج ، وهذه من المواضع التي يحذف فيها المبتدأ وجوباً (٨٨).

وقوله (عليه السلام) : ((**وَأيم الله لأبقُرَنَّ البَاطِلَ حَتَّى أُخرِجَ الـ حّقَّ مِنْ خَاصِرَتِه**))(٨٩).

يلاحظ على هذا المقطع الانتهاك الحاصل على مستوى نسق التركيب من خلال حذف الخبر؛ لكون المبتدأ واقع نصاً في القسم مما جعل حذف الخبر وجوباً ، والذي يكون تقديره : (وآيم الله قسمي لأبقرن) ، وكذلك حذف (أنْ) المصدرية لكون الفعل المضارع المنصوب مسبوق بـ(حتى) مما أدى إلى إضمار (أنْ) المصدرية ، ويزيد من دلالة النص تلك الاستعارة

---

(٨٧) شرح نهج البلاغة : ٢٤١/٢ .

(٨٨) ينظر : موسوعة النحو والصرف والإعراب : ٦٠٥ .

(٨٩) شرح نهج البلاغة : ٩٠/٧ .

التي استعملها في لفظ الخاصرة للباطل مرشحاً هذه الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان الذي قد أُتبع في كونه أعز وأغلى قيمة منه ، مكنّيا به عن تمييز الحق منه[٩٠] .

وقوله (عليه السلام):((**دَاعٍ دَعَا ، وَرَاعٍ رَعَى ، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتبِعُوا الرَّاعِيَ**))[٩١]. فالقيمة الإيحائية لهذا النص يكمن في حذف خبر (داع) لكون المتلقي يعلم أنَّه لا يوجد احد مقصود بهذا النص غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لقيامه بنشر الدعوة الإسلامية بين العباد ، وكذلك الحال مع لفظ (راع) الذي عنى به الإمام نفسه ، وعلى هذا يكون تقدير الكلام : (في الوجود داع دعا ، وراع رعا)، كذلك ما قاله حينما أمرهم بأتباع الراعي ؛ لكونه وصيه ، والعالم بأحوال الدنيا من بعده .

ب- حذف الفعل :

من ضمن السياقات التي يحصل فيه الحذف ، هو حذف الفعل ، والذي يشكل سمة أسلوبية واضحة في الخطب العلوية ، ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَخَلَّفَ فِيكُم مَا خَلَّفَت الأنبياءُ في أُممِها – إذْ لَم يَتْرُكُوهُم هَملا بِغْيرِ طَرِيقٍ وَاضَح . وَلا عَلَمٍ قَائِمٍ –كِتَابَ رَبِّكُم ، مُبَيِّناً حَلالَهُ وَحَرَامَهُ ...**))[٩٢]. تبرز القيمة الأسلوبية في هذا النص بحذف الفعل ليكون (كتاب) مفعول لفعل محذوف دلَّ عليه قوله "وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء" ، ويمكن للسائل أن يسأل : ماذا خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؟ فيكون الجواب بالتقدير : (خَلّفَ كتاب ربكم)[٩٣]. وكذلك قبل حذف الفعل ، حذف الفاعل من الفعل (خلف) ؛ لعلم المتلقي به .

وقوله (عليه السلام) : ((**كَأني بِمَسْجِدِكُم كَجُؤجُؤِ سَفِينَةٍ ، قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا العَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَمِنْ تَحْتِهَا ، وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمنِهَا**))[٩٤]. هذا الكلام من ضمن الملاحم والأمور التي واعدهم بها الإمام إنها ستحصل في المستقبل ويبرز المظهر البديعي المتجلي في حذف الفعل ، والذي يُقدَّر بـ(كأني أرى مسجدكم) ، والدلالة الحاصلة من الحذف هو لتعظيم

---

(٩٠) ينظر : شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٢/٣ .
(٩١) شرح نهج البلاغة : ١٢٧/٩ .
(٩٢) المصدر نفسه : ١٢٦/١ .
(٩٣) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٦٥/١ .
(٩٤) شرح نهج البلاغة : ٢٣٥/١ .

الأمر الذي سيّحل بهم وليستعدوا له ، وهو غرق مدينتهم – البصرة – ماعدا مسجدهم الذي شُبِّه بصدر السفينة التي لا يصلها الماء .

وقوله (عليه السلام) : ((**أيُّها النَّاسُ ، إيَّاكُم وتَعَلُّم النُّجُومِ إلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أو بَحْرٍ ، فَإنَها تَدْعُو إلى الكَهَانَةِ**))[٩٥]. فدلالة الحذف تبرز في هذا النص من خلال حذف الفعل ؛ لأنه حلَّ من يسد مكانه وهو قوله (إياكم) التي تستعمل للتحذير ، وتعرب مفعول لفعل محذوف وجوباً ، تقديره : (جنبوا أنفسكم تعلم النجوم) ، والمعنى الذي يراد واضح ، وهو عدم الركون إلى النجوم والكواكب في الأمور الغيبية كل الأوقات والخوف منها ، وعدم الوثوق بمن يروج مفاهيمها ؛ لأنها تدعو إلى الكهانة ، وهؤلاء يدعون أنهم يعلمون ما سيحصل من أمور غيبية في المستقبل، وهذا كفر بحق الله سبحانه وتعالى الذي لا يعلم الغيب إلا هو . وأمرهم بتعلم ما يعنيهم من أمورهم الشرعية من صيام ، وحج ، وسفر ، وغير ذلك .

وقوله (عليه السلام) : ((**هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ ! أَما وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُم بِمَا أَمَرْتُكُم بِهِ حَمَلْتُكُم عَلَى المَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْراً ، فَإِنْ اسْتَقَمْتُم هَدَيْتُكُم، وَإِن اعْوَجَجْتُم قَوَّمْتُكُم، وَإِنْ أَبَيْتُم تَدَارَكْتُكُم لَكَانَتِ الوُثْقَى، وَلَكِن بِمَنْ وَإِلَى مَنْ**))[٩٦]. يُصعِّد الإمام في هذا النص من خلال الحذف الواضح على مستوى نسق التركيب ، حيث يلاحظ انه حذف فعل (لو) العاملة عمل (إنْ) الشرطية ؛ لبيان دلالة الاختصاص ، والغرض من ذلك إظهار الدلالة التي تكمن في أثبات تقصير ولوم من حمّل الإمام بتبعات الحكومة التي جرت في واقعة صفين وما حدث من تفاقم للأمور بعدها ، فهو أعلن البراءة من هذا العمل ، ونسبه إليهم ؛ لأنهم الذين أرغموه على القبول بالحكومة آنذاك ، ولذلك خصَّهم بهذا العمل عن طريق حذف الفعل الذي يحذف مع (لو) العاملة عمل (إنْ) الشرطية . وعلم هذا يكون المصدر من (أني) فاعل لفعل محذوف تقديره (لو ثبت حملي لكم على المكروه) .

والحذف الآخر في قوله ((بمن وإلى من))، وتقديره : (بمن استعين وإلى من أرجع) ؛ لغرض الاختصار ، وعلم المتلقي بالمقصود من هذا الكلام ، فقوله (بمن) كيف استعين

---

(٩٥) شرح نهج البلاغة : ١٥٩/٦ .

(٩٦) المصدر نفسه : ٢٢٦/٧ .

بكم على الأعداء وأنتم أصحابي تتقاتلون بينكم ؟ وإلى من أرجع من أصحابي وهم في المناطق النائية ، فبمجرد الرجوع إليهم تكون الأعداء حققت ما تريد مني .

والحذف الآخر الذي سيأتي الكلام عنه في (حذف الجملة) هو حذف جواب المتأخر من اجتماع القسم والشرط في هذا النص ؛ لدلالة جواب الأول عليه في قوله (لكانت الوثقى) . فالحذف هنا أعطى النص سمة أسلوبية تجعل المتلقي يتخيل الدلالة المنضوية من هذا المظهر .

ت- حذف الفاعل :

برز مظهر حذف الفاعل في النصوص الأدبية ، ولاسيَّما الثرية منها بشكل لافت للنظر مما جعله يستحق الدراسة من أجل الكشف عن السمات الأسلوبية المميزة التي تنبعث منه في انثيالات الخطاب العلوي .

وأثار إهماله قسم من البلاغيين والمفسرين دهشة واستغراب عددٍ من المحدثين لعل من بينهم الدكتورة بنت الشاطئ مستغربة عن بيان هذا النوع من الحذف في مواضع كثيرة ، ولاسيَّما في القرآن الكريم ، وكيف لا يلتفت إليه علماء البلاغة والتفسير مع وضوحه إلى درجة العمد والإصرار[٩٧].

وتقول : ((والبلاغيون يقولون في حذف الفاعل : أنه يحذف للعلم أو للجهل به، وللخوف منه أو عليه))[٩٨]. وأغلب الظن أن البلاغيين ساروا على قاعدة تنص على أن المتلقي يعلم بحذفه فلا حاجة في ذكره . والعكس من ذلك فإن حذفه يشتمل على أمور كثيرة منها كما برز في قوله (عليه السلام) : ((**أتَخِذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمرِهِم مِلاكاً ، وَاتَّخَذَهُم لَهُ أشْرَاكاً ، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِم ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِم ، فَنَظَر بِـ أعْيُنِهِم ، وَنَطَقَ بِألسِنَتِهِم ، فَرَكِبَ بِهِم الزَّلَلَ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الخَطَلَ**))[٩٩]. تكمن القيمة الإيحائية في هذا النص من خلال حذف الفاعل وهو (الشيطان) من الأفعال (باض – فرَّخ – دبَّ – درج – نظر – نطق – ركب) ؛ وذلك لكونه مذكور في بدء النص ، وتجنباً للتكرار الذي لا تحصل به الفائدة

---

(٩٧) ينظر : من أسرار العربية في البيان القرآني – د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)– د.ط – دار الأحد (البحيري أخوان) – بيروت – ١٩٧٢م : ٥٥ .

(٩٨) المصدر نفسه .

(٩٩) شرح نهج البلاغة : ٢١٦/١ .

اللازمة لذلك ، فضلاً عن ان المتلقي بهذه الأفعال لا ينصرف ذهنه إلاّ للشيطان ، والجميل في هذا النص المزج الحاصل ما بين الحذف والاستعارة في (باض وفرخ) ، والحذف والكناية في (دبَّ ودرج).

وقوله (عليه السلام) : ((**فَما يَنْجُو مِنَ المَوتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلا يُعطَى البَقَاءَ مَنْ أَحَبَّه**))[١٠٠] فالإمام حذف الفاعل هنا ؛ لعدم تعلق الغرض بذكره ، أي أنه ليس الغرض ذكر جس من ينجو ، وإنما التأكيد على أنه لا مفر من هذا الأمر ، سواء خفت منه أو أحببته فالكل تموت ، والتقدير في كِلا الفعلين : (فما ينجو أحدٌ .. ، ولا يُعطى أحدٌ ...) . ولهذا ترى ((أن حذف الفاعل قد شكل فيها أسلوبياً في إشباع الجملة بما تحتاجه من شرط الأسناد ... وأحال ذهن المتلقي إلى وضع افتراضات معينة عن ماهية الفاعل المحذوف))[١٠١].

وقوله (عليه السلام) : ((**أَلَّفَ بِهِ إِخْوَانًا ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا ، وَأَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ وَأَذَلَّ بِهِ العِزَّةَ**))[١٠٢]. فمظهر الحذف هنا تجلى من أجل المحافظة على التناسق الصوتي[١٠٣] ، والذي يتمثل في الحفاظ على التوازن في (ألف – فرق ، أعز – أذل) ، والسجع في (إخواناً – أقراناً ، الذلة – العزة) ، والضمير المتصل الذي ذُكِر في هذا النص عائد على الإسلام ، وهذا صحيح الذي ذهب إليه الإمام به فالإسلام باعد ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما، وألف بين علي (عليه السلام) وعمار مع تباعدهما ، والحال نفسه مع العزة والذلة. والبديع في هذا النص إن المقطع الثاني منه قد مزج الحذف فيه بـ(العكس والتبديل) للتفجر الصور بالتراكيب التي يبعثها النص للمتلقي .

وقوله (عليه السلام) : ((**سَلَّطَ المُلُوكَ وَأَعْدَاهَا ، وَأَهْلَكَ العُدَاةَ وَأَدحَاهَا وَأَوصَلَ المَكَارِمَ وَأَسْوَاهَا وَسَمَكَ السَّمَاءَ وَعَلَّاهَا ، وَسَطَحَ المِهَادَ وَطَحَاهَا**))[١٠٤] .

---

(١٠٠) شرح نهج البلاغة : ٢٣٤/٢ .

(١٠١) الآيات القرآنية المتعلقة بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : ١٧٠ .

(١٠٢) شرح نهج البلاغة : ٥٢/٧ .

(١٠٣) ينظر : شرح قطر الندى وبل الصدى – ابن هشام الأنصاري – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – د. ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت : ١٨٧ .

(١٠٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٩/١ .

فالحذف ها حاصل في لفظ الجلالة (الله) من (سلط – أهلك – أوصل – سمك – سطح) لعلم المتلقي بكون هذه الأمور لا تصدر إلاَّمن الخالق المعبود محققاً بهذا الحذف انسيابية وسلاسة في الكلمات عند منتهى كل فقرة منها .وهذا في لفظ الجلالة أخذاً أشكالاً متعددة تكون على النحو الآتي :

(سلط الملوك وأعداها (حذف مع مقابلة) أهلك العداة وأدحاها) لغرض الثواب والعقاب[١٠٥] .

أوصل المكارم وأسراها

(سمك المساء وعلّاها (حذف مع مقابلة) سطح المهاد وطحاها)} لغرض التعظيم[١٠٦].

فضلاً عن كل هذا فإن النص ضمن خطبة تعرف بكونها خالية من النقط ! .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَجُعِل في ضَرِيحٍ مَلْحُودٍ ، وَضِيقٍ ، بِلبِ نٍ مَنْضُودٍ ، مُسَقَّفٍ بِجُلُّمودٍ**))[١٠٧]. تقوم البنية الحضورية لهذا النص على حذف الفاعل أصلاً ، وحذف ما ينوب عنه كذلك ، وكل هذا من أجل الترهيب والتهويل من هذا الحدث العظيم في نفسية المتلقي ألا وهو موت الإنسان، فحذف الفاعل هنا زاد النص دلالة معنوية يمكن أن يتخيلها الإنسان عند التفكير بها، والذي زاد من وتيرة النسق الصوتي الصاعد المتفجر من النص، والذي يبحث على الإحساس بما يحصل للميت وجود هذا السجع في الكلمات التي ختم بها الإمام منتهى كل فقرة ، وبها تمكن من نقل الصورة الحقيقة من ذلك الموقف للمتلقي.

وقوله (عليه السلام) : ((**لَمْ يُولَدْ فَيُكُونَ فِي العِزِّ مُشَارَكاً ، وَلَمْ يَلِدْ فَيُكُونَ مُورُوثاً هَالِكاً وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ شَبحاً مَاثِلاً ...**))[١٠٨].

اشترك في هذا النص مظهر – التناص – المعنوي بآية من سورة الاخلاص[١٠٩]، مع الحذف في الفعلين المحذوف فاعلهما وهما (يولد – يلد) وحقيقة الأفعال الثلاثة

---

(١٠٥) ينظر : الحديث النبوي الجاري مجرى المثل : ١١١ .

(١٠٦) ينظر : المصدر نفسه .

(١٠٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠٢/١-١٠٣ .

(١٠٨) المصدر نفسه : ٦٠٣/١ .

(١٠٩) قوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (الاخلاص : ٣) .

(يولد – يلد – يقع) المحذوف فاعلهما فإنه يعود على الله سبحانه وتعالى ، وسبب الحذف يكمن في كون الإمام عدل عن كر لفظ الجلالة تشريفاً له وصيانة [١١٠] عن ذكره في مقام ينعت بأوصاف لا تليق بمقامه مثل ما نُكِر من كونه يلد أو مولود ، أو شبحاً ، جل الله عزَّ وجلَّ عما يصفون.

ث- حذف المفعول :

يحظى حذف المفعول بأهمية عند البلاغيين ، فهو لا يقل شأناً عن حذف الفاعل ، فعلى سبيل المثال أن عبد القادر الجرجاني يرى فيه أن ((الحاجة إليه أمسٌ ... واللطائف كأنها فيه أكثر، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب واظهر))[١١١]. ونوع الدلالات التي يثيرها حذف المفعول في الجملة بحسب الغرض الذي ترد فيه ، ولهذا فإن البحث وجدها تأخذ في الخطب العلوية أشكالاً ،وأغراضاً متعددة يطرحها السياق للمتلقي.

ومن المواضع التي جاء فيه حذف المفعول قوله (عليه السلام) : ((**ألا وإنّي لَم أَر كالجنَّةِ نَام طَالُبها ، وَلا كَالنَّارِ نَام هَارُبَها**))[١١٢]. فالحذف هنا جاء (لتوجيه الاهتمام إلى الفعل) المحذوف مفعوله الأول وهو (أرى) ، لإظهار بيان التعجب ، فالإمام يعجب من الشخص الذي يعلم علم الموقن بالجنة وما فيها من نعمة وآخرة ومع هذا فإنه يُقصِّر عن طلبها بالأعمال الصالحة ، وعلم الموقن بالنار وما فيها من عذاب عظيم ومع هذا فإنه يُقصِّر في الهرب منها من خلال ترك الأعمال الفاسدة . وفي هذا الكلام تحذير للذين شُغِلوا بما في الطبيعة ، ونسوا ما ورائهم من حساب في ذلك اليوم . وعلى هذا يكون التقدير : (واني لم أر نعمةً كالجنة نَام طالبها) فنعمة : مفعول أول ، ونام مفعول ثان ، والتقدير في العبارة التي بعدها (ولا نقمةً كالنار نَام هاربها) ، وفعلاً فلا نعمة أفضل من الجنة ، ولا نقمة أشد من النار .

إن الذي زاد من القيمة الأسلوبية للحذف هنا وجود – المقابلة – بين العبارتين اللتين حدث فيهما مظهر الحذف .

---

(١١٠) ينظر : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي – د. طاهر سليمان حمودة – د . ط – الدار الجامعية للطباعة والشر والتوزيع – ١٩٨٢م : ٩٥ .

(١١١) دلائل الإعجاز : ١٥٣ .

(١١٢) شرح نهج البلاغة : ٧٤/٢ .

وقوله (عليه السلام) : ((**أيـ نَ الـَّذينَ عُمِّـرُوا فَنَعُـموا ، وَعُلِّـموا فَفُهِـموا ، وَأُنْظِـرُوا قَلَـهوا، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا !أُمهِلُـوا طَويلاً ، وَمُنِحُوا جَميلاً ، وَحُذِّرُوا أليماً ، وَوُعِدُوا جَسيماً**))[113]. فالمظهر البديعي واضح في هذا النص من خلال الانزياح الحاصل في جمله ، وهذا سببه الحذف الذي أراده الإمام رغبة منه بالإيجاز في الكلام تارة ، ولخلق تناشق صوتي قائم تعلى – السجع – تارة أخرى . فحذف الفاعل جاء في الاستفهام عن الذين رحلوا من دار الدنيا ، وحذف الفاعل مع المفعول المطلق جاء في الجواب عن الاستفهام ، ويكون تقدير المفعول : (أمهلوا أمداً طويلاً ، ومنحوا منحاً جميلاً ، وحذروا تحذيراً أليما ، ووعدوا وعداً جسيماً) .

وقوله (عليه السلام) : ((**تُجْلَـى بِالتَّنْزِيـلِ أَبْصَارُهُم ، وَيُرَمـى بالتَّفسيرِ فـي سَـامِعِهِم ، وَيَغْبُقُونَ كأسَ الحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ**))[114]. تكمن الملامح الأسلوبية في هذا النص من خلال وجود الحذف الحاصل من قبل المتكلم للمفعول فيه ؛ وذلك لدلالة معنى الفعل (يغبقون) عليه ؛ لأن معنى لفظ (الْغَبَقُ) : هو ((شرب العشيِّ))[115]. فحينما يرد هذا اللفظ في أي جملة فإن معناه لا يكون إلاّ الشرب وقت العشي ، ولو قُدِر الكلام لكان: (يغبقون كأسَ الحكمة ليلاً بعد الصبوح) ومعنى الكلام لطيف لكونه يصف ثلة من المؤمنين كيف أن الله سيكشف لهم الغطاء ، وينزل المعارف في قلوبهم ، ثُمَّ وصفهم أنهم يغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح ، أي أن المعارف الربانية ، والأسرار الإلهية تنهال عليهم في الصباح والمساء ، فلفظ الغبوق استعارة عن الفيض الإلهي الحاصل في الليل ، ولفظ الصبوح استعارة عمّا يحصل لهم منه في النهار .

وقوله (عليه السلام) يوصي نوف البكالي : ((**يا نَوْفُ أَرْحَمْ تُرْحَم**))[116]. فالإمام حذف مفعول (أرحم) ؛ للتوسع في دلالة الفعل الإيحائية[117] ، ليفتح الأفق أمام المتلقي في أن يتخيل أن المراد–بالرحمة يمكن أن يكون نباتاً ، أو حيواناً ، أو إنساناً ، فإذا كان نباتاً

---

(١١٣) شرح نهج البلاغة : ٦/٢١٦-٢١٧ .

(١١٤) المصدر نفسه : ٩/٩٧ .

(١١٥) لسان العرب – مادة (غبق) : ٦/٥٦٩ .

(١١٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/٤٩١ .

(١١٧) ينظر : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – مجيد عبد الحميد ناجي (أطروحة دكتوراه) مقدمة إلى كلية دار العلوم – جامعة القاهرة – ١٩٧٨م : ١٥٧ ، ١٦٠ .

تّصور الرحمة في عدم قطع الأشجار النافعة ، وإذا كان حيواناً دخل الرفق في قلبه للحيوان عند ذبحه ، وأما إذا كان إنساناً فمجال الرحمة له أوسع لتشمل الصغير والكبير ، والمريض والفقير ، بل ولتشمل المسلم وغير المسلم . وأكثر من هذا فإن الإنسان عليه أن يرحم نفسه قبل غيره بتعويدها على الطاعة ، والتزامها لها ، من اجل الفوز بالجنان ، وجعلها تنبذ المحرمات ، والآثام خشية الوقوع في النار .

وقوله (عليه السلام): ((**وَحَثَّرُكُم عَنُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا ، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِياً ، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ فَمَنَّى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ العَظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَخْلَقَ رَهِينَتَهُ ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ ، وَحَذَّرَ مَا أَمِنَ**))[١١٨]. تبرز أسلوبية هذا النص بصورة واضحة من خلال المظاهر البديعية التي تدور في فضائه بدءاً من حذف المفعول في قوله ((فأضل وأردى ، ووعد فمنى))؛ لقرينة دلت عليه[١١٩]، وهو الضمير المتصل في لفظة (قرينته) ، والقرينة معنى نفس الإنسان المراد بها هنا ، والتي عادت على المفعول المحذوف أصلاً ، ليكون تقديره : (فأضل الإنسان وأردى ، ووعده فمنى) . وكذلك حذف فاعل الأفعال (نفذ– نفث– أضل– أردى – وعد– منَّى– زيَّن– هوَّن– استعظم– حذر) ، لغرض التناسق الصوتي . وانتهاءبما قام به حذف الفاعل من إبراز القيمة الجمالية للمستوى الصوتي الحاصل من– الجناس المضارع – (نفذ – نفث) ، و– السجع – الحاصل ما بين (قرينته – رهينته) . كل ذلك بان بفضل حذف المفعول والفاعل ، فهذه هي القيمة الحقيقية للحذف .

جـ- حذف المضاف :

لا يختلف أهل النحو ، والبلاغة على أهمية حذف المضاف في الجملة ، وكثرة استعماله بين العرب ، فالسجلماسي أثبت هذا الأمر بقوله : ((وحذف المضاف وإبقاءه المضاف إليه مجاز واسع كثيرٌ ، ومهيع لا حبٌ ، اللغةُ طافحة به ، وكثرته خارجة

---

(١١٨) شرح نهج البلاغة : ٢١١/٦ .

(١١٩) ينظر : مفتاح العلوم : ٣٣٤ .

عن الأحصاء حتى لقد ظن قوٌم انه حقيقة لا مجاز))[١٢٠]. فكثرته تأتي لما يؤديه من أثرٍ مهم في الخطاب الأدبي من خلال الأغراض التي ينطلق منها إلى المتلقي ، وهذا ما وجده البحث في الخطب العلوية.

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**أَنْذَرَكُم بِالحُجَجِ الَوالِغِ ، فأَحْصَاكُم عَدداً ، وَوَظَّفَ لَكُم مُدداً ، في قَرارِ خِبْرةٍ، وَدارِ عِبْرَةٍ ، أَنْتُم مُخْتَبَرُونَ فِيهَا ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا**))[١٢١]. في هذا الكلام الذي يحمل الطابع التحذيري يخرج حذف المضاف في قوله ((ومحاسبون عليها)) حيث حُذِفَ المضاف ، واخذ الضمير المتصل بحرف الجر مكانه وحكمه الأعرابي ؛ لغرض التناسق الصوتي المتمثل بـ – السَجْع – مقابل ((مختبرون فيها)) ، وتقدير المضاف:(ومحاسبون على سكانها). فالحذف هنا جاء ليكمل حدوث الانفجارات الصوتية المنبعثة من هذا النص ، مع – الجناس اللاحق – (عددا– مددا) ، و– الجناس المضارع– (خبرة –عبرة) ، مع – السجع –محدثاً بذلك تكتلاً صوتياً يعمل على لفت أنظار المتلقين.

وقوله (عليه السلام): ((**فَيا عَجَباً ! وَ مَا لِي لا أَعْجَبُ مِنْ خَطأ هَذِهِ الفِرَقِ عَلَى اخْتِلافِ حُجَجِهَا في دِينِهَا، لا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ**))[١٢٢]. فالانتهاك حاصل في حذف المضاف ، والتعويض عنه بالتنوين ، والتقدير يكون : (أحضر يا عجبي)[١٢٣]. فالإمام في البدء يبدي عجبه من اختلاف هذه الفرق فيما بينها، فنبيها واحد، وكتابها واحد ، ثُمَّ يزول عجبه بعد ذلك بوضوح الأسباب لكونهم أصلاً لا يقتصون أثر نبيهم ، ولا يعملون بعمل وصيهم ، ولو ساروا على الطريق الواحد لما حصل هذا الاختلاف .

وقوله (عليه السلام): ((**لله أَنْتُم ! أَما دِينٌ يَجْمَعُكُم ، وَلا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُم**))[١٢٤]. من خلال هذا المقطع الذي يحمل في طياته معنى التعجب يبرز مظهر الحذف بنوعين: الأول: حذف المضاف الواقع بعد القسم، وإقامة الضمير المنفصل (أنتم) مقامه؛ من أجل التوسع

---

(١٢٠) المنزع البديع : ٢٠٥ .
(١٢١) شرح نهج البلاغة : ١٩٣/٦ .
(١٢٢) المصدر نفسه : ٢٩٧/٦ .
(١٢٣) ينظر : في ظلال نهج البلاغة : ٤٤٤/١ .
(١٢٤) شرح نهج البلاغة : ٥٤/١٠ .

في الكلام[١٢٥]، والذي يثبت ذلك عجب الإمام في كون هؤلاء لا دين يجمعهم،ولا حمية تشحذهم ، فالكلام أصلاً موجه إلى الذين تقاعسوا عن نصرته في جهاد أعدائه ، فهو حينما عجب منهم كان كلامه نحوهم بالضمير المنفصل ليكون موقف هؤلاء لا يقتصر على نصرته وجهاده، بل أبعد من ذلك، وللمتلقي أن يتخيل ذلك. وإذا قدِّر الكلام يكون (لله سعيكم).

الثاني : حذف خبر المبتدأ من (دين – حمية) للاختصار ؛ والتقدير : (أما لكم دين يجمعكم ، ولا لكم حمية تشحذكم) .

وقوله (عليه السلام) : ((**التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُه ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُه ، وَالْمَوْتُ غَايَتُه ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُه ، وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُه ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُه**))[١٢٦]. فحذف المضاف هنا واقع في جميع أجزاء هذا النص ، والسبب في ذلك هو ؛ لغرض الاختصار في الكلام [١٢٧] ، والتقدير يكون : (التصدير طريق منهاجه ، والصالحات أعلام مناره ، والموت سبيل غايته ، والدنيا موضع مضماره ، والقيامة ذات حلبته ، والجنة جزء سُبقته) .

٣- حذف الجملة :

تزخر الخطب العلوية بأنواع كثيرة من هذا الحذف ، مثل حذف جواب الشرط ، أو حذف جواب القسم ، أو حذف جواب (لو) ، وما غير ذلك ، ويعمل هذا الحذف على تحريك أذهان المتلقين من خلال الأثر الذي يتركه النص في أنفسهم في كون هذه العبارة تحتاج إلى خيال المتلقي الواعي ليكمل هذا النص ، وهذا ما يريده أي متكلم مبدع .

فعلى سبيل المثال قوله (عليه السلام) : ((**مُنِيتُ بِمَنْ لا يُطِيعُ إِذَا أَمرتُ ، وَلا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ**))[١٢٨]. فالانزياح قائم على مستوى نسق التركيب من خلال حذف جواب الشرط في هذا النص ، والمسوغ لذلك وجود دليل دلَّ عليه ، وهو وقوع فعل الشرط ماضياً بعد أداة

---

(١٢٥) ينظر : معاني النحو– د. فاضل صالح السامرائي – ط٢ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – عمان – ٢٠٠٣م : ١٢٣/٣ .

(١٢٦) شرح نهج البلاغة : ١٣٥/٧ .

(١٢٧) ينظر : معاني النحو : ١٢٤/٣ .

(١٢٨) شرح نهج البلاغة : ٢٣٦/٢ .

الشرط [١٢٩] في كل من (أمرت – دعوت) والتقدير يكون : (منيت بمن لا يطيع إذا أمرت فيستجيب ، ولا يجيب إذا دعوت فيطيع) .

وفي حذف جواب (لو) قوله (عليه السلام): ((**فَيا لَها أَمْثالاً صائِبَةً ، وَمَواعِظَ شافِيَةً، لَوْ صادَفَتْ قُلُوباً زاكِيَةً ، وَأَسْماعاً واعِيَةً ، وَآراءً عازِمَةً ، وَأَلْباباً حازِمَةً**))[١٣٠]. بعد كلام طويل للإمام مليء بالحكمة والمواعظ للناس ، يصل إلى موضع يستشعر بعظمة هذا المواعظ والأمثال ، ويستشرط في أن تكون قلوب متلقيها زاكية وغيرها من الصفات التي ذكرها ، وصولاً إلى حذف جواب (لو) ، والحذف هنا حقيقة جائز؛ وذلك لأنه لا يجود في الكلام ما يصلح لأن يكون جواباً ، ولذلك ترى إن الشرط يشعر نفسه بالجواب[١٣١] . كأن يقول قائل : (أ تكون الأمثال صائبة ، والمواعظ شافية) ؟ فتقول : (لو صادفت قلوباً زاكية ...). وتقدير جواب (لو) التي أفادت معنى الشرط يكون : (لكانت راضية) .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَمِنْ تَمامِ الأَضْحِيَةِ اسْتِشْرافُ أُذُنِها ، وَسَلامَةُ عَيْنِها ، فَإِذا سَلَمَتِ الأُذُنُ وَالعَيْنُ سَلَمَتِ الأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كانَتْ عَضْباءَ القَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَها إِلى المَنْسَكِ**))[١٣٢]. هذا الكلام الصادر عن الإمام هو في ذكر صفات الأضحية يوم النحر ، وفي طيات هذا النص حذف جواب (لو) ؛ لقيام جواب (إذا) مقامه المتمثل في (سلمت الأضحية وتمت) ؛ والسبب في ذلك أن (لو) وفعلها عائدان على معنى الكلام الأول ، والذي يفهم معناه أن شرط الأضحية هو في سلامة أُذنها وعينها ، فإذا تمت قُبلت الأَضحية حتى ولو كانت مكسورة القرن تجرُّ برجلها إلى المذبح . والتقدير يكون :

(ولو كانت عضباء القرن .. لجاز ذبحها) ، وأغلب الظن أن هذا الكلام في شرط الأضحية المستحبة ، ولو كان الكلام عن الأضحية الواجبة لاختلف معنى الكلام ، وانفصلت العبارة الثانية عن الأولى ، مع اختلاف تقدير الجواب .

---

(١٢٩) ينظر : شذور الذهب في معرفة كلام العرب – ابن هشام الأنصاري – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – د.ط – د.ت : ٣٤٣ .

(١٣٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠١/٦ .

(١٣١) ينظر : شرح ابن عقيل – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – د.ط – مكتبة دار التراث – القاهرة – ١٩٩٨م : ٤١/٤-٤٢ .

(١٣٢) شرح نهج البلاغة : ٥/٤ .

وقوله (عليه السلام) : ((**كَلَّا وَاللهِ ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلابِ الرِّجَالِ ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، وَكُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُم قَرْن قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ أَخِرُهُم لُصوصاً سَلابِينَ**))[١٣٣].

أجاب الإمام بهذا الكلام حينما قال له أصحابه عن الخوارج بعدما قُتِلوا : هلك القوم فجاءهم الرد منه بالقسم المحذوف جوابه ، وهذا الحذف دلَّ عليه معنى الكلام الذي جاء في باق كلامه من أنهم نطف في أصلاب الرجال ، ومنهم في قرارات النساء ، وهذه كناية لطيفة عن الأرحام التي برزت إليها النطف ، مضيفاً أنهم سيقتلون كلما ظهر منهم قرن ، وهذه استعارة لطيفة رشَّحها بقوله (قطع)، واصفاً لهم منتهاهم أنهم سيكونون لصوصاً وسلابين قطاعي طرق . ويمكن تقدير جواب القسم : (والله ما هلكوا) .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا ، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا**))[١٣٤]. فالمقطع يحمل في فضائه قسم وشرط ، والقاعدة تذهب إلى حذف جواب المتأخر وجوباً ؛ لدلالة جواب الأول عليه[١٣٥]. وهذا ما حصل هنا، وهو حذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه ، وهو قوله (لينتزعن) من خلال اتصال اللام والنون بالفعل المضارع. ومعنى الكلام هنا موجه إلى أهل البصرة فإنهم إذا اجتمعوا في الحرب معاً ضد الإمام ، فيستفرقون عن بعضهم البعض عند حصولهم على ما يريدون ، وهذا طبيعي ؛ لأن الرياسة لا تكون لشخصين ، وإنَّما لواحد ، ولذلك وصفهم الإمام بأبلغ وصف حينما قال ما معناه ليقتلن بعضهم بعضاً جرّاء المُلك .

فهذه هي فائدة الحذف ، ولا يريد أن يقول البحث إن الحذف أفضل من الذكر، أو بالعكس بل إن لكل واحد منهما له موقعه الذي يحدده السياق له ، فالسياق إذا اقتضى أن يأتي بالذكر فإنه سيفعل حتى لا يحصل الإخلال بالنص ، وإذا اقتضى الحذف فإنه سيكون من أجل تحقيق الفائدة التي تخدم المتلقي ، ويبقى المبدع صاحب الكلمة الأخيرة فيما يخص توليد الصور البلاغية في النصوص بما يخدم الصنعة الأسلوبية.

---

(١٣٣)شرح نهج البلاغة : ١٣/٥ .

(١٣٤) شرح نهج البلاغة : ٨٥/٩ .

(١٣٥) ينظر : شذور الذهب : ٣٥٠ ، شرح ابن عقيل : ٤٤/٤ .

ثانيا: العكس والتبديل :

لا يخطر على أذهان البلاغيين إذا تَـمَّ الحديث عن العكس والتبديل إلاَّ التقديم والتأخير ؛ وذلك بما يحدثه من أثر في النص على المستوى الإيقاعي والدلالي من خلال تركيبته المرنة التي تمنح النص بُعداً بلاغياً ، وهذا ما تبحث عنه الأسلوبية وهو الكشف عن تراكيب الجمل التي يقع بها المظاهر البديعية ، والتي بدورها تعمل على لفت كل من يسمعها أو تقع عليها .

فهذا المظهر أثاره موجودة في كتب البلاغة ، فالعسكري (ت٣٩٥هـ) يقول عنه : ((العكس أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول ، وبعضهم يسميه التبديل))[١٣٦]. وأما ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) يعرفه ((أن يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً ويتلى بأخر يجعل فيه ما كان مقدماً في الأول مؤخراً في الثاني وما كان مؤخراً مقدماً))[١٣٧]. ويبدو أن الخفاجي لم يختلف عن العسكري في معنى هذا المظهر ، وإن كان كل واحد منهما عرفه بالأسلوب الذي يراه .

وأما ابن منقذ (ت٥٨٤هـ) فالعكس عنده ((أن تأتي الجملتان أحداهما عكس الأخرى))[١٣٨]. ويختلف ابن الأثير عن سابقيه في فهمه لهذا المظهر حيث عدَّه القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ، وسمَّاه (المعكوس) وذلك أن تعكس الألفاظ والحروف قال عن عكس الألفاظ : ((وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة وعليه رونق ، وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب (التبديل) وذلك اسم مناسب لمسماه لأن مؤلف الكلام يأتي بما كان مقدماً في جزء كلامه الأول مؤخراً في الثاني وربّما مؤخراً في الأول مقدماً في الثاني))[١٣٩]. فابن الأثير وأن اختلف في تسميته عن سابقيه إلا أنه في رؤيته له لا يتجاوز ما ذهبوا إليه من قبله. والحموي يرى أن ((العكس في اللغة رد أخر الشيء على أوله ويقال له التبديل، وفي الاصطلاح تقديم لفظ من لكلام ثُمَّ تأخيره))[١٤٠].

---

(١٣٦) كتاب الصناعتين : ٣٨٥ .

(١٣٧) سر الفصاحة : ٢٣٩ .

(١٣٨) البديع في نقد الشعر : ٤٦ .

(١٣٩) المثل السائر : ٢٦١/١ .

(١٤٠) خزانة الأدب : ٢٠١ .

وأما ابن أبي الإصبع المصري فيرى أنه ((أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه، أو لغيره فيعكسه))[١٤١].

ولعل خير من وضح الأسس التي يبنى عليها هذا المظهر هو الدكتور محمد عبد المطلب حيث يرى أن ((التأمل في بنية العكس يؤكد وجود منعطفات ، أو لنقل إنها عملية توقف مؤقته تعدّل فيها الصياغة خط سيرها ، لتجعله خطّاً مزدوجاً يعتمد على (التقديم والتأخير) الذي تتبادله الدوال المتماثلة [...] لأن الذهن يتحرك إلى الأمام، فيدفع الصياغة إلى متابعته ، ثم يرتد للوراء فتلاحقه الصياغة أيضاً ، وبين التقدم والتراجع تتوافق البنية السطحية ، وتتغالق بنية العمق))[١٤٢].

والذي قاله الدكتور عبد المطلب صحيح وشرط أساس ، ولاسّيما في ما يخص التقدم والتراجع في بنية هذا المظهر ، لكونهما يعملان على تبادل أجزاء العبارات ، والحال نفسه مع بنية العمق إذ أن الجزء المعكوس يختل في مضمونه عن الأول .

ويجب الإشارة إلى مسألة مهمة في ما يخص العكس والتبديل ، وهي أن بنيته الثنائية ((لا تتم إلا بين التراكيب ، فلا مدخل لها بين المفردات ، كما أن هذه الثنائية لا تقوم على نفي أحد الطرفين للآخر بل من المحتم تلازمها . لكنه تلازم مع المغايرة ، على معنى أن اكتمال بنية العكس بمجيء الطرف الثاني ، يترتب عليه تعديلاً في المعنى على نحو من الأنحاء ؛ لأن التغير في شكل التركيب [...] يقتضي تغاير الناتج الدلالي))[١٤٣].

إذن فما بين التقديم والتأخير في العبارات يخرج مظهر العكس والتبديل بمعانٍ بلاغيةٍ متميزة مع وحدة الألفاظ واختلاف التراكيب في سياق يخدم منتجه لغرض تحقيق أهداف معينة ، ولهذا فالبحث سيدرسه على النحو الآتي :

١- العكس والتبديل الفعلي .

٢- العكس والتبديل الإسمي .

٣- العكس والتبديل المشترك ما بين الحروف والضمائر .

---

(١٤١) تحرير التحبير : ٣١٨/٢ .

(١٤٢) البلاغة العربية قراءة أخرى : ٣٧٨ .

(١٤٣) بناء الأسلوب في شعر الحداثة : ٣٣٠ .

١- العكس والتبديل الفعلي :

ويقسم هذا النوع على قسمين :

أ- ما يأتي بصيغة الماضي .

ب- ما يأتي بصيغة المضارع .

ومثال النوع الأول مثاله قوله (عليه السلام) : ((**ألا إنَّه قَدْ أدْبَرَ مِنَ الدُّنْيا مَا كَانَ مُقْبِلاً ، وأقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً ، وَأزْمَعَ التَّرَحَالَ عِبَادُ الله الأخْيَارُ**))[١٤٤]. للتقديم والتأخير أثراً في تغيير معالم النص من خلال الأثر الذي يحدثه بمجرد عكس العبارة ، وهذا ما حصل هنا ، فالعكس ما بين الفعلين (أدبر × أقبل) فالتغير من جهة المعنى حاصل ، ومن جهة التركيب كذلك. فمن جهة المعنى فالعبارة الأولى في كون الدنيا أدبر ما كان منها مقبلاً قَصْدُه بالهدى والرشاد وغيرهما من الأمور الحسنة التي كانت موجودة في زمن الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) في الدنيا فإن الدنيا قد ولّت بزينتها ، وترى الإسلام في أحسن أيامه ، وحينما جاء بالعكس الثاني فهو آذان للمسلمين بحلول الظلال ، والفساد بالأمة لاستيلاء أعداء الإمام من صفين وغيرها على زمام الأمور بعده ، أي أن الدنيا ستجد موطأ قدم لها بعده (عليه السلام) ، وَستُقبل بكل ما أُتيت من قوة بفضل أعداء الدين. أما من جهة التركيب فإن كِلا الفعلين من خلال العكس الذي حصل فمرة يكون حكمهما الإعرابي (فعل ماض) ، ومرة يكونا (خبر كان) . فبينة العكس اكتملت ما بين الفعل الماضي ، وخير كان من خلال تقديمهما المعنى المطلوب .

وقوله (عليه السلام): ((**وَأوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ ، وَأوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ ، وَاشْتَغَلُوا بِما فَارَقُوا ، وَأضَاعُوا مَا إلَيهِ انْتَقَلُوا**))[١٤٥]. يُصوّر مظهر العكس والتبديل الحالة التي يكون عليها من فارق الدنيا واستقبل الآخرة بأروع تصوير ، فمن الطبيعي أن يمر الإنسان بعدة مراحل ما بعد الموت حتى يقف ما بين يدي الله في ذلك اليوم المشهود ، وبعد الموت يصحو الإنسان من غفلته ليرى ما كان يفعله في حياته ، ولهذا ترى إن العكس جسَّد هذه المسألة من خلال التبادل الحاصل ما بين العبارتين (أوحشوا × أوطنوا) فالإمام حينما قال أوحشوا الذي يوطنونه ، أراد من ذلك دنياهم ؛ لن الدنيا بعد موتهم أصبحت لا تعود

---

(١٤٤) شرح نهج البلاغة : ٧٩/١٠ .

(١٤٥) المصدر نفسه : ٧٥/١٣ .

عليهم بالنفع مثلما كانوا أحياء فيها ، بل أنها ستكون عليهم نقمة إذا أفسدوا فيها، ونعمة إذا أصلحوا فيها. وقصده من كونهم (أوطنوا ما كانوا يوحشون) ، أراد من ذلك القبور التي كانت ترعبهم بمجرد سماعها ، وتهلع قلوبهم بمجرد ذكرها أصبحت بيوتا لهم ؛ لأنهم أصبحوا أمواتاً لا حول لهم ولا قوة ، فهذا المظهر البديعي قدَّم صورة مذهلة نتيجة التقديم والتأخير في العبارتين الذي أدى إلى حصول إنزياح كامل في المعنى ، وكذلك في التركيب ، فكل واحد من الفعلين جاء بصيغة (فعل ماض + فاعل) ، و(فعل مضارع + فاعل = خبر كان) ، مع الحفاظ على الحكم الإعرابي الذي تتمتع به باقي كلمات العبارتين .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاتَّخَذُوا كِتَابَ اللهِ مَزَامِيرَ ، وَتَفَقَّهَ [النَّاسُ] لِغَيْرِ الدِّينِ ، وَأَكَلَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ ، وَاؤْتُمِنَ الْخَوَنَةُ ، وَخُوِّنَ الْأُمَنَاءُ ، وَاسْتُعْذِبَتْ كَلِمَةُ السُّفَهَاءِ**))[١٤٦]. الكلام هنا عن ظهور فتن أخر الزمان ، والتي تتمثل في الذي يتخذون من كتاب الله مثل المزمار من أجل الحصول على المكسب الشخصي وليس لغرض التفقه والأجر ، وتعلم الناس لعلوم ستوقع الهلاك بهم جرَّاء تعلم تلك العلوم ، وأكل الرجل للأمانة ، وقد علمت في موضع سابق من البحث عِظَم الأمانة ، إلى أن يأتي العكس والتبديل ليصور إحدى تلك العلامات ، والتي تكمن في وضع الأمانة عند الخائن بدل الإنسان الصالح الأمين ، ولعل في هذه العبارة – تعليل –خفي للمقطع الذي سبقه أي أن الرجل يأكل الأمانة لكونه خائناً، ولا يستحق أن توضع الأمانة عنده. والأعظم من ذلك أن الأمين يُخوّن لصدقه ، وصلاحه بين الناس فهو مكروه بينهم دائماً ، ولو كان عندهم خائناً لأصبح في نظرهم أميناً ، لهذا ترى أن كلمة السفهاء تعلو ، والحقيقة أن أغلب هذه العلامات قد تحققت ، وأن غداً لناظره قريب . فهذا التبديل الحاصل ما بين العبارتين جَسَّده الفعل الماضي المبني للمجهول (أُؤتمن – خُوِن) ، ونائب الفاعل في (الخونة – الأمناء) فالإمام استطاع أن يوظف هذا المظهر في إبراز علامتين سيكون وجودهما مستقبلاً حتمياً واحدا بجانب الآخر .

ب- ما يأتي بصيغة المضارع :

---

(١٤٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٢٩/٣ .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُم بِشَيءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُم ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُم بِشَيءٍ رِضِيَهُ مِمَّن كَانَ قَبْلَكُم**))[١٤٧].

حذّر الإمام الناس في إحدى خطبه من مسألة مهمة صاغها لهم على طريقة العكس والتبديل ؛ لكي تلفت أنظارهم وهي مسألة التحليل والتحريم في الأمور الشرعية ، أو غيرها تحت غطاء معين ، حيث أوضح لهم أن الله سبحانه وتعالى لن يرضى لهم تحليلهم شيئا للناس كان قد نهى عنه الصحابة قبلهم ، فالوقت وأن تغيّر ، فالحلال حلال إلى يوم القيامة ، والحرام حرام في كل الأزمان ، والحال نفسه من جهة السخط فإنه سبحانه لن يسخط عليكم بفعل تأدية أمر قام به من كان قبلكم من الصحابة في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فلا يجوز لكن أن تحرموه على الناس بدعوى تخدم مصالحكم ، وتعمل على تفريق المسلمين ، وهذا التبديل كان بين الفعل المضارع (يرضى – يسخط) ، و(سخطه – رضيه) التي كانت من جهة الحكم الإعرابي تكون (فعل ماض + فاعل) .

وقوله (عليه السلام): ((**وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) شَيْئاً ، يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ أو سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ**))[١٤٨]. الكلام هنا عن الذين ينقلون الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم على أقسام متعددة ، كان هذا القسم الثالث ما نُكر هنا، والذي وضحت حالته على طريقة العكس والتبديل ، وهذا الرجل الذي ينقل الحديث وقع في أمرين : الأول : إنه سمع الحديث من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يأمر بشيء ، ثُمَّ أتى هذا الرجل ونهى عنه ؛ وذلك لكونه حفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، أي أنه وقع في الخطأ من حيث لا يعلم .

الثاني : انه سمع الحديث ينهى عن شيء ، ثُمَّ أنه أمر به ؛ لنفس السبب الذي نُكر قبله. وفي كل الأحوال فهو يختلف عن الذين يروون الكذب والزور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فالعكس حصل ما بين الفعلين المضارعين (يأمر – ينهى) والماضي (نهى – أمر) ، ليتقدم حقيقة كانت صفة ثابتة لهذا الرجل الراوي .

---

(١٤٧) شرح نهج البلاغة : ٩٢/١٠ .

(١٤٨) المصدر نفسه : ٣٢/١١ .

وقوله (عليه السلام): ((**الحَمْدُ للهِ الَّذي لا يُبْرِمُ مَا نَقَضَ ، وَلا يُنْقَضُ ما أبرَمَ**))[١٤٩]. بدأ الإمام بكلام يحمل في طياته مظهرا بديعيا ، من أجل لفت أنظار أصحابه ليحثهم على الصبر ، والصدق استعداداً لملاقاة أهل الشام ، ويأمرهم بالصلاة ، والتضرع إلى الله ، وتلاوة القرآن لكي يُلاقوا أعداءهم بنية مخلصة لله سبحانه وتعالى ، موضحاً لهم عن طريق العكس والتبديل إن الله عز وجل لا يُحكِم ما نقضه هو ، أو أفسده ، أو تراه لا ينقض ما احكمه بنفسه ، فأمره واحد كن فيكون ، وحتى يعلم بني البشر أن هذه من صفاته الربانية ، وليس مثلهم إذا عملوا عملاً وبدا لهم أنه على غير الصنعة التي يُريدونها يبرموه أو يلغوه. فبنية العكس كانت ما بين الفعل المضارع ، والماضي. فتبادل العبارتين أسهم في تحريك الدلالة مع تحريك التراكيب كما كانت عليه في الصياغة الأولى. فبنية العكس ((تقدم لنا شكلاً تعبيرياً فريداً يأتي فيه التقابل من التواق ، فهو علامة على تداخل الدلالات في وعي المبدع، ثم تداخلها على مستوى الصياغة ثانياً))[١٥٠].

٢- العكس والتبديل الإسمي :

ومثال هذا النوع قوله (عليه السلام) : ((**فَلَوْ أنَّ البَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى المُرتَادِينَ ، وَلَوْ أنَّ الحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ البَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ المُعَانِدِينَ**))[١٥١]. تحدَّث الإمام عن الفتن ، وعن كيفية وقوعها بين المسلمين ، فيتطرق بكلامه إلى مسألة صوَّرها العكس والتبديل ، وهي أن الحق والباطل قد اشتركا في أمر واحد وهو الشبهة ، فقوله أن الباطل لو خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين أي أن الشبهة لو عرفها البشر منذ لحظة وقوعها أنها فتنة لما وقعوا فيها ؛ لأن الباطل يظهر فيها إلى درجة العيان ، والحال نفسه مع الحق لو وضح عند البشر لما فعل المعاندون ما فعلوا ، لكنهم أبصروا الحق ملتبساً بالباطل فتمسكوا به ، والمرتادين الحال معهم بنفس الطريقة . فبينة العكس عملت على تحقيق انزياح كامل في المعنى ، والتركيب ولذلك ترى أن العكس

---

(١٤٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٢٢/٢ .

(١٥٠) بناء الأسلوب في شعر الحداثة : ٣٣٠ .

(١٥١) شرح نهج البلاغة : ١٨٨/٣ .

هذه المرة جرى بين أسم (أنَّ) (الباطل × الحق) ، والمضاف إليه بنفس اللفظين من الطرف الآخر.

وقوله (عليه السلام) : ((**رُدُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُم مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُم قَاهِرِين**))[١٥٢]. هذا الكلام خاطب به أصحابه حينما استولى أعداؤه في واقعة صفين على شريعة الفرات ، ومنعوهم الماء ، فالدلالة تتصاعد حينما يتوجه لهم بخطاب مجازي بأمره أن يرووا السيوف من الدماء ، أي متى ما ارتوت سيوفهم من الدماء ارتووا من الماء ، ثُمَّ ينبههم إلى مسألة صاغها لهم بطريقة العكس والتبديل، وهي أن الحياة لا تعني وجود الإنسان في الدنيا إذ كان مظلوماً مقهوراً ، فبئس الحياة التي يعيشها أما إذا قُتِل من أجل الحق ، أو إذا حافظ على دينه بقتله فنعم الحياة هذه ، ولذلك ترى كم من الناس في هذه الدنيا فَضَّل العيش على الموت في سبيل الله أين هم الآن ؟ وكم من الناس جعلوا الجهاد والموت نصب أعينهم أليسوا يذكرون إلى هذا اليوم ؛ بسبب ما قدَّموه من تضحيات ؟ فالاسم في كِلا العبارتين اللتين جرى بهما التبديل كان مرة يرد مبتدأ (الموت × الحياة) ، ومرة يأتي مجرور بحرف الجر ، مع اشتراكه مع حرف الجر ليكون خبر المبتدأ الذي سبقه .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرِهِ بَاطِنٌ ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرِهِ غَيْرُ ظَاهِرٍ**))[١٥٣]. في خطبة له تحدَّث عن عظمة الله ، وقدرته بين عباده ومخلوقاته يعرض الإمام أحد الأدلة التي تدل على قوته بكلام اشترك فيه العكس والتبديل ، فإنما قصد بكونه كل ظاهر غيره غير باطن ، أراد بذلك أن هناك من يدرك الأشياء على ظواهرها فقط دون الولوج إلى داخلها ، فعلى سبيل المثال أن الملك سُيّطر على رعيته يعلم ما في ظاهرهم ، لكنه لا يعلم ما في باطنهم ؛ وهذا الأمر لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى فهو يعلم الظاهر والباطن. وقوله كل باطن غيره غير ظاهر ، أي أن هناك على سبيل المثال من الحكماء من أدرك وأحاط ببعض بواطن الأمور دون الإحاطة بظواهرها ، بمعنى أخر أن العالِم لا يمكنه الإحاطة بجميع الظواهر الموجودة في الدنيا ، أي أن ((كل عاقل يعلم بالضرورة وجود الزمان وأن

---

(١٥٢) شرح نهج البلاغة: ٣/١٩١ .

(١٥٣) المصدر نفسه : ٥/١٢٤ .

خفيت حقيقته على جمهور الحكماء واضطربت عليه أقوال العلماء))[١٥٤]. وهذا التغيير الحاصل في الدلالة أثاره العكس الحاصل ما بين العبارتين من خلال تبادل الألفاظ فيما بينها.فـ(ظاهر× باطن) وقع كل واحد منهما مرة مضاف إليه للمبتدأ ، ومضاف إليه للخبر مرة أخرى.

وقوله (عليه السلام): ((**القَوِيُّ فِي سُلْطَانِه ، اللَّطِيفُ فِي جَبَرُوتِه ، لا مَانِعَ لِما أَعْطَى ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ**))[١٥٥]. هذا الكلام مثل سابقه مضمونه بحق الله سبحانه وتعالى ، وما يذكر من صفات فهو أهل لها ، لا ينافسه فيها أي مخلوق ، وكيف ينافسه وهو خالقه ؟ فالإمام يوضح للناس إن الله عز وجل قوي في سلطانه لا يتأثر بمعصية أو طاعة صدرت من عباده وأنه اللطيف في جبروته ، وهذه صفة لا يشاركه فيها أحد ، فمن من العباد يجمع اللطف في غضبه في آن واحد ، أو بالعكس ؟ ثُمَّ يأتي إلى مضمون العكس والتبديل، الذي صَوَّر أحد أفعاله أنه إذا أراد أن يعطي شيئاً فلا مانع له ؛ لأنه الكريم الودود ، وإذا أراد أن يمنع شيئاً عن مخلوقاته فلا يستطيع كائن من يكون أن يعطي بدلاً عنه ، وأكثر من هذا إن الناس فقراء ، وهو الغني الحميد . ولذلك ترى أن الإسمين في العكس والتبديل قد شغل كل واحد منهما (مانع) : اسم (لا) النافية للجنس مبني بالفتح (معطي) : اسم (لا) النافية للجنسي منصوب بالفتحة. ومرة فعلين ماضيين
(أعطى × منع).

فجماليات التقديم والتأخير في العكس تخضع ((بالضرورة لطباع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الكلمة من حيث كان العدول عن هذا النمط بمثابة منبهات فنية يعمد إليها المبدع ليخلق صورة فنية متميزة))[١٥٦]. تلقي بأثرها على المتلقي عند سماعها أو معاينته.

٣- العكس والتبديل المشترك ما بين الحروف والضمائر :

هذا النوع من العكس تارة تجد أن الحروف يحصل فيها العكس باشتراكها مع الضمائر ، وتارة تجد أن العكس يحصل في الضمائر من خلال اشتراكها مع الحروف.

---

(١٥٤) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٧٥/٢ .
(١٥٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٢٨/٣ .
(١٥٦) البلاغة والأسلوبية :٢٠٠-٢٠١.

فمثال النوع الأول قوله (عليه السلام): ((**وَالحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ ، لا يَجْرِي لِأحد إلا جَرَى عَلَيهِ ، وَلا يَجْرِي عَلَيه إلا جَرَى لَهُ**))[١٥٧]. يشترك في هذا النص ثلاثة مظاهر بديعية من أجل توضيح أو تقديم أمر للمتلقي عليه أن يدركه وهو (الحق) . فهذا اللفظ صوَّره الإمام في مقطع واحد بمظهرين أحدهما : دلالي وهو – الطباق – (أوسع × أضيق) ، والآخر صوتي وهو – الجناس اللاحق – (التواصف – التناصف) ، وهذا صحيح لأنه من السهل ذكر الحق باللسان ، ومن الصعب العمل به بين الناس ، وهذا التنوع في المظاهر البديعية جاءت لتهيأت نفوس المتلقين إلى ما بعد ذلك من خطاب جَسَّده العكس والتبديل بالحروف ما بين (له – عليه) ، والمراد من المقطع الأول في جملة العكس على سبيل المثال أنه لا يكون الحق مع الحاكم إلاّ إذا جرى عليه الحق ؛ وذلك لأنه قد يكون منه فعل باطل ، فإذا جرى عليه الحق وجب له القضاء بين الناس. أما المعنى الثاني فالمراد منه أن الحاكم يقضي بين الناس ؛ وذلك لأنّ الحق معه كما أنه غير باطل بخلاف ما حصل في العبارة التي سبقتها ، والتي استوجبت تطبيق الحق عليه أولاً حتى يكون معه ، بينما الثانية كان الحق معه لأنه طبقه على نفسه ، وهذا الأمر كله قدَّمه العكس الحاصل في حرفي الجر .

وقوله (عليه السلام) : ((**أُوصِيكُمْ بِتَقْوى الله فَإِنَّهَا حَقُّ الله عَلَيْكُم**[١٥٨] ، **وَالْمُوجِبَةُ عَلَى الله حَقَّكُم ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِالله ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى الله**))[١٥٩]. يحمل هذا النص في فضائه نوعان مع العكس والتبديل :

---

(١٥٧) شرح نهج البلاغة : ٦٨/١١ .

(١٥٨) يود البحث الإشارة إلى مسألة مهمة تكمن في كون لفظ الجلالة (الله) لم يذكر في المقطع الأول من جملة العكس والتبديل ، وحينما رجع البحث للتدقيق مع باقي النسخ مثل نسخة ابن ميثم البحراني ، ونسخة الشيخ محمد عبده وجد أن هذه اللفظة موجودة في كلام الإمام، وحتى لا يقول قائل إن البحث اعتمد غير هذه النسخة في تدقيق الكلام بما عمله محمد أبو الفضل إبراهيم يؤكد البحث أن هذا الخطأ وقع من قبل الشارح ؛ لأنه؛ حينما يشرح مقاطع الخطبة يجعلها بين قوسين ، وحينما يصل إلى هذا المقطع يذكر كلمة (الله) فيه ،وهو بهذا يكون قد اختلف مع نفسه قبل أن يختلف مع غيره ، ويمكن للمتلقي مراجعة ذلك . ينظر شرح نهج البلاغة:٩١/١٣، شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني: ٢١٢/٤، شرح نهج البلاغة – محمد عبده :٣٩١/٢ .

(١٥٩) شرح نهج البلاغة : ٨٨/١٣ .

الأول : ما حصل بين الاسم والحرف في وصيته لهم أن يلتزموا التقوى ؛ لكونها حق عليهم ، فالله أمرهم بالتزامها والعمل بها ، والمقطع الثاني جاء ليقول لهم أنكم إذا فعلتموها جازاكم الله بالثواب نتيجة عملكم بها ، فيكون الكلام ما بين الاسم والحرف المعكوس أحدهما سبباً للآخر ، أي أن المجازاة مقرونة بتمسكهم بالتقوى . وكذلك من جهة التركيب ، فحرف الجر مرة أتصل بالاسم ، ومرة بالضمير .

ثانياً : ما حصل من عكس وتبديل بين الحرفين (الباء – على) ، والكلام عائد على التقوى موضحاً لهم في كلامه أن يستعينوا عليها بالله ، أي أن يطلبوا من الله ويدعوه في أن يوفقهم ، ويعينهم عليها ، وأن يُقوّي نفوسهم للقيام بها . والمراد من المقطع الثاني ، أي أن تستعينوا بها لأجل الخلاص من غضب الله وحسابه في ذلك اليوم عليها ، فبدلاً عن كونها ستعصمهم من النار. فالسعيد من تمسك بها، والشقي من تركها. أما من جهة التركيب تجد أن حرف الجر مرة يتصل بلفظ الجلالة ، ومرة مع ضمير الغائب.

هذا فيما يخص حصول العكس والتبديل من جهة الحروف ، أما ما يحصل بالضمائر ، فمثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَمَنْ يَقْبِض يَدَه عَنْ عَشِيرَتِه ، فَإِنَّما تَقْبَضُ مِنْه عَنْهُم يَدٌ واحِدَةٌ ، وتَقْبَضُ مِنْهُم عَنْه أَيدٍ كَثِيرَةٌ**))[١٦٠]. معنى الكلام هنا هو الحث على صلة الرحم ، والتمسك بالأهل والعشيرة ، وحتى يكون المعنى لديهم واضحاً جاءهم بمظهر بديعي يُصوَّر لهم تلك الفكرة ، والتي تكمن في خسارة من يتخلى عن أهله وعشيرته ، فالمراد من المقطع الأول في بنيةالعكس أن العشيرة لا تتضرر ؛ لكونهم مجموعة قياساً به فرداً واحداً ، والمراد من المقطع الثاني أن الخاسر هو من يتخلى عن عشيرته ؛ ولكون يدهم قد رُفعت عنه ، فأصبح ضعيفاً وحيداً تحيط به المخاطر ، ولهذا

فإن صلة الرحم من الأمور المهمة في حياة الإنسان[١٦١]. فالضمير مرة أتصل بحرف الجر (عن) ، ومرة بحرف الجر (من) محدثاً بهذا الانتقال كل هذا التغيير في الدلالة . وقوله

---

(١٦٠) شرح نهج البلاغة : ٢٨٦/١ .

(١٦١) أوضح الإمام معنى هذا الكلام للناس في أحد المواقف بالشواهد القرآنية قال تعالى : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود : ٨٠) ففسر الركن الشديد لهم : العشيرة ، فلم يكن للوط عشيرة ، فأقسم الإمام أنه ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه ، وتلا آية في حق شعيب قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً – قال كان مكفوفاً فنسبوه إلى الضعف – وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود : ٩١) فقال : والله ما هابوه جلالة

(عليه السلام) : ((**فَقَدْ جَ لَى اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقَّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُم ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُم**))[١٦٢]. هذا الكلام جزء من خطبة قالها بصفين مُذكّرهم بما لهم ، وعليهم بصيغة العكس والتبديل الضمائري المتصل بالحروف فقد تبادل كل من ضمير التكلم ، والمخاطب موقعهما ليعطي هذا التبديل معنى في كل عبارة يختلف عن صاحبتها، فمعنى العبارة الأولى التي تقدم ضمير التكلم فيها على المخاطب ، أي عليهم وجوب الطاعة له ؛ لكونه الوالي الذي يرشدهم إلى الطريق الصحيح ، ومعنى العبارة الثانية التي تقدم فيها ضمير المخاطب على التكلم ، أي أن من واجبي عليكم تعليمكم المسائل التي تؤدي إلى رفع الجهل عنكم ، وتحذيركم من الأمور التي تهلككم . ويلاحظ على المقطعين التغيير تركيبياً من خلال التقديم والتأخير في الضمير. ((فالناتج الدلالي لبنية العكس واسع ومتنوع ، والمهم كيفية توظيفه إذ إن هذا التوظيف يختلف من مبدع لآخر مما يجعل هذه البنية من أخصب البني التي كشف عنها التفكير البديعي))[١٦٣].

إذن فقد أصبح واضحاً للعيان الحدود البلاغية التي يتمتع بها مظهر العكس والتبديل من خلال عَدِّه بنية جامعة لمظاهر أسلوبية بديعية أخرى مثل – التكرار – عن طريق إعادة الألفاظ بالعبارة الثانية ، وصولاً إلى – الطباق – من خلال الألفاظ التي تتقابل ما بين العبارتين ، وانتهاء إلى المستوى التركيبي الذي له الدور الأساس في تقديم كل ما ذكره البحث آنفاً ، مع تغيير الصيانة اللغوية للجمل المتعاكسة .

ربهم بقدر ما خافوا من عشيرته . ينظر العقد الفريد – ابن عبد ربه الاندلسي – شرح وضبط وتصحيح أحمد امين ، احمد الزين ، إبراهيم الابياري – القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٥٦م : ٣٦٦/٢ .

(١٦٢) شرح نهج البلاغة : ٦٨/١١ .

(١٦٣) بناء الأسلوب في شعر الحداثة : ٣٢٨ .

تأخذ الجمل في خطب الإمام (عليه السلام) أشكالاً متعددة ، فمرة تراها طويلة ، ومرة قصيرة ، وأخرى متوسطة ما بين الطول والقصر ، ولعل الذي يتحكم في بنية الجملة وحجمها هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، والطول والقصر ليس شرطاً أساساً في فهم معنى الخطيب الذي يرد إيصاله للجمهور ، فقد تكون الجملة في أصغر حجمها أبلغ من عبارات صاغها المتكلم لغرض الإفهام ، وقد يحصل العكس ، فكم من جملة قامت على مسند ومسند إليه عجزت عن إيصال فكرة المتكلم إلى المتلقين ، ولهذا ترى العلماء يولون اهتمامهم للجملة بكل أبعادها سواء أكانت قصيرة أو طويلة .

فابن هشام الانصاري (ت٧٦١هـ) يُعرّف الجملة بقوله : ((عبارة عن الفعل وفاعله كقيام زيد ، والمبتدأ وخبره كزيد قائم ، وما كان بمنزلة أحدهما نحو : ضُرب اللص ، أقائم الزيدان وكان زيد قائماً وظننته قائماً))[١٦٤]. فأبن هشام هنا تناول الجملة من مفهوم نحوي أكثر من أي مفهوم أخر .

أما مصطفى صادق الرافعي فالجملة عنده ((هي مظهر الكلام ، وهي الصور النفسية للتأليف الطبيعي ، إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة ، إلى معان تصورها في نفسه أو تصفها ، ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها ، على حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدافها لكلامه غرضاً ولكنه بالكلام كأنه يراها))[١٦٥] .

فالرافعي أجاد في وصفها حينما جعلها الصورة النفسية للتأليف الطبيعي ؛ وذلك لن النفس إذا تحسست ما في الطبيعة جالت في خواطرها أفكار، وجمل مميزة ، فأنها تفصح بها على شكل كلمات تدخل في جدل رائعة .

أما الدكتور مهدي المخزومي فيرى أن الجملة ((الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد ، في أية لغة من اللغات وهي المركب الذي يبين المتكلم به أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاؤها في ذهنه ، ثُمَّ هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن

---

(١٦٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشان الأنصاري – تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد – د.ط – مطبعة المدني – القاهرة – د.ت : ٣٧٤/٢ .

(١٦٥) تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – ط٢ – دار الكتاب العربي – بيروت – ١٩٧٤م : ٢٣٦/٢.

السامع)) [١٦٦]. والمخزومي في تعريفه هذا جعل الجملة حلقة وصل ما بين المتكلم، والسامع والتي على أساسها يتم التعامل مع الحياة .

وأما عن تخصيصها بالبديعية ، فهي لكون البحث سيعتمد في دراسته للجملة وفق مظهرين بديعين هما (حسن المقدمة) ، و(حسن الخاتمة) ، ورب سائل يسأل لم كانت دراستها – الجملة – تحت عنوان هذين المظهرين ؟ فالجواب لأهميتهما في أي نص أدبي، فحسن المقدمة تحدَّث عن أهميتها أهل البلاغة مؤكدين في كلامهم على أن ينتبه الأديب لما يقوله في بدء كلامه ، فالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في بيانه نقلاً عن ابن المقفع أشار إلى أهمية هذا الأمر ((وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ... فأنه لا خير في كلام لا يدل على معناك ، ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت ، والغرض الذي إليه نزعت))[١٦٧] .

وابن المعتز سمَّاه ظاهراً بـ(حسن الابتداء) وعدَّه من محاسن الشعر والكلام[١٦٨]، وأشار الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كون (حسن الابتداء) تسمية ابن المعتز وأن المتأخرين فرَّعوا أسماء من هذه التسمية [١٦٩].

وهناك من جعل بدء الكلام الحسن شرطاً لاستقبال المخاطب كلام الخطيب ، وبخلاف ذلك يكون الرفض ((إذا انتقى المتكلم لابتداء كلامه الألفاظ العذبة ، الخالية من الثقل والتنافر ... وأتى بالمعنى الصحيح المطابق لمقتضى الحال وصف ابتداؤه عندئذٍ بالحسن وكان ذلك داعياً إلى أن يقبل المخاطب إلى جميع كلامه فيصغي إليه ويتأمله ويعيه ... أما إذا لم يبتدئ ابتداء حسنا ، فإن المخاطب ينفر منه ويعرض عن جميع كلامه ويرفضه ولو كان في غاية الحسن والبلاغة))[١٧٠].

---

(١٦٦) في النحو العربي (نقد وتوجيه) – د. مهدي المخزومي – ط٢ – دار الرائد العربي – بيروت – ، ١٩٨٦م :٣١ .

(١٦٧) البيان والتبيين : ١١٦/١ .

(١٦٨) ينظر : كتاب البديع : ١٧٦ .

(١٦٩) ينظر : هامش المصدر نفسه .

(١٧٠) علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) – بسيوني عبد الفتاح بسيوني – ط١– جامعة الأزهر – ١٩٨٧م : ١٢٥/٢ .

وحسن الخاتمة لا يقل أهمية عن المقدمة ، فابن أبي الإصبع المصري عدَّها من مستخرجاته ، ويرى فيها أنه ((يجب على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة فأنها آخر ما يبقى في الأسماع ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها))[١٧١] .

والمدني (ت١١٢٠هـ) يرى في (حسن الختام) كما يسميه أنه ((رابع المواضع التي نص أئمة البلاغة على التأنق فيها ؛ لأنه أخر ما يقرع السمع ويرتسم في النفس ، وربما حفظ لقرب العهد به ، فأن كان مختاراً حسنا تلقاه السمع واستلذه حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير كالطعام اللذيذ يتناول بعد الأطعمة التافهة ، وإن كان بخلاف ذلك على العكس حتى ربما أنسى المحاسن الموردة فيما سبق))[١٧٢].

فمن بين هذه الأهمية التي اشترطها علماء البلاغة للمقدمة والخاتمة وقف البحث يكشف عن القيمة الأسلوبية الموجودة في فضاء هذين المظهرين من خلال العناية التي يوليها كل خطيب في هذين الموضعين كشرط أساس لنجاح خطبته، ولاسّيما الخطب التي يدرسها البحث.والعناية حينما تكون في دراسة طول الجملة البديعية وقصرها على المقدمة والخاتمة فهذا لا يعني وجود جمل في مضمون الخطبة لا تستحق الدراسة ، وإنما وقع الاختيار عليهما؛ لكونهما مظهرين بديعين أولاً ،ولأهمية ما أشار علماء البلاغة إليهما ثانياً .

بعد ما تقدم من كلام ستكون دراسة الجملة البديعية من جهة الطول والقصر في الخطب على النحو الآتي :

١- طول الجملة في حسن المقدمة والخاتمة .

٢- قصر الجملة في حسن المقدمة والخاتمة .

١- طول الجملة في حسن المقدمة والخاتمة :

لا يكون شرطاً إذا كانت المقدمة طويلة أن تكون الخاتمة طويلة في الخطبة نفسها، فقد تكون إحداهما مختلفة عن الأخرى ، وقد تكون كذلك ، والذي يحدد هذا الشيء هو موضوع الخطبة ، أو الغرض الذي قبلت من أجله ، فضلاً عن الوقت ، أو الزمان الذي تصدر فيه الخطبة .

---

(١٧١) تحرير التحبير : ٦١٦/٣ .

(١٧٢) أنوار الربيع : ٣٢٤/٦ .

فعلى سبيل المثال الجملة الطويلة التي ترد في مقدمة خطبة له قوله (عليه السلام) : ((سَـ قَ فِي الْعُلُوِّ فَلا شَيءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقُرِبَ فِي الدُّنُو فَلا شَيءَ أَقْرَبُ مِنْهُ))[١٧٣]. فالكلام هنا في حق الله سبحانه وتعالى ، ومن الطبيعي إذا كان الكلام عن الله عز وجلَّ ، فأغلب الأحيان أن الكلام عنه يطول ، ولاسّيما إذا كان الحديث عن وصف ذاته ، حتى لا يقول قائل أنه لم يفهم هذا المقام . وجمالية هذا النص تنبعث من كونه خرج مع الإطالة الحاصلة فيه بمظهر – المقابلة – على الوجه الظاهر للألفاظ ، والملاحظ على هذا النص انه خرج عن كون النص يعتمد على المسند والمسند إليه فقط ، وإنّما تلك الحروف التي فيه ساهمت بشكل مباشر في خلق تلك الإطالة النحوية من جهة ، وخلق طرفي المقابلة من جهة أخرى ، حيث يلاحظ إن العبارة الأولى تَكَونت من :

فعل ماض + حرف جر + مجرور بحرف الجر + حرف عطف + نافية للجنس + اسم لا النافية للجنس + خبر لا النافية للجنس + ضمير مجرور + حرف جر متصل بالإضافة

والطرف الثاني من المقابلة يحمل الأعراب نفسه . ومعنى هذا النص أنه سبحانه أعلى مراتب الكمال العقلي ، وأنه لا شيء أعلى منه ، والطرف الثاني معناه أنه لا شيء أقرب منه سبحانه إلى النفس حتى نفس الإنسان فهي لا تعرف ما يدور في خاطر نفسها . فالمعنى الأول كان عن مراتب الكمال العقلي ، والمعنى الثاني عن القرب ، فالمقابلة وإن تمت ظاهراً ، فباطنا أعطت معنى مختلفاً ، وهذا من لطيف المقابلة .

وقوله (عليه السلام): ((الْحَمْدَ للهِ الَّذِي لا عَنْ شَيءٍ كَانَ وُجُودُهُ ، وَلا عَنْ شَيءٍ أَوْجَدَ مَا بَانَ مِنْ إِحْدَاثِ قُطْرِهِ وَاخْتِرَاعِ إِبْدَاعِهِ))[١٧٤]. إنَّ مثل هذا النوع من المقدمات تختلف عن غيرها ، لما تحتاجه من ثبوت الأدلة والبراهين للمتلقي ، والإمام في هذا الكلام يبين وحدانية الله تعالى ، وأنه منَّ على البرية بالتمكين والأقدار ، فسبحانه وجوده أزل ، وقديم ، أي انه موجود قبل خلق البشر ، وبعدهم ، فله الحمد على كل ذلك . والحمد له على ما يكون منه من أحداث فطره واختراع إبداعه ، فسبحانه في كل الأوقات يصدر منه الإبداع والاختراع . والكلام في هذا النص يكون من مقطعين ينتهي الأول إلى لفظ (أزله) ، وينتهي الثاني إلى لفظ (إبداعه) ، فالمعنى يكون سليماً من جهة المعنى لو اقتصر الكلام

---

(١٧٣) نهج البلاغة : ٣/١٦٩ .

(١٧٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣/١٦ .

على قوله (الحمد لله الذي لا عن شيء كان وجوده) ، لكنه غير سليم من الناحية التركيبية ؛ لعدم وجود خبر كان ، فكان حضور خبر كان المتمثل في الجار والمجرور (في مقدمة) سلامة بالتركيب ، فضلاً عن اشتراكه مع العطف في زيادة المعنى المراد إيضاحه . أما ما ورد من جمل طويلة في حسن الخاتمة ، فمثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَأسألُ [الله] الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحياةَ لِيَبْلُوكُم أيُّكم أحْسَنُ عَملاً – أنْ يُؤمِنَنا – وَإيّاكُم بِرَحْمَتِهِ مِنْ مَخُوف عَذَابِهِ إنَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ**))[١٧٥].

يحمل هذا النص في فضائه أسباباً تؤهله لأن يكون من مظاهر حسن الخاتمة فهو بالدرجة الأولى يبدو عليه صيغة الدعاء ، فالخطيب في هذا الجانب يشترك مع المخاطب في عقله وقلبه ، أكثر من بقية أجزاء الخطبة. والثانية كون هذه الخاتمة تشترك بـ – التناص – مع آية قرآنية[١٧٦]. ربّما أغلب من سمعها فإنه تلقائيا سيبقى عقله مع الخطيب باحثاً عن السبب الذي جعله يقولها في كلامه. وهذا النص يمكن أن تكون الناحية التركيبية سليمة لو قُطِع الكلام إلى قوله (أحسن عملاً) ، ولكنه غير سليم من الناحية المعنوية ؛ لأنه لم يفهم ماذا أراد الإمام أن يسأل ؟ فالسؤال والطلب الحاصل في النص ساهم في خلق جملة طويلة متعددة الأطراف لا تكتمل الصورة فيها إلا باكتمال المعنى الذي أراده المتكلم ، وهو أن يجعلهم في رحمته ويجنبهم عذابه لكونه خالق الموت والحياة .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاعْمَلُوا بِالخَيْرِ تُجْزَوا بِالخَيْرِ يَوْمَ يَفُوزُ بِالخَيْرِ مَنْ قَدَّمَ الخَيْرَ**))[١٧٧]. يدخل هذا النص ضمن ما يسمى بـ(حسن الخاتمة) ، فالإمام عمل – تكرار – كلمة (الخير) أربع مرات ، وهذا فيه دلالة على التأكيد على عمل فعل الخير ، ويمكن للمتلقي أن يلاحظ الكيفية التي جُعلت فيها هذه الكلمات أن ترتبط ببعضها البعض ، فهو يجعل المجازاة بالخير يوم القيامة شرطاً لمن عمل الخير في الدنيا ، واللطيف في هذا النص حصول – التكرار – المغلق على مستوى النص في كلمة (الخير) ، فالترابط ما بين الكلمات جعلها تخرج ضمن الجمل الطويلة في منتهى الخطب ، والتي كانت إعرابياً على النحو الآتي :

---

(١٧٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٥/٣ .

(١٧٦) قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك : ٢) .

(١٧٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٠٠/٣ .

الواو حسب ما قبلها + فعل أمر (الواو فاعل) + جار ومجرور + فعل مضارع مبني للمجهول (الواو نائب فاعل) + جار ومجرور + مفعول فيه + فعل مضارع + جار ومجرور + الاسم الموصول فاعل + فعل ماض + مفعول به .

٢- قصر الجملة في حسن المقدمة والخاتمة :

لا يقل أهمية وجود الجمل القصيرة عن الجمل الطويلة في الخطب العلوية ، سواء أكان على مستوى حسن المقدمة ، أو حسن الخاتمة ، ولا يفصل بين هذين الأمرين إلاّ الغرض الذي سبق من أجله الخطاب مثلما أوضح البحث سابقاً ، والجمل القصيرة هنا تكون في أقل حدودها من مسند ومسند إليه ، اللهم إذا تعلق ما بين هذين المقطعين من توابع في قسم من الأحيان يجعلها مكملة للمعنى ، على شرط أن لا تطول هذه التوابع ، فتخرج من مقام الجملة القصيرة إلى مقام الجملة الطويلة.

ومثال الجمل القصيرة في حسن المقدمة ما قاله (عليه السلام) في قسم من أيام صفين : ((**وَالحَظُوا الخَزْرَ ، وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا ، وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالخُطَا**))[١٧٨]. هذا النص من وصاياه الحربية لجنوده في أيام صفين ، ويلاحظ على كلامه المقاطع الصغيرة السريعة ، فهي وإن كانت صغيرة إلا أنها تحمل في داخلها دلالات كثيرة على مستوى الصوت والمعنى ، فالصوت من خلال – السجع المرصع – الممزوج – بالجناس اللاحق – في قوله (والحظوا الخزر – واطعنوا الشزر) ، أما من جهة المعنى ، فالإمام يوصيهم بالنظر بمؤخرة العين أمارة عن الغضب ، وأن يطعنوا الطعن الشزر ، أي طعن الإنسان يميناً وشمالاً ، والضرب بأطراف السيوف ؛ لأنه قد لا يصل خصمه بصورة مباشرة ، أو أنه يعرض نفسه للهلاك بقربه منه . وأن يصلوا السيوف بالخطأ وهذا فيه فائدتان ((أحدهما ان السيف ربما يكون قصيراً فلا ينال الغرض به فإذا أنضاف إليه مدّ اليد والخطوات بلغ المراد ... الثانية : أن الزحف في الحرب إلى العدو والتقدم إليه خطوات في حال المكافحة يكسر توهمه الضعف في عدوه ويلقي في قلبه الرعب ويداخله الرهبة))[١٧٩]. والاختصار في هذه الجملة واضح من خلال (حذف) المفعول المطلق

---

(١٧٨) شرح نهج البلاغة : ٥/١٣٦ .

(١٧٩) شرح نهج البلاغة – البحراني : ٢/١٨٠ .

من (الخزر – الشزر) ليكون كل واحد منهما صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره : (والحظوا اللحظ الخزر ، واطعنوا الطعن الشزر) .

وقوله (عليه السلام): ((**الحَمْدُ للهِ الَّذي لا مُقدِّمَ لِما أخَّرَ ، وَلا مُؤَخِّرَ لِما قَدَّمَ**))[١٨٠]. وضّح الإمام للناس مسألة مهمة في هذا النص تكمن في كون الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيء فلا رادَّ لقضائه ، فإذا أراد تأخير أي شيء فلا يقدمه كائن من يكون ، وإذا أراد تقديم شيئاً فلا يؤخره أحد ما ، والأمر الذي يجعل الأنظار موجهة إلى هذه المقدمة لاحتوائها على مظهر – العكس والتبديل– الحاصل فيها، وغرضه لفت أنظار المتلقين إلى الخطبة. ويلاحظ في هذين المقطعين ارتباط المسند بالمسند إليه، ولا يمكن استغناء احدهما عن الآخر فما جاء بعد الجار والمجرور من فعل ماض ضروري لإتمام معنى الكلام .

وأما قصر الجملة في حسن الخاتمة فمثاله قوله (عليه السلام) : ((**نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ المَلائِكَةِ ، وَمَعادِنُ الـ عِلْمِ ، وَيَنابيعُ الحُكمِ**))[١٨١] .

يؤكد هذا الكلام على منزلة أهل البيت (عليهم السلام) بين الناس حيث يختم الإمام كلامه بهذه المقاطع الصغيرة ، والتي بيَّنت أهمية تلك المنزلة ، حيث تراه في المقطع الأول أكمل الجملة تركيباً ومعنى ، حيث لا يمكن الاستغناء عن أي لفظ منها فالمضاف إليه الذي وقع بعد الخبر (شجرة) هو الذي زاد من معنى المقطع هنا دلالة عالية أُريد منها أن يفهم الناس عظمة أهل البيت ، ولم يكتف الإمام بما رسمه المضاف إليه من ببلاغة ، بل عمد بالعطف لتلك المقاطع على الخبر والمضاف إليه إثراء هذا المقطع بكونهم منزل تلك الرسالة ، وموضع اختلاف الملائكة في صعودها ونزولها ، وكونهم أصل العلم ، وينابيع الحكمة ، ومما زاد من قيمة هذا النص الاستعارات الحاصلة في قوله

(شجرة – معادن – ينابيع) كل هذا حتى تبقى هذه المعاني خالدة في أسماعهم ، وعقولهم .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَاتَّعِظُوا بِالعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالغِيَرِ ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ**))[١٨٢]. تبرز الملامح الأسلوبية لهذه الخاتمة من خلا الصياغة القائمة على– السجع – في كل ألفاظها، فبعد خطبة طويلة امرهم بالاتعاظ عن كل ما يفيد تنبيها بأحوال الآخرة فهو عبرة ، وإن

---

(١٨٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٩٢/٣ .

(١٨١) شرح نهج البلاغة : ١٧٠/٧ .

(١٨٢) المصدر نفسه . ١٦١/٩ .

يعتبروا بغيرهم من خلال ما يحصل لهم في الحياة الدنيا ، وأن ينتفعوا بالنُذر وهو كل ما يفيد من تخويف بأحوال الآخرة . فالمقام هنا اقتضى أن يكون السياق للجمل بهذا الشكل ؛ لأن الإمام قد حذّرهم في مقام سابق من الخطبة بشكل مفصل عن عواقب تقصيرهم . ولذلك كانت هذه الجمل بمثابة تحذير لهم .

فالقصير من الجمل في البلاغة العربية إيجاز ، والإيجاز في أدق معانيه اقتصاد في اللفظ ووفرة في المعنى بمعنى أنه أعلى درجات التكثيف التي تتصل بالنثر ، والشعر معاً . وما قول الإمام علي (عليه السلام) : ((**ما رأيت بليغاً قط إلاَّ وله في القول إيجاز ، وفي المعاني إطالة**))[١٨٣]. إلا خير دليل على ما يذهب إليه البحث في كون البلاغة قد تكمن في قسم من الأحيان في الإيجاز المتمثل بقصار الجمل .

وأخيراً تبقى قدرة المبدع في أن يعرف كيف يصوغ أروع العبارات وأفضلها عند كل مقدمة وخاتمة ، ويعرف كيف يدخل إلى نفوس المتلقين .

---

(١٨٣) **كتاب الصناعتين** : ١٨٠ .

الفصل الثالث

بلاغة الدلالة

١ـ السياق القائم على حضور الطباق المقابلة

٢ـ السياق الناتج عن ارتباط الجمل البديعية مع بعضها

٣ـ النصوص القائمة على اختلاف الدلالة باختلاف السياق .

بعد أن تم الكشف عن بلاغة الصوت ، والتركيب في انثيالات الخطاب العلوي من خلال المظاهر البديعية البارزة في تلك الخطب ، بقى على البحث إظهار البلاغة الأخرى بلاغة الدلالة ؛ حتى يتجلى أسلوب الإمام علي (عليه السلام) بأبهى صورته .

فبلاغة الدلالة تُعدُّ المفتاح الأساس لحلّ العديد من الشيفرات التي يطرحها النص ، والتي يحاول المتلقي جاهدا البحث عن آلية لتفكيك رموزها ، ولاسّيما إذا كان هذا النص يحمل في فضائه أنواعاً عديدة من المظاهر البديعية .

وأكثر من هذا فإن أي باحث في الأسلوب لا تكتمل لديه الرؤية بصورة جلية من جهة الصوت ، والتركيب دون الرجوع إلى الدلالة ، بل أن الدلالة هي الممر الذي يستطيع البحث من خلاله أن يصل إلى الصوت ، ولهذا ترى أن الدكتور إبراهيم أنيس يرى أنه لا يمكن ((تحليل الجملة أو العبارة إلى مجاميع صوتية كل مجموعة منها تنطبق على ما يسمى بالكلمة ، إلا حين يتعين بالدلالات التي تتضمنها الجملة أو العبارة))[1].

والحال نفسه مع التركيب ، أو لغة النص ، فالفائدة لا تتحقق من كون النص على درجة عالية من النظم بين آلفاضه وعبارته بدون معنى ، بل أن المزية تعود بتوافق معاني هذه الألفاظ مع بعضها البعض ، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) حين قال : ((... ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً وتعجباً ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى أخرى ، وبناء لفظة على لفظة .. هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به)) [2].

ولذلك فان البحث يرى أن سبب بقاء هذه الخطب خالدة على مرِّ هو الديباجة اللفظية التي صاغها الإمام بمعان مميزة جعلها تحاكي كل الأزمان وليس فقط الوقت الذي قيلت فيه .

ولهذا فأن بلاغة الدلالة في هذا البحث قد أخذت شكلين مختلفين أحدهما : أفقي من خلال بروز المظاهر البديعية التي تعمل على تنظيم النص الواحد ، وتنسيقه في إطار يخدم

---

(١) دلالة الألفاظ – د. إبراهيم أنيس – د.ط – مكتبة الانجلو المصرية – د.ت : ٣٩ .

(٢) دلائل الإعجاز: ٤٤ .

– الخط الثاني – عمودي والذي يحمل أفكاراً كثيرة ، ومعاني مثيرة يحتاج كشفها إلى نوع من الاستبصار بألفاظها من أَجل الوصول إلى معانيها.

ولذلك فأن البحث سيدرس هذه المظاهر الدلالية البديعية في الخطب على ثلاثة مباحث:

١- السياق القائم على حضور الطباق والمقابلة .

٢- السياق الناتج عن ارتباط الجمل البديعية مع بعضها .

٣- النصوص القائمة على اختلاف الدلالة باختلاف السياق .

أولا : الطباق :

عُدَّ الطباق من المظاهر البديعية التي تُشّكل حضوراً بارزاً ولافتاً في خطب الإمام (عليه السلام) لما يحمله من معانٍ غنية تعمل على شدَّ النص ، وإلى لفت أنظار المتلقين عند وروده في أي جملة. وهذه المزية تعود إلى تركيبته الثنائية التي تعمل على بلورة السياق في إطار متميز يحس القارئ فيها أن المعنى قد نفذ إلى قلبه وعقله . ولهذا ترى إن كثيرا من الأدباء والكتاب يحرصون على أن يكون هذا اللون البديعي في ضمن ما تقوله أقلامهم وتحمله أوراقهم .

يمكن القول أن البداءات الأولى للطباق وردت على لسان الإمام (عليه السلام) وذلك في قوله : ((**ضَاد ّ النُّورَ بالظُّلْمةِ، وَالوُضُوحَ بِالْبُهْمةِ ، وَالجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالحُرُورَ بالصَّرْدِ**))[٣]. فهو هنا يذكر – التضاد – صراحة مابين هذه الألفاظ بدون أن يلجأ المتلقي إلى أي تأويل للمعنى.

كان ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) قد رأى أنَّ الطباق يندرج تحت موضوع (الأضداد) في علم اللغة ، بعد أن عرّفه بأنه " يوصف الشيء بضد صفته للتطير والتفاؤل ، كقولهم للديغ : سليم تطيراً من السقم وتفاؤلا بالسلامة ... وللمبالغة في الوصف كقولهم للشمس : جَوَّنة لشدة ضوئها ... ، وللاستهزاء : كقولهم للحبش أبو البيضاء ...))[٤]. والأمر لا يقتصر على ما ذكره ابن قتيبة فقط ، فقد يحصل نتيجة ((انتقال اللفظ عن معناه إلى آخر مجازي لَنكتة بلاغية أو لعلاقة ما ،وذلك في قوله تعالى: ﴿ **نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم** ﴾[٥] فالفعل الثاني غير مستعمل في معناه الأصلي ؛ لأن الله لا يجوز عليه النسيان ، بل مستعمل في معنى الإهمال والترك المقصود على سبيل الاستعارة))[٦]. وفوائد الطباق أبعد من أن تحصر بهذه الأمور التي ذكرها البحث ، فالفائدة لا تحصل إلاّ حينما يعاين المتلقي النص

---

(٣) شرح نهج البلاغة : ٥٦/١٣

(٤) تأويل مشكل القرآن– ابن قتيبة – تحقيق السيد أحمد صقر – ط٣ –(د.مط)– ١٩٧٣م : ١٨٥ .

(٥) التوبة :٦٧ .

(٦) المذاهب النقدية الحديثة (مدخل فلسفي) – د.محمد شبل الكومي – تقديم د.محمد عناني – (د.ط) – الهيأة المصرية العامة للكتاب –٢٠٠٤م :١٠٣ .

حيث يكتشف ثلاثة أبعاد هي : الأول : نفسي ، الثاني : نصي ، والثالث : تأويلي[٧] .

أما ثعلب (ت٢٩١هـ) فيسمي الطباق (مجاورة الأضداد) ويعرفه بأنه ((ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده))[٨]. ويأتي مؤسس علم البديع عبد الله ابن المعتز (ت٢٩٩هـ) ليجعل هذا الفن في المرتبة الثالثة من كتابه مكتفيا بتعريف الخليل الذي يرى أن المطابقة بين الشيئين جمعهما حذو. ويقول أبو سعيد الاصمعي الذي قال لصاحبه : ((أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فاذهلتنا في ضيق الضمان))[٩] فابن المعتز يرى أنه طابق بين السعة ، والضيق مع ذكره لقسم من الأمثلة التي عنيت بهذا الفن .

ويأتي قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) بما يسمى بـ(التكافؤ) وهو أن يؤتى ((بمعينين متكافئين ، والذي أُريد بقولي متكافئين ، في هذا الموضوع : متقاومان ، إما من جهة المضادة أو السلب والإيجاب أو غيرها من أقسام التقابل))[١٠]. فما قدَّمه هنا من خلال تسميته لمصطلح (التكافؤ) يُعدُّ من مبتدعاته.

وأما علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٦٦هـ) فله رأي لطيف في الطباق قال فيه ((وأما المطابقة فلها شعب خفية ، وفيها مكامن تغمض ، ربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب ، والذهن اللطيف))[١١]. فهو إنَّما يذهب بهذا القول لإحساسه بما يقدمه هذا الفن من روعة القول ، وجمال المعنى ، وحسن السبك . ويأتي العسكري أبو هلال (ت٣٩٥هـ) ليجد أمامه جملة من التعريفات مضيفا إليها تعريفه أن المطابقة هي ((الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد .. والليل والنهار .. والحر والبرد))[١٢].

---

(٧) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٣٣ .

(٨) قواعد الشعر :٥٣ .

(٩) البديع :١٢٤ .

(١٠) نقد الشعر :١٤٣ .

(١١) الوساطة بين المتنبي وخصومه- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد البجاوي – د.ط – دار القلم – بيروت – د.ت : ٤٤ .

(١٢) كتاب الصناعتين :٣١٦ .

وابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) يرى أنَّ الطباق يكون على ضربين : ضرب بألفاظ الحقيقة وهذا يقسم إلى طباق الإيجاب ، وطباق السلب ، وطباق الترديد . والضرب الآخر هو الطباق المجاز الذي هو (التكافؤ) ثُمَّ مثل لكل نوع من هذه الأنواع التي ذكرها في كتابه [١٣].وسيأتي الكلام عن هذه الأنواع التي ذكرها المصري في هذا الفصل إلاَّ طباق الترديد ، فالبحث يرى أن هذا النوع من الطباق هو أقرب إلى التصدير في مضمونه ، وقد تحدث البحث عن التصدير في الفصل الأول تحت عنوان

– التكرار الدائري–وقد فَصَّل البحث القول فيه .

وحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) يرى أن المطابقة تقع بين المتضادين وكذا المتخالفين ، ويلتفت إلى العامل النفسي في موضع المطابقة ؛ لأن اللفظة تفاجئ القارئ بالضد من المعنى ، بعد أن استراح إلى المعنى الأول ، ويقول ((المطابقة بأن يوضع أحد المعنيين المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعا متلائما، وهي تقسم إلى محضة وغير محضة ، فالمحضة مفاجأة اللفظ بما يضاده من جهة المعنى.. وغير المحضة تنقسم إلى مقابلة الشيء بما يتنزل منه منزلة الضدّ وإلى مقابلة الشيء بما يخالفه))[١٤]. فالطباق في صورته النهائية هو ((الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة))[١٥]. فهذا كلام أهل البلاغة والنقد في هذا المظهر البديعي فأين هم من الأثر الفني الذي يتركه على النص ؟ فالطباق بوصفه ((أساساً من أسس التفكير والتعبير الإنساني وليس زخرفا من القول ، أو زينة يمكن الاستغناء عنها))[١٦]. وهذا صحيح فالإنسان في حياته اليومية في دّوامة من الثنائيات ليل– نهار ، حار– بارد وغيرها ، بل أن الفرد الواحد قد يستعمله في كثير من الأحيان من غير أن يشعر به. فهو ((من عمادة هذا الكون في ظاهره وباطنه ، وهو اكبر مما وصفه المؤلفون لأن الحياة بكل عناصرها هي جزء من هذا الكون ، أو هذا اللون جزء

---

(١٣) ينظر : تحرير التحبير :١/١١١–١١٥ .

(١٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٤٨–٤٩ .

(١٥) فنون بلاغية (البيان – البديع) – د. أحمد مطلوب – ط١– دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع – الكويت – ١٩٧٥م :٢٧٠.

(١٦) البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) :٥٩ .

من الحياة ذاتها وهل نستطيع أن نفهم الوجود بكل ما فيه لولا هذه المقابلات))[١٧]. فإذا كان الطباق مثلما يراه بعضهم أنه يشكل جزءاً من الحياة اليومية فهو أولى أن يكون في الكتابات الأدبية وهذا ما وجده البحث في الخطب العلوية فهو على وفق أشكال مختلفة ، ولذلك سيعمل البحث على دراسة هذه الأشكال الموجودة في تلك الخطب والتي تكون على النحو الآتي[١٨] :

١- الطباق الإيجابي .

٢- الطباق السلبي .

٣- الطباق التأويلي .

٤- الطباق المجازي .

٥- الطباق الوهمي .

٦- الطباق الزمني .

٧- الطباق المكاني .

٨- الطباق العقائدي .

٩- الطباق النفسي .

١- الطباق الإيجابي :

وهو ما صرح فيه بإظهار الضدين ، أو هو ما لم يختلف فيه الضدان عند ورودهما في النص إيجابا وسلبا[١٩].

وهذا الطباق أمثلته متوافرة في خطب الإمام (عليه السلام) مثل قوله : ((**جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً ، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً**))[٢٠].

---

(١٧)البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع): ٦٣ .

(١٨) يود أن يذكر البحث أن ألفاظ (الزمان–المكان–العقيدة–النفس) قد ورد ذكرها مع التقبل في رسالة الباحثة منال صلاح الدين عزيز الصفار الموسومة (التقابل الدلالي في القرآن الكريم)– المقدمة إلى مجلس كلية الآداب–جامعة الموصل– ١٩٩٤م: ٢٤–٧٠ .

(١٩) ينظر :أنوار الربيع : ٤١/٢ ، علم البديع :٦١ .

فالإمام هنا يصف حال السموات وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد منع هذه السماوات من أن تقع على أهلها وكل هذا إعجاز لله فيه حكمه ، فجيء بالطباق ليعبر عن معجزة من معاجز الله سبحانه وتعالى من خلال التضاد الحاصل بين (الأعلى × الأسفل).

وأجمل ما في هذا الطباق أنه جاء موشحاً في الضدين ، فاستعار لفظ الموج للدلالة على السمك ، لحصول المشابهة بينهما في العلو والارتفاع مع التوهم في اللون . وشبه لفظ السقف من البيت للسماء لما بينهما من المشابهة من جهة الارتفاع والإحاطة ، ثمَّ أكثر استعمال هذا الاسم للسماء حتى صار اسما من أسمائها. ولعل هذا أجمل ما في الطباق أن يأتي مقترنا بمظاهر بلاغية أخرى ... وهناك من يرى أن يأتي معه فنون بديعية تشاركه في تحسين الصورة فمثلما يرى الدكتور عبد العزيز عتيق ((وبلاغة المطابقة لا يكفي فيها الإتيان بمجرد لفظين متضادين أو متقابلين ... فمثل هذه المطابقة لا طائل من ورائها ؛ لأن مطابقة الضد بالضد على هذا النحو أمر سهل . وإنَّما جمال المطابقة في مثل هذه الحالة أن ترشح بنوع من أنواع البديع يشاركها في البهجة والرونق))[٢١].

وقوله (عليه السلام) : **((فَإِنَّهُ فَزَعٌ قَدْ أَعْيَا الأَطِبَّاءَ وَبِهِ دَاءٌ لاَ يَقْلِيهِ الدَّوَاءُ))**[٢٢].

فهو هنا يصف حال أهل النار ، والخلود الذي يعيشونه إلى الأبد في نار جهنم، ولابد من صورة تُقرب المعنى إلى الأذهان ، ولاشك أن الطباق أفضل صورة بما يحمله من ثنائية المعنى المتضاد فهو خير من يُعبر عن الفكرة ، ولاسيما إذا كانت هذه الفكرة محجوبة عن الأبصار . والطباق حاصل ما بين (الداء × الدواء) والأمر هنا يتضمن كناية عن يأس أهل النار من الخروج منها ، فهناك أمراض لا سبيل إلى علاجها فهي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك كذلك الحال مع نار جهنم فحالهم فيها مثل حال الداء الذي لا ينفعه علاج .

وقوله (عليه السلام) :((**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وتُعطِي،وَعَلَى مَا تُعافِي وَتَبْتَلِي**))[٢٣].

فالطباق حاصل مابين الأفعال (تأخذ × تعطي) ، (تعافي × تبتلي) وهذا يحمل معنى

---

(٢٠) شرح نهج البلاغة :١٠١/١ .

(٢١) علم البديع : ٦٣-٦٤ .

(٢٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٣٤/١ .

(٢٣) شرح نهج البلاغة : ١٧١/٩ .

دوام الحمد لله سبحانه وتعالى في أحلك الظروف والأوقات ؛ لأن هناك من العباد من يجزع في وقت الشدة ، وينسى الله في أوقات الفرح .

وأي شيء يأتي من الله هو في صالح العباد . واللطيف في هذه الأفعال المتضادة أنه جعل أولا الأخذ ثُمَّ الإعطاء ، وجعل ثانيا المعافاة ثُمَّ الابتلاء من قبيل التوازن في المعاني ، ومراعاة الترتيب ؛ لأن الاختيار يكون على من أعطاه الله من نعمه وعافاه في بدنه أكثر من غيره .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللّهُمَّ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخفِي وَمَا نُعْلِنُ ؛ وَمَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيءٌ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّماءِ تَوَفَّنِي سِلماً وَأَلحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**))[٢٤]. فلإمام في هذا الدعاء الذي يتخلل الخطبة جاء بنوعين من الطباق أولاهما:الإيجابي بين (نخفي × نعلن) فالله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، فهو مُطّلع على ظاهرنا وخفايانا ، وقد اخذ الإمام هذا (التناص) من القرآن الكريم[٢٥] ، ليكون المعنى أكثر وضوحا ومتلائما مع منتهى الخطبة – حسن الانتهاء – .

وثانيهما: الطباق المكاني بين (الأرض × السماء) وسيأتي الحديث عنه في ضمن هذا النوع من الطباق .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُؤمِنَ لاَ يُمسِي وَلاَ يُصبِحُ إلا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلاَ يَزَالُ زَارِياً عَلَيهَا ، وَمُستَزِيداً لَهَا**))[٢٦]. يشكّل الإمام (عليه السلام) في هذا القول بعضاً من صفات المؤمن بمظهر بديعي ينتظم في شكلين الأول: الطباق الحاصل بين الفعلين (يمسي × يصبح) مراعيا بذلك الترتيب المعنوي ، والنفسي ، فالإنسان بعد كدّه وسعيه من الصباح إلى المساء قد لا يذكر أن يده قد ولجت في حلال أو حرام ، أو لسانه قد وقع في غيبة ، أو نفاق ، ولكن إذا جنَّ عليه الليل وكان وحده مختليا تذّكر ما بدَر منه نهاره ، فإذا كان شراً كان مثلما يقول الإمام زاريا على نفسه ، وإن كان خيرا راضيا عنها

---

(٢٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٦٤/١ .

(٢٥) وذلك في قوله تعالى:﴿أَلاَّ يَسجُدُوا لِلّهِ الَّذِي يُخرِجُ الخَبءَ فِي السَّمَوَاتِ وَ الأَرضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعلِنُونَ﴾ (النمل : ٢٥) .

(٢٦) شرح نهج البلاغة :١٦/١٠ .

غاية الرضا . ويمكن أن يكون هذا النوع من الطباق– زمني– وسيأتي الحديث عنه في هذا المبحث .

الثاني : الطباق الحرفي الحاصل بين (لها – عليها) فـ(اللام) عّبرت عن معنى العمل الصالح للمؤمن الذي قدّمه ، و(على) عّبرت عن سخط المؤمن على العمل الفاحش الذي ارتكبه . فالمظهر البديعي واضح هنا ؛ لأن ((الأثر النفسي الذي يحدثه الجمع بين متنافرين في المتلقي ، لا يحتاج إلى بيان ولا ترى ضرورة إلى إقامة الدليل عليه))[٢٧]. وأجمل ما في هذا المظهر المعاني المتراكمة التي تحملها ثنائياته خدمة لصالح النصّ أسلوباً ، وفناً .

٢- الطباق السلبي :

وهو الطباق الذي لا يصرح فيه بإظهار الضدين ، أو أنّ الضدين قد اختلفا إيجابا، وسلبا[٢٨] .

ويتميز هذا الطباق أن الكلمة تأتي نفسها في الجهة المقابلة ، ولكن وقوع النفي عليها قد غيرَّ معناها بالكامل .

منه قوله (عليه السلام) : ((**إنَّ الله قَدْ أَعاذَكُم مِنْ أَنْ يَجورَ عَلَيكُم ، وَلَمْ يُعذِّكُم مِنْ أَنْ يَبْتَليكُم ، وقد قال من قائل :﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾**))[٢٩]. تحدَّث الإمام في خطبته عن أمور ستحلُّ بالعباد في آخر الزمان ، وكان هذا المقطع جزءاً من هذه الخطبة، وجاء فيه طباق السلب من خلال قوله (أعاذكم×لم يعذكم) موشحا بالتناص المعنوي ، واللفظي – فمن جهة المعنى يوضح الإمام إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم العباد وحاشا له أن يكون كذلك ، وهذا ما أكده سبحانه في محكم كتابه[٣٠]. ومن جهة اللفظ أنه جاءهم بآية

---

(٢٧) البلاغة العربية (البيان والبديع) – د. ناصر حلاوي ، د. طالب الزوبعي– د.ط– وزارة التعليم العالي والبحث العلمي– بغداد – ١٩٩١م : ١٩٥ .

(٢٨) ينظر : تحرير التعبير :١١٤/١ ، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية – د. عبد القادر عبد الجليل – ط١– دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان ٢٠٠٢م : ٥٢٣ .

(٢٩) شرح نهج البلاغة : ٨٦/٧ .

(٣٠) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلعَبِيدِ ﴾ (فصلت :٤٦) .

من الذكر الحكيم من (سورة المؤمن:٣٠) تؤكد لهم أن البشر مُعَّرضون للابتلاء في أي وقت كان ، فمن صبر فعليه صبره ، ومن كفر فعليه كفره. ولله في خلقه شؤون .

أما قوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُم احملني عَلَى عَفْوِكَ ، وَلاَ تَحمِلْني عَلَى عَدْلِكَ**))[٣١].

يأتي من باب الدعاء زيَّنة الطباق السلبي (احملني × لا تحملني) ليوضح مسألة لطيفة وهي رغبة الإمام في العفو وتركه العدل ، وهذا من غريب المعاني ، فالعدل مطلب يسعى إليه كل البشر فما الذي جعله يقول هكذا ؟ .

إن العدل الإلهي يختلف غاية الاختلاف عن العدالة البشرية الدنيوية فإذا حُمِل الإنسان في ذلك اليوم على العدل في كل صغيرة ، وكبيرة فإن المسالة ستختلف ؛ لأنه الله قد يخفي للعبد في ذلك اليوم ما لا يريد به فضحه تَلَطُّفا به . والإمام حينما ذهب إلى هذا القول ليس خوفا من العدل فإنه أعدل الناس بعد رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وإنما أراد أن يُعلّم الناس آداب الدعاء بهذه الطريقة .

وقوله (عليه السلام) : **وَيْحكَ سَلْ تَفَقُّهاً وَلاَ تَسأل تَعِبْثُاً ... سَلْ عَمّا يَعِنيكَ وَدَعْ مالاَ يَعْنيكَ**))[٣٢]. قاله لأحدِ الجالسين في مجلسه حينما سأله عن أمور لا تعنيه لا من قريب ولا من بعيد وإنما كان غرضه إحراج الإمام في بعض المسائل ظنا منه أنه لا يستطيع الإجابة عنها! فلما سمع الإمام الأسئلة التي قالها عرف أن غايته إشكالية ليس غير ، فخاطبه بهذا الكلام الذي نُكِر على هيأة طباق السلب في موضعين (سل × لا تسأل) ، (يعنيك × لا يعنيك) فالأول : يحمل في معناه أن يكون السؤال غاية الفهم لكي يستفاد منه السائل والسامع ، ونهاه عن الأسئلة التي لا جدوى في الخوض فيها ، والثاني: أراد منه أن يسأل عن الأمور التي تخصه سواء أكانت دينية أو دنيوية ، ويترك مالا يعنيه إلى غيره لكي يتقدم ويسأل بنفسه ليفتضح أمره وتبان غايته .

٣- الطباق التأويلي :

---

(٣١) شرح نهج البلاغة :٢٠٥/١١ .

(٣٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٤٥/٢ .

وهو الطباق الذي حصل فيه التقابل من جهة المعنى لا من جهة اللفظ [٣٣]. وهذا النوع من الطباق يحتاج إلى نوع من التأمل حتى يستطيع المتلقي الكشف عنه، فالمعروف عن الطباق وجود كلمتين متضادتين أحداهما تسير عكس الأخرى، أما هنا فإن المعنى أخذ اتجاها مغايرا عن المعنى الذي يجاوره في النص الواحد.

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**أَيُّهَا النّاسُ ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الوَاضِحِ وَرَدَ المَاءَ وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التّيهِ**))[٣٤].

فالطباق هنا حاصل معنويا بين العبارتين ، ومعنى القولين (الحصول على الشيء وعدمه) ، فالإمام قصد بكلامه هذا أنه من سار على نهج الإسلام الذي رسمه له القرآن الكريم والرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ورد الماء كناية عن الحصول على الجنة، ومن خلف تلك التعاليم المرسومة وسلك طريقا وعراً وقع في التيه ، ونتيجة التيه ستكون النار ؛ لعدم امتثاله لتلك التعاليم .

وقوله (عليه السلام) : ((**يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيا يُعَظِّمونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِم وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوتِ قُلُوبِ أَحيائِهِم**))[٣٥]. فالإمام هنا يصف حال الزهاد في الدنيا ونظرتهم إليها فكان الطباق التأويلي خير من مثل هذه الصورة من خلال الصورتين المختلفتين موت الجسد الذي يمثل (الظاهر) ، وموت القلب الذي يمثل (الباطن) ، والمراد من قوله هذا أن الزهاد يرون لأهل الدنيا كيف أنهم يعظمون موت أجسادهم وهذا يحمل بداخله معنيين :

الأول : يكون بموت الأجساد نهائياً وانتقالها من عالم الدنيا إلى الآخرة ، وتراهم كيف يقفون على تلك الأجساد ، وكيف يجتمعون على الميت عند موته وهذا لا يحصل للقلب.

الثاني : إنما قصد بموت الأجساد هو ليس موت الجسد كله وإنما توقف بعض أجزاء الجسم وتعطلها عن أداء عملها ؛ نتيجة الأمراض ومتاعب الدنيا .

والبحث يرى أن المعنى الثاني اقرب للصورة التي أرادها الإمام ؛ لأن الأجساد إذا ماتت لا ينتفع بها ، ولكن استعماله لفظة (الموت) جاء مبالغة في وصف الشيء ، وكناية

---

(٣٣) ينظر : أنوار الربيع : ٣٧/٢ ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٢٥٧/٢ .

(٣٤) شرح نهج البلاغة : ٢٠١/١٠ .

(٣٥) المصدر نفسه : ٨/١٣ .

عن اهتمام بني البشر بأنفسهم ، وهذا لا يكون مع موت قلوبهم لكونها خالية من العلم ، والحكمة ومليئة بالحقد ، والقسوة .

واللطيف في هذا الطباق أن الإمام أتم كلامه حين قال (قلوب أحيائهم) ، ولم يقل قلوبهم ؛ لأنه لو قال قلوبهم لكانت عائدة على أجسادهم الميتة ، ولكان ذلك من باب الموت الحقيقي وليس المجازي ، ولكن بقوله (قلوب أحيائهم) أي الأجساد التي مازالت حية . وهذا (التتميم) يدعم اختيار البحث للمعنى الثاني الذي ذكره .

وقوله (عليه السلام) : ((**يَا نَوْفُ إِيَّاكَ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِلنَّاسِ ، وَتُبَارِزَ اللهَ بِالْمَعَاصِي فَيَفْضَحَكَ اللهَ يَوْمَ تَلْقَاهُ**))[٣٦]. يوصي الإمام نوف البكالي جملة من الوصايا من ضمنها ما نُكر، والذي حمل معناه الطباق التأويلي المتمثل في (العلن × السر) ومعنى قوله إياك أن تتزين للناس في العلن مرتديا لباس الدين مُدَّعيا التقوى ، فإذا خليت مع نفسك في السرَّ كان منك ما عظم من سَّيئات أكثر مما تعمله من حسنات في العلن ، فإذا بدر منك ذلك فتوقع الفضيحة يا نوف يوم تلقاه . فالإنسان عليه بتقوى الله في السرِّ ، والعلن .

وقوله (عليه السلام) : ((**حَيْثُ يَكُونُ الضَّرْبُ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنِ اكْتِسَابِ دِرْهَمٍ حَلَالٍ**))[٣٧].هذا المقطع جزء من خطبة يتحدث فيها الإمام عن آخر الزمان وما سيحل بالعباد فكان للطباق التأويلي نصيب في أن يعكس معنى من المعاني التي ستحل بأهل ذلك الزمان. وهذا المعنى يدور في كلمتين هما (الحرام × الحلال) فالإمام لا يقصد الضرب بالسيف الجهاد، وإنما عني الذبح والقتل، فالمسلم يكون لديه القتل أهون من تحصيل الرزق ، أو مثلما قال الإمام اكتساب درهم بالحلال. فما أشبه اليوم بما قاله (عليه السلام) !.

هذا هو الطباق التأويلي الممتع فيه أنك تدور في فلك الجملة التي تحويه باحثا عنه مبرزا جماليته للقارئ من جهة ، ولتقف على المستوى الفني الذي يتمتع به من استعمله من جهة أخرى.

٤-الطباق المجازي :

---

(٣٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٤٩٢/١ .

(٣٧) المصدر نفسه : ٤٦٢/٣ .

وهو الطباق الذي ترد ألفاظه على هيأة المجاز ويسمى (التكافؤ) [٣٨]. وهذا النوع من الطباق تكون الدلالة فيه مكثفة ؛ لوجود المعاني المجازية فيه .

ومثال قوله (عليه السلام) : ((**فَمِنَ الإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ ، وَمِنْهُ مَايَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ**))[٣٩]. فالإمام في هذا النص يوضح الإيمان عند البشر ويكون على قسمين مستعيرا لهما لفظا (الثبات × العواري) ، فأما القسم الأول: فأن الإيمان قد استقر في قلوبهم ؛ لاعتقادهم بوجود خالق لهذه المخلوقات وأن هذا الخالق قد عجزت عن وصفه ألسن تلك المخلوقات .

والقسم الثاني: الذين استعار لهم لفظة العواري للدلالة على عدم ثبات إيمانهم أو أنه بمعرض الاسترجاع والرد وأنه سيزول بعد مدة من الزمن ولهذا كنَّى عن كونها بين القلوب والصدور ، أي لاهي تابعة للقلوب ولا هي تابعة للنفوس . وخلاصة القول ، وآخر يكون على سبيل النفاق .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَلا وإِنَّ الدُّنْيا دَارٌ غَرَّارَةٌ خَدَّاعَةٌ ، تَنْكَحُ كُلَّ يَوْمٍ بَعْلاً ، وَتَقْتُلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَهْلاً**))[٤٠]. فالإمام هنا يحذر الناس من الدنيا وما تفعله بالبشر فهي لا تدوم على حالٍ من الأحوال فقد استعار النكاح للتعبير عن سعادة الإنسان بها فهي في وقت من الأوقات تراها بجانب الإنسان حيث تهدلت عليه بأغصانها وأعطته من ثمرتها ، ثم عاد وجاء بلفظة (القتل) للتعبير عن الشقاء والهلكة التي تمنحها لأهلها . فمثلما أعطته وغَّرته بزينتها جعلته يتنافس ويتقاتل على متاعها الزائل مع أخيه المسلم بحيث لا يعتبر من هذا إلا بعد فوات الأوان . وخلاصة القول إن الطباق المجازي ينحصر في معنيين (الفرح × الحزن) الناتج عن (النكاح × القتل) .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَلَبِسُوا جُلُودَ الضَّأنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ ، قُلُوبُهُم يَومئِذٍ أَمَرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، وَأَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ**))[٤١]. يُحَّدث الإمام أصحابه عن حالة سيكون عليها الناس في آخر الزمان بوصف رهيب مليء بالمعاني المتفجرة ، والتي توضح مستوى ذلك الزمن ،

---

(٣٨) ينظر : نقد الشعر : ١٤٣، بديع القرآن :٣١ .

(٣٩) شرح نهج البلاغة : ٧٧/١٣ .

(٤٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٥٣/٣ .

(٤١) المصدر نفسه : ٤٣٢/٣ .

فالإمام استعار جلود الضأن الوداعة ، واللطف الذي يتخذونه ظاهراً ، وعن قلوب الذئاب للتعبير عن التعدي والطغيان الذي يتخذونه باطنا. فلم يكتف الإمام بوصفهم هكذا ، بل عاد وقال إن هذه القلوب هي أمرُّ من الصَّبِر – ذلك النبت الذي كثيرا ما نراه في الصحراء. فلشدة البغض الذي يحملونه في قلوبهم كان الصَّبِر يناسبهم من جهة التشابه، وانتن من الجيفة ؛ لشدة المكر الذي يكنونه، وهذه استعارة تتلائم مع أهل ذلك الزمن .

٥- الطباق الوهمي :

وهو أن تجمع بين اللفظين الظاهر عليهما التضاد ، فإذا أنعمت النظر وجدتهما ليس كذلك[٤٢].

ويسمى هذا النوع من الطباق (إيهام التضاد) ، أو مثلما سَّماه المدني ((إيهام الطباق)) [٤٣] ؛ لأن المتلقي حينما تقع عينه على اللفظين المتضادين يظنهما على الظاهر ولكن الحقيقة تقضي بغير الظاهر وإنما تحيل القارئ على معنى آخر .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**افتَرَقُوا بَعْدَ أُلفَتِهِم ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِم**))[٤٤]. الكلام هنا عن الحالة التي سيكون عليها أصحاب الإمام يعكسها إيهام التضاد الحاصل ما بين (الفرقة × الألفة) فقد يعتقد القارئ أن الألفة ضد الفرقة وهو من قبيل الطباق ، ولكن الأمر الحاصل هنا أن الإمام أوهم باستعمال لفظ (الألفة) ضد الفرقة وهو ليس بضدها ؛ لأن الاجتماع هو ضد الفرقة ، والإمام استعمل حالة من الحالات التي تنتج عند اجتماعهم أمثال القوة ، والمحبة ، والألفة وغيرها .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَالطَّيرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْها وَالنَّفَسِ ، وَأَرْسَى قَوَائِمَها عَلَى النَّدَى وَاليَبِسِ**))[٤٥]. يتحدَّث الإمام في خطبة طويلة له عن أصناف الحيوانات وعن قدرة الله عز وجل في خلقها وما وهب لها من أشياء يقف العقل مذهولا أمامها . ينتقل إلى الطير ذاكرا أوصافها ، وما منحها الله من قدرة تتجلى في إيهام التضاد

---

(٤٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٣٣٦/٢ ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) : ٤٦ .
(٤٣) أنوار الربيع :٣٨/٢ .
(٤٤) شرح نهج البلاغة :٢١٧/٩ .
(٤٥) المصدر نفسه : ٥١/١٣ .

المذكور بين (الندى × اليبس) فالندى ضد اليبس ظاهرا ولكن إذا أمعنت النظر وجدت الإمام قد أوهم باستعمال لفظ (الندى) ؛ لأن الماء هو ضد اليبس . فهو حينما استعمل الندى عُدَّ من جنس الماء مبالغة للقدرة التي منحها الباري لبعض من مخلوقاته. والقصد من ذلك إن الله عز وجل أرسى قوائم بعض من هذه الطير على الماء وأخرى على الأرض.

وقوله (عليه السلام) : ((**أَلاَ وَقَدْ حَضَرَ شَيءٌ وَنَحْنُ مَسوُّونَ فِيهِ بَيْنَ الأَسوَدِ وَالأَحمرُ**))[٤٦]. يوضح الإمام في هذا المقطع أنه عند قسمة المال لا فرق بين الناس فهم أسوياء في العطاء عند الله ، فجاء بإيهام التضاد بين (الأسود × الأحمر) وظاهر هما التضاد ، وهما ليس كذلك ، فالأحمر ليس ضد الأسود ، وإنما الأبيض ، ولكنه استعمل ما برز من علامة من الأبيض . وهذه مسألة طبيعية من كل شخص تراه ذا بشرة بيضاء أن يكون الاحمرار بادٍ على وجهه ؛ لشدة بياضه .

٦- الطباق الزمني :

وهو الطباق الحاصل بين مفردتين متضادتين تشير دلالتهما إلى أمور زمنّية.

فالإمام استعمل ثنائية التضاد الزمنية لكي ينقل القارئ من زمن إلى آخر ، فضلا عن ما يتركه هذا الأثر الزمني عند انتقاله على المتلقي . فتأثير الليل على نفسية المتلقي غير النهار ، والصيف غير الشتاء وهكذا . وهذا النوع من الطباق وجده البحث في خطب الإمام (عليه السلام) .

ومثاله قوله : ((**مَوْتَاتُ الدُّنيا أَهوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتُ الآخِرَةِ**))[٤٧]. فالإمام يُقدَّم صورة وضح معالمها الطباق الزمني (الدنيا × الآخرة) ممزوجا بالاستعارة (الموت) ، فالدنيا والآخرة يشكلان زمنين لا يعرف مدة انقضاء أولهما ليبدأ الثاني ، والنفس الإنسانية بطبيعتها تبحث عن المجهول دائما محاولة إدراكه ، وفهمه ولكن قدرة الله اقتضت أن تكون الأمور هكذا. فالإمام كان منه هذا الكلام ؛ لأن هناك من نصحه بعدم مقاتلة الذين قاموا بزرع الفتن بين المسلمين ، وهم يحسبون عليهم . فكان جوابه أن قعوده مخالفة لما جاء به الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) مؤكدا لهم أن موتات الدنيا أهون عليه من موتات

---

(٤٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٢٥/١ .

(٤٧) شرح نهج البلاغة :٧/٤ .

الآخرة أي انه يقبل بدخول الأهوال والشدائد في الدنيا في سبيل الله أفضل من أن يؤتى به يوم القيامة مخالفا لله والرسول . ولذلك ترى أن الإمام استعار لفظة (الموتات) لوجود المناسبة بين هذه الكلمة وبين الشدائد والأهوال من جهة الدنيا وبين مراحل العذاب نتيجة التمرد عن أداء الواجبات في الآخرة من جهة أخرى .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ**))[٤٨].

هذا الكلام قاله حينما عزم على لقاء القوم بصفين وهو من باب الدعاء يقال من اجل الغلبة ، والنصر على العدو . ويحمل هذا النص مابين طياته الطباق الزمني المتمثل مابين (الليل × النهار) ، (الشمس × القمر) فمعروف عن الليل والنهار كيف يتعاقبان بأوقات زمنية معينة وما يصاحبهما من حالات تظهر عند حلول كل واحد منهما محل الآخر هذا كله بتدبير من الله سبحانه وتعالى .

والذي أراده الإمام أنه سبحانه وتعالى جعل من السماء مكاناً يغيب فيه الليل بعد ظهور النهار ، والعكس صحيح ، وملاذا يعود إليه القمر بعد ظهور الشمس . والكلام هذا جزء من خطبة يوضح فيها قدرات الله عز وجل في مخلوقاته ويطلب منه بحق من خلق أن يجنبه البغي في حال نصرهم بصفين وأن يرزقهم الشهادة في حال تعذر لهم النصر .

وقوله (عليه السلام) : ((**يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ التَّكْبِيرُ . يَبِيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً**))[٤٩]. يذكر الإمام لأحد أصحابه صفات المتقين ، فيعرض له وصفا من خلال الطباق الزمني مابين (يمسي × يصبح) ، (يبيت × يصبح) فقد قرن الإمام أعظم درجتين من درجات العارفين وهما (الشكر – الذكر) بوقت تجده عند قسم من الناس ثقيل، فالمساء وقت خلود الجسد ، وراحة النفس ، بينما تجد هؤلاء المتقين لا يخلدون في وقت المساء ، وكذلك الحال أوقات الصباح عند طلوع الشمس تجدهم يَدْعون ويتوسلون بالله سبحانه وتعالى أن يرحمهم. وأما عن كونهما درجتين عظيمتين فقد أثنى الله على الشاكرين ، والذاكرين في

---

(٤٨) شرح نهج البلاغة : ٩/٢٣٠ .

(٤٩) المصدر نفسه :١٠/١١٦ .

مواضع كثيرة من محكم كتابه العزيز[٥٠]. وأما عن كونه يبيت حذرا فهو يخاف الغفلة لكونه في معرض نوم، أو ما شابه ذلك ، وحاله بالعكس بالنهار فرحا لكونه مستيقظا ويذكر الله على كل حال. ويمكن القول إن صورة الطباق الزمني تراها عكست حال المؤمن في جميع الأوقات.

وقوله (عليه السلام) : ((**قَرِيبٌ غَيْرُ مُلْتَصِقٍ ، وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُتَقَصٍّ**))[٥١]. كلامه هنا في نعت الربوبية وسمة الألوهية من خلال الطباق الزمني الحاصل بين اللفظين (قريب×بعيد)، فدلالتهما قائمة على تنافر الكلمتين عن الأخرى فكلما تخيلت الموقف تجاه الكلمة الأولى (قريب) ، تكون الثانية عكسها بالاتجاه الآخر ، ويلاحظ على هذا النص أن الإمام استعملهما، ولكن ليس بما عرف لهما باصطلاح البشر فهو حينما يقول بحق ذاته سبحانه وتعالى قريب أي انه لا يحيط بالقيومية والتدبير إلا هو ، وكونه قريبا إلى كل شخص من حبل وريده أياً كان . وقوله بعيد أي أنه من جهة الجلالة والعظمة وعلو الشأن وعدم التحديد أبعد من كل شيء ، بمعنى آخر أنه بعيدة ذاته عن عقول المختلقين . وكذلك حصول التواشج الصوتي الحاصل ما بين اللفظين (ملتصق– متقص) ترك على النص إيقاعا خاصا يحس به المتلقي إذا نطق به [٥٢].

٧- الطباق المكاني :

وهو الطباق الذي ترد فيه الألفاظ دالة على مكان معين سواء أكان هذا المكان ، جهة أو غير جهة ، وكل الألفاظ التي تدور في فلك المكان.

فالمكان حالة لا يمكن أن تتجاوزها النفس البشرية ، بل إن الدراسة النفسية للإنسان في انفعالاته وأهوائه وطراز تفكيره نجدها تنطلق من الحدود المكانية التي هو منها. ولذلك

---

(٥٠) قال تعالى :﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة :١٥٢) ، وحتى لعلو هذه الدرجة تجد أن إبليس قد طعن في بني آدم وقال لرب العالمين في محكم كتابه ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٧) . محاولة منه منعهم أو تأخيرهم عن طريق الملذات الدنيوية الفانية ؛ لحرمهم من أجرها وثوابها .

(٥١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة:٥٩١/١ .

(٥٢) ومثال هذا النوع من الطباق قوله (عليه السلام) :قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ يُقَالُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ لاَ يُقَالُ شَيْءٌ بَعْدَهُ)) [نهج السعادة :٥١٦/١] . فالطباق حاصل بين (قبل × بعد) فهما ظرفا زمان يدل الأول على تقدم الشيء والآخر على تأخره .

وجد البحث أن الإمام يُوّج في كلامه على بعض الأماكن لما تحمله من خاصية تبعث على الاطمئنان ، والشعور بالراحة ، أو لما تحمله من خوف وحذر واشمئزاز ، وكل واحد من هذه الأمكنة له دلالته الخاصة به ، وله إيقاعه المختلف .

فمنه قوله (عليه السلام) : ((**أَلاَ وَإِنَّ اَلْيَوْمَ اَلْمِضْمَارُ ، وَغَداً اَلسِّبَاقُ ، وَالسَّبَقَةُ اَلْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ اَلنَّارُ**))[٥٣]. يحث الإمام الناس في هذا المقطع على المبادرة نحو الأعمال الصالحة قبل فوات الأوان فهو هنا يقدم لنا نوعين من الطباق:

الأول: الطباق الزمني (اليوم × غدا) فاغلب الظن أنه قصد باليوم (الدنيا) ، وغدا (الآخرة) أي استعدوا في دار الدنيا للسباق في دار الآخرة .

الثاني: الطباق المكاني مابين (الجنة × النار) فهذان المكانان يحمل كل واحد منهما دلالة خاصة به تختلف عن صاحبه فإذا قلت الجنة أردت النعيم ، وحور العين وكل ما تطيب لك نفسك ، ولهذا تجد أن الإمام جعل كلمة السبقة مع الجنة ، والغاية مع النار ، وهو موفق في هذا الاختيار ؛ وذلك لأن الاستباق يكون في الأمر المحبوب وهذا ينطبق على الجنة ، ولا ينطبق على النار ، أما الغاية فهي الانتهاء إلى الشيء سواء كان هذا الشيء يسره ، أو لا يسره ، ولذلك عبر عنها بالنار[٥٤].

وقوله (عليه السلام) : ((**وَأَخَذُوا يَميناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ**))[٥٥] ، فالحديث في هذا المقطع عن قوم من فرق الظلال سلكوا اتجاهين مثلهما الطباق المكاني خير تمثيل (اليمين × الشمال) فهما جهتان متنافرتان أحداهما عكس الأخرى.وهما تمثلان ما أراده الإمام في كون هذه الأقوام زلّت عن الجادة الوسطى التي مشي عليها رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) مع أصحابه الغُررَّ . أي أن الإفراط ، والشح مرفوضان ، والتوسط في كل الأمور هو الأفضل دائما .ثُمَّ قرن هذا الطباق بمقابلة بين صورتين توضح السبب الذي من أجله ساروا على هذين الاتجاهين ((ظعنا في مسالك الغي، وتركاً المذاهب الرشد)) .

---

(٥٣) شرح نهج البلاغة :٢/٧٤ .

(٥٤) ينظر : المصدر نفسه :٢/٧٥ .

(٥٥) المصدر نفسه : ٩/٩٧ .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَنَحْنُ أَنوارُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ، [ومحض خالص الموجودات . خ]**))[٥٦]. فالإمام هنا قرن الطباق المكاني (السموات × الأرض) بالشبيه البليغ (أنوار) فمثلما أن النور يهدي السائر في الطريق المظلم إلى الطريق الصحيح ، وكذلك أهل البيت (عليهم السلام) فهم بعلومهم ، وحكمهم ينورون عقول الناس من الجهل المقيت ، وكلا الطرفين ينقلان الناس إلى برّ الأمان .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَ اجْعَلْ عَلَى مَيْمَنَتِكَ زِياداً وَعَلَى مَيْسَرَتِكَ شُرَيْحاً ، وَقِفْ بَيْنَ أَصْحَابِكَ وَسَطاً ، و لاَ تَدْنُ مِنْهُمْ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ ، وَلاَ تَبَاعَدْ مِنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ حَتَّى أَ قْدِمَ عَلَيْكَ فَإِنَّي حَثِيثُ السَّيْرِ إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ الله**))[٥٧].

الكلام جزء من خطبة يذكر فيها وصايا ، وأموراً تخص الحرب ، فبعد أن ذُكِر سابقا اليمين والشمال للفرق الضالة وعدم اعتمادها الطريقة الوسطى في التعامل مع الأشياء ، اختلف مدلول الجملة هذا المرة فيما يخص الطباق المكاني (الميمنة × الميسرة) فقد أمر أحد أصحابه أن يجعل زياداً على جهة اليمين ، ولا يكون شخصا اعتيادياً إن صحَّ التعبير.ثُمَّ أمره أن يكون في قلب الجيش في– الوسط – وأتي بطباق آخر (تدن × تباعد) معللا نهيه لهذا الطباق بتعليل خفي ، فهو أمره بعدم الدنو من العدو ؛ لأنهم سيظنون أنه هو من يريد القتال ، وأمره بعدم التباعد ؛ لأنه سيجعلهم يظنون أنه يخشى القتال .

٨- الطباق العقائدي :

وهو الطباق الذي يدور بين الألفاظ التي تمثل جوهر العقيدة الإسلاميّة.

وهذا النوع من الطباق وردت ألفاظه في الخطب العلوية بين الحين والآخر أمثال الظلمات ، والنور ، والهداية ، والضلالة ، والإيمان والكفر وغيرها .

ومنها قوله (عليه السلام) : ((**أَما إِنَّه لَيْسَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعة أَصَابِع**))[٥٨].

يوضح الإمام عن طريق الطباق العقائدي الفرق مابين (الحق × الباطل) عند الإنسان ، وحينما سُئِلَ (عليه السلام) كيف ذلك جمع أصابعه ووضعهما بين أذنه وعينه وقال لهم :

---

(٥٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٥١٣/١ .

(٥٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٨٥/٢ .

(٥٨) شرح نهج البلاغة : ٥٧/٩ .

((**الَباطِلُ أَنْ تَقُولَ : سَمِعتُ وَالحَقَّ أَنْ تَقُولَ : رَأَيتُ**))[٥٩]. وعنى بذلك ليس كل ما يسمعه الإنسان بصحيح ، ولاسيّما في الأمور الدنيوية مثل التشهير ، والقدح بشخص ما وغيرهما من الأمور التي تحمل على محمل السمع أما الأمور العيانية التي تراها بعينك فهي حقيقية ؛ لأنه قد تحقق لك النظر والسمع في وقت واحد من خلال معاينتك للحدث[٦٠]. أي أن الإمام أراد بهذا القول عدم التسرع والتصديق بما يقال عن غيبة ، ورياء بحق أي إنسان عرف عنه الخير والصلاح فيؤدي إلى الطعن بسمعته وقد يكون هذا العمل من وراءه الغير والحسد. فليكن الإنسان على حذر من هذه المسألة .

وقوله (عليه السلام) : ((**رَهَّبَ فَأَبلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسبَغَ**)) [٦١]. يلاحظ على هذا المقطع اشتراك الجانبين الدلالي ، والصوتي في إخراجه للمتلقي ، فمن جهة الدلالة حضور الطباق العقائدي مابين (رهَّب × رغَّب) ومعروف عن الترهيب تحذير ، وتخويف العباد من الأمور السيئة ، والترغيب جعل العباد يحبون أمرا ما ؛ لأنه عائد عليهم بالخير ، والصلاح . وهذا الكلام عائد على الله سبحانه وتعالى فقد أبلغ في الترهيب ، وأتم في الترغيب حتى لا يقول مخلوق يوم القيامة أن هذا الأمر لم أكن اعرفه ولذلك فاتني العمل به. ومن جهة الصوت اختلاط – السجع المرصع– بالطباق العقائدي والذي أضفى على المقطع طابعا نغميا جمله يبرز عن بقية أجزاء الخطبة ما أن وقعت عين المتلقي عليه .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَسَبَقَت غَضَبَهُ رَحمَتُهُ**))[٦٢]. هذا المقطع فيه نكتة لطيفة مع وجود الطباق العقائدي الحاصل بين (الغضب × الرحمة) تكمن في تقديم الإمام المفعول به المتمثل في (الغضب) على الفاعل (الرحمة) لكي يحرك ذهن المتلقي ويلفت انتباهه ، ويمكن النظر إلى كتابه العزيز فتجد كل السور القرآنية تفتح باسم الرحمن الرحيم ، إلاّ .

---

(٥٩) المصدر نفسه : ٥٧/٩ .

(٦٠) قد يسأل سائل إذا كان كلام الإمام هكذا فكيف بنا أن نصدق بمعجزات النبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ومن قبله الرسل فنحن لم ندركها أو نشاهدها ؟ فيكون الجواب إنما الإمام قصد الأمور والأقوال الشاذة الواردة عن طريق الافراد والتي تتضمن القدح بالناس فلا يجب حمل الأمر المشكوك على المعلوم ، ولم يتضمن كلامه الأمور المتواترة التي جاءت عن طريق الحديث الصحيح من خيرة رجال العصر في كل زمان .

(٦١) شرح نهج البلاغة : ١٨٣/٩ .

(٦٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٩٨/١ .

التوبة. فإنها خالية من البسملة. وإن كانت الآيات تبدأ بغضب فإن الرحمة مقدمة عليها . ثم من غير المعقول أن يأتي بتاء التأنيث الساكنة مع الغضب ، ولكنه عني بها الرحمة . ويمكن النظر إلى الأثر الذي تركه هذا التقديم ، والتأخير في الطباق والذي جاء في بدء الخطبة. حسن الابتداء . ولعل هذه من صفات الخطيب والتي تكمن في قدرته على تحريك كوامن نفوس المتلقين .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَصَامتٌ ذُو لَبَّ شَغَلَ قَلْبُه بِالفكرِ فِي أَمْرِ اللهِ حَتَّى أَبْصَرَ فَرَغَ فَضْلَ طَاعَتِه عَلَى مَعْصِيتَه ، وَشَرَّفَ نَهْجَ ثَوَابِه عَلَى احتِلالٍ مِنْ عِقَابِه**)) [٦٣].

فالبحث هنا عن عبد اشتغل قلبه ، وفكره بالله عز وجل فلما أبصر توَّلدت عنده صورة عكسها الطباق العقائدي مابين (الطاعة × المعصية) ، (الثواب × العقاب) فعرف أنه نتيجة الطاعة لله سبحانه وتعالى سيكون له الثواب جزاءً على طاعته ، ونتيجة المعصية إذا قام بها سيكون العقاب ، فهو مخيّر بين الأمرين ، وبعد التفكير اختار جادة الطريق الوسطى المتمثلة بالهداية ، وترك جانبي الطريق الذي يؤدي به إلى الضلالة ، والغواية .

٩- الطباق النفسي :

وهو الطباق الذي ترد فيه الألفاظ ذات الدلالة النفسية التي لا تخضع لزمان ، أو مكان ، أو عقيدة ، أي مما يستشعره الإنسان عند سماعها .

وهذا النوع من الطباق تجد أن النفس الإنسانية سريعة التفاعل معه؛ لأنه يستحضر اللفظ ، وضده. ولهذا تراه حاضرا في الخطب العلوية بسبب الأثر البارز الذي يؤديه .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**أَرَضِيتُم بِالحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرةِ عِوَضَا ، وَبِالذُّلِّ مِنَ العِزِّ خَلَفَاً**))[٦٤]. هذا الكلام قاله بعدما فرغ من مقاتلة الخوارج وأراد من جنوده التوجه إلى الشام فتخاذلوا عنه فكان كلامه على هذه الهيأة . وهذا الموقف الحاصل منهم استدعى الإمام إلى أن يأتيهم بصورتين من الطباق

الأول : الزمني ما بين (الدنيا × الآخرة).

---

(٦٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٥٢/٣ .

(٦٤) شرح نهج البلاغة :١٥١/٢ .

الثاني : النفسي (العز × الذل) فهو يوبخهم ؛ لأنهم تركوا الجهاد الذي فيه عزة أنفسهم وفوزهم بالجنات في الآخرة ، ورضوا بالدنيا الذليلة التي يعتقدون أن فيها سلامتهم. فالمؤمن بطبيعته الإنسانية يفضل الموت أضعافا مضاعفة على أن يعيش طول العمر ذليلا . ولذلك ترى الإمام خاطبهم بما يثير مشاعرهم لعلهم ينتبهون إلى ذلك .

وقوله (عليه السلام): ((**مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ، أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، مَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ**))[٦٥].

ترى الإمام على طبيعته حينما يتطرق إلى وصف الدنيا وما فيها فإنك تجده يصفها بأعظم الأوصاف التي تدل على أنها ليست بثقة حتى يركن الإنسان إليها . وهذا النص يحمل في فضائه أنواعا عديدة من الطباق بدء بالطباق الزمني (أولها × آخرها) موشحا بالجناس اللاحق (عناء – فناء) وفعلا هذا الوصف ، فالإنسان منذ لحظة ولادته تبدأ معاناته من المرض ، والجوع وغيرهما من متاعب الحياة من هَمٍّ ، وغمٍّ وصولا إلى الموت عند الاحتضار فهو أعظم ما يشهده في حياته . ثم ينتقل إلى الطباق العقائدي مابين (حلالهما × حرامهما) فإذا كان ذا مال كثير طال وقوفه في ذلك اليوم فيما انفق ماله ، وإن كان هذا المال قد انفق في الحرام فليستعد للعقاب. ثم ينتقل إلى الطباق النفسي (استغنى × افتقر) فأنك ترى الغني مرتاح البال نفسيا لوجود المال لسَّد رمقه . وهذا ظاهر الحال . فالاستغناء هو حبه للمال ، والأولاد وفي هذا فتنة ؛ لأنه سيكون سبباً لابتعاده عن الله سبحانه وتعالى. وفي هذا القول – تناص معنوي– من القرآن الكريم [٦٦]. أما الفقير فأنك تراه يحزن على أشياء لا يستطيع تحصيلها بينما ترى الغني يستطيع تحصيلها ، ولكن الحقيقة تكمن في أن الإنسان إذا صرف نظره عن الدنيا ومتاعها فإنها ستأتيه تباعا. ولا يغيب الجانب الصوتي عن هذه الألفاظ المتضادة من خلال السجع المتوازي (عناء – فناء ، حِساب – عقاب ، فتن – حزن)

وقوله (عليه السلام) : ((**الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبَغْضُ فِي اللهِ**))[٦٧]. يوضح الإمام لكُميل بن زياد النخَعي قواعد الإسلام وجعل هذا المقطع الرابع من أصل سبع قواعد جاعلا الطباق

---

(٦٥) شرح نهج البلاغة : ١٨٩/٦ .

(٦٦) وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّما أَموالُكُم وَأَولادُكُم فِتنَةٌ وَالله عِندَهُ أَجرٌ عَظِيم﴾ (التغابن :١٥) .

(٦٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٤٤/٣ .

النفسي (الحب × البغض) أحد مظاهره ، مُبّينا له أن يكون الحب والبغض لله سبحانه وتعالى لا من قبيل الأهواء النفسية أو المصالح الشخصية . أي أن يكون اجتماع شخصين في الله ، وافتراقهما لله كذلك .

وقوله (عليه السلام) : ((**إِنَّ رُعَاةَ الدِّين [الدِّين] فَرَّقوا بَيْنَ الشَّكَّ وَالْيَقِينِ**))[٦٨]. يفرز الطباق النفسي لفظان لطالما ألتبس أحدهما الآخر بصورة مستمرة وهما (الشك × اليقين) ولطالط أكد الإمام في أكثر من مناسبة إن الشك لا ينقض اليقين ، إلاّ أنه بقي كثير من الناس لا يميز بين هذين الأمرين ، لكن الإمام وضح في هذا المقطع أن رعاة الدين أي حفظته هم الذين يعرفون المواضع التي يتميز فيها الحق من الباطل فهم لإخلاصهم ، وعبادتهم أطلعهم سبحانه وتعالى على قسم من أسراره التي خفت على كثير من الناس ولاسّيما في المواضع التي يحصل فيها الشك ، واليقين لكي يلجئوا إليهم .

فالمتلقي يمكن له ملاحظة مزية الطباق بأنواعه المذكورة ، وما صنعه من معاني ملونة لا يشوبها الإيهام ، أو الغموض ، أو التكلف في القول ، أو إلى دليل لتوضيحها ؛ لأنه حينما تطرح عليه فكرة ما لا يتعبه التفكير فيها ؛ لوجود نقيضها أمامه ، وهذا مما يساعده على تطور المعنى بالكامل .

ثانيا : المقابلة :

تتصاعد الصور المعنوية بين الألفاظ حينما تتقابل ، ويزداد هذا التصاعد كلما زادت الألفاظ المتقابلة ، وكأنَّ البحث أمام لوحة فنية متكاملة رسمها فنان لمنظر طبيعي ، ولشدة إحكامه في استعمال الألوان بدت وكأنها أفضل من المنظر نفسه . فهكذا تفعل المقابلة حينما ترد في نصٍ ما لتصور معنى من المعاني على حقيقة بدون مبالغة وكأنك تعيش المشهد نفسه بتفاصيله .

وللبلاغيين رأي فيها فقدامة بن جعفر يُعدّها من أنواع المعاني ويرى أن تأتي ((في المواقف بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف على الصحة أو يشرط شروطا ، ويعدّد أحوالا في أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده ، وفيما يخالف

---

(٦٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣/٤٧٤ .

بأضداد ذلك)) [٦٩]. أي أن قدامة يريد أن يكون كل لفظ مقابل الآخر بشرطه وعدده ، أي الحقيقة مقابل الحقيقة والحرف مقابل الحرف والاسم مقابل الاسم وهكذا . وأما أبو هلال العسكري فيرى أن ((المقابلة إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة)) [٧٠]. وهو بتعريفه هنا لا يختلف كثيرا عمَّا ذهب إليه قدامة . ولابن رشيق (ت٤٥٦هـ) رأي في المقابلة حيث يقول أنها غير المطابقة ولهذا جعلها في باب حالها مثل الفنون البديعية الأخرى ، وقال: ((وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا وآخره ما يليق به آخرا ، ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه))[٧١].

ويلاحظ هنا أن القيرواني طلب الترتيب عند حصول المقابلة وحدد بأن يليق الكلام مع بعضه البعض .

أما السكاكي (ت٦٢٦هـ) فيرى ((أن تجمع بين شيئين متوافقين أو اكثر ، وبين ضديهما ثم إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده)) [٧٢].ثُمَّ جاء بشواهد قرآنية تعبر عن هذا الفن البديعي .

والكلام كثير عن هذا اللون البديعي المميز إلى درجةٍ تجد فيها أن قسماً من البلاغيين والنقاد جعلوه مع الطباق تحت مسمى واحد وهو (التقابل) أمثال ابن الأثير، والقزويني وغيرهما من العلماء ، بل حتى عند المحدثين ، فعلى سبيل المثال تقرأ عند باحث معاصر قوله : ((إن الطباق والمقابلة يمكن أن نجمعهما تحت مفهوم واحد وهو التقابل ، وذلك لما يتوافر في كل واحد منهما من المعنى الضمني للتقابل ، فالطباق يعتمد أصلا على تقابل الألفاظ والألفاظ بالتراكيب أو تقابل التراكيب ، وإن المقابلة تستوعب هذه الأقسام التي تظهر في الطباق وتقوم عليها))[٧٣]. والبحث يرى أن ما ذهب إليه الباحث لا يُعدُّ سببا إلى

---

(٦٩) نقد الشعر : ١٣٣ .

(٧٠) كتاب الصناعتين : ٣٤٦ .

(٧١) العمدة : ٥/٢ .

(٧٢) مفتاح العلوم : ٥٣٣ .

(٧٣) التقابل والتماثل في القرآن الكريم – د.فايز القرعان – ط ١ – المركز الجامعي للنشر والدعاية والإعلان – الأردن – ١٩٩٤م:٧٨ .

دمجها تحت الاسم الذي ذُكِر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى عدم استقرار الباحثين على تسمية مشتركة لهذين اللونين فهناك من يجمعهما تحت مسمى (التضاد) [٧٤]. ولعل هذا الاختلاف ما بين أهل هذا الفن هو خير دليل على أهمية المصطلح ، وفاعليته البلاغية.

كذلك ما قدمه الحموي (ت٨٣٧هـ) من كلام لطيف لمن جعل هذين الاسمين تحت باب واحد بقوله ((فإن المقابلة أعم من المطابقة ، وهي التنظير بين شيئين فأكثر وبين ما يخالف وما يوافق. فقولنا: وما يوافق صارت المقابلة أعم من المطابقة فأن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة))[٧٥] .

والطباق لا يكون إلاَّ بين ضدين ، بينما المقابلة تكون بين أربعة أضداد فأكثر ، والطباق لا يكون إلاَّ بالأضداد، في حين تكون المقابلة بالأضداد وغير الأضداد ، إلاَّ أنها تكون بالأضداد بمنزلة عالية وموقع حسن[٧٦].من أجل هذا فُصل بين الطباق والمقابلة . و((المقابلة إذا استُعملت في موضعها كانت بديعة ... أما إذا استعملت في غير موضعها كانت فاسدة نابية))[٧٧]. فيجب على الأديب أن يضعها في موضعها حتى لا تكره في باقي المواضع الأخرى .

إذن فالمقابلة في صورتها النهائية هي ((أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر، ثم بأضداد هما أو غيرهما على الترتيب))[٧٨]. وإذا رجعت إلى خطب الإمام تجده قد تفنن في عرض الصور المتقابلة التي تدعو المتلقي إلى التأمل في ألفاظها وديباجتها والاستبصار بحلاوة معانيها. ولهذا فالبحث سيدرس المقابلة على النحو الآتي :

١- المقابلة الثنائية :

أ- المقابلة بين صورتين من صور الدنيا .

ب- المقابلة بين صورتين من صور الآخرة .

ت-المقابلة بين صورتين من الدنيا والآخرة .

---

(٧٤) ينظر : الحديث النبوي الجاري مجرى المثل:١٧٦ .

(٧٥) خزانة الأدب :٧١ .

(٧٦) ينظر : علم البديع :٦٧ .

(٧٧) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:٣/٢٩٢ .

(٧٨) فن البديع – د . عبد القادر حسين – ط ١ – دار الشروق – القاهرة – ١٩٨٣م :٤٩ .

٢- المقابلة غير الثنائية .

أ- مقابلة ثلاثة بثلاثة .

ب- مقابلة أربعة بأربعة .

ت- مقابلة خمسة بخمسة .

١- المقابلة الثنائية :

أ- المقابلة بين صورتين من صور الدنيا :

ورد في خطب الإمام (عليه السلام) قسم من الصور المتقابلة التي تخص أمور الدنيا بأسلوب متميز ينسجم مع الهدف الذي يسعى من أجله ، وهو بدون شك موجه للمسلمين لكي يصحوا من غفلتهم التي أغشتهم . فكانت هذه الصور المتقابلة في بعض الأحيان مثل السهام المنطلقة في سرعتها بما تحمله من معانٍ مؤثرة تعبر عن تجربة قائلها في الحياة .

منها قوله (عليه السلام) : ((**إِنَّ الفِتَنَ إِذا أَقبَلت شَبَّهت ، وَإِذا أَدبَرت نَبَّهت ، يُنكِرنَ مُقبِلات ، وَيُعرِفنَ مُدبِرات ، يحمن حَومَ الرِّيَاحِ يُصِبنَ بَلَداً ، وَيُخطِئنَ بَلَداً**))[٧٩] .

يصف الإمام للمسلمين حال الفتنة وكيف تكون هيأتها في وقوعها على الناس حيث يظن بعض منهم إنها الحق ، ويظن آخرون إنها غير ذلك فتختلط الأمور على الجميع فجاء وصف شُبُّهت مطابق لها. فإذا حل الهرج ، والمرج ، والفساد ، والقتل عند ذلك عرف الناس إنها فتنة عند وقوع المحذور ، فعند ذلك تكون الفتنة قد أخذت مأخذها من العباد . وما أكثر الفتن التي عصفت بالمسلمين فلا تدري متى ستدبر ؟ ثُمَّ عاد الإمام وأكدها بقوله عن طريق المقابلة الثنائية (ينكرن مقبلات × يعرفن مدبرات) لغرض الانتباه منها والتهيؤ لها . وجاءت هذه المقابلة مقرونة بالاستعارة في لفظ الحوم للدلالة على كونها تشبه الريح أو الطائر في إصابتها دعاة الضلالة ، وجاء بالطباق

(يصبن × يخطئن) ليقول لهم إنها تنجح في بلد ؛ لأن أهلها غرقوا في المحرمات والسعي وراء ملذات الدنيا فترى الفتنة قعدت لهم وتربصت بهم إلى أن قضت عليهم ،

---

(٧٩) شرح نهج البلاغة :٧/ ٣٥ .

ولا تصيب بلداً آخر ؛ لأن أهلها عرفوا الله حق معرفته وتناصفوا بينهم بالحق فلم تستطع الفتنة الدخول عليهم بأي شكل من الإشكال .

وقوله (عليه السلام) : ((**آثَرُوا عَاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً**))[٨٠]. تحدث الإمام في هذا المقطع عن قسم من الذين عاصروا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من خلال هذه الصور المتقابلة التي تعكس حالهم ، ويبدو أن الإمام في هذا المقطع ربط الصور هنا بالمظاهر الدلالية الصوتية، فمن جهة الدلالة حدوث المقابلة (آثروا عاجل ا× أخروا آجلا) فالإيثار ليس ضد التأثير وإنما التقديم ولكن الإيثار يندرج تحت معاني التقديم وإن كانت دلالة التقديم أكثر ضدا مع التأخير . فهؤلاء شُغلت أنفسهم بالملذات الدنيوية وتركوا الحسنات الأخروية ظنا منهم أنها ستدوم لهم . والمقابلة الأخرى بين (تركوا صافيا × شربوا آجنا) حيث لم يشربوا من الماء الصافي الذي يرويهم وإنما ذهبوا إلى الماء الآجن الذي سيؤدي بهم إلى الهلاك . والإمام استعار هذا اللفظ (الآجن) إلى لذات الدنيا لوجود المناسبة بينهما فكما أن الماء الآجن يتميز بكونه مستقذراً ومتغير الطعم كذلك حال الدنيا التي يسعون وراءها فهي لا تدوم لأحدٍ أبدا .

ومن جهة الصوت حصول –الجناس المطّرف – بين (عاجلا – آجلا) ، والجناس المضارع – بين (آجلا – آجنا) ، مع حضور السجع المطرف – بين (عاجلا – آجلا – صافيا – آجنا) كل ذلك أسهم في إثراء المعنى بصورة مميزة. فالأهمية ((تأتي من تشكيل التقابل في أطر يصنعها المبدع بين دوال ليس من طبيعتها التقابل ، أو يكون التقابل من طبيعتها لكنه ينحرف بها إلى أشكال جديدة تعتمد التحول أو التداخل أساسا لبنائها ، وهنا يتم إنتاج كتل تعبيرية مزدوجة القيمة)) [٨١]. وهذا ما وجده البحث في الخطب العلوية .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَيُّها النّاسُ إِنَّه لَنْ يَزْدَادَ امْرُؤٌ نَقيراً بِحُذْقِه ، وَلَنْ يَنْتَقِصَ نَقِيراً بِحُمقِه ، فَالعالِمُ بِهذا العامِلُ بِهِ أَعْظَمُ النّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ ، وَالتّارِكُ لَهُ أَكْثَرُ النّاسِ شُغْلاً فِي مَضَرَّةٍ**))[٨٢]. ينهى الإمام الناس عن المكره والخديعة في خطبة

---

(٨٠) شرح نهج البلاغة : ٧٠/٩ .

(٨١) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث – د . محمد عبد المطلب – (د . ط) – الهيأة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥م : ٤٠ .

(٨٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة :٢٤٩/٢ .

طويلة له ؛ لأنها تؤدي إلى زرع الضغينة بينهم كما أنها مرفوضة عند الله سبحانه وتعالى. في النص تجد أن المعاني تتصاعد لحظة بلحظة من خلال وجود المقابلتين توضح لهم فكرة يجب أ، يعتقدوا بها، ولاسّيما من يمارس المكر ، والخديعة ضد الناس من أجل استحصال الرزق ، أو غيره. إن الله عز وجلّ قد قدّر له في كتابه العزيز ما له من نصيب في الحياة الدنيا وأنه لن يزداد أو ينقص مهما كان حاذقاً أو أحمقاً . وأحلى ما في هذه المقابلة – الجناس اللاحق – الحاصل بين (حذقه – حمقه) ليزيد من قوة المعنى ، ثُمَّ ينتقل الإمام إلى – مقابلة رباعية – وقيل أن يبدأ بها يأتي بجناس آخر وهو – جناس القلب – بين (العالِم – العامل) لكي يهيأ أذهان المتلقين ويلفت أنظارهم إلى ما سيقوله بعدها من كلام يكمن معناه في كون الذي يرضى بما كتب الله له فهو أعظم الناس راحة ، والذي لا يقتنع بما قُدِّر له تراه مسلوب الراحة وسيضرُّ نفسه .

فهذه المقابلات لم تكن مجرد محسنات بديعية حسّنت الصورة وإنَّما هي جزء من تفكير الإمام جاءت لتُعبِّر عن مفهوم يكمن في أن كثيراً من الناس قد غفل عن هذا المعنى.

وقوله (عليه السلام) : ((**مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعصِيةِ اللهِ**))[٨٣]. تحدَّث الإمام عن أمور ستكون من بعده مثل الظلم ، والجَور ، وتعطيل الحدود وأمور كثيرة بسببها ستحل النقم على المسلمين ولهذا جاء الخطاب في هذا المقطع يحمل مظهر المقابلة متمثلة في الموت في سبيل الله ؛ لأنه يمثل الطاعة الصحيحة، وخير لهم من أن يسيروا على طريق سلاطين الظلم والطغيان الذين لا يراعون لله حرمة. وأما عن كونه فضل الموت على الحياة فإنك وأن لم ترتكب أي ظلم بمجرد العيش مع هؤلاء الطغاة فإن سكوتك عن باطلهم هو رضاء بعملهم وستصبح في المستقبل معهم . شئت أم أبيت. وهذا القول يكمن في معنى واحد وهو أن لا معنى لحياة الإنسان إذا كانت قائمة على معصية الله عز وجل ، بل إن الموت خير منها.

ب- المقابلة بين صورتين من صور الآخرة :

تأخذ الصورة المتقابلة عن ذلك اليوم أشكالاً مختلفة عن صور الدنيا لكون هذه الصور غائبة عن عين الإنسان في هذا الوقت ، وبطبيعة النفس الإنسانية فإنها تبحث دائماً عن الشيء المغيب محاولة دائماً تصوره ، أو على الأقل تقديره حتى تطمئن النفس إليه ،

---

(٨٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٣٣/٢ .

فكيف الحال إذا كانت هذه المغيبات تخص ذلك اليوم والذي سيبلغه كل إنسان مهما طال العمر به ؟ ولهذا تجد أن الإمام كثف من معاني هذه الصور المتقابلة عن ذلك اليوم حتى تتعظ قلوب الناس وتسير على النهج الصحيح . ومثال قوله (عليه السلام) : ((**وَخَشَعَت الأَصوَاتُ مُهيمنةً ، وَأَلجَم الـ عَرَقُ ، وَعَظُم الشَّفَقُ ، وَأُرعِدَت الأَسماعُ ، لِزَبرةِ الدَّاعِي إلى فَصْلِ الخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ الجَزَاء ، وَنَكَالِ العِقَابِ ، وَنَوَالِ الثَوابِ**))[٨٤]. يتطرق الإمام إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة ، وأي مشهد أنه يوم الحساب ، والجزاء ، فقسم من الناس قد يهلع قلبه لمجرد الانتظار لكي يأخذ ورقة الامتحان ، فَلَكَ أيها المتلقي أن تتخيل في ذلك اليوم إن واقف لتأخذ نتيجة عملك في الدنيا وماذا سيحّل بك ؟ حيث أصبحت وسطاً بين طرفي المقابلة (نكال العقاب × نوال الثواب) . فالخطيب تمكن من نقل الصورة إلى المخاطب بأدق تفاصيلها جاعلاً من مظهر المقابلة الشيء الذي تتم به هذه الأوصاف التي يتعرض لها في ذلك اليوم .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَحَذَيكُم بِرهبةٍ تَسكُنُ قُلُوبَكم وَخَشْيَةٍ تُذْرِي دُموعَكُم ، وَتَقِيَّةٍ تُنْجِيكُم قَبْلَ يَومٍ يُبْلِيكُم وَيُذْهِلُكُم يَومَ يَفُوزُ فِيهِ مَنْ ثَقُلَ وَزْنُ حَسَنَتِهِ ، وَخَفَّ وَزْنُ سَيِّئَتِه**))[٨٥]. يحذر الإمام الناس من عواقب إغفالهم للآخرة وشغلهم بالدنيا في خطبة له مؤكداً لهم إن الأمر سيأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون ، فأمرهم أن يحلوا بالرهبة قبل معاينة الأهوال بعد مماتهم ، فأتاهم بمقابلة توضح لهم الفائز في ذلك اليوم وهو من (ثقل وزن حسنته × خف وزن سيئته) والأمر عائد للإنسان في أن يختار ما يريد قبل فوات الأوان . ويبدو أن – الاحتباك – حاضر من خلال حذف الإمام لفظ (يخسر) لوجود على ما يدل ضده وهو (يفوز) فيصبح تقديره : (ويخسر من خفّ وزن سيئته) . هذا كله غايته إشراك المتلقي في بناء المعنى المراد إيصاله للمجتمع.

وقوله (عليه السلام) : ((**الحَقَّ طَرِيقُ الجَنَّة ، وَالبَاطِلُ طَرِيقُ النَّارِ ، وَعَلى كُلِّ طَرِيقٍ دَاعٍ يَدْعُو إلى طَرِيقَتِه ، فَمَنْ أَجَابَ دَاعِيَ الحَقِّ أَدَّاهُ إلى الجَنَّة ، وَمَنْ أَجَابَ دَاعِيَ البَاطِلِ سَاقَهُ إلى النَّار**))[٨٦]. عرض الإمام للمجتمع صورتين مختلفتين ، والناس حرة في اختيار ما

---

(٨٤) شرح نهج البلاغة : ١٩٧/٦ .

(٨٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٠١/١ .

(٨٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٦٥/٣ .

تريد فمن تمسك بما أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله الأمين وعمل به فالطريق واضح إلى الجنة ، ومن أراد التمسك بملذات الدنيا وغرورها فالطريق مباشرة إلى النار . وكما وصف أمير المؤمنين الحالة فإن على الطريقين دعاة . والملاحظ على هذه المقابلة أن الإمام اختصر لهم المسافة في القول مفسراً لهم ذلك فما على الناس إلاّ الانتباه لما يفعلونه في حياتهم اليومية قبل أن يجدوا أنفسهم يسيرون في طريق الضلالة ؛ لأنه لا يوجد حل وسط ما بين الطريقين .

ت- المقابلة بين صورتين من صور الدنيا والآخرة :

تتفاوت درجات الاستيعاب للموقف من قبل عقول الناس بالدرجات فهمناك من يعي الموقف بكامله ، وهناك من يفهمه بدرجة معّينة ، وآخر قد لا يستوعب الموقف لجهله ، وحتى تتحقق الفائدة الكاملة تجد أن الإمام يُقدِّم لهم صوراً متقابلة مشتركة ما بين الدنيا والآخرة حتى يعلم من لا يعلم أن الموقف الذي يقوم به في الدنيا محاسب عليه وسيجازى على حسب العمل الذي يُقدَّمه . ولذلك تجد أن الصور المتقابلة في خطب الإمام متنوعة وفي كل الاتجاهات حتى يفهمها الجميع .

ومنها قوله (عليه السلام) : ((**إنَّه لا غَنَاءَ في كَثْرَةِ عَدَدِكُم ، مَعَ قِلَّةِ اجتِمَاعِ قُلُوبِكُم ، لَقَدْ حَمَلْتُكُم عَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ الَّتِي لا يَهْلَكُ عَلَيْهَا إلاَّ هَالِكٌ . مَنِ استَقَامَ فَإلَى الجَنَّةِ ، وَمَنْ زَلَّ فَإلى النَّارِ! **))[٨٧]. هذا الكلام خاطب به الناس بعد واقعة صفين ، والنهروان حينما أغار بعض أهل الشام على عمَّاله في أطراف العراق . ويبدو على هذا المقطع الانزعاج الشديد البادي على الإمام لكثرة ما شهده من هؤلاء الناس فحدثهم بكلام يتلائم مع الموقف الذي بدا منهم ، فكانت إحدى صور الكلام المقابلة التي وردت هنا . فقد وردت أولاً في قوله (لاغناء في كثرة عددكم – مع قلة اجتماع قلوبكم) أي أن كثرة الأبدان غير فائدة فيها ؛ لأن قلوبكم قليلة الاجتماع فهي متفرقة ولا تجتمع على ما أريده لكم من الصلاح.ثُمَّ نبههم بالمقابلة الأخرى أن من استقام في العمل فالجنة مسكنه ، ومن زلَّ فالنار مقره، أي أنكم إن ارتحتم في الدنيا لعدم امتثالكم لأوامري بالقتال وقبولكم بالذلّ، فأنكم ستجدون في تلك الدار ما يذهلكم لعصيانكم لي.

---

(٨٧) شرح نهج البلاغة : ٢٢٢/٧ .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَآيُم الله لَـئِنْ فَـرَرتُـم مِنْ سَيْفِ الَعجلَـةِ ، لا تَسلَمُون مِنْ سَيْفِ الآخِـرةِ**))[٨٨]. خاطب الإمام الناس يوم صفين بجملة أمور منها حربية وأخرى عقائدية وغيرهما وكان هذا النص من جلة ما قاله . حيث بدأت المعركة بقسمٍ ، وبعدها المقابلة بين الصورتين تأكيداً منه لما يقوله أنه حاصل لا محالة وحتى لا يدخل الريب والهلع في قلوبهم ، ثُمَّ خاطبهم أنهم إذا سَلِموا من سيف العاجلة أي الحرب ولم يقتلوا فيها فإنهم لن يسلموا من سيف الآخرة أي من عذاب الله جزاء فرارهم وخذلانهم. واستعار لفظ السيف للآخرة فكما أن السيف مبطل للحياة كذلك فإنهم سيموتون في الآخرة أكثر من مرة نتيجة العذاب، فالقتل في سبيل الله أولى وأحسن من العيش في دنيا غارقة بالذل، والهوان وفي المنتهى الموت.

ففي الحالتين هو حاضر ، إلاَّ أن طريقة الموت مختلفة . ففي الحرب تقتحم الموت بنفسك، وفي الحياة الفانية يأتيك الموت زحفاً ومتى شاء .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَأقْدُموا عَلَـى الله مَظْلُـومِينَ ، وَلا تَـقْدُموا عَلَيْـهِ ظَـالِمِينَ**))[٨٩]. تجد في هذا النص الأمر والنهي في أمرين مهمين . فهو يأمرهم أن يقدموا على الله مظلومين يوم القيامة ؛ لأن في ذلك اليوم لا يضيع حق أبداً . وليس المعنى أن كل من ظُلِم تَرَكَ ظلامته فإن ذلك تفريط في العدالة وقد ينقلب إلى رذيلة ، ولكنه إذا أحسَّ أنه يرِّده الظلم عن نفسه سيوقع الأذى في المقابل بنسبة أكبر من حقه واحتسب ذلك عند الله خوفاً من الوقوع في الذنب فإن الله سيجازيه في الدنيا والآخرة؛ لتحمله وصبره على ذلك الظلم. ونهاهم عن القدوم إلى الله ظالمين ؛ لأن يوم الظالم هناك سيكون أشدُّ عليه من المظلوم ، وقد عرفت ما تميل إليه نفوس العرب في قسم من الأحيان إلى التعدي والظلم فجاء بذلك نهي الإمام عن هذه المسألة والحقيقة في هذه الصورة هي أكبر مما يتصوره كل شخص والتي تكمن في أن الصبر على الظلم من أشد الأمور قساوة على الإنسان وهو امتحان روحي لا يطيقه إلاَّ من اقتدى بأخلاق الأنبياء والأولياء . ولهذا كانت نتيجة الصبر فيه الثواب الكبير ، والمنزلة العالية .

٢- المقابلة غير الثنائية :

---

(٨٨) شرح نهج البلاغة : ٦/٨ .

(٨٩) المصدر نفسه : ١١١/٩ .

أ- مقابلة ثلاثة بثلاثة :

وهي أن يؤتى بألفاظ ثلاثية متقابلة في مقاطع قسم من الخطب .

والصور الثلاثية المتقابلة أثارها موجودة في خطب الإمام (عليه السلام) مثل قوله : ((**فَصَرَفُوا عَنِ الجَنَّةِ وُجُوهَهُم، وَأَقبَلُوا إلى النَّارِ بِأَعمالِهِم، وَدَعاهُم رَبُّهُم فَنَفَرُوا وَولّوا، وَدَعاهُم الشَّيطَانُ فَاستَجَابُوا وَأَقبَلُوا**))[٩٠]. الكلام هنا عن مجموعة عاشت في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبقيت بعده كيف أنهم تكالبوا على الحرام فحتى يكون المعنى فيهم واضحاً جاء الإمام هنا بمقابلتين توضح حالهم ، الأولى : (فصرفوا عن الجنة وجوههم × أقبلوا إلى النار بأعمالهم) معنى واضح المراد منه تمسكهم بالحرام غاية التمسك وتركهم ما أحل الله لهم . ويلاحظ هنا أنَّ الإمام لم يقل اقبلوا إلى النار بوجوههم وذلك ((لأن إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذات الدنيا واقتنائها يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنة وذلك يستلزم إعراضها عن الجنة .ثُمَّ لّما كانت الغاية التي يطلبها الإنسان من الدنيا هو الحصول على لذاتها وكانت النار لازمة للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضياً لم تكن النار ذاتية قد أقبلوا بوجوههم عليها بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم))[٩١] .

الثانية : (دعاهم ربهم فنفروا و ولو × دعاهم الشيطان فاستجابوا واقبلوا) . فالله سبحانه وتعالى قدَّم لهم ما يغنيهم عن كل ما طلبوه من مظاهر الدنيا الزائلة شرط أن يتقوه في عباده ، لكن الجواب كان منهم النفير والأعراض ؛ لأن الشيطان دعاهم من خلال ما قدمه لهم من شهوات وملذات فما كان منهم إلاّ أن أسرعوا نحوه.

وقوله (عليه السلام) : ((**ألا وَإنَّهُ لا يُضَرُّكُم تَضْييعُ شَيءٍ مِنْ دُنْياكُم بَعْدَ حِفظِكُم قَائِمَةَ دِينِكُم . ألا وَإنَّهُ لا يَنْفَعُكُم مْ بَعْدَ تَضْييعِ دِينِكُم شَيءٌ حَافَظتُم عَلَيْهِ مِن أمرِ دُنْياكُم**))[٩٢].

يتحدث الإمام للناس عن مسألة مُقدِّمها لهم عن طريق مقابلة لطيفة يكمن معناها في أنه لا يوجد أي ضرر إذا ترك الإنسان بعض المنافع الدنيوية التي من جرّائها يحصل على النفع في الآخرة. ويخاطبهم أنهم إذا تسارعوا في حفظ أمور دنياهم ، ونسوا دينهم فأنهم سيخسرون لسببين :

---

(٩٠) شرح نهج البلاغة : ٩/٧٠ .

(٩١) شرح نهج البلاغة – البحراني : ٣/١٩٠-١٩١ .

(٩٢) شرح نهج البلاغة : ٩/٢٥٢ .

الأول : لتضييع دينهم فيها فما فائدة الدنيا لإنسان لا دين له فيها ؟

الثاني : إنهم في كل الأحوال سيرحلون عنها ويتركونها لغيرهم .

وبذلك خَسروا الدارين . ويمكن النظر إلى ما صنعته بنية التقابل في هاتين الصورتين فهي ((بنية تعتمد على ظواهر المفارقة الخالصة التي تتشابك مع غيرها من الظواهر لتفجر طاقات إيحائية متتابعة ؛ لأن تأثيرها سابق الصياغة ، مرافق لها، ولاحق بها))[٩٣] .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وسلم) صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَأمِينُهُ عَلَى وَحيِهِ، أرسَلَهُ بالمَعْرُوفِ آمِراً ، وَعَنِ المُنكَرِ نَاهِياً**))[٩٤].

تجد كثيراً من الخطباء في كلامهم قبل أن يتطرقوا للغرض الأساس يحمدون الله ويثنون عليه ، ويذكرون النبي ويصلون عليه ، ويُعدِّون ذلك من الشروط المهمة ، بل أنه من مقومات الخطبة الجيدة . ولكن تبقى الطريقة التي يُقدِّمها المبدع في عرضه لما قاله البحث هي التي تميزه من غيره من المبدعين . فالإمام من خلال تحميده الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)قَدَّم فيه صورة متقابلة تتمثل في كونه (بالمعروف أمراً × عن المنكر ناهياً) وهذا واجب كل مُرسل من الأنبياء وغيرهم ؛ لأن الناس في جهل وغيٍّ لا يعلمون الصحيح من الخطأ ، ولذلك ترى أنَّ الإمام قبل أن يصل إلى المقابلة أثنى عليه غاية الثناء من خلال ذكره أنه أفضل عباد الله ، والأمين على الوحي. فالذي يكون بهذا المقام العالي من الطبيعي أن يكون بالمعروف آمر وعن المنكر ناهياً .

ب- مقابلة أربعة لأربعة :

وهي أن تأتي بألفاظ أربعة يقابلها بضدها ألفاظ أربعة أخرى .

وكلما زاد التقابل في الألفاظ كلما ارتفعت القيمة المعنوية للنص .وقوله : ((**فَاذكُروا مَنْ فَارَقَ الدُّنْيا ، وَلَم يَأخُذْ مِنْها فَكَاكَ رَهنِه وَلا بَرَاءَةَ أمنِه فَخَرَجَ مِنْها سَلِيباً مَحْسُوراً ... وَاذكُروا مَنْ فَارَقَ الدُّنيا وَقَدْ أخَذَ مِنها فَكَاكَ رَهنِه وَبَرَاءَةَ أمنِه فَخَرَجَ مِنها آمِناً مَرحُوماً وَفَدَّ قاً مَصْوماً**))[٩٥]. كثيراً ما تحدَّث الإمام إلى هذه البشرية عن الدنيا والآخرة وما

---

(٩٣) قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : ٣٩ .

(٩٤) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٢٩/٣ .

(٩٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٥٢/١-٥٥٣ .

فيهما من مواقف تخطف القلوب وتبهر العقول ، ولكن لا سبيل إلى قلوب هذه الناس المملوءة حقداً ، وظلماً ، ولا فائدة من عقولهم المنشغلة بالملذات الدنيا وزخرفها فهي مجبولة على المعصية، ولا تفيق أنفسهم عند قسم منهم أبداً . مثلما في كل مناسبة يُقدِّم لهم الإمام صورتين متقابلتين عن عبدين أحدهما استحق الجحيم ؛ لأنه لم يأخذ من الدنيا ما يقدمه في الآخرة ليفك رهنه ، والآخر فاز بالنعيم ؛ لأنه على عكس الأول تهيأ لذلك اليوم وأعدَّ عُدَّته فعمل على أن يفك رهانه هناك . ويبدو أن الموقف الذي وردت فيه الخطبة موقفاً مشحون قد أخذ الناس بالانغماس في الملذات الدنيوية ، وذلك من خلال تقديم الإمام الصورة الترهيبية على الصورة الترغيبية ، وذلك حتى تلتفت الناس إلى الإمام وإلى أنفسهم قبل فوات الفرصة .

وقوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ خَلَقَهُم فِي دَارٍ وَأَراهُم طَرَفاً مِن اللَّذاتِ لَيستَدِلُّوا بِهِ عَلَى مَا وَرَاءَهُم مِنَ اللَّذاتِ الخَالِصَةِ التَّي لا يَشُوبُها أَلَمٌ – أَلا وَهِي الجَنَّةُ – وَأَراهُم طَرَفاً مِنَ الآلامِ لَيستَدِلُّوا بِهِ عَلَى مَا وَرَاءَهُ م مِنَ الآلامِ الخَالِصَةِ الَّتي لا يَشُوبُها لَّذةٌ – أَلا وَهِيَ النَّارُ – فَمَن أَجْ لِ ذلِكَ تَزْوِيَ نَعِيمَ الدُّنيا مَخْلُوطاً بِمِحنِها وَسُرُورَها مَمْزُوجاً بِكَدِرِها وَهُمومِها**))[٩٦].

كان الجاحظ على حق حين قال هذا ((هو جماع الكلام الذي دوَّنه الناس في كتبهم وتحاوروه بينهم))[٩٧]. فالإمام قدَّم صورتين متقابلتين وشّحهما بـ(حسن التعليل) لتظهر كل واحدة منهما بأبهى مظهر. والمعنى من ذلك أنهم شاهدوا بعضاً من اللذات المنغصة في بعض الأحيان بالألم لكونها في دار الدنيا ليعلموا أن وراءهم لذات لا يشوبها أي ألم سيحصلون عليها نتيجة الأعمال الصالحة . وشاهدوا بعض الآلام في دار الدنيا ليعلموا أن هناك ألماً سينتظرهم نتيجة المعصية التي قاموا بها. والبحث يرى أنه لا توجد نسبة فيما سيراه الإنسان من لذات في الآخرة على ما وجده في الدنيا ، وكذلك الآلام في الآخرة غير التي في الدنيا بكل أشكالها وهذا ما أثبتته الروايات الصحيحة . وهل يوجد أكثر من هذا الاستدلال ؟ فالصورة أصبحت لهم مثلما قال البحث سابقاً تحاكي عقولهم والشاهد من حياتهم اليومية وهم أحرار في الاختيار .

---

(٩٦) المصدر نفسه : ٣/١٠١-١٠٢ .

(٩٧) نقلاً عن هامش المصدر نفسه : ٣/١٠٢ .

ت- مقابلة خمسة لخمسة :

تبلغ المقابلة ذروتها عندما تتصاعد الصور المتقابلة في الخطب العلوية ، وذلك للتعبير عن أمر مهم وجده صاحب هذه الخطب ورآه غيره أمراً هيناً .

فهذا التقابل جاء ليعكس الحالة النفسية التي شهدها الإمام من الدنيا .

ومثال هذا النوع من التقابل قوله (عليه السلام) : ((**فَسُبحَانَ الله ، مَا أقْرَبَ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ ، وَأبْعَدَ المَيْتَ مِنَ الحَيِّ لانقِطَاعِهِ عَنْهُ**))[٩٨]. وضَّح الإمام فكرة للعباد جسَّدتها المقابلة الممزوجة بـ(حسن التعليل) كيف أن هذه الدنيا سائرة ولا تنتظر أحداً وتأخذ في سيرها الصغير ، والكبير ، فالحي ليس ببعيد عن الميت ، بل هو لاحق به في أية لحظة والدليل على ذلك إن الإنسان لا يستطيع أن يضمن نفسه أن يعيش كذا لحظة .ثُمَّ عاد وقال إنه بعيد عنهم ؛ لأنه كان قبل مدة جالساً يضحك معهم ويكلمهم وهو الآن في لحده لا يعلمون منه أي شيء. وهذا فيه عبرة لمن أراد أن يعتبر ويتعظ . فالإنسان سائر على هذا الطريق لا محالة .

وقوله (عليه السلام) : ((**أيُّهَا النَّاس ، إنِّي وَاللهِ مَا أحُثُّكُم عَلَى طَاعَةٍ إلا وأسْبِقُكُم إليهَا، وَلا أنهَاكُم عَنْ مَعْصِيةٍ إلا وأتَنَاهَى قَبْلَكُم عَنْهَا**))[٩٩]. لكثرة تفرق قلوب المسلمين في زمن الإمام عند كل أمر يطلبه منهم وضَّح لهم مسألة يكمن معناها أنه لا يأمرهم في تنفيذ حاجة إلا وقد نفذها قبلهم، حتى لا يقولوا تهرب فيها. ولا ينهاهم عن مسألة إلاَّ وقد تركها قبلهم حتى لا يقول قائلهم أخذ ما لا يعجبه. ومعنى القول ما يصيبني يصيبكم وحالي مثل حالكم.

وقوله (عليه السلام) : ((**مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ، وَنَالَ ثَوَاباً كَرِيماً [جَزِيلاً] وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ، وَاستَحَقَّ عَذَاباً أليماً**))[١٠٠]. وضعت المقابلة العبد أمام خيارين متضادين في الألفاظ وهو حرٌّ باختيار الطريق الذي يسلكه فالفوز والثواب مقرونان بطاعة الله ، ورسوله ، والخسران والعذاب مقرونان بمعصيتهما . ولو أمعن المتلقي النظر في هاتين الصورتين لوجد أن الألفاظ تزداد عمقاً في المعنى وتنافراً في ابتعادها عن الأخرى ، ولك أن تتخيل الموقف بنفس.

---

(٩٨) شرح نهج البلاغة : ١٩٦/٧ .

(٩٩) المصدر نفسه : ١١/١٠ .

(١٠٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٠٦/١ .

في ختام الحديث عن هذا اللون تجد أن المقابلة السداسية على هرم الخطب العلوية حينما ترد بهذه الكيفية لتدل على قدرة وحكمة قائلها بدون الإخلال بالمعاني والألفاظ ، بل على العكس تأتي مطابقة لها بغاية الجودة وبأروع سبك . وقد يسأل القارئ لماذا لم تكن هذه المقابلة نوعاً خلمساً مع أنواع المقابلات الأخرى ؟ في الحقيقة إنَّ تلك الأنواع قد شكلّت حضورا حقيقيا في الخطب من خلال تواترها بكثرة في الخطب قياسا بالمقابلة السداسية التي وردت في بعض نصوص الخطب. فالبحث يرى إنها لا تشكل مظهراً بارزا يجعلها أن تكون نوعاً خامساً . ولكن من باب الذكر إنها مقابلة تدل على بلاغة قائلها. وهذا ما ذُكِر سابقاً .

ومنها قوله (عليه السلام) : ((**هُوَ الَّذي اشتدَّت نِقَمتُهُ عَلَى أعدَائِه في سَعَةِ رَحمَتِه ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لأوْلِيَائِه في شِدَّةِ نِقَمتِه**))[١٠١].تستحق هذه الفكرة اللطيفة أن تعرضها المقابلة بهكذا عرض، فهي تُعبَّر عن عظمة الله وارتفاع جلالته في فيما يخص النقمة والرحمة ، فالله سبحانه وتعالى قد جمع بين الاثنين في وقت واحد فنقمته أي غضبه يشتد على أعدائه في سعة رحمته، ورحمته تتسع لأوليائه في وقت نقمته، فهذا الأمر من الفيض الإلهي الرباني ، فمن من البشر إذا أثارت ثائرته في وقت من الأوقات تجد معها الرحمة مباشرة ، أو بالعكس ؛ أليس ذلك عنوان عن التفرد الإلهي بالملك ؟ فسبحان من جمع بين الاثنين في آن واحد !.

وقوله (عليه السلام) : ((**فَاعلَمْ أنَّ أفضَلَ عِبَادِ اللهِ عِندَ اللهِ إمامٌ عَادِلٌ ، هُدِيَ وَهَدَى ، فأقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً ، وَأَمَاتَ بِدعَةً مَجْهُولَةً ، وَإنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أعلا ٌم ، وَإنَّ البِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعلاٌم ، وَإنَّ شَ رَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وضُلَّ بِه ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأخُوذَةً ، وَأَحَ يا بِدعَةً مَتْرُوكَةً**))[١٠٢]. قد يُرى أو يُسمع من أديب ما مقابلة بأي نوع من الأنواع التي ذكرها البحث في أي نص معين فيحكم لها بالجودة ، أو رداءة، بحسب السياق الذي ذُكرت فيه ، ولكن البديع أن ترى مقابلة في مقابلة ، وأكثر من هذا ، بل أن هذه المقابلة الصغيرة تقابل في الجانب الآخر مقابلة مثلها . أليس هذا الإبداع بعينه ؟.

هذا الكلام خاطب به الإمام الخليفة الثالث حينما أرسله الناس إليه يستعبدونه في قسم من المسائل التي فيها قضاء حوائجهم. وهذا النص واضح العيان مفهوم المقصود ،

---

(١٠١) شرح نهج البلاغة : ٣٠٦/٦ .

(١٠٢) شرح نهج البلاغة: ٢٠٠/٩ .

فالإمام يذكر نوعين من العباد ، أحدهما : أفضل عباد الله لكونه يحمل الأوصاف التي ذكرها في الجانب الأول ، وثانيهما: أشر الناس لكونه يحمل الأوصاف التي ذكرها في الجانب الثاني. ومثلما قال البحث إنَّه جعل مقابلة ثلاثية (أقام سنة معلومة × أمات بدعة مجهولة) أمام (أمات سنة مأخوذة × أحيا بدعة متروكة)، وإن كان فيها لون بديعي آخر وهو – العكس والتبديل – ولكن يبدو أن المقابلة مهيمنة على الموقف . كذلك وجود الطباق في الجانب الأول (السنن × البدع). وحتى تكون المقابلة مؤثرة بالمتلقي سجَّل المستوى الصوتي حضوراً من خلال الجناس المُحرّف – بين (هُدِي– هَدَى)، (ضَلَّ – ضُلَّ) . ويمكن للمتلقي أن يتأمل هذا المظهر البديعي وما حققه من تلون في المعاني ، فالسر في ((أسلوب المقابلة كله في تهيئ مفاجأة أو خلق غرابة أو خرق عادة بتصوير حركة معينة في الانتقال من نقطة إلى أخرى تضادها وتوضيح توتر بينهما))[١٠٣]. فهذه هي فائدة المقابلة وما على المبدع إلاَّ أن يتفنن في وضعها في السياق المناسب حتى تخرج بأبهى صورة وأروع معنى.

(١٠٣) **خصائص الأسلوب في الشوقيات** : ١٢١ .

أولاً : الإجمال والتفصيل :

يمكن أن تُعدَّ الإجمال والتفصيل من الفنون البلاغية المميزة التي تدل على قدرة الأديب بالإمساك بزمام النص ، وقدرته على التحكم بفنون الكلام الأخرى ، وهذا اللون البديعي ورد في كلام القدماء ، والقرآن الكريم وشعر العرب ، وفي خطبهم لما يتركه من انطباع في نفسية المتلقي . وتجد أن حازم القرطاجني قد ذكره تحت عنوان ((تفسير الإجمال والتفصيل))[١٠٥].

ويعرف ((أن يأتي المتكلم بشطر بيت من شعر له متقدم في نثره أو نظمه صدر كان أو عجز يفصل به كلامه بعد أن يوطئ له توطئة ملائمة))[١٠٦].

وهذا المظهر يجمع بداخله ثلاثة فنون بديعية وهي الجمع والتقسيم والتفريق ، لكون هذه الفنون لا تخرج عن الإطار الذي يذهب إليه هذا المظهر. وجمع باحث معاصر هذه الفنون تحت هذا المظهر الذي نُكِر وهو الدكتور فايز القرعان حيث رأى أنها جميعاً تعتمد على طرفين أحدهما يبدو مجملاً أي يكون كُلاً، والآخر يكون تفصيلاً لذلك المجمل، ويرى أن هذا اللون يخدم القضايا البديعية حيث يشكل طبيعة أسلوبية تجري فيها الأنساق اللغوية المتشكلة على وفق علاقات بنائية مختلفة تكشف عن الحركة العقلية التي شكلت النص[١٠٧]. فهذا الفن تجده من ((أجدى العلاقات الدلالية التي يشغلها النص لضمان اتصال المقاطع ببعضها عن طريق استمرار دلالة معينة في المقاطع اللاحقة))[١٠٨].

وقبل أن نُعرِّج البحث بالكلام عن طرفي الإجمال والتفصيل نُعرِّف الفنون الثلاثة المنضوية تحت هذا الفن :

فالجمع هو ((أن تدخل شيئين فصاعداً في نوع واحد))[١٠٩].

---

(١٠٥) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٥٨ .

(١٠٦) أنوار الربيع : ١٦٦/٦ .

(١٠٧) ينظر : الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم (دراسة تحليلية) – د. فايز القرعان – مجلة أبحاث اليرموك – مج١٢ – ع١ – ١٩٩٤م : ٩-١٠ .

(١٠٨) لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) – د.محمد الخطابي– د.ط– المركز الثقافي العربي– بيروت – ١٩٩١م : ٢٧٢ .

(١٠٩) مفتاح العلوم : ٥٣٥ .

والتقسيم هو ((أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ، لا يخرج منها جنس من أجناسه))[١١٠].

والتفريق ((أن تقصد إلى شيئين من نوع ، فتوقع بينهما تبايناً))[١١١].

وأما الجمع مع التقسيم : ((هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه))[١١٢].

والجمع مع التفريق وهو ((الجمع بين شيئين في حكم واحد ثم التفريق بينهما في ذلك الحكم))[١١٣].

والجمع مع التفريق ، والتقسيم : ((هو الجمع بين شيئين ، أو أشياء في حكم واحد ثم التفريق بينهما في ذلك الحكم ، ثم التقسيم بين الشيئين ، أو الأشياء المفرقة بأن يضاف إلى كل ما يلائمه ويناسبه))[١١٤].

وتحفل خطب الإمام بمثل هذا الفن لما له من أثرٍ يسهم في تعميق المعنى ، وتوضيحه من جهة ، ويعمل على تثبيته في ذهن المتلقي من جهة أخرى .

ولذلك فالبحث يرى أن هذا المظهر يأخذ شكلين في هذا الخطب :

١- **البنية الثنائية .**

٢- **البنية المتعددة .**

وعلى هذا الأساس سيتم درسهما .

١- البنية الثنائية :

وهي أن : ((يتعلق بالإجمال عنصران متضمنان في التفصيل لا أكثر))[١١٥]. ومنه قوله (عليه السلام): ((**أيُّها النَّاسُ ، إنَّ أخْوَفَ ما أخَافُ عَلَيكُم اثْنَتَانْ : أتَّباعُ الهَوى ، وَطُولُ الأَمل ، فَأَمَّا أتِّباعُ الهَوى فَيَصُدُّ عَن الحّقِّ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنسِي**

---

(١١٠) كتاب الصناعتين : ٣٥٠ .

(١١١) مفتاح العلوم : ٥٣٥ .

(١١٢) علم البديع : ١٢١ .

(١١٣) المصدر نفسه : ١٢٣ .

(١١٤) المصدر نفسه : ١٢٤ .

(١١٥) الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم : ١٥ .

الآخِرة))[١١٦]. يعكس الإجمال والتفصيل الخوف الذي يراه الإمام على رعيته ، والذي يكمن في أمرين هما اتباع الهوى ، وطول الأمل ، ثُمَّ يأتي الإمام بـ(التعليل) موضحاً سبب هذا الخوف ، فالهوى يُعمي البصيرة ، ونتيجة هذا العمى الصدود عن الحق ، والصاد عن الحق واقع في النار. ولهذا ترى الناس يطلبون من الآخرين أن يُقوّموا أعمالهم فربما وُجد فيها خطأ ما؛ لأن الإنسان إذا أحب شيئاً أعمى بصيرته سواءً أكان هذا الشيء على حق ، أم على باطل. وأما الأمل فإنه ينسي الآخرة ، وهو صحيح ؛ لأن العبد يبقى مستغرقاً بملذات الدنيا طول الزمان وينسى ما وراءه من حساب . فإذا صار ذهنه مستغرقاً طول الوقت كان حاله مثل الأول الوقوع في النار كذلك . والرسم الآتي يوضح الفكرة خير توضيح :

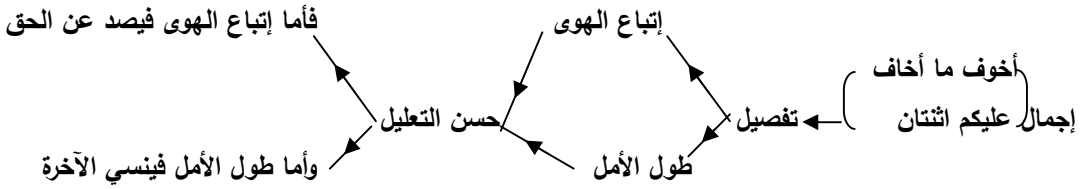

وقوله (عليه السلام) : ((**وَجَمَعَهُم بَعْدَ تَفَرُّقِهِم ، ثُمَّ مَيَّزَهُم لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ ، وَخَبَايَا الأَفْعَالِ وَجَعَلَهُم فَرِيقَيْنِ : أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلاءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلاءِ**))[١١٧]. تحدَّث الإمام عن الخلق في ذلك اليوم قبل أن يصل الإجمال والتفصيل تراه يُمهد بالطباق بين (جمعهم × تفرقهم) أي بعدها كانوا متفرقين في دار الدنيا ، ثم يُصِّعد من الموقف حينما يأتي بـ– السجع المرصع– (خفايا الأعمال –خبايا الأفعال) ، بالاشتراك مع – الجناس اللاحق – (خفايا – خبايا) ، وصولاً للتقسيم ، فالإجمال في قوله (اجعلهم فريقين) ، والتفصيل في (المقابلة) (أنعم على هؤلاء × انتقم من هؤلاء) والمعنى واضح ؛ لأن الذين أُنعم عليهم هم أهل الجنة بما صبروا وعملوا خيرا ، والذين انتقم منهم هم أهل النار بما طغوا وكفروا . ولو أمعنت النظر لوجدت أن الإمام بدأ هذا النص بالطباق ، وختمه بالمقابلة.

والرسم الآتي يوضح الفكرة :

---

(١١٦) شرح نهج البلاغة : ٢/٢٥٠ .

(١١٧) المصدر نفسه : ٧/١٥٨ .

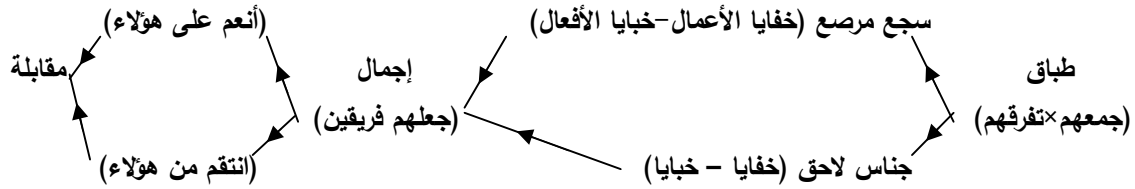

وقوله (عليه السلام) : ((**منْهُ مَعْرِفَتانِ قَصَّهُما لِخَلْقِه : مَعْرِفَةُ اسْتِغْراقٍ وَلِحاطَة ؛ وَمعرفةُ هِدَايَةٍ وَدِلالَ ـة فَأَمَّا مَعْرِ فَةُ الاسْتِغْراقِ وَالإِحاطَةِ فَغَيْرُ جائِزَةٍ لَهُ وَلا واقِعَةٍ عَلَيْهِ لِما تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الأَزَلِ وَالخُرُوجِ مِنَ الحَدَث . وأَمَّا مَعْرِفَةُ الدِّلالَةِ وَالهِدَايَةِ إِلَيْهِ فَغَيْرُ مُدْرَكَةٍ إِلاَّ مِنْ طَرِيقِ ما أَرْ كَتْ ضَرُورَاتُ ا لُعُقُولِ وَالأَوْهَامِ مِنْ شَواهِدِ الصُّنْعِ وَأَعلامِ التَّدبِيرِ وَالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ**))[118].

هذا الكلام جزء من خطبة تحدَّث فيها الإمام عن وحدانية الله عز وجل ومن بين الكلام برز مظهر الإجمال والتفصيل ليعطي حقيقة مهمة ، فَقدّم الإجمال (معرفتان قصهما لخلقه) ، وعاد بالتفصيل ليوضح هاتين المعرفتين وهما (معرفة استغراق وإحاطة) و(معرفة هداية ودلالة) ، ثُمَّ يتعمق في المعنى ليوضح للعباد هاتين المعرفتين .

فأما المعرفة الأولى : فقد قصد بها الزمان ، والمكان وقد نفاهما الإمام عن الله سبحانه وتعالى بـ(طباق الحرف) (له × عليه) مُكّملاً قوله بـ(التعليل) ؛ لأن جلالته لا يحد بزمان فهو الأول ، والآخر ، مثلما أنه لا يحد بمكان لقول الإمام لخروجه عن الحديث ؛ ولأن الحديث يحتاج إلى مُحدِث ، والمُحدِث كائن حي ، والكائن يُحدُّ بمكان . وحاشا لله هذين الأمرين . وأما الثانية : معرفة الدلالة والهداية فهي لا تدرك إلاَّ عن طريق التفكير في عجائب خلقه ، والتدبر في آياته الدالة عليه عند ذلك سيرى العبد أن هذا الأمر لم يكن بمحض المصادفة وإنَّما جاء عن تخطيط متقن وتدبير محكم .

٢- البنية المتعددة :

(١١٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٧/٣ .

وهي البنية التي((تتحرك من خلال إيراد ثلاثة عناصر أو أكثر في التفصيل))[١١٩].

والخطب التي ورد فيها ها النوع من الإجمال والتفصيل كثيرة منها قوله (عليه السلام) : ((**ألا وإنَّ الظُّلْمَ ثَلاثَةٌ : فَظُلْمٌ لا يُغفَرُ ، وَظُلْمٌ لا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لا يُطْلَبُ .فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذي لا يُغفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ ، قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ﴾[١٢٠]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذي يُغْفَرُ ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذي لا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبادِ بَعْضِهِم بَعْضاً**))[١٢١].

عرض الإمام في هذا النص ثلاثة أنواع من الظُلم عن طريق الإجمال والتفصيل ومن خلال البنية المتعددة ، فالإجمال في قوله (إن الظلم ثلاثة)، والتفصيل في تعدد أنواعه. والملاحظ هنا أن الإمام كرر لفظ (الظلم) تسع مرات؛ لينتبه المتلقي إلى ضرورة ما يقوله وأهميته. يعود بعد ذلك إلى بيان أقسام الظلم فقد بدء بذكر الظلم الأكبر وهو الذي لا يغفر حيث جعله أولاً لأهمية الوقوف عليه فالإشراك بالله عز وجل أمر عظيم ، أي أن يموت الإنسان مشركاً فهذا لا تفيده أي شفاعة وسيلقى في جهنم وبئس المصير، وتأكيداً لهذا المعنى حصل (تناص) آية من الذكر الحكيم للدلالة على أهمية هذه المسألة ، ووجود هذا النص القرآني يقطع على المسؤولين تأويل هذا المقطع بما يريدونه ، فهذا كلام الله وقد صدر الحكم القطعي بهذا الظلم . والظلم الذي لا يترك هو ظلم العباد بعضهم لبعض ، فإن الإنسان محاسب عن كل عمل يصدر منه ، ولو اقترف بحق أخيه من ذنب بقدر جناح بعوضة . وهذا الكلام يدعم القول السابق للإمام في أن يأتي الإنسان في ذلك اليوم مظلوماً وليس ظالماً ؛ لأن الظالم مقتص من ظلمه لا محال . وأما الظلم المغفور له ظلم العباد لأنفسهم في صغائر الذنوب ، أو بعض الزلات ، فالله سبحانه وتعالى برحمته شاء أن لا يُكشف عنها حتى لا يفضح العبد أمام الخلق وهذا من فيض عطائه الإلهي. ويبدو أن (طباق السلب) سَجَّل حضورا بين الفعلين (لا يغفر– يغفر) حتى يكون المتلقي بين الأمرين على علم ، ويعلم أن الله عز وجل عين العدل.

---

(١١٩) الإجمال والتفصيل في القرآن الكريم : ١٦ .

(١٢٠) النساء : ٤٨ .

(١٢١) شرح نهج البلاغة : ٢٨/١٠ .

وقوله (عليه السلام) : ((**تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلاث : [مِنَ] المِرَاءِ وَالإكثَارِ وَمَا لا يَعْنِيهِ وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلاث : كَانَ لا يَذُمُّ أَحداً وَلا يُعَيِّرُهُ ، وَلا يَطْلُبُ عَثَرَاتِهِ وَلا عَوْرَتَهُ وَلا يَتَكَلَّمُ إلا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ**))[١٢٢]، فالكلام هنا عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما يتحلى به من صفات ، وجاء الإجمال ، والتفصيل في هذا النص مرتين :

الأولى : فيما يخص نفسه فقوله (ترك نفسه من ثلاث) إجمال ، أي أنه لا يستعملها في حياته ، وقوله (المراء والإكثار وما لا يعنيه) تفصيل فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تحس منه أي مراء في القول ، بل كان قمة بالتواضع ولهذا انبهرت له ملوك الدنيا بما يحمله من تواضع ، وخُلقٍ رفيع ، وكذلك الإكثار فكان لا يكثر من الكلام في الأمور الاعتيادية ، بل تجده آذاناً صاغية لكل مظلوم أو من يريد أن يتعلم ، وتركه ما لا يعنيه فهذا واضح أنه لا يتدخل في شؤون غيره .

وأما الثاني : فهو فيما يخص الناس فالإجمال في قوله (وترك الناس من ثلاث) ، والتفصيل في قوله (لا يلزم أحد ولا يعيره ... رجا ثوابه) أي إنه من أخلاقه كان لا يعيِّر أحداً أنه فعل كذا وكذا قبل الإسلام على سبيل المثال ، أو في أي موضع كان ، وأنَّه لا يذمه ولا يطلب عثرات أو عورات أي شخص كان في مجلسه أو غير مجلسه ، ولا يتكلم إلا فيما يوجب له الثواب ، ويكفي من القول إن الله سبحانه وتعالى قال فيه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : ٤) ، والرسم الآتي يوضح البنية المتعددة في الإجمال والتفصيل .

وقوله (عليه السلام) : ((**خُذُوا مِنَ العِلمِ مَا بَدا لَكُم ، وَإِيَّاكُم أَنْ تَطْلُبُوهُ لِخصالِ أَربَعٍ : لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ ، أَوْ تُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ تُرَاؤوا بِهِ فِي المَجَالِسِ ، أَو تَصْرِفُوا وُجُوهَ**

(١٢٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/١٢٢ .

النَّاسِ إِيَّاكُمْ لِلتَّبَاهِي بِالرُّؤُسِ ، لَا يَسْتَوِي عِنْدَ اللهِ فِي الْعُقُوبَةِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ))[١٢٣]. هذا الكلام صدر منه للحثّ على طلب العلم ما بدا لهم لكنه حَثَّرهم من أن يطلبوه لأربع خصال صَوَّرها الإجمال ، والتفصيل بالبنية المتعددة ، فالإجمال في قوله (إياكم أن تطلبوه لخصال أربع) ، والتفصيل قوله (لتباهوا به – إليكم للترؤس) ، فمعنى القول إنه إذا كان طلب العلم لهذه المسائل التي ذكرها فإنه سيكون نقمة أكثر مما هو نعمة؛ لأنه خرج عن الموضع الذي أُريد منه الإفادة . فالعلم يُحصّل ليس لغرض المباهاة بين العلماء ؛ لأن ذلك سيولد الضغينة والحسد ، وإنه ليس ليماري به السفهاء ؛ لأنه سيؤدي إلى تصغير مكانة العالِم بين الناس ، أو تراءوا به في المجالس أي تظهرون للناس حقاً وتبطنون في أنفسكم باطلاً . أو تأخذون صدر المجالس بالكلام والحديث حتى تلتفت إليكم الأنظار لكي تكونوا قادة عليهم . ويلاحظ هنا إن الإمام بدأ الكلام بالطباق

(العلماء × السفهاء) وختم بالطباق (يعلمون × لا يعلمون) ، والرسم الآتي يوضح الفكرة :

طباق (العلماء×السفهاء) ← إجمال ← تطلبوه ← إياكم أن (لخصال أربع)
- لتباهوا به العلماء
- تماروا به السفهاء
- تراؤوا به في المجالس
- تصرفوا وجوه الناس

(يعلمون×لا يعلمون) – (طباق)

ثانيا: اللف والنشر :

يُعدُّ هذا الفن من المظاهر البديعية المهمة، وذلك بما يمنحه للنص من قوة وإثراء في المعنى من جهة، وبما يدل على ذوق وبلاغة من يستعمله في نصوصه من جهة أخرى.

والمبرد (ت٢٨٦هـ) من أوائل الذين التفتوا إلى هذا النوع حيث قال ((والعرب تلف الخبرين المختلفين ثُم ترمي بتفسيرهما جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره))[١٢٤].

وذكر آية استشهد بها في كثير من المواضع ، قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ (القصص: ٧٣).

---

(١٢٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٢/٣ .

(١٢٤) الكامل – لأبي العباد المبرد – تحقيق د. زكي مبارك – د.ط – د.م – ١٩٣٦م : ١١٢/١ .

ويتحدث ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) عن التناسب حيث يقول : ((ومن التناسب أيضاً حمل اللفظ على اللفظ في التركيب ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً وإلى المؤخر مؤخراً))[١٢٥] . ونظرة ابن سنان فيها إشارات تدل على هذا الفن .

وللدكتور عبد الفتاح لاشين رأي في حديثه عن جذور اللف والنشر حيث يقول : ((وما جرى عليه الزمخشري سبقه فيه القاضي إلاّ أن الزمخشري كان صاحب فضل وسبق في تسمية هذا النوع (اللف) ومن ذاك الزمان والاسم على هذا النوع كما أطلقه الزمخشري))[١٢٦]. فتسمية اللف بدأت من الزمخشري وسار علماء البلاغة على هذه التسمية.

ويُعرّفه السكاكي بقوله :((أن تلف بين شيئين في الذكر، ثم تتبعهما كلاماً مشتملاً على متعلق بواحد وبأخر من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كُلاً منهما إلى ما هو له))[١٢٧].

وما ذكره البحث هو تعريف العلماء لهذا الفن أما ((وجه تسمية هذا النوع من البديع باللف ، والنشر ، أن المتعدد المذكور على جهة التفصيل أو الإجمال ، قد انطوى فيه حكمة لأنه اشتمل عليه من غير تصريح به ، ولذا سمي (لفا) أو (طيا) فلما صرح بعد ذلك بالحكم المطوى كان كأنه نشر إبرازاً له ولذا سمي (نشراً)))[١٢٨] .

وينقسم اللف والنشر من حيث وجوده في الخطب العلوية على قسمين :

١- **اللف والنشر المرتب .**

٢- **اللف والنشر المفصَّلْ .**

١- اللف والنشر المرتب :

---

(١٢٥) سر الفصاحة : ٢٢٠ .

(١٢٦) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية – د. عبد الفتاح لاشين – د.ط – دار الفكر العربي – مطبعة دار القرآن – د.ت : ٦٩٤ .

(١٢٧) مفتاح العلوم : ٥٣٤ .

(١٢٨) علم البديع : ٨٣/٢ .

وهو ((بأن يكون الأول من المتعدد في النشر للأول من المتعدد في اللف ، والثاني للثاني وهكذا إلى الآخر))[١٢٩].

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**أيُّها النَّاسُ ، إنَّما يَجمعُ النّاسَ الرِّضَا والسُّخْطُ وإنّما عَقَرَ ناقَةَ ثُمودَ رجلٌ واحِدٌ فَعَمَّهُم اللهُ بالعَذابِ لَمَّا عَمُّوهُ بالرِّضَا ، فَقالَ سُبْحانَهُ (فَعَقَروها فَأَصبَحُوا نادِمينَ)**[١٣٠]))[١٣١]. وضَّح الإمام فكرة للناس إنَّ الجرم لا يقتصر على من يقوم به وإنما يكون على من رضي به ، مُتَّخذاً من حادثة عقر ناقة ثمود بُعداً تناصبا يخدم السياق على وفق الرؤية الأسلوبية جاعلاً من اللف ، والنشر المرتب مرآة تعكس الصورة للمتلقي ، فقد (لف) بين الرضا ، والسخط لكونهما ينصبان في اتجاه واحد وهو ما يجمع الناس ، ثُمَّ عاد و(نشر) كيفية هذا اللف عن طريق ذكر هذه الحادثة ، فالرضا حاصل في كون القوم لم ينهوا عاقر ناقة ثمود عن قتلها ولم يفعلوا له شيئاً بعد قتلها وهذا عائد إلى الرضا ، والسخط حاصل نتيجة الموقف الذي أقدموا عليه ، وختمها الإمام بآية من القرآن الكريم تؤكد اشتراكهم في قتل الناقة نتيجة الرضا ، وتدعم قوله الذي ذهب إليه . والرسم الآتي يوضح الفكرة :

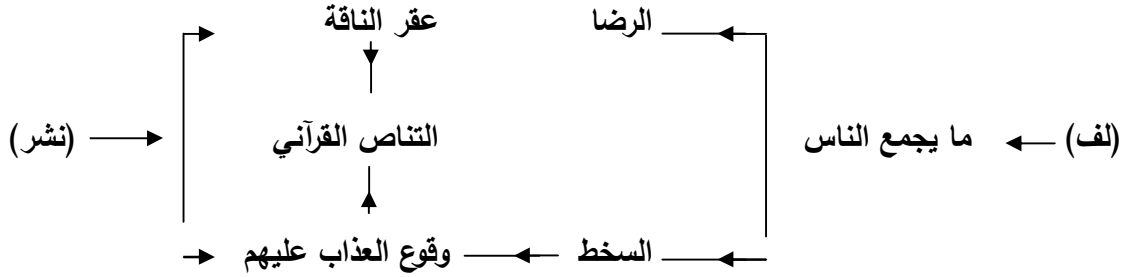

وقوله (عليه السلام) : ((**فَكانَ ذَهابُهُ أعظَمَ المُصيبَةِ عَلَى جَميعِ أهْلِ الأرْضِ ؛ وَالبَرِّ وَالفَاجِرِ**))[١٣٢]. تحدَّث الإمام عن الألم الذي حلّ بالمؤمنين على وجه الخصوص ، وبالمشركين عامة نتيجة وفاة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تاركاً التعبير للف والنشر ليوضح عمق المأساة ، فـ(اللف) يكمن في كون موته مصيبة على جميع أهل الأرض

---

(١٢٩) علم البديع – د. عبد العزيز عتيق : ١٣٥ .

(١٣٠) الشعراء : ١٥٧ .

(١٣١) شرح نهج البلاغة : ٢١٠/١٠ .

(١٣٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٤٧/٢ .

بدون استثناء ، و(النشر) ليوضح الخاسر الحقيقي من هذا الفقد . فـ(البرِّ) بما يقدمه له من نصح ، وثواب ، وعلم . و(الفاجر) – كان (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) –مانعاً لهم من سقوط العذاب عليهم ، وقد أوضح البحث ذلك بالنص القرآني المذكور في هامش فصل بلاغة الصوت أن النبي (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) لطالما كان معهم فإن الله لن يعذبهم ، ولكن إذا ذهب عنهم فأنهم سيعذبون في أي وقت . وهذه هي نعمة وجود النبي معهم . فهم أيضاً خسروه . والرسم الآتي يوضح الموقف .

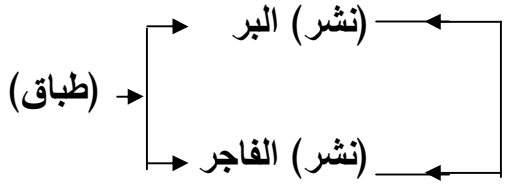

٢- اللف والنشر المفصل :

وهو مجيء اللف ، والنشر على غير الترتيب بأن يكون اللف الأول للنشر الأول وهكذا ، ويكون أن يرد السامع ، أو القارئ إلى كل فريق قوله[١٣٣].

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**وَقَدَّرَ الأرزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا ، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا**))[١٣٤] .

الكلام هنا عن كيفية تقدير الأرزاق وتوزيعها على العباد من عند الله عز وجل ، وله في كل موضع من هذه المواضع التي ذكرها الإمام غاية وحكمة . فهو في هذا النص يُقدِّم اللف والنشر بنوعيه المرتب ، والمفصل ، فالمرتب حينما (لف) بين الكثرة ، والقلة في تقدير الأرزاق ، ثُمَّ عاد إلى (النشر) موضحاً ذلك بـ(التعليل) ليبتلي العباد بالميسور، والمعسور، وجاء بعد ذلك بالمفصل حيث (لفّ) بين الضيق ، والسعة في تقسيم الأرزاق، ثم جاء بـ(التعليل) ليوضح (النشر) حين قدّم الشكر، وأخر الصبر. فالشكر مع السعة بسبب وجود النعمة ، والصبر مع الضيق لعدم وجودها . وهذا التقديم ، والتأخير إنما جاء ليحرك المتلقي وينقله من موضع إلى آخر .

---

(١٣٣) ينظر : علم البديع : ١٣٧ .

(١٣٤) شرح نهج البلاغة : ١٨/٧ .

والرسم الآتي يوضح الفكرة :

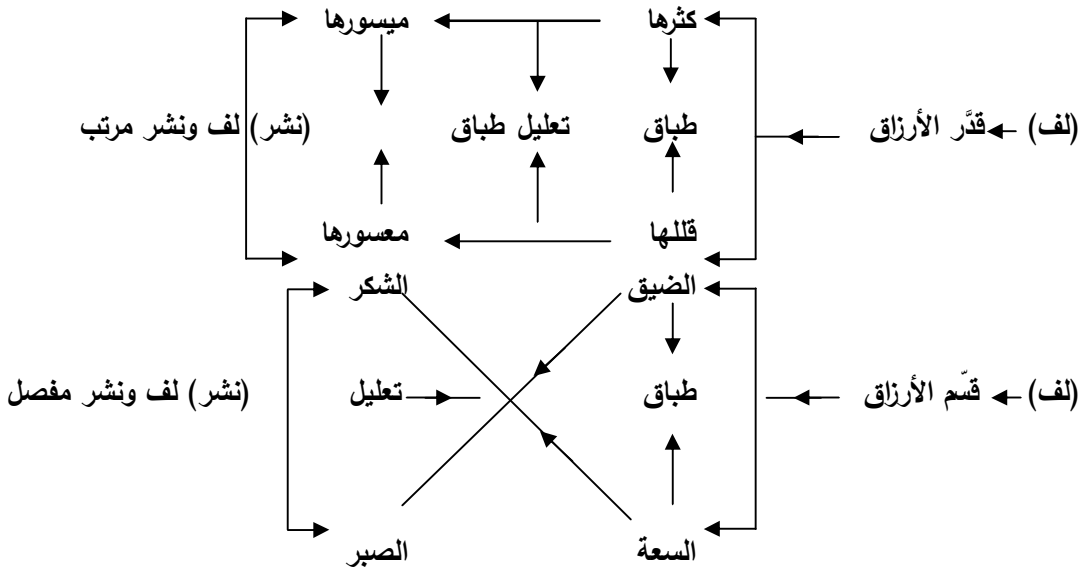

وقوله (عليه السلام) : ((**فَ اْبصُروا مَعادنَ الجَورِ وَاسْتَقصُوا بالثَّمّ أثَارَها وَاستَروحُوا إلى طَاعَةِ مَنْ لا تُعذُرونَ بِجَهالَته ثُمَّ رِدُوا [ألا] هَذا عَذْبٌ فُراتٌ [فَاشرَبُوا مِنْهُ و] هَذا مِلحٌ أُجاجٌ [فـ] أحذُرو[هُ]**)) [١٣٥].

الكلام هنا عن المؤمنين الذين أبصروا الحق عن طريق اللف والنشر المفصل الممزوج بـ(المقابلة) فهو ((ذكر أولاً معادن الجور أخّر أمره بالحذر عنهم .ثُمَّ ذكر ثانياً معادن الحق))[١٣٦]. وعن طريق قوله (واستروحوا إلى طاعة من لا تعذرون بجهالته) مؤخراً الحذر من شرب الماء الأُجاج . والرسم الآتي يوضح المقصد :

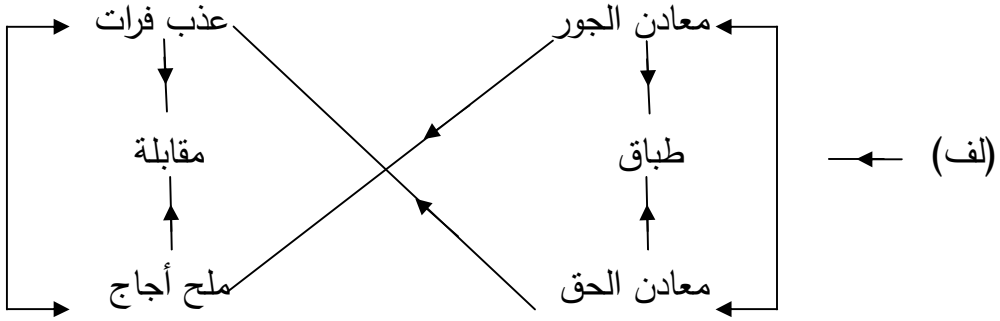

---

(١٣٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٨٥/٢ .

(١٣٦) هامش نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٨٥/٢ .

إذن فاللف والشر قدَّم لهذه الخطب شحنات أسلوبية واضحة من خلال تقديم الصورة التحاورية بين الإمام والناس من جهة ، ومن خلال إضفاء الطابع الجمالي والفني للخطبة من جهة أخرى .

ثالثا: التتميم :

من المظاهر البديعية الذي يدل وجوده في النص على القدرة التي يتحكم بها المبدع في إحكام كلامه من خلال تقديم الكلام بموقفين فمرة يمسك بالكلمات يشك المتلقي أنه هو المعنى المراد ، ومرة يطلق عنانها ليفاجئه بالمعنى الذي يريده المبدع.

وعلماء البلاغة تحدّثوا عنه بألفاظ مختلفة ، فهي وأن اختلفت تسمياتهم لهذا المظهر فأن تعريفاتهم منصبّة في إطار واحد .

فابن المعتز يجعله ضمن ما يسمى بـ(الاعتراض) معرفا إياه بعد عدِّه من محاسن الكلام قوله : ((اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ثم يعود إليه فيتممه))[١٣٧].

ونبَّه ابن أبي الإصبع المصري إلى أن الحاتمي قد سمّاه في الحلية بالتتميم[١٣٨].

وهذه التسمية هي الأقرب إلى روح الفن لأنها تناسب مع ما يريده الأديب من سداد المعنى ، وخلق المفاجأة عند استعماله.ثُمَّ توالت أقوال العلماء على هذه التسمية فنجد أن قدامة بن جعفر يرى التتميم من نعوت المعاني ، ويرى أن الذي يذكر المعنى تراه لا يدع شيئاً من الأشياء التي بها صحته أو تستحمل بها جودته إلاَّوأتي بها[١٣٩]. وأما عن أبي هلال العسكري فقد عقد له فصلاً سماه (التتميم والتكميل) وهو ((أن توفي المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلاَّتورده أو لفظاً فيه توكيده إلاَّتذكره))[١٤٠]. وما ذهب إليه العسكري سبقه فيه ابن المعتز باختلاف التسمية عند الطرفين .

---

(١٣٧) البديع : ١٥٤ .

(١٣٨) ينظر : تحرير التحبير : ٨٥/١ .

(١٣٩) ينظر : نقد الشعر : ١٣٧ .

(١٤٠) كتاب الصناعتين : ٤٠٤ .

وأما ابن الزملكاني (ت٦٥١هـ) فيعرفه بقوله : ((أن تأخذ في بيان معنى فتورده غير مشروح فيقع لك أن السامع لا يتصوره بحقيقته فتعود إليه مؤكداً أو موضحاً))[١٤١]. وغاية ابن الزملكاني أن لا يشوب الكلام النقص أو الغموض . ويقدِّم ابن أبي الإصبع المصري رأياً حيث يقول ((أنه الكلمة التي إذا طرحت من الكلام نقص حسن معناه أو مبالغة مع أن لفظة يوهم بأنه تام ، وهو على ضربين : ضرب في المعاني ، وضرب في الألفاظ : فالذي في المعاني هو تتميم المعني ، والذي في الألفاظ هو تتميم الوزن))[١٤٢].

والذي يخص البحث هو النوع الأول من التتميم . وعند العلوي (ت٧٤٩هـ) التتميم على ثلاثة أنواع فهو أما للمبالغة ، أو للصيانة أي الاحتراز ، أو لإقامة الوزن[١٤٣] .

وأما عن الزركشي (ت٧٩٤هـ) فيعرفه ((هو أن يتم الكلام فيلحق به ما يكمله أما مبالغة أو احترازاً أو احتياطاً . وقيل : هو أن يأخذ في معنى فيذكره غير مشروح وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحاً))[١٤٤]. ويبدو أن الزركشي لم يخرج عن ما ذهب إليه العلوي في تعريفه .

والبحث يرى أن التتميم المعنوي هو السائد في خطب الإمام ليس بسبب النقص في كلامه، ولكن حتى لا يتلاعب قسم من الناس بألفاظه يأخذون ما يريدون ويتركون ما لا يعجبهم، فجاءهم بالتتميم في كلامه حتى يقطع عليهم ما يجول في خواطرهم .

فمنه قوله (عليه السلام) : ((**فملأهن أطواراً من ملائكته ، مِنْهُم سُجُودٌ لا يَرْكَعونَ ، وَرُكُوعٌ لا يَنْتَصِبُونَ**))[١٤٥]. هذا الكلام جزء من خطبة تحدَّث فيها الإمام عن أنواع الملائكة ، وأقسامها ، والعمل الموكل إليها ، حيث ذكر هنا الصنف الأول فقال منهم الذين يسجدون ولا يقومون للركوع ، ثُمَّ ذكر بعد ذكر متمماً للقول الأول النوع الثاني من الملائكة وهم الذين يركعون ولا يسجدون ولو اكتفى بالقول الأول وذكر الأنواع الأخرى لكان نقصاً في الكلام.

---

(١٤١) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن – ابن الزملكاني – تحقيق د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثي – ط١ – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٤م : ١٨٧ .

(١٤٢) تحرير التحبير : ١٢٧/١ .

(١٤٣) ينظر : الطراز : ١٠٤/٣ .

(١٤٤) البرهان في علوم القرآن : ٤٧/٣ .

(١٤٥) شرح نهج البلاغة : ١٠٦/١ .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ . اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَأَنتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ ، وَلا يَجْمَعُهَا غَيْرُكَ لأَنَّ الْمُستَخْلَفَ لا يَكُونُ مُستَصْحَباً وَالْمُستَصْحَبَ لا يَكُونُ مُستَخْلَفاً**[١٤٦]))[١٤٧]. هذا النص قاله حينما توجه إلى الشام بجيشه في واقعة صفين ومن طبيعة المؤمنين حينما يتوجهون في سفر معين يذكرون أدعية تحميهم من مخاطر الطريق. فكيف الحال إذا كان التوجه للحرب ؟ يبدأ الإمام كلامه بحديث (تناص) للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يتناسب مع جو الحرب وشاهد القول أن الإمام تمَّ الحديث بقوله (ولا يجمعهما غيرك) وهذا صحيح ؛ لأن الصاحب لا يكون مستخلفاً ، كما أن المستخلف لا يكون صاحبا بالنسبة للأجسام ؛ لأنه شيء مستحيل ، لكنه جائز لله عز وجل وهذه واحدة من صفاته التي تدل على قدرته . ولعل الإمام أوضح فكرة أكثر حين جاء بالتعليل الممزوج بالعكس والتبديل ليبين لهم قوة وعظمته الله سبحانه وتعالى .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُمَّ أغفِرْ لَنا وَلِلْمؤمِنينَ وَالْمؤمِنَاتِ الأَحْيَاءِ مِنْهُم وَالأَمْوَاتِ؛ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُم عَلَى دِينِكَ وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ صلى الله عليه وسلم**))[١٤٨].

الجو السائد على الخطبة هنا الدعاء ويبدو أنه في منتهى خطبة – حسن الانتهاء – وفي هذا النص أكثر من التتميم ، فالأول هو (المؤمنين ، والمؤمنات) حتى لا يقول قائل إن الإمام حينما قال قصد الجميع بدون استثناء على عدِّ سواء ، والتتميم الثاني الحاصل في الطباق (الأحياء × الأموات) فهو لم يقتصر بالرحمة على الأحياء وإنما جاء بالأموات لأنهم أحوج إليها من الأحياء ؛ والسبب في ذلك أن الأحياء مازالت الفرصة في أيديهم ليعملوا صالحاً ويزيدوا في حسناتهم ، أما الأموات فقد انقطع عنهم كل شيء ولا ينتظرون إلا رحمته

---

(١٤٦) يشير البحث إلى قول الإمام (عليه السلام) في نسخة أبن أبي الحديد المعتمدة في الدراسة كانت في الأصل من قوله ((لأن المستخلف لا يكون مستخلفاً)) وهذا يتنافى مع العقل وحينما رجع إلى شرح ابن ميثم البحراني للنهج، ونسخة محمد عبده وجدها تختلف مع ما ذهب إليه أبن أبي الحديد ، وأغلب الظن أن الخطأ الحاصل هنا من قبيل الخطأ المطبعي ، ولهذا اعتمد البحث في تكملة هذا المقطع الحاصل فيه التعليل ، والعكس والتبديل على شرح ابن ميثم البحراني ويمكن القارئ كراجعة ذلك . ينظر شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٢١/٢ .

(١٤٧) شرح نهج البلاغة : ١٢٩/٣ .

(١٤٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٤٦/٣ .

سبحانه وتعالى إنه هو الرحيم الودود . والتتميم الثالث (الذين توفيتهم ...) فقد خص هؤلاء المؤمنين المشمولين بالرحمة بالكلام الذي ذكره ومعناه واضح . ولو نقص نوع من هذه الأنواع المتممة لقلّت القيمة البلاغية لذلك النص .

وقوله (عليه السلام) : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ دِينَكُم دِينَكُم فَإِنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الحَسَنَة في غَيْرِهِ وَالسَّيِّئَةُ فِيهِ تُغْفَرُ ، وَالحَسَنَةُ في غَيْرِهِ لا تُقْبَلُ**))[١٤٩].

يُصعِّد الإمام من القيمة الأسلوبية في هذا النص حينما يبدأ بمظهر صوتي مثل – التكرار الوسطي – في قوله (دينكم دينكم) أي ألزموه وحافظوا عليه ، حتى تكون الآذان مصغية إليه والقلوب مجتمعة عليه ثم (علل) لهم السبب في وصيته لهم بالتمسك بدينهم ؛ لأن السيئة فيه خير والحسنة في غيره مرفوضة . والذي يدعم قوله هنا في هذا التعليل (التناص المعنوي) الذي استند عليه من خلال آية من الذكر الحكيم ، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران : ٨٥) فالناس إلى هذا المقطع لم تعلم كيف أن السيئة فيه تغفر والحسنة في غيره ترفض ، فلما جاء التتميم حسم المسألة وقطع الشك باليقين ، فالسيئة فيه تغفر ؛ لأن الإنسان إذا أقدم على سيئة وطلب التوبة في الدين الإسلامي فإن الله غفور رحيم ، ولكن إذا أرتد عن الدين الحنيف والعياذ بالله من ذلك وَعَبَدَ اللهألف عام راكعاً ساجداً صائماً فإنه لن يقبل منه جرّاء عمله هذا .ولو حذف المتلقي المقطع الذي حصل به التتميم لبقي الكلام ناقصاً ، معرضاً للتأويل من كافة الجوانب.

رابعا: حسن التعليل :

قد يلف الكلام الغموض في معناه بصورة كلية أو جزئية في بعض الأحيان وهذا الأمر لا ينشأ أحياناً من قبيل المبدع ، ولاسّيما إذ كان المبدع على درجةٍ عالية من (الأدبية) مثل الإمام علي (عليه السلام) ، وحصول الغموض يكون نتيجة اختلاف عقول الناس فيما بينهم ، ولهذا جاء (حسن التعليل) ليرفع هذا الغموض من النص مع إضفاء قيمة جمالية ومعنوية تسهم في ارتقاء النص إلى أعلى المستويات ليتقبله المتلقون بين الحين والآخر.

---

(١٤٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٤٧/٣ .

وعلى الرغم من كلام علماء البلاغة فيما يخص الفنون البديعية إلاّ أن هذا الفن لم ينل من العناية والحظ إلاّ بعد ما أشار إليه ابن سنان الخفاجي حين سمّاه بـ(الاستدلال بالتعليل) [١٥٠]. بدون تعريفه ، وهذا الأمر سبَّب إشكالية ما بين النقاد المحدثين بين معارض لهذا الرأي وبين مؤيد له فالدكتور منير سلطان يرفض أن يكون (التعليل) من مبتدعات الخفاجي معللاً ذلك بأنه حينما ذكر (الاستدلال بالتعليل) قصد به الاستشهاد ، داعماً رأيه بفكرة وردت عنده تقول ((من المستبعد أن يظل الدرس البلاغي مفتقداً إلى الإشارة لفن التعليل طوال هذه القرون في انتظار ظهور ابن سنان الخفاجي ، فحديثه لا يدل على أنه اقترع القول فيه ، ولكن ليست بين أيدينا غير هذا – حسب علمي))[١٥١]. وتراه كذلك لا يتوافق مع من ذهب إلى أن الخفاجي هو أول من ابتدع هذا الفن وهو الدكتور أحمد موسى الذي قال ((... ومن هنا تستطيع أن تحكم أن ابن سنان الخفاجي أول من عرض لحسن التعليل من المؤلفين في البديع بعد أبي هلال ثم تلاهما عبد القاهر ، فسماه ، التخييل))[١٥٢].

والبحث يختلف مع قول الدكتور منير سلطان ، ويتفق مع الدكتور أحمد موسى . فمن جهة الاختلاف إن الدكتور لم يقدم دليلاً قاطعاً على أن الاستدلال بالتعليل الذي قدّمه الخفاجي هو الاستشهاد مثلما أن مجرد التكهنات بكون عدم الإشارة بالتحديد لهذا الفن لا تنفي اسبقيته للخفاجي . فالساحة النقدية لا ترضى بغير الدليل القاطع حتى تجرد هذه الأسبقية من الخفاجي .

وأما من جهة الاتفاق مع الدكتور أحمد موسى كون الخفاجي قدَّم شواهد قرآنية ، وشعرية تحمل في فضائها مسوغات (حسن التعليل) فعلى سبيل المثال الآية القرآنية التي ذكرها ، قال تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء :٢٢) فالتعليل في (لو) معللاً أن السموات ، والأرض لو كانت لغيره عز وجل لأختل نظامهما بسبب تعدد الإلهة، وفساد النظام. ولكن لكونهما بتدبير من الله كانتا على نظام واحد وعلى هذه الحالة.

---

(١٥٠) سر الفصاحة : ٣٢٧ .

(١٥١) البديع تأصيل وتجديد : ١٨٦ .

(١٥٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية – د. أحمد إبراهيم موسى – د.ط – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٦٩م : ٢١٧ .

وأما ما أشار إليه في أن أبا هلال العسكري سبق الخفاجي في هذا الفن ، فيبدوا أنَّ العسكري قد خلط بين (المذهب الكلامي)[١٥٣] وحسن التعليل حينما أورد بعض الشواهد التي تحمل في داخلها مسوغات حسن التعليل مع المذهب الكلامي ، والفرق ما بين الاثنين شاسع وبعيد كل البعد[١٥٤].

وتحدَّث عبد القاهر الجرجاني عن هذا الفن تحت ما يسمى بـ(التخييل) موجهاً كلامه إلى الشعراء بقوله ((وجملة الحديث أن الذي أريده بالتخييل ههنا ، ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت ، ويدَّعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى))[١٥٥]. فنظرته إلى هذا اللون نظرة فنان بارع غاية البراعة فهو يطلب أن يكون التعليل قريب من التخيل حتى يكون ظريفاً مقبولاً وحتى لا يخرج عن الأطر البلاغية ويدخل في الكلام العادي .

ويعرفه الرازي (ت٦٠٦هـ) بقوله : ((وهو أن يذكر وصفان أحدهما على للآخر ويكون الغرض ذكرهما جميعاً))[١٥٦]. ويقدِّم المصري أخر بقوله ((هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة العلة تقدم على المعلول))[١٥٧].

وأما الزركشي فهو يرى ((أن ذكر الشيء معللاً أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين : أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول . الثاني : أن النفس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها))[١٥٨]. وما ذهب إليه الزركشي صحيح ، ولاسّيما فيما عناه عن النفوس ؛ لأن النفس تميل إلى معرفة كل شيء وتأخذ موقفاً سلباً أحياناً من الأشياء الغامضة. ولعل الدكتور فاضل التميمي انصف (حسن التعليل) حينما تطرق إليه بالقول

---

(١٥٣) ينظر : البديع : ١٤٧ حيث جعله ابن المعتز في المرتبة الخامسة ، ويُعرف بأنه ((إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل المنطق وهي أن تكون المقدمات مسلمة مستلزمة للمطلوب)) ينظر : هامش المصدر نفسه.

(١٥٤) ينظر : كتاب الصناعتين : ٤٢٦ .

(١٥٥) أسرار البلاغة : ٢٧٥ .

(١٥٦) نهاية الإيجاز في دراية الأعجاز : ١٥٠ .

(١٥٧) تحرير التحبير : ٣٠٩/٢ .

(١٥٨) البرهان في علوم القرآن : ٦٠/٣ .

((أنه نمط من التوليد الأدبي القائم على مبدأ العدول،أو الانزياح...والأسلوبية كماهو معلوم تتبع مواطن الانزياح هذه وتحاول أن تجد تعليلاً لها مرتبطاً بالنصوص الأدبية))[١٥٩] .

وهذا الفن سجّلى حضوراً بارزاً في خطب الإمام (عليه السلام) ؛ وذلك لأن سجية قسم من المسلمين كانت لا تستجيب للخطاب الذي يحدثهم به فكان على الإمام أن يأتي بالتعليل بحسب السياق الذي يقتضيه ، ومن خلال قراءة البحث لهذه الخطب برزت ثلاثة أنواع مظاهر حسن التعليل وهي :

١- **التعليل المثبت .**

٢- **التعليل المنفي .**

٣- **التعليل الشرطي .**

١- التعليل المثبت :

وهو التعليل الذي يرد في النص لإثبات أمر حصوله سيكون في المستقبل عند حدوث العلة قبلها .

ومثال هذا النوع من التعليل قوله (عليه السلام) : ((**وَاعَلُموا أَنَّكُم بِعَيْنِ الله ، وَمَع ابن عَمَّ رَسُولِ الله . فَ عاوِلُوا الكَرّ ، وَاستَحُوا مِنْ الفَرّ ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ ، وَنَا رٌ يَوْم الحِسَابِ**))[١٦٠]. هذا الكلام قاله لأصحابه في بعض من أيام صفين ، وهنا في هذا الموقف يتطلب من الإمام أن تكون كلماته ثاقبة على المستويين الصوتي والدلالي حتى تجتمع القلوب على كلمته ، وتنطلق الأيدي من عنده إلى منازلة عدوه . وهذا النص هو على وفق المواصفات التي يريدها البحث ، فالإمام يبدأ – بتكرار معنوي– حين يقول لهم (أنكم بعين الله ، ومع ابن عم رسوله) وهذا يكون في معنى واحد وهو (أنكم مع الحق) أي أن الله ينظر إليكم ويراكم كيف تعملون ، وأنكم مع ابن عم الرسول ، وطاعتي مثل طاعة الرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وينتقل بعد ذلك إلى – الجناس اللاحق – ما بين (الكّر – الفّر) متخذاً من هذا الجناس وسيلة لتحذير المسلمين وتنبيههم على هذا الأمر المهم فهو يخاطبهم أن يكروا على العدو مرة بعد أخرى ، وأن يستحوا من الفرِّ. ويأتي التعليل ليوضح

---

(١٥٩) البديع في الدرس البلاغي والنقد العربي : ٣٤ .

(١٦٠) شرح نهج البلاغة : ١٣٦/٥ .

لهم الدلالة بصورة أكثر حتى لا يقولوا لم نعلم عاقبة عملنا . ويرجع الإمام مرة إلى – الجناس اللاحق– (عار – نار) موضحاً لهم عواقب فعلتهم إذا أقدموا عليها أنها ستكون سُبَّة في أعقابهم و سوف يُعيّرون من قبل الأبناء إذا حاولوا الفرار من المعركة ، ولاسّيما أن العرب كانت تستقبح الفِرار كثيراً ، وأنه بفرارهم قد أوجبوا النار لأنفسهم . وذلك ؛ لأن الفرار من الزحف ، والزحف من الذنوب العظيمة ، وهذا القول من القرآن الكريم(١٦١). فالإمام جاء بالتكرار المعنوي تأكيداً على أن الحق معه وحتى لا تزيغ قلوب المسلمين ، وأنه جاء بالجناس اللاحق في العلة والمعلول لكي يكون المعنى إضحاً عند المسلمين ومؤثراً فيهم. حتى ختم تعليله بمعنى أثاره موجودة في كتاب الله الذي يحتكم إليه كل المسلمين.

وقوله (عليه السلام) : ((**فَلا تَنَافَسُوا فِي عَزِّ الدُّنْيا وَفَخْرِهَا ، وَلا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعْيِمِهَا ، وَلا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلى انْقِطَاعٍ ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلى زَوَالٍ ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤسَهَا إِلى نَفَادٍ**))(١٦٢).

نهى الإمام المسلمين عن أتباع الدنيا على طريقة (اللف والنشر) . فقد لف على المنافسة للدنيا العز والفخر. ولف على العجب الزينة والنعيم ، ولف على الجزع الضُرَّ والبؤس، وحتى لا يبقى في قلوبهم شعور بالميل إلى الدنيا قطعه بالتعليل المزين بالنشر حين أوضح لهم أن ذلك العز والفخر إلى انقطاع ، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال ، وضرائها وبؤسها إلى نفاد، والنص بغاية الوضوح ولا يحتاج إلى أي تأويل ، فالتعليل كشف عن حقيقة الدنيا التي يسعى إليها الناس .

والرسم الآتي يوضح الفكرة أكثر :

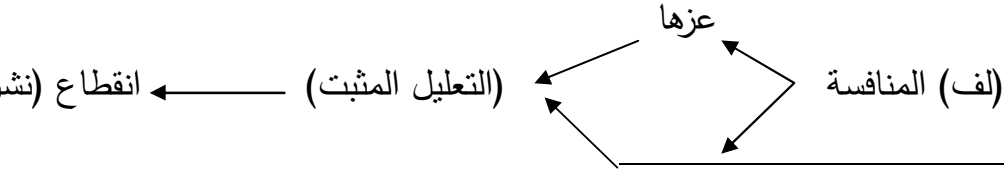

(١٦١) قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال :١٦) .

(١٦٢) شرح نهج البلاغة : ٦٣/٧ .

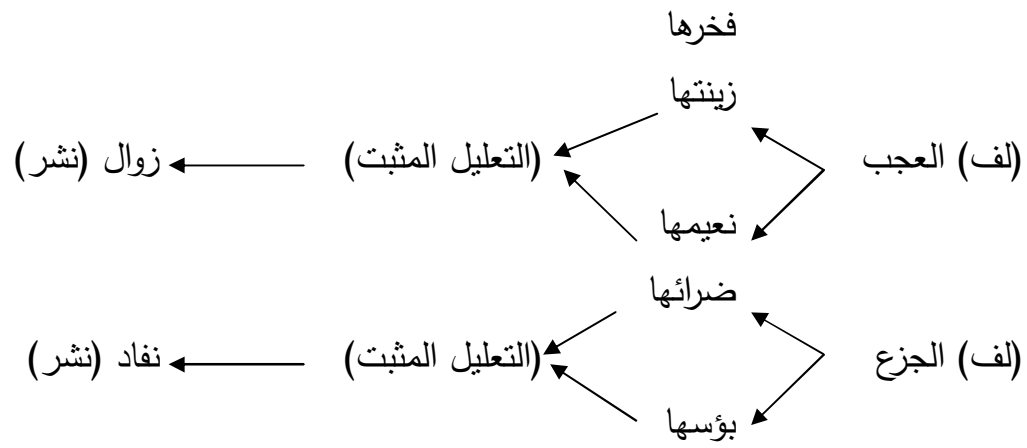

وقوله (عليه السلام) لأحد المسلمين حين سأله عن قوس قُزح ؟ فكان جوابه : ((**لا تَقُلْ قَوْسُ قُزَحٍ فإنَّ قُزَحَ هُو الشَّيطَانُ وَلكِنَّه القَوْسُ وَهوَ أَمانٌ مِنَ الغَرَقِ**))[١٦٣]. رفض الإمام تسمية السائل القوس قزح معللاً له ذلك أن قزح هو اسم من أسماء الشيطان ، ونقل صاحب لسان العرب المعنى نفسه الذي ذهب إليه الإمام بقوله ((لا تقولوا قوس قزح فإن قزح اسم شيطان ... وقالوا قوس الله أمان من الغرق))[١٦٤]. فأما كونه قوس الله فهذا صحيح ؛ لأن الألوان الظاهرة في كبد السماء تُعبَّر عن قدرة الله عز وجل في صنع أي شيء فما دخل الشيطان في هذا ؟ وأما عن كونه أماناً من الغرق فالإمام وضَّح ذلك في غير موضع أنه ((لا غرق بعد قوم نوح))[١٦٥]. ولعل هذه واحدة من الكرامات التي أطلعها الله إلى أوليائه في أرضه .

٢- التعليل المنفي :

وهو التعليل الذي يحصل النفي فيه أما من جهة العلة أو من طرف المعلول . وغالباً ما يأتي النفي مع العلة ليكون المعنى أكثر رسوخاً في الذهن .

---

(١٦٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٤٥/٢ .

(١٦٤) لسان العرب – مادة (قُزَح) : ٣٥١/٧ .

(١٦٥) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥٤٧/٢ .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**فَبادُروا العَمَلَ ، وَخافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ ، فَإِنَّهُ لا يُجْنى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ ، مَا يُجْنى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزقِ**))[١٦٦]. يحمل هذا النص في سياقه أموراً عديدة بدء بأمره أن يبادروا إلى الفرائض ويؤدوها على أتمِّ وجهها ، وتحذيراً من وقوع الموت عليهم في أي لحظة ، وحتى يستفيق الناس من غفلتهم ويتركوا دنياهم أتاهم الإمام بالتعليل الممزوج بـ(طباق السلب) (لا يرجى × يرجى) في صورة (متقابلة) لطيفة تكمن في نفي عودة العمر فكل يوم يمر فيه عمرك هو محسوب عليك عملت فيه خيراً أم شراً ، بخلاف الحال مع الرزق فإنك إن لم تكسب اليوم تكسب غداً أضعافاً . وهذا فيه إشارة خفية إلى عدم التهافت والسعي وراء ملذات الدنيا ، وليعلم العبد إن رزقه مكفول ومضمون ولا يأخذه أحد غيره .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى خَلَقَ الخَلْقَ – حَيْثُ خَلَقَهُمْ – غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِم ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِم ، لأَنَّه لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَلا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ**))[١٦٧]. هذا الكلام جزء من خطبة عُرِفت بوصفه للمتقين ، يوضح فكرة وردت عند المشركين في كون الله عز وجل حين خلق الخلق فهو محتاج لطاعتهم ، أو أنه ستضره معصيتهم له ، فجاء بالتعليل المنفي الموشح بـ(المقابلة) ليوضح لهم أنه سبحانه وتعالى لا تضره معصية كائن من يكون ، وإنما المعصية تعود بالضرر على صاحبها ، وكذلك الطاعة فهي لا تنفعه أكثر مما تنفع صاحبها. فسبحانه وتعالى عمّا يصفون . ويلاحظ أن الإمام أتى بـ(الطباق)ما بين (طاعتهم× معصيتهم) ليمهد للتعليل الذي يريد إثباته للمتلقي.

وقوله (عليه السلام): ((**فَفَرَّقَ بَيْنَ قَبْلُ وَبَعْدُ لِيُعْلَمَ أَنْ لا قَبْلَ لَهُ وَلا بَعْدَ لَهُ**))[١٦٨]. فالإمام في خطبة له يصف عظمة الله وكيفية اتصافه بالمجد والكبرياء ويأتي هذا المقطع ليوضح مسألة أنه عز وجل وضح الفرق للعباد عن طريق (الطباق الزماني) (قبل × بعد) حتى يعلم العباد أن لا قبل له ولا بعد . فالإمام وسَّط التعليل المنفي بين الطباق الزماني ليمنح النص دلالة عالية تتناسب مع الكلام الذي يتناوله.

٣- التعليل الشرطي :

---

(١٦٦) شرح نهج البلاغة : ١٩٦/٧ .

(١٦٧) المصدر نفسه : ١٠٤/١٠ .

(١٦٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٥١٦/١ .

وهو أن يكون التعليل الوارد في النص حاصل بأحد حروف الشرط .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعَنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلا مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْلا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلا مَسْكَناً لِمَلائِكَتِهِ ، وَلا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ**))[١٦٩]. فالكلام للإمام عن السموات وكيف عدَّها من شواهد خلقه ومن ضمن ما تطرق إليه تلبيتهن وأجابتهن له من حيث الإقرار ، والإذعان . ويأتي الإمام بالتعليل الشرطي الممزوج بـ– السجع المرصّع – (إقرارهن له بالربوبية – إذعانهن له بالطواعية) ليوضح للناس أنهن على عظمتهن لولا اعترافهن وخشوعهن لله عز وجل لما كانت لهن هذه المنزلة العالية أن يكون موضعاً لعرشه ، ومسكناً لملائكته، ومصعداً للكلم الطيب ، والعمل الصالح .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَلَوْلا الأَمَلُ لَعَدَمَ الإِنْسَانُ حَسَبَ مَا فِيهِ وَلَوْ عَلِمَ حَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ مَاتَ خُفَاتاً مِنَ الْهَوْلِ وَالْوَجَلِ**))[١٧٠]. من اللطائف الربانية بحق العباد انه سبحانه وتعالى أخفى عنهم القدر وما يخبئه لهم على مرِّ الأيام والسنين ، وفي المقابل منحهم الأمل كي لا تضيق بهم سبل العيش . هذا ما تركه النص من انطباع دلالي أكثر من أي شيء عند ورود التعليل بأداتين الأولى (لولا) التي اشترطت أنه لولا الأمل لَعلم الإنسان ما يحصل فيه مستقبلاً ، والثانية (لو) التي جاءت مُكّملة للتعليل الأول والتي علّلت أن الإنسان لو علم القدر لمات فجأة من شدة الهم والغم الذي سيصيبه لما يعرفه أنه سَيحل به مستقبلاً .

وقوله (عليه السلام) : ((**مَا أَخَذُوا مِنْ أَنْ أَكُونَ أَعْلَمَهَا فَأَسْتَتِرَ عَنْهَا ، وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ اللهَ إِنَّمَا يَسْتُرُهَا عَنْكُمْ نَظَراً لَكُمْ ، لأَنَّهُ لَوْ أَعْلَمَكُمُوهَا عَمِلْتُمْ فِيهَا وَتَرَكْتُمْ غَيْرَهَا وَأَرْجُوا أَنْ لا تُخْطِئَكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ**))[١٧١]. هذا المقطع صدر من الإمام حينما سأله الناس عن ليلة القدر فكان منه هذا الجواب.

والكلام يشتمل على تعليل معنوي وتعليل ظاهري ، فأما المعنوي حاصل في قوله (إنما يسترها عنكم نظر لكم) أي اختيارا لكم ، وأما الظاهري التعليل المقرون بالشرط الممزوج بـ(المقابلة) (عملتم فيها × تركتم غيرها) أي ليراكم هل تؤدون عبادته على أتم وجه

---

(١٦٩) شرح نهج البلاغة : ٦٦/١٠ .

(١٧٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٦٩/٣ .

(١٧١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٤٥/١ .

؟ وخلاصة القول إنه إذا أطلعكم عليها تعّبدتم في ذلك اليوم وتركتم بقيت الأيام . ثُمَّ دعا لهم أن لا يحرموا من ثوابها وأجرها لما فيها من أجر عظيم .

فهذا هو (حسن التعليل) فجماليته تنبعث من النص حينما يأتي مشتركاً مع ألوان البديع الأخرى لُيقدَّم العلة في النص إلى المتلقي بطريقة بلاغية رشيقة لا تغيب صورتها ، وحدودها من ذهنه ، بخلاف ذلك لو أتى وحده فإنه سيكون أقرب إلى الكلام الاعتيادي من غيره . ويبقى المبدع وحده هو من يرسم التعليل في نصوصه بطريقة مميزة .

أولاً : التناص :

تزداد الخطب إثارة كلما أمسك البحث بمظهر بديعي له القدرة على تغيير مجريات النص بما يمنحه من قوة وزيادة في المعنى تلقي بظلالها على المتلقي ، والبحث الآن أمام لونين من ألوان البديع هما (الاقتباس ، والتضمين) ، فالاقتباس مثلما يراه الدكتور محمد عبد المطلب ((يمثل شكلاً (تناصياً) يرتبط فيه المدلول اللغوي – وهو اقتباس الضوء – بالمفهوم الاصطلاحي الذي يتمثل في عملية (الاستمداد)التي تتيح للمبدع أن يحدث انزياحاً محدوداً في خطابه ، بهدف إضفاء لون من القداسة على جانب من صياغته))[١٧٢] . والحال نفسه مع (التضمين) فهو لا يقل أهمية عن الاقتباس بما يعمله من تعدد للصور داخل النص الواحد . ولهذا فأن البحث سيجمعهما تحت مفهوم معاصر وهو (التناص) ؛ وذلك لقدرته ((على كسر حدود الملكية الأدبية الفردية مما يجعل حدود الرؤية أوسع في التحليل الأسلوبي الشمولي))[١٧٣]. فالمحلل الأسلوبي ((يستطيع أن يتعامل مع فكرة التناص على أنها فكرة متغيرة غير قابلة للثبات ، وأن وسائل (التغيير) فيها تنبثق من عدم ثبوت النص الأدبي نفسه ، الذي تظهر تغيراته عادة في ملامح أسلوبية))[١٧٤].

وقبل الخوض في ميادين التناص للبحث وقفة مع (الاقتباس ، والتضمين) فالاقتباس : ((هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزييناً لنظامه وتعظيما لشأنه))[١٧٥].

والتضمين : ((هو الأخذ والإفادة من الحديث النبوي الشريف ، والنثر ، والشعر ، وفي هذا التوصيف نظر))[١٧٦].

أما عن التناص فقد أجمع الباحثون على أن جوليا كريستيفا هي التي بلورت مفاهيمه ((في عدة أبحاث لها كتبت بين ١٩٦٦ – ١٩٦٧ وصدرت في مجلتي تيل – كيل Tel-

---

(١٧٢) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني – د. محمد عبد المطلب – ط١ – الشركة المصرية العالمية للنشر – لوبجمان – ١٩٩٥م : ١٥٤ .

(١٧٣) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٣٢ .

(١٧٤) المصدر نفسه .

(١٧٥) نهاية الإيجاز : ١٤٧ .

(١٧٦) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٣٢ .

Que وكريتك Critique وأعيد نشرها في كتابها سيميوتيك Semeiotike ونص الرواية latextedduv omah))[١٧٧] .

وانطلقت الدراسات بعدها في ميادين هذا الفن لتشمل أقلام آخرين من مفكري الغرب فبعد ((عشر سنوات من أطلاق كريستيفا لكلمة (تناص) نشرت مجلة (بوتيك) الفرنسية عدداً خاصاً بإشراف لوران جيني Jenny حول (التناصيات) وكان الوقت قد حان سنة ١٩٧٦ لتوضيح الأمر بعد انتشار المصطلح ، وقد اقترح جيني إعادة تعريف التناص في العبارة الآتية : (عمل تحويل وتمثيل عدة نصوص يقول بها نص مركزي يحتفظ بزيادة المعنى)[١٧٨]. والكلام كثير عن النقاد الغربيين إذا أراد البحث التحدث عنهم بخصوص هذا المظهر، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه أين موقع العرب قديماً وحديثاً من التناص ؟ .

فالعرب قديماً لم يرد عندهم هذا الاسم بعينه وإنّما كانت هيأته ومظهره موجود في كلامهم بصورة غير مباشرة ، وأحياناً مباشرة ، فالبحث يجد أن أبا هلال العسكري ينقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قوله: ((لولا أن الكلام يعاد لنفد))[١٧٩]. وهذا صحيح ، وفيه إشارة صريحة عن التناص فالناس ألفاظهم واحدة لكن طريقة التعبير بهذه الألفاظ مختلفة. ولعل الجاحظ كان مُحقاً ، وسبق كل من باختين وبلوم وبارت[١٨٠] حين قال: ((لا يعلم في الأرض شاعر تقدم إلى تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع ، إلاّ وكلٌ من جاء من الشعراء بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظة فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا يَدَعُ أن يستعين بالمعنى ويجعل

---

(١٧٧) في أصول الخطاب النقدي الجديد – تودورف وآخرون – ترجمة د. أحمد المديني – ط١ – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٧م : ١٠٢ .

(١٧٨) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : ١٥٠ .

(١٧٩) كتاب الصناعتين : ٢٠٢ .

(١٨٠) تكمن أراء الثلاثة في مفهوم التناص على النحو الآتي : فباختين يرى أنّه لا يوجد نص نقي حيث يقول ((إن كل نص صدى لنص أخر إلى ما لا نهاية ، بديلة لنسيج الثقافة ذاتها)) المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) – د. عبد العزيز حمودة – (د.ط) – المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب – الكويت – ١٩٩٨م : ٣٦٣ . وأما عن بلوم فهو يقول ((فالنص لا وجود له إلاّ بين النصوص ، بل إن التناص هو الذي يضع الأسس لقيام النص)) المصدر نفسه : ٣٦٨ . وأما عن بارت فهو يقول ((إن النص يكون من كتابات مركبة مأخوذة من ثقافات عدة)) المصدر نفسه : ٣٧٠ .

نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذي تنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون واحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه))[١٨١]. أليس في قول الجاحظ هنا إشارات إلى ما يذهب التناص إليه؟ .

أما عبد القاهر الجرجاني فمظاهر(التناص) عنده قد جمع ظواهرها وهوامشها التي تقلق بها تحت ما يسمى بـ(السرقات)[١٨٢].

وحتى من يبقى من علماء البلاغة ممن لم يذكر اسمه هنا ، تجده يتناول مفهوم التناص أما من باب الاقتباس ، والتضمين ، أو من باب السرقات . فهذين البابين قد شكّل كل واحد منهما الخطوط الأولى لمفهوم – التناص . سواء أكان حديثهم عنه من قريب أو من بعيد .

أما عن المحدثين العرب فقد استندوا إلى المفهوم الغربي لهذا الفن مع أحتفاظهم بالأساس القديم لمفهوم الاقتباس والتضمين مُقدمين آراءهم وفق الشكلين . ولذلك ترى أن التناص لا يشوبه ذلك التعقيد عن المحدثين مثلما هو الحال عند بعض من أصحاب المدارس الغربية .

ويرى الباحث صبري حافظ أن ((أي كتابة أدبية جادة سواء أكانت أبداعية ، نقدية ، أم نظرية تنطوي على قدر ملحوظ من التناص ، تفترض قدراً من المعرفة الواعية الضمنية بما سبقها من نصوص ، أو على الأقل بالتقاليد والمواصفات المتعارف عليها في هذا النوع من الكتابة))[١٨٣]. فهو يشترط عند استعمال التناص أن تكون هناك معرفة واعية ضمنية تستطيع المزج ما بين النصين بطريقة متميزة . وأما الدكتور محمد خير الباقي فالتناص عنده ((العملية التي يتم بموجبها تفكك النص وأنبناؤه فكل نص هو تناص ، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى ... فكل نص ليس إلا نسيجاً من استشهادات سابقة))[١٨٤] ، ورأي البقاعي هنا يدور في أن كل

---

(١٨١) كتاب الحيوان : ٣/٣١١ .

(١٨٢) ينظر : أسرار البلاغة : ٢٦٣-٢٦٩ .

(١٨٣) التناص واشاريات العمل الأدبي ، (بحث) – صبري حافظ – مجلة ألف القاهرة–العدد(٤)–١٩٨٤م: ٢.

(١٨٤) دراسة في تعريب بعض مصطلحات (نظرية النص) ، (بحث) – د. محمد خير البقاعي – مجلة الموقف الثقافي في بغداد ، السنة الثانية – العدد (٨) – ١٩٩٧م : ٥٠ .

نص مهما كانت درجة إبداعه فهو لا يخلو من أن تكون فيه جذور متناصة مع نصوص أخرى ولكن بمستويات مختلفة .

والدكتور شجاع العاني يعرفه بالرأي: ((هو قراءة لنصوص سابقة وتأويل لهذه النصوص وإعادة كتابتها ومحاورتها بطرائق عدة على أن يتضمن النص الجديد زيادة في المعنى على كل النصوص السابقة التي يتكون منها))[١٨٥] . والرأي المتقدم للعاني قد سبق الإشارة إليه عبد القاهر الجرجاني في كون النص الجديد لا يمكن أن يؤدي المعنى نفسه الذي ذهب إليه النص القديم حيث يقول عبد القاهر الجرجاني : ((ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأَداه على وجهه ... والمراد أنه أدى الغرض فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول ... في غاية الأصالة))[١٨٦].

ولعل الباحثة نهلة الأحمد توسّعت في فهمها للتناص بقولها : ((إن التناصية شرط وجودنا ... فليس من أمر / شيء / نص في العالم لا يستدعي التناصية – لا نستطيع أن ننطلق في الكون هائمين على وجوهنا لا نملك من أمر دنيانا شيئاً ولا نستطيع أن نعيش في محاكاة دائمة . فالمحاكاة لا تفرز إلانَّصوصاً منسوخة يزاحمها الأصل دائماً ويجثم على صدرها متغيب .. مع مرور الزمن تهترأ ... ما يناسبنا هو تجاوز المحاكاة ، هو التناصية حيث الاختلاف هو من يمنح النصوص شرعية الوجود))[١٨٧]. فالباحثة ترى أن التناص هو شرط استمرارنا في العالم ولا نستطيع التحرك بدونه ، رافضة أي فكرة تقوم على المحاكاة والتقليد لاعتقادها أنها سوف تتهّرأ بمرور الأيام ، بينما العمل التناصي باق وهو من يمنح النص الخلود ، وهي على حق في ذلك.

وللدكتور محمد عبد المطلب رأي لطيف حينما قال : ((أن أكثر المبدعين أصالة من كان تركيبه الفني ذا طبيعة تراكمية ، على المعنى أن الروافد السابقة قد وجدت فيه

---

(١٨٥) الليث والخزاف المهضومة (دراسة تاريخية في بلاغة التناص الأدبي) ، (بحث) – د. شجاع العاني – مجلة الموقف الثقافي في بغداد – السنة الثالثة – العدد (١٧) – ١٩٩٩م : ٨٤ .

(١٨٦) دلائل الإعجاز : ٢٦١.

(١٨٧) التفاعل النص (التناصية النظرية والمنهج) – نهلة فيصل الأحمد – د.ط – كتاب الرياض ١٠٤ – مؤسسة اليمامة الصحفية – ٢٠٠٢م : ٧ .

مصبًّا صالحاً لاستقبالها))[١٨٨]. والكلام كثير عن التناص ولا يلم به مبحث، أو فصل بل يحتاج إلى بحوث ورسائل[١٨٩].

إذن فالتناص في أبسط صورة ((تداخل الأعمال الأدبية وتلاشي الحدود فيما بينها، ولا يتحقق هذا إلاّإذا أصبح النص منفتحاً على كل ما سبقه ، أو زامنه ، أو ما يعقبه من نصوص))[١٩٠] .

والبحث يرى أن مظاهر التناص تشكل مساحة واسعة في خطب الإمام (عليه السلام) وتنطلق من ثلاثة آفاق هي[١٩١] :

١- التناص الديني .

٢- التناص الأدبي .

٣- التناص التاريخي .

١- التناص الديني :

يقسم التناص الديني على قسمين :

الأول : التناص القرآني .

الثاني : التناص النبوي :

فالقسم الأول هو التناص القرآني : وهو أن ترد في خطب الإمام (عليه السلام) آية قرآنية أو معناها لغرض اقتضاه السياق .

فمثال تناص الإمام للآية القرآنية قوله (عليه السلام) : ((**وَاسْتَعمِلُوا أقْدَامَكُم وَأنْفِقُوا أَموالَكُم وَخُذُوا مِنْ أجْسَادِكُم فَجُودُوا بِهَا عَلَى أنْفُسِكُم ، وَلا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ الله**

---

(١٨٨) قراءة أسلوبية في الشعر الحديث : ١٦٢ .

(١٨٩) لعل خير من قدَّم دراسة مستوفية لمفهوم – التناص – هو الدكتور سعد ابراهيم عبد المجيد في اطروحته الموسومة (التناص دراسة في الخطاب النقدي العربي) – مقدمة إلى مجلس كلية التربية – ابن رشد – جامعة بغداد – ١٩٩٩م .

(١٩٠) المصدر نفسه : ٣٢ .

(١٩١) سبق البحث إلى هذه التقسيمات الثلاثة الدكتور أحمد الزعبي في كتابه (التناص نظرياً وتطبيقاً) – ط١– مكتبة الكتابي – عمان – ١٩٩٥م : ٢٣ .

سُبحانَه : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١٩٢)، وَقَالَ تَعالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(١٩٣) ، فَلَمْ يَبْتَ نْصِركُم مِن ذُلٍّ ، وَلَمْ يَبْتَ قرِضَكُم مِنْ قُلٍّ))(١٩٤). تحدَّث الإمام في هذا النص الحافل بالدلالة ، والصوت إلى العباد عامة وإلى المسلمين خصوصاً عن تقوى الله وأداء فرائضه ، فهو يأمر باستعمال الأقدام كناية عن الصلاة لما فيها من قيام وقعود ، ويأمر بإنفاق الأموال كناية عن الزكاة لما فيها من إصلاح للناس ، ودفع ميتات السوء ، ويأمر بالأخذ من الأجساد ، والجود بها على الأنفس وهو كناية عن الصيام والصلاة ، فإن تعويد النفس وترغيبها إنّما يأتي من قبيل أتعاب الجسد ، وإذابته في طاعة الله ، وحتى يتأكد المعنى لديهم أتاهم الإمام بتناص قرآني ليوضح لهم حقيقة تكمن في أنهم إذ نصروا الله من خلال ما ذكره الإمام فإن الله سينصركم ويثبت أقدامهم ، وأكثر من هذا جاءهم بتناص قرآني أخر مستعيراً لهم منه لفظ (القرض) دلالة على أعمالهم التي يؤدونها لله عز وجل ، فهي أشبه بالقرض كلما كانت أعمالهم صالحة كلما كان الأجر على هذا القرض مضاعفاً . ويلاحظ أن الإمام جعل الآيتين على الترتيب حيث جعل نصرة الله لهم شرطاً على أن ينصروه ، ومضاعفة الأجر لهم شرطاً على أن يقرضوه . وحتى تظهر دلالة التناص واضحة ، وجلية في النص جاء بعده بعبارة يكمن فيها – السجع المرصع – (فلم يستنصركم من ذل – ولم يستقرضكم من قل) ، مع وجود – الجناس اللاحق – بين (ذل – قل) مع (التعليل) الخفي موضحاً لهم أن الله سبحانه وتعالى لا يطلب النصرة بسبب الذُلّ حاشا له، فسبحانه له جنود السموات والأرض، ولا يستقرضهم بسبب القلة؛ لأن له خزائن السموات، والأرض وهو غني عنهم. وإنَّما أراد بذلك ليعرف أيهم أحسن عملاً . فالإمام جاء بالتناص ليوضح لهم أمراً ، ومن ثُمَّ بنى على هذا التناص أمراً أخر يخدم السياق . وجعل التناص يتوسط ما بين الدلالة، والصوت .

والرسم الآتي يوضح الفكرة :

بلاغة دلالية — **معنى مكنى (استعملوا أقدامكم)**

بلاغة صوتية — **سجع مرصع (فلم يستنصركم من ذل–ولم يستقرضكم من قل)**

(١٩٢) **محمد** : ٧ .

(١٩٣) **الحديد** : ١١ .

(١٩٤) **شرح نهج البلاغة** : ١٠/٩٧–٩٨ .

معنى مكنى (انفقوا أموالكم) ← التناص
معنى مكنى (خذوا من أجسادكم وجودوا بها على أنفسكم) ← جناس لاحق (ذل – قل)

وقوله (عليه السلام) : ((**تعاهدوا أمر الصلاة ، وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا بها فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً . ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا : ﴿ ما سلككم في سقر ۞ قالوا لم نك من المصلين ﴾**[١٩٥]))[١٩٦].

في هذا المقطع يأمر الإمام أصحابه بتعاهد الصلاة والمحافظة عليها في أوقاتها والاستكثار منها ، والتقرب بها. ثُمَّ يأتي بـ(التعليل) موضحاً سبب حثّه لأصحابه حينما طرح عليهم نوعين من التناص أحدهما : معنوي بقوله لهم إنها (كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) وهذا تناص من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً** ﴾ (النساء:١٠٣). ثانيهما: التناص اللفظي الحاصل للآيتين عن سبب وجود أهل النار في سقر، فكان جوابهم بسبب تركهم الصلاة .

إنَّ الإمام جاء بالآية ولم يأت بمعناها حتى يعلمون أن هذا الكلام ليس من عنده وإنّما من كتاب الله الذي لا يختلف عليه اثنان من المسلمين .

وقوله (عليه السلام) : ((**ثُمَّ إنَّ الله – وَلَهُ الحَمْدُ – افْتَتَحَ الكِتَابَ بالحَمْد لِنَفْسه ، وَخَتَمَ أَمْرَ الدُّنْيا وَمجيءَ الآخِرَةِ بِالحَمْدِ لِنَفْسِه فَقَالَ : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ﴾**[١٩٧]))[١٩٨]. في هذا المقطع يتحدث الإمام عن بيان عظمة الله تبارك وتعالى وما له من قوة وإجلال من خلال ذكر نوعين من التناص أولهما : معنوي حين قال (افتتح الكتاب بالحمد لنفسه) مستند إلى قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ** ﴾ (الفاتحة:٢). ثانيهما لفظي حين جاء بالنص القرآني ليوضح لهم معنى ختم أمر الدنيا ، أي القضاء بين الخلائق ، ومجيء الآخرة أي حضور الجنة والنار. وهذا كله يتلخص في أن ما وعد الله سبحانه وتعالى العباد موجود لا محال ، وليس أمام العبد إلاّ أن يشكر الله ويحمده في كل

---

(١٩٥) المدثر : ٤٢-٤٣ .
(١٩٦) شرح نهج البلاغة : ١٥٨/١٠ .
(١٩٧) الزمر : ٧٥ .
(١٩٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٦٠٤/١-٦٠٥ .

الأوقات . واللطيف هنا أنَّ الإمام خلق من التناص المعنوي ، واللفظي (تكراراً مغلقاً) ليؤكد للعباد على أهمية هذه العبارة وأجرها حينما ينطق بلسانه بها. فهذا ما يخص التناص اللفظي للقرآن الكريم .

أما التناص المعنوي فمثاله قوله (عليه السلام) : ((**أَنْتَ الأَبُدُ فَلا أَمَدَ لَكَ ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلا مَحِيصَ عَنْكَ ، وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلا مُنْجَى مِنْكَ إلا إِلَيْكَ بِيَدِكَ نَاصِيةُ كُلِّ دَابَّةٍ**))[١٩٩]. هذا الكلام جزء من خطبة مشتملة على توحيد الله وتنزيهه ، والكلام هنا يحمل في فضائه معان قرآنية (تناص) توضح قدرة الله عز وجل بين مخلوقاته ، فهو يبدأ كلامه هنا بمعنى أنه الدائم فلا غاية يقف عند حدودها ، وإليه يرجع كل الخلق في المنتهى فلا يفرُّ أحدا منهم ، وهذا المعنى أخذه من قوله تعالى : ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾ (النجم :٤٢) وقال بعدها أنَّه المنجي للعباد إذا تعرضوا لأي أذى سواء دعوه أو لم يدعوه ، وهذا المعنى موجود في كتاب الله عز وجل قال سبحانه في محكم كتابه : ﴿ **وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ** ﴾ (التوبة :١١٨) ثُمَّ عاد وأوضح أن كل دابة هي تحت ملكه وتصرفه وهذا المعنى متناص من قوله تعالى: ﴿ **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ (هود : ٥٦) وإنما خص الناصية بالكلام ((لحكم الوهم بأنه تعالى في وجهة فوق فيكون أخذه بالناصية ؛ ولأنها أشرف ما في الدابة سلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة))[٢٠٠]. فالمعنى القرآني هيمن على هذا المقطع بصورة كاملة وهذا كله يأتي لرفع القيمة الدلالية للنص من جهة ، ولتوثيق الكلام وتقويته من جهة أخرى .

وقوله (عليه السلام) : ((**اعْلَمُوا – عِبَادَ اللهِ – أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ ، لا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ ، وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ**))[٢٠١].

حذر الإمام الناس أنهم مراقبون ليس من الله عز وجل وإنَّما من أنفسهم وجوارحهم وإنما ستشهد عليهم يوم القيامة بأذن الله ، وهذا المعنى تناص من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النور: ٢٤) وقوله

---

(١٩٩) شرح نهج البلاغة : ١٥٢/٧ .

(٢٠٠) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٥٦/٣ .

(٢٠١) شرح نهج البلاغة : ١٦١/٩ .

تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت:٢٠) . فالإمام استحضر المعنى من كتاب الله الذي يقرؤونه بين الحين والآخر إن كانوا عنه غافلين ، وحذّرهم أن عليهم ملائكة كاتبين يحفظون كل شيء عنهم، ولا يحجب هذه الملائكة أي شيء إلا ما شاء الله عز وجل فإنه بعباده لطيف خبير ، ثُمَّ جاءهم بمعنى قرآني أخر أشبه بالمثل وهو قوله (إن غداً من اليوم قريب) وهذا يتناص مع الآية القرآنية : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود : ٨١) كل هذه التناصات جاءت لتعلمهم أن الكلام الذي يخاطبهم به ليس من عنده ، وإنما أثاره موجودة في كتاب الله وقد ذكّرهم بعاقبة فعلهم .

وقوله (عليه السلام) : ((وَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي نَهَارِهِمْ إِذاً رَأَيْتَ قَوْماً يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَيَقُولُونَ لِلنَّاسِ حُسْناً ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا : سَلَاماً ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً))[٢٠٢]. هذا الكلام جرى بين الإمام والأحنف بن قيس عن أصحابه حين بادره بالسؤال الأخير عن حالهم التي رآها عليهم فأجابه الإمام بكلام طويل كان هذا النص جزء منه. فهو يصف حالهم هنا في النهار بعدما وصفهم بالليل فجاء بأوصاف معانيها متناصة من القرآن الكريم ، فقد أخذ من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاما﴾ (الفرقان: ٦٣) ، ومعناه أن هؤلاء العباد لا يمشون بتكبر وخيلاء ، وإنما يسيِّطر التواضع على مشيتهم ، وإذا اعترضهم جاهل بالعلم اكتفوا بالقول له (سلاما) وهذه الكلمة تُعدُّ من أبلغ الأجوبة للجهلاء. وأخذ معناها من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ (الفرقان:٧٢) ، ومن صفاتهم أيضاً أنهم يقولون للناس حُسناً عند مخاطبتهم لهم ، وهذا متناص معناه كذلك من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة:٨٣) فالإمام أخذ ثلاثة معانٍ من القرآن الكريم ليوضح للسائل أن هؤلاء الأصحاب أخلاقهم التي يتّحلون بها من الأوصاف التي يذكر الله بحق المتقين فلا تعجب مما ترى منهم.

فهذا الاستحضار القرآني من الإمام من جهة اللفظ والمعنى وتوظيفه في سياقات الخطب العلوية زاد من قيمته الإبداعية إلى جانب ما يحمله من مظاهر بلاغية أخرى.

---

(٢٠٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٣٦/١ .

٢- التناص النبوي :

وهو أن تظُمَّ الخطب في سياقاتها أحاديث مضمنة من جهة اللفظ والمعنى أي بصورة كاملة ، أو من جهة المعنى فقط .

فمثال الأحاديث المضمنة بالكامل قوله (عليه السلام): ((**لَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((لا يَسْتَقِيمُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُه ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُه" فمن اسْتَطَاعَ مِنْكُم أَنْ يَلْقَى الله سُبْحَانَه ، وَهُو نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِم، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِم ، فَلْيَفْعَلْ))**[٢٠٣]. ذكر الإمام هنا حديثاً ذكره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تحدَّث فيه عن الإيمان عند العبد ولكنه مشروط ، فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اشترط استقامة الإيمان باستقامة القلب ، وهذا صحيح ؛ لأن القلوب إذا جُبلت على حب الخير وفعله فإنها ستصلح ، ألا ترى أن كثيراً من المخاطبات القرآنية إنَّما تكون على القلوب . واشترط بعد ذلك استقامة اللسان وهذا صحيح فاللسان أول استقامته النطق بالشهادتين ، وباللسان قد يدخل العبد الجنة بسبب الأذكار ، وقد يدخل النار بسبب الغيبة ولوازمها . فالإيمان القلبي يتطلب إيمان باللسان .ثُمَّ جاء بعد ذلك بكلام يحث المسلمين فيه على أن يكونوا في راحة من دماء المسلمين وأموالهم تاركاً غِيبتهُم بلسانه قدر المستطاع ، وهذا المعنى أخذه من الحديث النبوي للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ((إنَّما الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُون مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))[٢٠٤]. فالسلامة من اللسان ترك أعراضهم ، والسلامة من اليد ترك أموالهم ودمائهم .

وقوله (عليه السلام): ((**فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ، وإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَأَذْهُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَقُول: " يَابْنَ آدَمَ اعْلَى الْخَيْرِ ، وَدَعِ الشَّرَّ فَإِذا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ))**[٢٠٥]. يأتي الإمام بحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تأكيداً وتكملة (للمقابلة)التي قَدَّمها هنا، فالإمام يأمرهم بإعانة فاعل الخير من خلال تحسينه ، ودفع الأمور المانعة عنه ، ودفع الشر من خلال تركه وعدم الإعانة عليه ، وحتى يكون المعنى ذا دلالة عالية جاء بالحديث ليحمل المعنى الذي ذهب إليه الإمام. والطريف في هذا التناص

---

(٢٠٣) شرح نهج البلاغة : ١٠/٢٥ .

(٢٠٤) المصدر نفسه : ١٠/٢٥-٢٦ .

(٢٠٥) شرح نهج البلاغة: ١٠/٢٧ .

التشبيه الذي ذكره الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) والذي أراد الإمام إظهاره لجمهور المسلمين من خلال تضمينه لهذا الحديث والذي يتمثل بوصف الإنسان العامل للخير، التارك الشر أنَّه جواد قاصد وذلك ؛ لأن ((العامل للخير المنتهي عن الشر مستقيم على طريق الله فلا تعريج في طريقه ولا اعوجاج فيكون سيره في سلوك سبيل الله أسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق))[٢٠٦].

قوله (عليه السلام) : ((**أيُّها النَّاسُ إنِّي سَمعتُ رَسُولَ الله (صلى الله عليهِ وسلم) يَقولُ :" يَخرجُ قَومٌ مِنْ أُمَّتي يَقْرؤُون القُرآن لَيْسَتْ قِراءَتُكم إلى قِراءَتِهم شَيئاً ولا صَلاتُكم إلى صَلاتِهم شَيئاً ، ولا صِيامُكم إلى صِيامِهم شَيئاً ، يَقْرؤُونَ القُرآن يَحْسَبُون أنَّهُ لَهُمْ وهُو عَلَيهِم لا تُجاوزُ صَلاتُهُم تَراقِيهِم يَمْرُقُونَ مِنَ الإسلامِ كَما يَمرقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيةِ" لَو يَعْلَمُ الجَيشُ الَّذينَ يُصيبُونَهُم ما قَضَى لَهُم عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِم (صلى الله عليهِ وسلم) لَنَكلوا عَنِ العَملِ**))[٢٠٧].

يكون الخطاب العلوي مع المسلمين في بعض المواقف بغاية الصعوبة ؛ وذلك لكون الإمام يحث المسلمين على مقاتلة أهل الملة ، أي من نطق بالشهادتين ، وقد عظم ذلك في أنفسهم ، وقد ذكر سابقاً أن الإمام هو أول من عَلّمهم كيفية مقاتلة أهل الملة الذين تكالبوا على الدين الإسلامي متخذين منه ذريعة للوصول إلى مآربهم. الخطاب في هذا النص حينما أراد الإمام التوجه إلى مقاتلة الخوارج الذين خرجوا عن أمره ، ومعروف عن هؤلاء القوم أنهم لا يرضون أن يكون هناك خليفة للمسلمين ، ويرون أن الحكم لله وحده في الأرض. ومع هذا تركهم الإمام ، ولكن حينما بدأ منهم القتل والنهب بالمسلمين حاربهم ، وعند تسيير الجيش نحوهم استثقل بعض أفراد الجيش للسبب الذي ذُكر ، فأراد الإمام أن يقطع الشك باليقين عليهم أتى بحديث للرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ليصف حال هؤلاء الخارجين ، وليؤكد على الأجر العظيم الذي سيناله من يقاتلهم .

وحقيق الأمر تكمن في أن هذا التناص فائدته يراد منها توحيد القلوب ضد هؤلاء الفرقة الضالة ، ورصِّ صفوف المسلمين من التفرقة .

---

(٢٠٦) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٣٦٢/٣ .

(٢٠٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢٩٨/٢ .

أما تناص الحديث من جهة المعنى فمثل قوله (عليه السلام) : ((**وَإِنَّها لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُها إطلاقَ الرِّقِ . وَشَبَّهَها رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْها فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمسَ مَرَّاتٍ ، فَما عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيهِ مِنَ الدَّرَنِ!**))[٢٠٨]. قدَّم الإمام للمسلمين تشبهات بليغة محسوسة عن حال الصلاة من خلال ذكره التشبيه الأول فمثلما أن الورق يتساقط من الشجر نتيجة البرد أو بسبب أخر كذلك الذنوب تسقط من الإنسان بسبب الصلاة. وجاء بالاستعارة تعبيراً على أنها تطلق أعنان النفوس مثلما تطلق الشاة من الأغلال التي في عنقها ، وجاء بالتشبيه الثاني الذي يحمل في فضائه تناصا مع حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من جهة المعنى وأصل الحديث : ((أيسرُّ أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كل يوم خمس مرات ، فلا يبقى عليه من دَرنه شيء: قالوا: نعم ، قال: فإنها الصلوات الخمس))[٢٠٩] . فلشدة ما تتركه الصلاة على المؤمنين من أثر جاء تشبيهاً مثل عين الماء التي يغتسل منها الإنسان بين الحين والآخر فما تترك عليه من أثر ؟ فالإمام في كلامه هذا جمع لهم منفعتين تتركهما الصلاة الأولى : المنفعة الآخروية لكونهما تسقط الذنوب وتطلق أعنان النفوس ، والثانية : المنفعة الدنيوية لكونها تسقط الدرن – الوسخ – عنهم .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَاعْلَمُوا أَنَّ جِهَادَ النَّفْسِ هُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ ، وَالله مَا هُوَ شَيْءٌ قُلْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : مَا مِنْ عَبْدٍ جَاهَدَ نَفْسَهُ فَرَدَّهَا عَنْ مَعْصِيَةِ الله إلاَّ بَاهَى الله بِهِ كِرَامَ الْمَلائِكَةِ ، وَمَنْ [ظ] بَاهَى الله بِهِ كِرَامَ الْمَلائِكَةِ فَلَنْ تَمَسَّهُ النَّارُ**))[٢١٠]. يوضح هذا الخطاب أمراً للمسلمين وهو أنَّ الجهاد لا يقتصر على السيف، والرمح، والاشتباك مع العدو، فهناك جهاد آخر مثلما وُصِفَ بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس وهو أعظم جهاداً ، وحتى يكون المعنى واضح الدلالة أتاهم بحديث متضمن لمعنى الكلام الذي يريده الإمام ، وهذا الحديث يخاطبهم أن العبد إذا ردَّ نفسه عن معصية الله سبحانه وتعالى فإن الجليل سوف يباهي به كرام الملائكة فهو يحمل القوة العقلية والشهوانية بينما الملائكة مقتصرة على القوة العقلية ، فهنا يكمن السبب في

---

(٢٠٨) شرح نهج البلاغة : ١٥٨/١٠ .

(٢٠٩) المصدر نفسه : ١٦٠/١٠ .

(٢١٠) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٩٣/١ .

تفضيل الإنسان ؛ لأن قواه النفسية في تصارع مستمر مع الحياة فإن جعل القوة العقلية حكماً عليها كان مثل ما وصفه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن غلبة عليه باقي القوى الأخرى تنزل إلى أدنى المراتب ، في حين أن الملائكة لا تصارع قوتها العقلية قوى أخرى . وكذلك حصول المباهاة ناتج عن كون الملائكة قالت أن الإنسان لا يصلح أن يكون خليفة في الأرض ونحن أولى بذلك والخطاب القرآني سرد تفاصيل قولهم والرد عليهم(٢١١). فجاءت تلك المباهاة من الله سبحانه وتعالى لتوضح لهم الحقيقة الكاملة . وطبيعي من يباهي الله به ملائكته فلن تمسه النار إلا بأذنه .

٢- التناص الأدبي :

ويقسم هذا التناص على قسمين :

١- تناص الأمثال .

٢- تناص الشعر .

فأما تناص الأمثال : وهو أن يُضمِّن الإمام في خطبه قسماً من الأمثال المشهورة لغرض يقتضيه السياق .

وتُعدُّ الأمثال العربية ثروة أدبية كبيرة تعكس واقع كل من يستعملها ولذلك ترى أنَّ المثل حينما يستحسنه المتلقي تراه يُردّد بين الحين والآخر. ويبقى خالداً على مرِّ الأجيال وهذا يعود للصياغة الأدبية العالية عند قائلها الأول .

ومن بين كلامه الذي وردت فيه الأمثال قوله (عليه السلام) : ((**فَإِنَّ أَقُلْ يَقُولُوا : حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا : جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ . هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي! وَاللهِ لَأَبْنُ أَبِي طَالِب أَنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ**

---

(٢١١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٣٠) .

لاضْطَرْبتُم اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ في الطَّوِيِّ البَعِيدَة))[٢١٢]. فالمثل المتناص في خطاب الإمام هو (بعد اللتيا والتي)[٢١٣] ، وهو من الأمثال العربية المعروفة .

وأما عن وجود هذا المثل هنا في هذا النص فهو ليرد على المُدَّقولين الذين يرمون بالتهم عليه ، فتارة يقولون حرص على الملك حينما يجدونه يتكلم عن الخلافة والإمامة ، وتارة يقولون خاف من الموت حينما يجدونه ساكت عنهم . فجاء المثل ليوضح لهم فكرة أنه بعدما قاسى الشدائد ، والمصاعب الكبيرة أيجزع من الموت ؟ فأنه آنس بالموت من الطفل بثدي أمه ، فلا يُخّوف هذا الرجل بمثل هذه الأمور. وعلل ابن ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ) هذا القول تعليلاً لطيفاً بقوله ((وإنما كان آنس به من الطفل بثدي أنه لأن محبة الطفل للثدي ، وأنسه به وميله إليه طبيعي حيواني في معرض الزوال ، وميله إلى لقاء ربه ، والوسيلة إليه ميل عقلي باق فأين أحدهما من الآخر))[٢١٤]. والذي يؤكد على قوله السابق أنه آني بالموت لعلمه بما سيكون من أحوال الآخرة من نعيم وبؤس ، ولو كشف لهم ما يعلم لاضطربوا اضطراب الحبال في الآبار البعيدة القعر .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَاسْتَمُوا إلى رَبَّانِّيكُم ، وَأحضُروه قُلُوبَكُم ، وَأَسْتيَقِظُوا إنْ هَتَفَ بِكُم . وَلْيَصْدُقَ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحضِر ذِهْنَهُ))**[٢١٥]. فالمثل المتناص هنا (وليصدق رائد أهله) [٢١٦]، ووجه التشابه في هذا المثل مع قول الإمام أنه أمرهم بالاستماع من علمائهم مع إحضار قلوبهم بالإصغاء إليهم بتدبر ، فجاء بالمثل كناية عنه ، وعن أهله فيما يخص الأمور الدينية ، والدنيوية وعدم مشاركة الهوى في طاعتهم له. وذلك لأن النفس

---

(٢١٢) شرح نهج البلاغة : ٢٠٤/١ .

(٢١٣) ومعنى المثل أن رجلاً من جديس تزوج امرأة قصيرة فعانى منها معاناة شديدة فطلقها ، وتزوج أخرى طويلة فقاسى منها أضعاف ما قاسى من الأولى فطلقها فقال : بعد اللتيا والتي لا أتزوج أبداً ، فذهب ذلك مثلا للداهية الذي يقاسي الشدائد والمصاعب . ينظر مجمع الأمثال – لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني – د.ط – مطبعة عبد الرحمن محمد – ١٣٥٣هـ : ٩٧/١ .

(٢١٤) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٧٩/١ .

(٢١٥) شرح نهج البلاغة : ١٤٨/٧ .

(٢١٦) أصل المثل (لا يكذب الرائد أهله) وهذا المثل يضرب فيما يخاف من غبِّ الكذب ، أي أن الرائد يبعثه قومه قدما ليرى لهم منزلاً،أو عشباً يلجأون إليه فإن كان كاذباً كان هلكتهم جرَّاء كذبه.ينظر مجمع الأمثال:١٨٣/٢.

إذا أرسلت الرائد عن ميل شهواني كتّبها ولم يثق بها. وحتى تكتمل الصورة جمع الإمام المثل مع ألفاظ غيره – بالتوازن – (ليصدق – ليجمع – ليحضر) ، مع – سجع – (أهله– شمله– ذهنه). وخلاصة القول أعطوني ثقتكم، وقلوبكم أحملكم على المحجّة البيضاء مثلما يحمل الرائد أهله إلى برِّ الأمان . فهو لم يستعمل المثل المتناص حرفياً، بل تراه غيَّر الكلمة الأولى فيه باستعماله مرادفها حتى يلفت نظر القارئ .

وقوله (عليه السلام) : ((**إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّير فإذا سكت تكلّموا ، ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلّم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أوّلهم**))[٢١٧]. فالمثل المتناص هنا (كأنما على رؤوسهم الطير)[٢١٨]. فالإمام يصف مجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف يكون ، ولاسّيما إذا صدر الكلام منه صلوات الله عليه واليه يكون حال أصحابه مثل المثل الذي نُكِر ، وهو كناية عن الهدوء ، والسكون من السكينة ، والوقار. وحالهم كذلك لا يتنازعون الحديث عنده ، وترى الواحد منهم يسمع الآخر وهذا دليل على انتظام المجلس آنذاك . فالمثل عبَّر عن حال المجلس أفضل تعبير .

وقوله (عليه السلام) : ((**يا سُفهاء إنّكم لتلهُون أنّه لا ناقة لي في هذا ولا جمل وإنّي ردد ت أهْل مِصْر عَنْ عُثْمان ، ثُمَّ أصلحت أمره مرَّة بعد أُخْرى فما حيلتي**))[٢١٩]. المثل المتناص هنا (لا ناقة لي في هذا ولا جمل)[٢٢٠]. والإمام حينما جاء بهذا التناص الذي استعمله في قوله أراد منه الرد على بني أمية حينما اتهموه أنه أفسد أمرهم ودسس عليهم، ودبَّر المكيدة التي أوقعت بخليفة المسلمين . فجاء قوله أنه بريء من هذا الظلم الذي نُسِب

---

(٢١٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٢٢/١ .

(٢١٨) يضرب هذا المثل للساكن الوادع ، وحقيقة الأمر أن الطير لا ينزل إلا على ساكن ، وأصل المثل (كأن على رؤوسهم الطير) . ينظر مجمع الأمثال : ٩٢/٢ .

(٢١٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١٩٦/١ .

(٢٢٠) أول من قال هذا المثل هي الصدوف بنت حليس العذرية حين سألها زوجها زيد بن الاخنس عن بنت له من غيرها أسمها الفارعة تواعد رجُلا من الحي بالسرِّ على أحد إبلها عن هذا الفعل ؟ فأجابته بهذا المثل للتبرئ من هذا العمل . ينظر مجمع الأمثال : ١٧٠/٢ .

إليه من خلال ذكره لهم هذا المثل[٢٢١] ، وأنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، والذي يرجع إلى الخطب العلوية يرى ما يثبت صحة ذلك .

وأما تناص الشعر فهو على قسمين :

أولهما : تناص البيات أو أنصاف الأبيات من أشعار الشعراء التي جرت على ألسنتهم بما يناسب الموقف الذي يقتضيه .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**أَما وَالله لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاس بِن غَنْم :**

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوتَ أَتَاكَ مِنْهُم فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيةِ الحَمِيمِ[٢٢٢]))[٢٢٣]

استعان الإمام بهذا البيت في كلامه حينما تثاقل أصحابه عن الجهاد لصدِّ أرطأة بن أبي بسر الذي أُرسِل من الشام إلى المناطق التي تقع تحت حكم الإمام فأخذ يذبح ويسرق كل ما يقع تحت يديه ، وأصحاب الإمام يتفرجون عليه فلشدة ما دعا عليهم ودَّ لو أن له ألف فارس من بني فراس بن غنم ، وهؤلاء القوم حيٌّ مشهور بالشجاعة فمنهم علقمة بن فراس ، ومنهم ربيعة بن مكدم حامي الطعن حيا وميتاً . وحاصل الكلام أن العرب كانت إذا تقاعست عن القتال يلجأ حكماؤها إلى ضرب الأمثال لغيرها من العرب المشهورة بالشجاعة ؛ لتشُدَّ على عضدها وتجمع سواعدها ، هذا إذا لم ينفع حديث الإسلام في أنفسهم فإن كلام الأحساب والأنساب له أثر كبير في تحريك مشاعرهم .

وقد يكون التناص مقتصراً على نصف البيت وهذا يعرف بـ(الإبداع) وهو أن يأتي الناثر بنصف بيت لغيره ويجعله في كلامه[٢٢٤]. ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَالله لَقَدْ رَقَّعْتُ مَدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ : أَلا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَقُلْتُ :**

---

(٢٢١) وهناك مثل قريب من الذي ذكره البحث في قول الإمام ، وهو قول الحرب بن عباد (لا ناقتي في هذا ولا جملي) حينما قتل جساس بن مرة كليباً ، وهاجت الحرب بين الطرفين فقاله للتبرئ من الظلم والإساءة . ينظر مجمع الأمثال :١٧٠/٢ .

(٢٢٢) هذا البيت منسوب إلى أبي جندي الهُذلي مع تغيير بسيط في عجز البيت : (رِجَالٌ مِثْلَ أرمية الحميم) لسان العرب ، مادة (حمم) : ٦٠٩/٢ .

(٢٢٣) شرح نهج البلاغة : ٣٠٣/١-٣٠٤ .

(٢٢٤) ينظر : تحرير التحبير : ٣٨٠/٣ .

أَعْزُبْ عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى))[٢٢٥]. والكلام المتناص هنا (عند الصباح يحمد القوم السرى) . وهذا قاله خالد بن الوليد حينما أُرسل إلى العراق فأراد سلوك المغازة فنهاه رافع الطائي لأنه سلكها وهي طريق صعبة عليه وعلى جيشه ، فسار خالد في ذلك الطريق بعد تحمل المشقة ، والعطش إلى أن وصل فأنشأ يقول :

للهِ دَرُّ رَافِعٍ أَنّى اهتــدى فَوْز مِن قَرَاقِرٍ إلى سُوى
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القوم السُّرَى وَتَنْجَلِي عَنْهُم غَيَابَات الكرى[٢٢٦]

ويضرب هذا للذي يتحمل المشقة العاجلة رجاء الراحة الآجلة ، ولعل موقع هذا التناص من كلام الإمام يكمن في معنى أنه قد صغرت الدنيا في عينه ، وأصبح لا يأبى بما فيها من متاع الغرور لشدة أنه من كثرة زهده أكثر من رقع مدرعته لدرجة أنه استحى من راقعها لكثرة قدومه إليه ، وهذا المعنى كله حتى لا يبتئس الفقير بما هو فيه حينما يرى أن أعلى شخص في الدولة مثل حاله . فأين الملوك والسلاطين في دولة الإسلام من بعده ؟ .

وفي بعض الأحيان يجتمع التناص النثري مع الشعري في نص واحد مسجلاً أعلى الدلالات التي تعبر عن نفسية قائلها مثلما في قوله (عليه السلام) : ((**وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُم فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُم مَخْزُونَ رَأْيِي ، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ . فَأَبَيْتُم عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعِصَاةِ ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ وَظَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُم كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِن :**

أَمَرْتُكُم أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلا ضُحَى الغَدِ))[٢٢٧]

---

(٢٢٥) شرح نهج البلاغة : ١٧٩/٩ .
(٢٢٦) ينظر : مجمع الأمثال : ٤٦٤/١ .
(٢٢٧) شرح نهج البلاغة : ١٦٣/٢ .

يحمل هذا النص نوعين من التناص الأول : تناص النثر وذلك في القول المشهور بين العرب (لو يطاع لقصير أمر)[٢٢٨] ، وهذا المثل جاء به الإمام ليوضح مدى الخديعة التي لحقت بالمسلمين جرَّاء قبولهم التحكيم أثناء واقعة صفين مع قادة جيوش أهل الشام موضحاً لهم أن أمر رفع المصاحف بوجوههم خدعة ومكر ، لكنهم رفضوا ذلك وهدّدوه بالقتل إن لم يستجب للتحكيم ، فكان منه هذا القول .

والإمام هنا يوضح لهم أنه رفض هذه الحكومة ، مُستعيناً بالاستعارة للفظ (نخل) ووجه المشابهة هنا أنه مثلما ينحل الطحين ليخرج الدقيق كذلك حاله استخرج لهم الفكرة الصافية الخالصة من كدر الشهوات ، والمنغصات لكنهم خالفوه ولم يلتزموا رأيه ، فكان حاله وإياهم مثل حال قصير وجذيمة .

وقد وصف حالهم بـ – السجع المرصع – (المخالفين الجفاة – المنابذين العصاة) ليكون إيقاع هذه الكلمات مؤثراً بالمتلقي ، فضلاً عن ذلك أنها تُعبِّر خير تعبير عمَّا قاساه الإمام منهم .

ونتيجة تلك المعصية تجد أن الناصح لهم لكثرة رفض آراءه أصبح يشك في الآراء التي يقولها لهم . وهذا بعيد عن الإمام . وإنما جاء على سبيل المبالغة اللطيفة ، وأكثر من ذلك أن هذا الناصح لشدة اتهامه ، ومصادرة رأيه ربّما في المستقبل لا ينقدح له رأي صالح ؛ لأنه في كل مرة لا يأخذون برأيه فما الحاجة بعد ذلك إلى نصحهم ؟ الثاني : إن الإمام أتاهم ببيت من شعر (دريد بن الصمة) مثلما وصفه الإمام أخو هوازن وهذا البيت مذكور في شرح ديوان الحماسة [٢٢٩] ، مع تغيير قليل في كلماته وقصته أن أخا دريد غزا على بني

---

(٢٢٨) وقصة هذا المثل ان قصيراً بن سعد اللخمي مولى جذيمة الأبرش أحد ملوك العرب نهى مَلِكَه عن الذهاب إلى الزباء ملكة الجزيرة حينما كتبت إليه في أن يقبل بضم مُلكها إلى مُلكه ، والغاية من ذلك الإيقاع به وقتله لكونه قتل والدها ، فلم يستمع جذيمة إلى مشورة قصير بعدم الذهاب إليها ، لكونها تُدّبر مكيدة ، فذهب إليها فقتله انتقاماً لأبيها ، فقال قصير (لو يطاع لقصير أمر) فذهب ذلك مثلاً لمن يخالف نصح الناصح . ينظر مجمع الأمثال : ٢٤٤/١ ، الأمثال في نهج البلاغة – محمد الغروي – ط١ – مطبعة فيروزآبادي – قُم – ١٤٠١هـ : ١٢٠-١٢١ .

(٢٢٩) أصل البيت : ((أَمرتُهم أمرِي بِمُنْعِرج اللِّوى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَدِ)) .

شرح ديوان الحماسة – أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي – تحقيق محمد محي الدين عبد المجيد – د.ط – مطبعة حجازي بالقاهرة – د.ت : ٣٠٦/٢ .

بكر بن هوازن فغنم منهم إبلهم وذهب بها إلى منعرج اللوى وهو الوادي فنصحه دريد ألا يبقى هناك فرفض وأقسم أن لا يمضي حتى يقتسم ما غنم منهم فلما أصبح هجم عليه القوم ونالوا منه وقتلوه ولم يستطع دريد أن يذب عنه فاستطاع أن يخلص نفسه بعد أصابته بطعنات كثيرة. فلما نجا نظم قصيدة كان هذا البيت جزء منها(٢٣٠).

وهذا البيت تأكيداً للمعنى السابق الذي ذهب إليه الإمام من أن كل من يخالف نصح الناصح ستحل به الويلات ، والمصائب . ويمكن القول أن حادثة التحكيم لمن أمر الحوادث على المسلمين نتيجة العصيان ، والتمرد .

ثانيهما : أشعار الإمام (عليه السلام) :

يذكر الإمام في خطبه بعضاً من نظمه من أجل تأكيد المعنى الذي يريده نثراً وشعراً .

ومثاله قوله (عليه السلام): ((**أَبَعْدَ جِهادي مَعَ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وسلم) وَإيماني أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالكُفْرِ ؟ لَقَدْ ضَلَلْتُ إذاً وَما أنا مِنَ المُهتَدِينَ ! ...**

يَا شَاهِدَ الله عَلَيَّ فَاشْهَدْ آمَنْتُ بالله وَلِيِّ أَحْمَدْ

مَنْ شَكَّ فِي الله فإنِّي مُهْتَدِ))(٢٣١)

هذا الكلام حاصل فيه تناص مع شعر الإمام الذي كان جواباً للخوارج حينما بعثوا إليه أنه ليس بينهم وبين الإمام إلا السيف أو يقرُّ بالكفر ويتوب بما حصل من خطأ التحكيم في واقعة صفين . فكان جوابه واضح ولا يحتاج إلى تأويل . ثم خاطبهم بعد ذلك من نظمه بأنه مؤمن بالله ورسوله ومن يريد أن يشك في نفسه أنه كفر فهذا لا يعنيه ؛ لأنه على طريق الهداية .

وقوله (عليه السلام) : ((**مَا يَحْبِسُ أَشْقَاهَا لِتَخْضِبَنَّ – أو لَتَصْبِغَنَّ – هذِهِ مِنْ هذِهِ؟!..**

الآ فَأُشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلموتِ فإنَّ المَوتَ آتيكَ

وَلا تَجْزَعْ مِنَ القَتلِ إذا حَلَّ بِوَادِيكَ))(٢٣٢)

---

(٢٣٠) ينظر : شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢/٨٧-٨٨ .

(٢٣١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢/٣٠١ .

نطق الإمام بهذه الكلمات عندما جاء ابن ملجم ليبايع الإمام على الخلافة فرّده مرتين ثم أتاه ، ومعنى الكلام ما يمنع أشقى الآخرين من أن يقتلني ، وقال : عمّا قريب لتصبغن لحيتي من دم رأسي لشدة الضربة . وتمثل بهذين البيتين المشهورين بين جمهور المسلمين وهما من نظمه ، وقالهما كذلك في اليوم الذي قُتِل فيه ومعناهما تهيأ للموت ؛ لأنه سَيَّحل بساحتك ، ولا تجزع منه إذا وقع عليك . وهذا النوع من الرثاء يسمى رثاء النفس أي أن الشخص يرثى نفسه قبل الموت ، وهذا اللون من الرثاء يُعدُّ نادراً ، وترى الذين ينظمونه هم الأبطال والفرسان .

٣- التناص التاريخي :

وهو تداخل نصوص تاريخية أو شخصيات أو حوادث مع نص الخطبة من أجل تأكيد فكرة أو مسألة معينة .

وللتناص التاريخي أثر مهم عند وروده في النص ، وهذا ما أكده الدكتور فاضل التميمي بقوله ((فالتناص التاريخي هدفه عند الكاتب : إيجاد تقارب فكري ، ونفسي بين الماضي والحاضر لغرض كشف الحاضر والإشارة الصريحة إلى مساوئه))[٢٣٣].

ولعل الخطب العلوية تحفل بمثل هذا النوع من التناص الذي يؤدي أثراً كبيراً من خلال انصهاره مع المعنى الأصلي من أجل خدمة الفكرة المراد إيصالها إلى المتلقي .

ومنه قوله (عليه السلام) : ((**بُعْداً لَهُم كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ : أَما لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُم**))[٢٣٤].

هناك نوعان من التناص في هذا النص ، الأول : التناص التاريخي في ذكر حال الذين التحقوا بالخوارج أنهم سيهلكون معهم مثلما هلك قوم ثمود ببغيهم وعصيانهم لنبيهم ، وأكثر من هذا عقرهم لناقة صالح مما أدى إلى حلول غضب الله عليهم والمتمثل بالصيحة

---

(٢٣٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: ٦٣٣/٢ .

(٢٣٣) (رؤيا الملك) أو ماناداا وستافروب (دراسة أسلوبية) ، (بحث) – د. فاضل التميم – مجلة ديالى للبحوث الإنسانية – العدد (١٧) – ٢٠٠٤م : ١٧٢ .

(٢٣٤) شرح نهج البلاغة : ٦٠/١٠ .

من السماء مع خسف الأرض بهم وقد أوضح القرآن الكريم ذلك[٢٣٥]. والجامع بينهما أن الذين اتبعوا الخوارج حالهم مثل الذين ارتضوا بعمل عاقر ناقة صالح وهو الهلاك الأبدي.

الثاني : التناص القرآني ، فالإمام استند إلى قوله تعالى : ﴿ **أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** ﴾ (هود : ٩٥) فهو جعل حالهم لا يقل عن حال أهل مدين لما فعلوه بشعيب (عليه السلام) من ألوان المضايقات فأنجى الله شعيباً وعمّهم بالعذاب .

إذن فالإمام من خلال حديثه عن الخوارج ينطلق من تناصين أحدهما مكمل للآخر والغرض منه تحذير المسلمين من هذه الفئة الضالة وما سينتظرهم في المستقبل هم ومن اتبعهم .

وقوله (عليه السلام) : ((**وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا – عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ ، فَشَرَطَا لَهُ – إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ ، وَدَوَامَ عِزِّهِ ، فَقَالَ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْتَرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ ، وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ! فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلَبُسِهِ**))[٢٣٦]. في خطبة للإمام تحدَّث فيها عن التكبر والخيلاء جسَّد التناص أحد أجزائها من خلال ذكر قصة موسى ، وهارون (عليهما السلام) مع فرعون ، وقصصهما معه كثيرة ، فالإمام اختار فيما يخص دخولهما إلى القصر بملابس بسيطة وعصي يحملونها يشترطان له إذا أسلم فإنه سيبقى ملكه ويدوم عزه ، فردَّ عليهما باستهزاء من قولهما ؛ لأنهما شرط عليه أن يُسلم مقابل بقاء الملك متعجباً من هذا القول الذي صدر منهما فهما لا يملكان بحسب عقله من الذهب ليدل على إنهما ملكان يستطيعان إزالة ملكه بالأسباب الدنيوية ، وكيف يزيلانه وهما بادٍ عليهما أسباب الذل والفقر من خلال العصي التي يحملانها ! وفرعون رؤيته دنيوية ، فبقاء الملك وزواله إنما يكون نتيجة معاملة الملك لرعيته فما من ملك يحكم بالظلم إلا وهوت مملكته به من مكان سحيق نتيجة بطشه وهذا ما حصل لفرعون ، وأما عن الملابس التي أبدى استياءه منها فهي ملابس الأنبياء والأوصياء فهم يرفضون الدنيا طلباً للآخرة ، وأما العصي التي لم تعجبه منظرها فإحداها كانت ثعبان مبين وهي آية من آيات موسى(عليه السلام). وحاصل الكلام لا سبيل إلى من يدخل

---

(٢٣٥) قال تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (هود : ٦٧) .

(٢٣٦) شرح نهج البلاغة : ١٣/١١٥-١١٦ .

الكَمِد والخيلاء قلبه وعقله فإنه سيقع في أي وقت لا محال. والطريق الوحيد هو اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى لكي يرتفع الغضب عن العبد.

وقوله (عليه السلام) : ((**سُنَّةٌ بِسُنَّةٍ ، أَما وَالله لَعَلى يَدي دَارَ هَذا يَوم الحُد يبِيَّة ، حِينَ كَتَبْتُ الكِتَابَ عَنْ رَسُولُ صلى الله عليه : (هَذا مَا تَصالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله صلى الله عليه وَسُهَيْلُ بن عَمرو ، فَقَالَ سُهَيْلُ : لا أُجِيبُكَ إلى كِتَابٍ تُسَمَّى [فِيه] رَسُولُ الله صلى الله عليه ، وَلَوْ أعلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله لَمْ أُقَاتِلكَ ، إنِّي إذَا ظَلَمتُكَ إنْ مَنَعْتُكَ أنْ تَطُوفَ بِبَيتِ الله وَأنتَ رَسُولُ الله ، وَلَكِنْ أكْتُبْ : (محمّد بن عَبد الله) أجِبكَ ! فَقَالَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه : يَا عَلِّي إنِّي لَرَسُولُ الله ، وَإنِّي لَمُحَمَّدُ بن عَبد الله ، وَلَنْ يَمْحُو عَنِّي الرِّسالَةَ كِتَابِي إلَيهِم ...فَاكْتُب (محمّد بن عبد الله) ... فَالَيوم أكْتُبُها إلى أَبْنَائِهِم كَما كَتَبَها رَسُولُ الله صلى الله عليه إلى آبائِهِم سُنَّة وَمَثَلاً**))[٢٣٧].

هذا الكلام أجاب به بعض من أصحاب معاوية بن أبي سفيان عند التحكيم حينما رفضوا أن يُكتب في الوثيقة أثناء التحكيم أمير المؤمنين لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فكان ردّ الإمام عليهم بليغ حين ضمنَّ كلامه ما جرى في السنة السادسة للهجرة بما يعرف (صلح الحديبية) بين المسلمين والمشركين من اتفاقات ووضع هدنة بين الطرفين بعدم الاقتتال إلى عشر سنين[٢٣٨]. والشيء المشترك ما بين النص المتناص مع النص الأصلي أن محور (أمير المؤمنين) من وثيقة التحكيم لا تنفي كونه خليفة وأميراً للمسلمين مثلما هو الحال مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين اعترض عليه سهيل بن عمرو ، ولعل الإمام أوجز في قوله حين قال أنه سيكتبها لأبنائهم مثلما كتبها لإبائهم فهذا يدل إن هؤلاء امتداد لإبائهم المشركين ، وإن كانوا مسلمين ظاهراً .

وقوله (عليه السلام) : ((**كَانَ عَبداً مؤمناً – أو .. صَالحاً – أحبَّ الله وَأحبَّهُ ، ضُرِبَ ضَرْبَةً عَلَى قِرْنِهِ الأيمن فَمَاتَ ، ثُمَّ بُعِثَ وَضُرِبَ ضَرْبَةً عَلَى قِرْنِهِ الأيسَر فَمَاتَ ، وَفِيكُم مِثْلَهُ**))[٢٣٩].هذا الكلام قاله ردَّاً على من سأله عن ذي القرنين أنبياً كان أو ملكاً فكان

---

(٢٣٧) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢/٢٠٤-٢٠٥ .

(٢٣٨) ينظر : تاريخ الأمم والملوك – أبي جعفر بن جرير الطبري – صححه نخبة من العلماء الإجلاء – د.ط – مطبعة الاستقامة بالقاهرة – ١٩٣٩م : ٢/٢٨١ .

(٢٣٩) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٢/٥٣٨-٥٣٩ .

جوابه بهذه الكلمات التي توضح حقيقة هذا العبد الصالح الذي أحب الله وأحبه ، والإمام في غير هذا الكلام ينفي أنه كان نبياً أو ملكاً وإنما هو شخص دعا قومه إلى عبادة الله فضربوه على قرنه -جانب رأسه- فغُيّب زماناً وبعثه الله مرة أخرى فضربوه على جانب رأسه الأيسر فمات على أثرها ومن ذلك عُرِفَ بذي القرنين ، وهذا العبد أسمه الإسكندر الرومي(٢٤٠). ووجه الترابط ما بين النصين قوله الإمام (وفيكم مثله) وقصد بهذا القول نفسه وهذا ما نقله ابن منظور عن أبي عبيد في قوله: ((أنه أراد نفسه ، يعني أدعو إلى الحق حتى يضرب رأسي ضربتين فيهما قتلي ، لأنه ضرب على رأسه ضربتين : إحداهما يوم الخندق والأخرى ضربة ابن ملجم))(٢٤١). أي أن حالي ، وحالكم مثل هؤلاء القوم مع صاحبهم أراد لهم الخير وأوقعوا به الشر، وأردت لكم النجاة وأوقعتم بيّ الهلاك.

فهذا هو تأثير التناص على النصوص ((فالارتداد إلى الماضي ، أو استحضاره، من أكثر الأمور فعالية في عملية الإبداع ، فقد يحدث تماس ... يؤدي إلى تشكيلات تداخلية))(٢٤٢). تسهم في رُقي النص وتزيد من قيمته الجمالية والتي بدورها تعمل على إقناع المتلقي بالفكرة المطروحة عليه .

ثانيا: الاستغراب :

لعل من أكثر ما يثير انتباه المتلقي والوقوف عنده هو الغموض الذي يلف النص في قسم من جوانبه ، فتارة يكون هذا الغموض من جهة اللفظ ، وتارة يكون من جهة المعنى ، وأحياناً في كلاهما . والاستغراب قد يكون أحد أجزاء هذا الغموض بطرفيه اللفظي ، والمعنوي ، وهذا يحتاج إلى مبدع خبير بأسرار الصنعة وخفاياها ، حتى لا يخرج بالنص إلى التكلف ، وبالتالي نفور المتلقي منه . وهذا ما يسعى إليه علماء البلاغة توضيحه للمبدعين لتفادي وقوعهم في المحذور .

فقدامة بن جعفر يرى أن المعنى يقال له جيد إذا كان مستجاداً في ذاته أما إذا قدَّم المبدع معنى ما لم يسبقه أحد فيقال له طريفاً وغريباً فإذا كثر لم يسمَّ بذلك . ويرى أن

---

(٢٤٠) ينظر : لسان العرب ، مادة (قرن) : ٣٣٧/٧ .

(٢٤١) لسان العرب : مادة (قرن) : ٣٣٧/٧ .

(٢٤٢) قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : ١٤٢ .

المعنى حسن جيد لكنه غير طريف ولا غريب وقد يكون طريفاً ، وغريباً غير حسن ولا جيد[٢٤٣]. ويُقدِّم ابن أبي الإصبع المصري تسمية جديدة وهي (النوادر) فيما يخص (الأغراب والطرافة) ويرى في الطريف ، والغريب ما أُتي بمعنى غريب لقلته بين الناس ولا يشترط أن يكون مثلما قال قدامة بن جعفر مما لم يسمع مثله وإنَّما فليكن قليل ذكره بين الناس نادر[٢٤٤]. ويقسمه على أقسام فيرى أنه قد يكون في اللفظ ، أو في المعنى ، أو في تأويله أي لا في ظاهر لفظة أو معناه بل أنه إذا حُمِل على ظاهره كان الكلام معيباً[٢٤٥]. ويكاد يتفق ابن الأثير الحلبي (ت٧٣٧هـ) مع قدامة والمصري بقوله ((وهو أن يأتي المتكلم بمعنى غريب نادر لم يسمع بمثله أو سمع وهو قليل الاستعمال))[٢٤٦]. والبحث بذكره هذه التعريفات هدفه تقديم صورة واضحة للمتلقي عن الاستغراب الذي يريده وهو ما ذكره علماء البلاغة من تقديم المعنى اللطيف ، واللفظ النادر ، لا مثلما يريده أهل اللغة من الغريب من كونه شاذاً ، أو نافراً ، أو منكراً ، فهذا بعيد عمّا يريده البحث. فـ((الاغراب ، أو الاستغراب في الأدب يقترن عادة بالابتكار الذي يضيف إلى الدلالات السابقة دلالات جديدة تجدد قدرات الأديب التعبيرية ، وتسهم في إضفاء جماليات جديدة تُعبَّر عن حالة الوعي الإنساني المتجدد))[٢٤٧]. وخير من يكشف عن جماليات هذا المظهر البديعي هو الدرس الأسلوبي فهو وأن أوضح الجانب الدلالي للنص فهو يكشف عن الثقافة التي يتحلى بها الأديب في نقد يغيب فيه الحديث عن المبدع ، ولهذا يرى الدكتور فاضل التميمي أنَّه ((يمكن للأسلوبية أن تُعنى بهذا المصطلح البديعي لما يتضمنه من دلالات غير مسبوقة أنتجها اللسان ، وتفرد بها عبر صياغات نحوية ، وبلاغية مقياسها الاختيار، والانتقاء الذي يفضي على التعبير بُعداً أسلوبياً يجتاز به عتبة الاستعمال الاعتيادي للغة إلى حيز التفرد الإبداعي

---

(٢٤٣) ينظر : نقد الشعر : ١٤٩ .

(٢٤٤) ينظر : تحرير التحبير : ٥٠٦/٣ .

(٢٤٥) ينظر : بديع القرآن : ٢٢٢-٢٢٣ .

(٢٤٦) جوهر الكنز : ٢٢٧ .

(٢٤٧) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٣٢ .

))[٢٤٨]. والبحث يرى أنه ينطلق من هذا المظهر البديعي في خطب الإمام (عليه السلام) نوعان من الاستغراب سيشكلان محور الدراسة وهما :

١- الاستغراب من جهة اللفظ .

٢- الاستغراب من جهة المعنى .

١- الاستغراب من جهة اللفظ :

وهو أن ترد في نصوص الخطب ألفاظ تحمل على الاستغراب لندرتها ، أو لقلة استعمالها في بيئة ، أو لضيق في مجالها الدلالي .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ وَيُدْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ**))[٢٤٩]. فالاستغراب واقع هنا في(الفالج الياسر) ، فالفالج: ((الظافر الفائز ، فَلَجَ يَفْلُجُ .. والياسر: الذي يلعب بالقداح .. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: كالياسر الفالج ، أي كاللاعب بالقداح المحظوظ منها ، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف كقوله تعالى: ﴿ **وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ﴾[٢٥٠] وحسن ذلك هاهنا أن اللفظتين صفتان، وإن كانت أحداهما مرتبة على الآخر))[٢٥١]. هذا ما ذهب إليه الشارح أبن أبي الحديد.

أما علماء المعاجم فتكاد تكون آراءهم متشابهة في تحديد معنى (الياسر) وهو المقامرة ، لكنهم اختلفوا في مدلولها[٢٥٢] . ويُقدَّم الشريف الرضي تفسيراً اعترض عليه ابن أبي الحديد وهذا التفسير يقول: ((الياسرون هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور،

---

(٢٤٨) البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي : ٣٢ .

(٢٤٩) شرح نهج البلاغة : ٢٨٦/١ .

(٢٥٠) فاطر : ٢٧ .

(٢٥١) شرح نهج البلاغة : ٢٨٧/١ .

(٢٥٢) ينظر : غريب الحديث – لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي – د.ط – الهند – ١٩٧٦م : ٤٧٠/٣ ، أساس البلاغة – جار الله أبي القاسم الزمخشري – تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود – ط١ – دار الكتب المصرية – ١٩٥٣م – مادة (يسر) : ٥١٣ ، لسان العرب ، مادة (يسر) : ٤٥٤/٩-٤٥٥ .

والفالج: القاهر الغالب))[٢٥٣].وأما سبب الاعتراض جاء بقوله: ((وليس يعني بقوله : الفالج القاهر الغالب .. لأن الياسر الغالب القامر لا ينتظر أول فوزة من قداحة ، وكيف ينتظر وقد غلب ! وأي حاجة له إلى الانتظار ولكنه يعني بالفالج الميمون النقيبة الذي له عادة مطّردة أن يغلب ، وقل أن يكون مقهوراً))[٢٥٤]. ويبدو أن المعنى الذي ذهب إليه الشارح يتفق بشكل غير مباشر مع ما أراده الإمام في توظيف هذا المعنى في كلامه .

ويأتي (الياسر) بمعنى أخر ، وهو القمار الذي يلعبون به في الجاهلية وفي منعه نزول قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾ (المائدة :٩٠) ويكون (الياسر) بمعنى المساعدة والمساهلة وهذا ما أُريد به في حديث عرفة للرسول محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) والذي يقول فيه ((من أطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ؛ فإن نومه ، ونبهه ، أجرٌ كله ، ومن غزا فخراً ورياءً فإنه لا يرجع بالكفاف))[٢٥٥] .

إذن فبعد كل هذه المعاني المتعددة تأتي غرابة هذه اللفظة في كونها جاءت في معنى مشترك مع الدلالات الأخرى فيما بخص أمراً أراده الإمام وهو أن المسلم لطالما لم يقترف ذنباً ، أو يعمل منكراً في الظاهر بحيث يحفز غيره على الخوض فيه كان ممن ربح الدارين الدنيا ، والآخرة ، فدار الدنيا لكونه ترفع عن حسد غيره، والصبر على فقدان الشيء ، ودار الآخرة لكونه عمل صالحاً في الدنيا ولهذا استحق الجنة [٢٥٦]. وبهذا يصبح حاله حال صاحب القدح المعلى الذي يوجب له المغنم ، ويدفع عنه المغرم . وحتى تظهر البنية الأسلوبية بصورة جلية للاستغراب دفع الإمام بـ – الجناس المضارع – بين (المغنم – المغرم) الممزوج بـ(المقابلة) (توجب له المغنم × يرفع عنه بها المغرم) ليمنح النص بُعداً أسلوبياً يعمل على إخراج الاستغراب إلى المتلقي بأطر فنية عالية .

---

(٢٥٣) شرح نهج البلاغة : ٩٧/١٩ .

(٢٥٤) المصدر نفسه : ٩٧/١٩ .

(٢٥٥) ينظر : الفائق في غريب الحديث – الزمخشري – ضبطه وصححه علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم – د.ط – القاهرة – ١٩٤٥م : ٢٢٩/٣ .

(٢٥٦) ينظر:مع نهج البلاغة (دراسة ومعجم) – د.إبراهيم السامرائي – ط١ – دار الفكر – ١٩٨٧م: ٢٧٨.

وقوله (عليه السلام): ((**عَرَفْتَنِي بِالحِجَازِ ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالعِرَاقِ ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا**))[٢٥٧].

هذا الكلام قاله لابن عباس لتوجه به إلى الزبير قبل وقوع حرب الجمل لعله يدخل في طاعة الإمام ، وهذا النص يحمل في داخله مباحث دلالية صوتية فأما الدلالية فهي بدءاً – الاستغراب في قوله (فما عدا مما بدا) حيث قال : السيد الرضي إن الإمام هو أول من قال هذه العبارة ولم يسبقه بها أحد أبداً [٢٥٨].

وأثبت ابن الانباري إن هذا القول للإمام بقوله ((هذه كلمة فصيحة ما سبق عليا (عليه السلام) أحد إليها)) [٢٥٩] .

وتقوم هذه العبارة من جهة الدلالة مجرى المثل الصالح وهذا ما أثبته الميداني (ت٥١٨هـ) في كتابه (مجمع الأمثال)[٢٦٠]. ومعنى هذا القول ما الذي صدكَّ وشغلك عن طاعتي بعد إظهارك لها ؟ فالإمام هنا حذف ضمير المفعول المنصوب في (عدا) أي : عداك ، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا** ﴾ (الزخرف:٤٥). أي: أرسلناه فكان لابد من تقديره كي لا يبقى الموصول بلا عائد[٢٦١] من جهة وحتى يستقيم النطق صوتياً بحرف (الألف) الصائت الطويل من جهة أخرى. واشترك الاستغراب مع (الطباق النفسي) الحاصل بين (عرفتني×انكرتني) الذي جعل من عبارة الاستغراب تطلب موقع التعليل الصريح من المقابل .

أما عن الجانب الصوتي فإنَّ هذ العبارة الفصيحة تحمل في داخلها – الجناس اللاحق – (عدا بدا)، و– السجع المطّرف– من خلال صوت الألف (الصائت الطويل) ليزيد من إيقاع هذه العبارة موسيقية ينفذ إلى قلب المتلقي بمجرد أن يسمعها، والرسم الآتي يوضح العبارة :

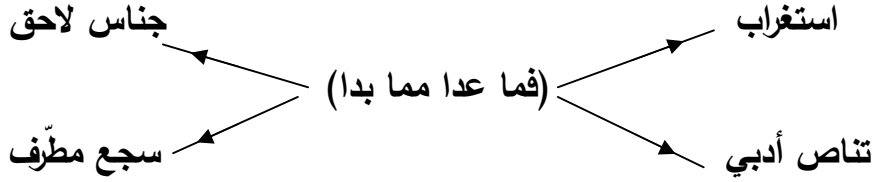

(٢٥٧) شرح نهج البلاغة : ١٢٩/٢ .
(٢٥٨) ينظر : المصدر نفسه .
(٢٥٩) نقلا عن هامش نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٢٩/١ .
(٢٦٠) ينظر : مجمع الأمثال : ٢٥٢/٢ .
(٢٦١) ينظر : شرح نهج البلاغة : ١٣٠/٢ .

وقوله (عليه السلام) : ((**اللَّهُم خَرَجْنَا إلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الجَوْدِ ، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ ، وَالبَلاغَ لِلْمُلْتَمِسِ**))[٢٦٢].

الكلام هنا في معرض الدعاء في خطبة ذُكرت من أجل الاستسقاء حينما مرّت على المسلمين إحدى السنين بقحط شديد فَخرج الإمام مع أصحابه يدعون من الله أن ينزل عليهم الغيث المغيث ، واللفظة المستغربة الواردة في هذا الكلام هنا هي (حدابير) وأثبت كل من الزمخشري وابن الأثير أن هذه اللفظة هي للإمام (عليه السلام)[٢٦٣]. وأصل الكلمة هي (حدب) بمعنى الشيء البارز وحينما دخلت عليها الراء زيد في دلالتها لتصبر أكثر إيقاعاً من جهة اللفظ وأعمق رؤيا من جهة المعنى لتصبح بمعنى ((النوق الضامرة التي قد يبس لحمها من الهزال وبدت حراقفها))[٢٦٤] . ومنه قول ذي الرمة :

حَدَابِيرُ مَت تَنْفَكُّ إلا مُنَاخَةً عَلَى الخَسفِ أو نَرمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا[٢٦٥]

إذن فالإمام استعار هذه اللفظة لإطلاقها على السنين المجدية، ووجه الترابط بينهما أن النوق قد برز تحدب ظهورها لقلة الماء الناتج عن قلة الكلأ ، كذلك تلك السنين أبديت وقحطت فبانت وألقت بتبعاتها على أهلها. فيصبح معنى الدعاء انه يا رب خرجنا إليك حين ردفت علينا السنين المقحطة المجدية فكلما رأينا برقاً وسحاباً أخلفنا ولم يمطر ، فأنت الرجاء للبائس وأنت الكافي للطالب. فغرابة هذا اللفظ أنه استعمل على غير ما عهد إليه.

وقوله (عليه السلام) : ((**كُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَيهِمْ وَأَلقُوهُم صَابِرِينَ مُحتَسِبِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّكُم مُنَازِلُوهُم وَمُقَاتِلُوهُم وَقَد وَطَّنْتُم أَنْفُسَكُم عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِي وَالضَّرْبِ الطَّلَحْفِي وَمُبَارَزَةِ الأَقْرَانِ**))[٢٦٦]. خاطب الإمام أصحابه بعد جمعهم بالبصرة لجهاد الذين قتلوا عُمّاله على

---

(٢٦٢) شرح نهج البلاغة : ٢٠٥/٧ .

(٢٦٣) ينظر : الفائق : ٢٤٦/١ ، النهاية في غريب الحديث والأثر – ابن الأثير مجد الدين المبارك بن محمد – تحقيق طاهر أحمد الزاوي – محمود الطناحي – د.ط – مصر – ١٩٦٣م : ٣٥٠/١ .

(٢٦٤) لسان العرب ، مادة (حدبر) : ٣٤٩/٢ .

(٢٦٥) ديوان ذي الرمة – تصحيح كاريل هنري – د.ط – مطبعة كلية كمبرج – ١٩١٩م : ١٧٣ .

(٢٦٦) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٣٥٠/١ .

الأقاليم والبلدان. والكلام هنا يدخل في باب الوصايا الحربية من القائد الأعلى إلى جنوده يوصيهم ماذا يفعلون أثناء القتال، وتظهر ما بين ألفاظه كلمة تُحمل على الاستغراب وهي (الدَّعس) ولهذا اللفظ معان عديدة منها أطلاقه على الرمح الغليظ الذي لا ينثني[٢٦٧]. ويؤتى به في الكلام كناية عن الجماع، وبمعنى الحَشْو، وشدة الوطء، وبمعنى الأثر، والطعن ولهذا يقال رجل (دَعُوس) أي أنه كثير الاستقدام في الغمرات والحروب[٢٦٨].

فالإمام أمر أصحابه أن يكونوا بغاية الشدة عليهم ، وأن يكونوا في قتالهم صابرين محتسبين ولا سبيل إلى التفاوض معهم ، ولهذا قال لهم : عليكم بالطعن الشديد ، والضرب الوجيع الذي يؤلم الأعداء ، مع الضرب (الطلحفي) أي – أشد الضرب – فالإمام يريد أن تكون أيدي المقاتلين نحو الأعداء قاطعة لا تلين قلوبهم عليهم ، ولا يأخذهم في الحق لومة لائم . فالإمام جاء بهذا اللفظ المستغرب (الدعس) ليمنح التعبير قوة وإثارة ، وليثير الحماسة في نفوس مقاتليه .

٢- الاستغراب من جهة المعنى :

هو أن يغيب معنى الكلمة عن ذهن المتلقي مدة من الزمن ، ولا يدرك مضمونها إلا بعد أعمال الفكر .

وهذا السبب نشأ نتيجة كثرة القبائل العربية الموجودة في الكوفة وخارجها فأحياناً تفهم هذه القبيلة العبارة ما لا يفهمها غيرها ، والعكس بالعكس . والحقيقة أن اللغة تكاد تكون واحدة لكن البيئة والتطور الحضاري جعل هذا الاختلاف يسود بين القبائل العربية .

ومنه قوله (عليه السلام): ((**وَالله لا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدمِ ، حَتَّى يَصِل إِلْيَها طَالُبها ، وَيَخْتَلَهَا رَاصِدُها ...**))[٢٦٩]. قال هذا الكلام لأصحابه حينما أشاروا عليه أن لا يرصد القتال لطلحة، والزبير فخاطبهم بهذه الصيغة، ومعنى القول لا أقعد عن الحرب، والانتصار لنفسي، وسلطاني فيكون حالي مع القوم المشار إليهم حال الضبع مع صائدها.

---

(٢٦٧) ينظر: تهذيب اللغة – لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري – تحقيق عبد السلام محمد هارون ، راجعه محمد علي النجار – د.ط – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر – ١٩٦٤م : ٧٥/١ .

(٢٦٨) ينظر : لسان العرب ، مادة (دعس) : ٣٦٠/٣ .

(٢٦٩) شرح نهج البلاغة : ٢١٢/١ .

أما عن تشبيه الإمام الأمر بالضبع تروي العرب في رموزها وأمثالها ((أحمق من الضبع))[٢٧٠]. ((يزعمون أن الصائد يدخل عليها وِجَارَها ، فيقول لها : أطرقي أم طُرَيَّق ، خامري أم عامر ، ويكرر ذلك عليها مراراً .. ومعنى (خامري) الزمي وجارك واشتري فيه ... فتلجأ إلى أقصى مغارها وتتقبض ، فيقول :أم عامر ليس في وجارها ، أم عامر نائمة فَتمدُّ يديها ورجليها وتستلقي ، فيدخل عليها فيوثقها ... ولو شاءت أن تقتله لأمكنها))[٢٧١]. واللفظ المستغرب الواقع في كلام الإمام هو (اللدم) ، ولعلماء المعاجم رأي فيه فالجوهري (ت٣٩٣هـ) يرى أن معنى (اللدم) هو صوت الحجر الذي يقع على الأرض وليس بالصوت الشديد[٢٧٢]. وأضاف ابن سيده (ت٤٥٨هـ) معنى أخر بقوله ((لدمت المرأة صدرها ؛ ضربته ، ولدمت خبز الملة ، ضربته))[٢٧٣]. وصاحب (الأساس) ينسب هذه المقولة للإمام ، ويقدِّم معنى جديد وهو أن (اللدم) هو رقع الثوب[٢٧٤]. وأما ابن منظور فيرى أن (اللدم) هو اللطم ، والضرب بشيء ثقيل يسمع صوته[٢٧٥]. ولا يخرج صاحب (القاموس المحيط) عن ما ذهب إليه الزمخشري ، وابن منظور بل يسير على قولهما[٢٧٦].

وخلاصة الكلام أنَّ الإمام بعيد في معناه عمّا ذهب إليه علماء المعاجم في معنى (اللدم) فقد جاء بهذه اللفظة كناية عن الخديعة مثلما يخدع الضّبع ، وهذا المعنى الذي انزاح الإمام فيه إلى هذا التشبيه لا يخلو من أن يكون (ناصاً تاريخياً) – يُعبّر عن الحالة التي يريدها له أعدائه مثل حال الصائد والضّبع .

---

(٢٧٠) جمهرة الأمثال – لأبي هلال العسكري – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش – د.ط – ١٣٨٤هـ : ٢٧٦/١ .

(٢٧١) شرح نهج البلاغة : ٢١٣/١ .

(٢٧٢) ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية – إسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – د.ط – القاهرة – ١٩٥٦م ، مادة (لدم) : ٢٢٩/٥ .

(٢٧٣) المحكم والمحيط الأعظم – علي بن إسماعيل بن سيدة – تحقيق جماعة – القاهرة – ١٩٥٨م – ١٩٧٢م ، مادة (لدم) : ٤٧٠/٦ .

(٢٧٤) ينظر : أساس البلاغة ، مادة (لدم) : ٤٠٧ .

(٢٧٥) ينظر : لسان العرب ، مادة (لدم) : ٦٣/٨ .

(٢٧٦) ينظر : القاموس المحيط – للفيروزآبادي – د.ط – مطبعة النهضة المصرية – ١٩٣٥م : ١٧٥/٤ .

وقوله (عليه السلام) : ((**أما إنَّه سَيَظْهَرُ عَلَيْكُم بَعْدِي رَجلٌ رَحْبُ البُلْعُوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يأكُلُ ما يَجِدُ ، وَيَطْلُبُ ما لا يَجِدُ**))[٢٧٧]. يُحدِّث الإمام أصحابه عن أمور ستكون في المستقبل ومن ضمن كلامه ما ذُكِر سابقاً أنه سيحكمهم من يحمل هذه الأوصاف فإذا وجدتموه بالأوصاف المذكورة لكم فاعلموا أنه هو الذي حُدِثتم عنه . وأما عن اللفظة المستغربة الواردة هنا فهي (مندحق) وقد أورد ذلك أبو مسحل (ت١٩٩هـ) في (النوادر)[٢٧٨] ، وابن الأثير في (النهاية) [٢٧٩]، موثقة إلى الإمام .

و(دَحَقَ) ورد استعمالها على لسان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث عرفه ((ما من يوم إبليس فيه أدحر ولا أدحق منه في يوم عرفة))[٢٨٠]. ومعنى (الدحق) هنا الطرد والإبعاد ، ويرى صاحب (التهذيب) أن الدَّاحق من النساء المخرجة رحمها شحماً ولحماً [٢٨١]. ودحقت الرحم ما ترميه الناقة من ماء الفحل بعد الضراب ، وتأتي بمعنى النوق التي يخرج رحمها عند الولادة [٢٨٢].

وعلى الرغم من كل هذه الأوصاف إلاَّ أنَّ الإمام استعمل هذه اللفظة في غير الاصطلاح الذي وردت عليه وإنَّما كان قصده بالدحق الامتلاء وليس مثلما ذهب إليه علماء المعاجم، وهذا المعنى أكّده أبو مسحل في نوادره إذ قال ((ويقال ملأت القربة، وركُتها .. وأدحقتها وأدهقتها بمعنى واحد))[٢٨٣]. وبعد هذا التفسير يصبح قول الإمام أنَّه سيظهر عليكم رجل واسع البلعوم ممتلئ البطن يأكل الذي يجده ، ويستدعي الذي لا يجده، والإمام يمزج الاستغراب بمظهر بديعي أخر وهو (الطباق السلبي) بين (يجد × لا يجد) ليسهم هذا المزج في إثراء الجانب الدلالي له .

---

(٢٧٧) شرح نهج البلاغة : ٤٢/٤ .

(٢٧٨) ينظر : النوادر – لأبي مسحل الأعرابي – تحقيق د.عزة حسن – دمشق – ١٩٦١م : ١٧١/١ .

(٢٧٩) ينظر : النهاية ، مادة (دحق) : ١٠٤/٢ .

(٢٨٠) الفائق في غريب الحديث : ٣٨٨/١ .

(٢٨١) ينظر : تهذيب اللغة : ٣٥/٣ .

(٢٨٢) ينظر : أساس البلاغة ، مادة (دحق) : ١٢٧ ، لسان العرب ، مادة (دحق) : ٣٠٧/٣ .

(٢٨٣) النوادر : ١٧١/١ .

وقوله (عليه السلام) : ((**حَتَّى أَنْشأ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا ، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا، أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ ...**))[٢٨٤]. يفصح الخطاب العلوي هنا عن صفة الأرض ودحوها على الماء في خطبة طويلة عرف بـ(الاشباح) ، والشاهد وجود لفظ متعدد الدلالات في معناه وهو (القزع) وعلماء المعاجم يرصدون هذا اللفظ في كتبهم، فصاحب (التهذيب) يرى أن (القزع) ما يقع من الفحل من لُغام على نخرته ، وبمعنى قطع السحاب[٢٨٥] ، أما الزمخشري فيقول : هو ما يرميه الفحل من الغُثاء والزَّبَد[٢٨٦] ، وابن منظور فيرى أنه بمعنى الريش الصغير ، وقد يكون بقايا الشعر المنتف ، ويراد به صغار الإبل ، وبمعنى السحاب الرقيق الذي يكون تحت السحاب الكبير[٢٨٧] .

فهذه الدلالات المتعددة لهذه اللفظة استعمل الإمام منها صورة واحدة وهي السحاب الرقيق الذي يكون عند منتهى الخريف ، وبدأ الشتاء .

وحاصل الكلام إن الله سبحانه وتعالى بعد خلقه الأرض لم يتركها على حالها، بل أنشأ لها سحاباً تحيي مواتها ، وتستخرج نباتها بعد أن ألف بين السحاب الكبير بعد افترق البرق ، وتباين السحاب الرقيق (المقزع) .

فغرابة هذا اللفظ جاءت في كون الإمام استعمله للتعبير عن حالة معينة بمعنى قليل الاستعمال من أصل دلالات كثيرة .

وقوله (عليه السلام) : ((**أنا يَعْسُوبُ الدِّينِ وَغَايَةُ السَّابِقِينَ وَلِسَانُ الْمُتَّقِينَ ، وَخَاتُمُ الْوَصِيِّينَ وَوَارِثُ النَّبِيِّينَ ، وَخَلِيفَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**))[٢٨٨]. يخاطب الإمام أصحابه أن يبادروه بالسؤال فيما يخص أمورهم الدينية ، والدنيوية قبل أن يرحل عنهم ، وتبقى عليهم معضلات الأسئلة ، ثُمَّ يوضح لهم سبب مبادرته لهم بالسؤال عن أمورهم بجمل مترابطة بدأها بلفظ

---

(٢٨٤) شرح نهج البلاغة : ٣٣٨/٦ .

(٢٨٥) ينظر : تهذيب اللغة ، مادة (قزع) : ١٨٥/١ .

(٢٨٦) ينظر : أساس البلاغة ، مادة (قزع) : ٣٦٥ .

(٢٨٧) ينظر : لسان العرب ، مادة (قزع) : ٣٥٢/٨-٣٥٣ .

(٢٨٨) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ٤٧٦/٣ .

يُحمل على الاستغراب وهو (اليعسوب) وهذا اللفظ ورد على لسان الإمام قبل غيره وهذا ما اثبته العلماء[٢٨٩] .

أما عن علماء المعاجم فالفراهيدي يقول أن (اليعسوب) هو أمير النحل وفحله ، ويأتي بمعنى طائر يُشبّه به الخيل لضمرها ، ويأتي بمعنى ضرب من الحجلان من أعظمها ، وبمعنى دائرة في مركض الفرس حيث يصيب رَجْلَ الفارس[٢٩٠] . وصاحب (معجم البلدان) يقدِّم معنى جديداً وهو الجبل من قوله ((قال بعضهم : حتى إذا كنا فويق يعيسوب))[٢٩١]. ولا يفوت ابن الأثير هذا اللفظ حيث يقول فيه أن معناه فراشة مخضرة[٢٩٢]. وابن منظور يرى أن اليعسوب هو أمير النحل وذكرها ، ولهذا اطلقوا على كل رئيس قوم يعسوباً ، ويأتي بمعنى طائر أصغر من الجرادة ، وبمعنى الغُرة التي تكون في وجه الفرس على شكل مستطيل والتي تنقطع قبل أن تساوي أعلى المنخرين ، و(اليعسوب) اسم فرس النبي محمد (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ، واسم فرس الزبير بن العوام[٢٩٣] . ولعل الشيء الطريف الذي غاب عن علماء المعاجم وتنبه إليه (المعجم الوسيط) هو أن ((اليعسوب: ملكة النحل وهي أنثى وكان العرب يضنونها ذكراً لضخامتها))[٢٩٤] وما ذهب إليه المعجم الوسيط صحيح ؛ لأن النحل لا يجتمع حول الذكر ، وإنّما حول الأنثى التي هي ملكة النحل ومن هنا أطلق عليها لفظ (اليعسوب) .

إذن فالمراد من كل هذه المعاني المذكورة معنى واحد أراده الإمام وهو أنه الأمير الذي يجب أن يحيط الناس به لكي ينتفعوا منه مثلما ينتفع بقية النحل بالملكة التي تضع البيوض ، وتنظم عمل الخلية. والأمر لا يقتصر على ذلك بل غاية كل سابق إلى الإسلام،

---

(٢٨٩) ينظر : غريب الحديث : ٤٣٩/٣-٤٤٠ ، الفائق : ١٥٠/٢ ، النهاية : ٢٣٤/٣ .

(٢٩٠) ينظر : العين ، مادة (عسب) : ٤٣٢/١ .

(٢٩١) معجم البلدان – ياقوت الحموي – د.ط – دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٥٧م : ٤٣٨/٥ .

(٢٩٢) ينظر : النهاية ، مادة (عسب) : ٢٣٥/٣ .

(٢٩٣) ينظر : لسان العرب ، مادة (عسب) : ٢٤١/٦-٢٤٢ .

(٢٩٤) المعجم الوسيط – لمجمع اللغة العربية – إشراف عبد السلام محمد هارون – المكتبة العلمية – طهران – د.ت ، مادة (عسب) : ٦٠٦/٢ .

وهو لسان حال المتقين ، وخاتم الوصيين لكونه وصي رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) الذي لا نبي بعده .

فهذا المظهر يمنح النص بُعداً أسلوبياً من خلال ما يشير إليهِ اللفظ والمعنى المستغرب عند وجوده في الجملة من دلالات وكيف يبعث بالقارئ إلى التأمل والغوص فيه وفي تفاصيله من أجل الوقوف على عتبة المعنى الحقيقي .

ثالثا: **حسن الخروج** :

لا يبالغ البحث إذا قال إن النقاد ، والبلاغيين قد أولوا عنايتهم بصورة كبيرة وفائقة فيما بخص الجانب الشعري أكثر من الخطابة من جهة (براعة التخلص) وإن شئت قلت حسن الخروج . ومرة أخرى تتعرض الخطابة إلى غبن من جهة دراستها في هذا الجانب ، والظاهر على الأمر إنها لم تكن محط إعجاب النقاد ، وأهل البلاغة فيما يخص الانتقالات فيها ، فأغلب الظن إن المدة التي نشأت فيها الآراء النقدية كان للشعر حضوره الفاعل في الساحة الأدبية أكثر من غيره ، وربما اعتقد هؤلاء النقاد أن الخطبة لا تعدو أن تكون من بسملة وحمد لله ، والثناء على رسوله ، وذكر الموضوع المراد إبرازه للمتلقي .

فالبحث متفق معهم على الأقسام التي ذكروها للخطبة ، ولكن هل طريقة تأليف الخطب متشابهة ما بين المبدعين ؟ فهذا الموقف الذي يراه النقاد لا يسوغ الموقف الذي اعتمده النقاد في جعل الشعر محور حديثهم ، وتركهم النثر بصورة عامة ، والخطابة بصورة خاصة .

فالبحث يتحدَّث عن خطب كان لها الأثر الواضح في عصرها ، بل تكاد تكون هي السائدة في عصرها على غيرها من الفنون الأدبية الأخرى ، فالبحث يجدها بلغت ذروتها في العصر الإسلامي ، ذلك العصر الذي انتشرت فيه الدعوة . فالعجب والتأمل لمن يقف أمام الأصحاب ويقول خطبة مرتجلة على البديهية من دون دواة ، أو قرطاس وترى صاحبها كأنه مضى وقتاً طويلاً في كتابتها ممعن النظر في كلماتها وعباراتها لتخرج بالصورة المناسبة ، لا العجب لمن يقضي أياماً وشهوراً أو حولاً كاملاً ينقح في قصائده خوفاً من اللفظ الخشن ، والمعنى المستكره .

وعلى الرغم من كل ذلك تجد أن قسماً من علماء البلاغة تحدَّثوا عن هذا اللون البديعي كُلاً حسب قناعته فمنهم من يسميه (حسن الخروج) ، ومنهم من يسميه (التخلص). فمن الذين أطلقوا تسمية (حسن الخروج) [٢٩٥] ثعلب ، وتلميذه ابن المعتز من خلال حديثه عن محاسن الكلام بقوله ((ومنها حسن الخروج من معنى إلى معنى))[٢٩٦] .

ويبدو أنَّ التلميذ لم يختلف مع أستاذه في هذه التسمية والتي يراها تناسب هذا الفن إلى حدٍ ما.

والذين يسمون هذا الفت بـ(التخلص) أمثال أبن أبي الإصبع المصري الذي عرّفه بقوله ((وهي في الكتاب العزيز معرفة الوصول من الفصل وقد ذهب بعض المتكلمين إلى أنها أحد وجوه الإعجاز))[٢٩٧] . وكذلك ابن الأثير يعرفه ((فأما التخلص فهو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني مبيناً هو فيه إذ أخذ معنى أخر وجعل الأول سبباً إليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً أخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً))[٢٩٨].

وللقزويني قول لطيف حيث يقول ((التخلص ونعني به الانتقال مما شبب الكلام به من تثبيت أو غيره إلى المقصود كيف يكون ؟ فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرَّك نشاط السامع ، وأعان على إصغائه إلى ما بعده ، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس))[٢٩٩].

والبحث يرى أنَّه لا فرق بين التسميتين إلاَّ أن (حسن الخروج) أقرب وألطف فيما يخص الخطابة ، بخلاف (حسن التخلص) الذي يكون قريباً في فحواه إلى الشعر.

والذي يستبصر في خطب الإمام (عليه السلام) يجد فيها الانتقادات الرائعة من موضوع إلى آخر بدون تنافر في الألفاظ ، أو تكلف في المعاني ، ولاسّيما أن الغالبية من خطبه تجدها مرتجلة مع الموقف الذي يتعرض له .

---

(٢٩٥) قواعد الشعر : ٥٠ .

(٢٩٦) البديع : ١٥٥ .

(٢٩٧) بديع القرآن : ١٦٨ ، تحرير التحبير : ٤٣٣/٣ .

(٢٩٨) الجامع الكبير : ١٨١ .

(٢٩٩) الإيضاح في علوم البلاغة : ٤٣٢/٢ .

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**الحَمْدُ لله الَّذي لا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ ، وَلا يُحصي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ ، وَلا يُؤَدِّي حَقَّهُ المُجْتَهِدُونَ .. أوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ... مُتَوَحِّدٌ إذْ لا سَكَنَ يَسْتَأنِسُ بِهِ ، وَلا يَسْتَوحِشُ لِفَقْدِهِ . أنْشَأ الخَلْقَ إنشاءاً وابتَدأهُ ابتِدَاءاً .. ثُمَّ أنْشَأ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الأجْوَاءِ ، وَشَقَّ الأرْجَاءِ ، وَسَكَائِكَ الهَوَاءِ ... ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ ... ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَمَوَاتِ العُلا ، فَمَلأهُنَّ أطْوَاراً مِنْ مَلائِكَتِهِ .. ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأرْضِ وَسَهْلِهَا ، وَعَذْبِهَا وَسَبِخِهَا ... ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَتَمَثَّلَتْ إنْسَانَاً ذَا أذْهَانٍ يُجِيلُهَا ... ثُمَّ أسْكَنَ آدَمَ دَاراً أرْغَدَ فِيهَا عَيْشَتَهُ وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ...ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ، وَأكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا ... وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ ، الَّذي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأنَامِ))**[٣٠٠] .

خاطب الإمام أصحابه بكلام طويل تحدَّث فيه عن أمور عديدة والتي على ما يبدو أن (ثُمَّ)استطاعت أن تُسهِّل الانتقادات، والخروج من مقطع إلى أخر بين أجزاء الخطبة.

يبدأ الإمام كلامه بالأهم وهو حمد الله ، والثناء عليه منتقلاً إلى عجز العباد عن تأدية مدحه وإحصاء نعمه ، وينتقل إلى الأمور التي يعرف بها الله عز وجل وقد تحدث البحث عن هذا المقطع في – تكرار التفصيل – وبعد أن فرغ من الأمور التي يجب على العبد معرفتها انتقل الإمام بعقول المتلقين إلى فكرة الوحدانية لله عز وجل عن طريق (المقابلة) (يستأنس به × يستوحش لفقده) ليوضح لهم أن لفظ الاستئناس ، والاستعياش لمن كان له رفيق ثُمَّ ابتعد عنه أما سبحانه فإن ذلك لا يجوز له ؛ لأن وجوده أزلي . وانتقل بعد ذلك إلى إنشاء الخلق وابتدائه ، والإنشاء والابتداء كلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء ، والبلغاء موضحا لهم في هذه الانتقالة قدرة الله في تكوين الخلق بدون تعب أو نصب ، وانتَقل بـ(ثُمَّ) إلى خلق الفضاء الخارجي منتقلاً بعد الحديث إلى الكلام عن الزينة التي خلقها الله لهذا الفضاء جاعلاً من المظهر الصوتي – السجع – علامة لإبراز هذه القدرة العظيمة .

وانتقل بـ(ثُمَّ) للحديث عن جزء من خلقه ، وهم الملائكة على أنواعهم متخذاً من (الإجمال والتفصيل) دليلاً على هذه العظمة الملكوتية لله سبحانه وتعالى.

---

(٣٠٠) شرح نهج البلاغة : ١/٨١-١٣١ .

ويخرج من حديثه عن الملائكة لينتقل بـ(الطباق) إلى الأرض متحدثاً عن خلق آدم (عليه السلام)(حزن الأرض×سهلها) (عذبها×سبخها) وبعد حديثه عن آدم(عليه السلام)خرج بحديثه عن خلقه إلى كونه سبحانه أسكنه الجنة ولكن نتيجة وسوسة إبليس له أهبطه مثلما قال الإمام: ((إلى دار البلية ، وتناسل الذرية))[٣٠١].إلى هنا كان الكلام بين قسمين الحديث عن الله عز وجدل وقدرته، والحديث عن الفضاء الخارجي ويمكن القول أنَّه الجزء الأول، أما الجزء الثاني فيكون في الأرض وما بعدها فبعد إيجاد الأرض ينتقل إلى ذكر الحبيب المصطفى (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وما قدَّمه إلى البشرية من علم وهداية لإنقاذ الناس من الجهل والغواية ، لينتقل بعد ذلك بحرف العطف (الواو) إلى فريضة مهمة وهي حج البيت لمن يستطيع ذلك لما له من أجر كبير . ويلاحظ أن الإمام عند أغلب انتقالات جاء بـ(ثُمَّ) ؛ لأنه كان إما في معرض وصف أو خلق وحينما انتقل بالذكر إلى أحدى الفرائض جاء بـ(الواو) ليبين أهمية هذه الفريضة . والمخطط الآتي يوضح (حسن الخروج) :

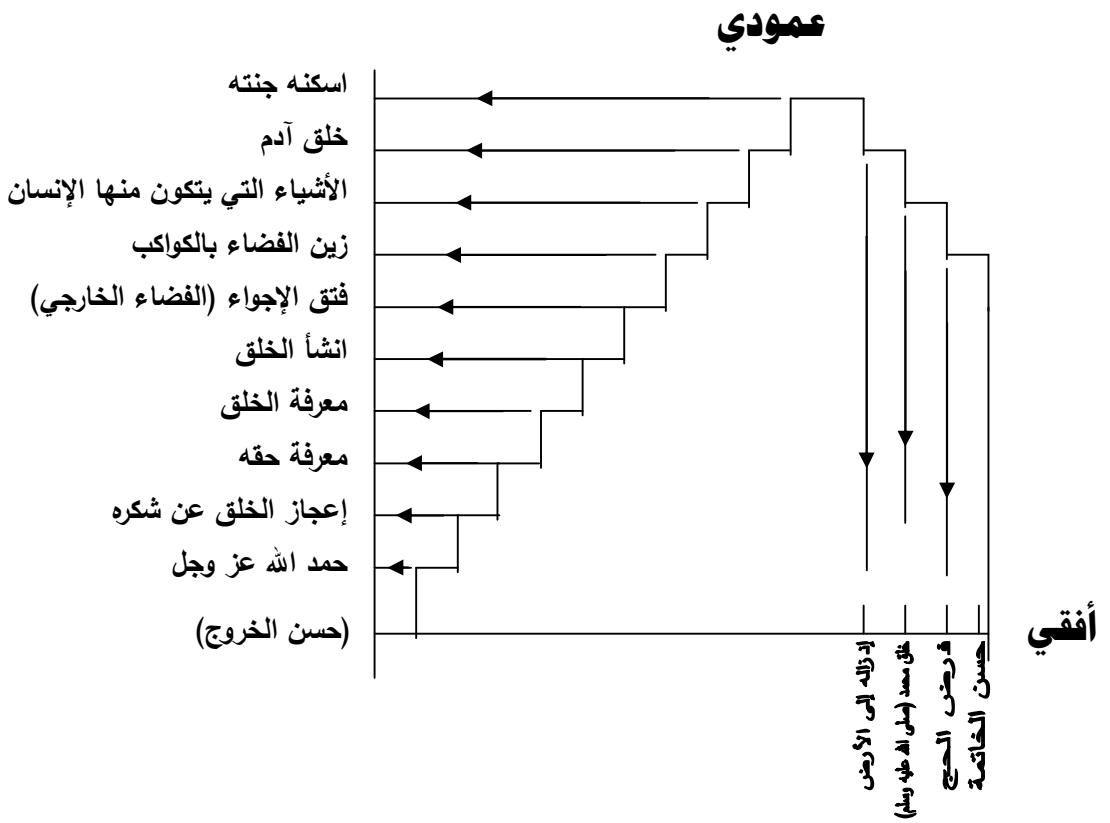

(٣٠١) شرح نهج البلاغة : ١/١١٤ .

يلاحظ هنا في هذا المخطط أن الخط العمودي تكثر فيه الانتقالات أكثر من الخط الأفقي وهذا يدل على أن المعنى في تصاعد مستمر فهو يبدأ من حمد الله عز وجل وصولاً إلى الهرم ، وهذه الانتقالات أغلبها الحديث فيها عن أمور متعلقة بذات الله أو في الفضاء الخارجي المتمثل بالسموات وما يوجد فيها ، وينتقل بعد ذلك إلى الخط الأفقي لينزل آدم (عليه السلام) إلى الأرض بسبب وسوسة الشيطان له ثُمَّ يأتي بخلق النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وصولاً إلى فريضة الحج .

إذن فهذه الخطبة ذروتها في المقدمة ، والوسط من جهة حسن الخروج ، ثُمَّ يبدأ بالانحسار هذا الخروج إلى أن يصل إلى حسن الخاتمة .

وقوله (عليه السلام) : ((**حَمِدْتُ مَنْ عَظُمَتْ مِنَّتُهُ ، وَسَبَغَتْ نِعَتُهُ ... وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَرْشِدُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ... عَلَمٍ فَسَتَرَ ، وَبَطَنَ فَخَبَرَ وَمَلَكَ فَقَهَرَ وَعُصِيَ فَغَفَرَ ... وَشَهِدْتُ بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ وَصَفِيِّهِ [هِ وَنَبِيِّهِ وَنَجِيِّهِ وَحَبِيبِهِ وَخَلِيلِهِ ... وَصَّيْتُكُمْ مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَنِي بِوَصِيَّةِ رَبِّكُمْ ... فَعَلَيْكُمْ بِرَهْبَةٍ تَسْكُنُ قُلُوبَكُمْ وَخَشْيَةٍ تُذْرِي دُمُوعَكُمْ ... ثُمَّ قِيلَ : هُوَ مَوْعُوكٌ وَجِسْمُهُ مَنْهُولٌ ثُمَّ جُدَّ فِي نَزْعٍ شَدِيدٍ وَحَضَرَهُ كُلُّ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ... وَسَكَنَ حَنِينُهُ ، وَحَزَنَتْهُ نَفْسُهُ وَبَكَتْهُ عِرْسُهُ وَحُفِرَ رَمْسُهُ ... وَمُدِّدَ وَجُرِّدَ وَعُرِّيَ وَغُسِّلَ ... وَنُشِرَ عَلَيْهِ كَفَنُهُ وَشُدَّ مِنْهُ ذَقَنُهُ ... وَجُعِلَ فِي ضَرِيحٍ مَلْحُودٍ وَضَرِيحٍ مَوْصُودٍ ... فَثَمَّ بُعِثَتْ قُبُورٌ ، وَحُصِّلَتْ سَرِيرَةُ صُدُورٍ ، وَجِيءَ بِكُلِّ نَبِيٍّ وَصِدِّيقٍ وَشَهِيدٍ ... فَسُلْسِلَ جِيدُهُ وَغُلَّتْ يَدُهُ وَسِيقَ فَسُحِبَ وَحْدَهُ فَوَرَدَ جَهَنَّمَ بِكَرَبٍ وَشِدَّةٍ ... فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ تَغْلِيبِ رَبِّهِ جُعِلَ فِي جَنَّتِهِ بِقُرْبِهِ ... فَلَيْتَ ضَرَّعَ مَتَضَرُّعِكُمْ ، وَلَيْتَ هِلَ مُبْتَهِلُكُمْ وَلَيْتَ غَيْبَ كُلُّ مَرْوُبٍ مِنْكُمْ لِي وَلَكُمْ))**[٣٠٢] .

الكلام هنا جزء من خطبة طويلة معروفة بين المسلمين حينما اجتمعوا في أحد الأيام في مجلس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا أن حرف (الألف) هو أكثر الحروف دخولاً في الكلام ولا يمكن الاستغناء عنه ، فقام الإمام من المجلس مرتجلاً هذه الخطبة بدون حرف (الألف) الذي ذكروه . وعلى طبيعة الإمام بدأ بحمد الله وبيان صفاته وتوضيح أسباب التمسك والاستعانة به دائماً ، وانتقل الإمام إلى ذكر بعض الصفات التي يتميز بها

---

(٣٠٢) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : ١/٩٨-١٠٦ .

سبحانه وتعالى ليوضح للبشر أنه ليس بغافل عنهم وأنهم لا يساوون أي شيء أمام واحدة من صفاته الربانية ، وتأتي الشهادة للرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) بالبعثة والنبوة مع كل حديث يوجد فيه الثناء على الباري عز وجل زيادة في مقامه وسّموه بين العباد من جهة ، وحتى تسير الناس على هذا الأسلوب من بعده من جهة أخرى .

ويدخل إلى الموضوع الرئيس جاعلاً من – السجع – أول ما يقرع سمعه (رهبة لتسكن قلوبكم – خشية تذري دموعكم) ، وبعد التحذير والتنذير ينتقل إلى ما سيتعرض إليه العبد في يوم من الأيام وهو المرض ، وترى الإمام بينما هو يتحدث عن المرض إذ ينقلك إلى معاينة الموت بدون أن تحس وجود أي فجوة في الكلام لتبدأ مرحلة ما بعد الموت وهي ما يستلزم فعله للميت من تجريد للملابس التي كان يلبسها في دار الدنيا لُيلف بقطعة قماش بيضاء ، وقبل التكفين يكون الغُسل الأخير له لينتقل إلى مرحلة أخرى ، وهي وضعه في القبر فبعدما كانت الدنيا لا تسعه بما فيها جُعِل في ما لا تشتهيه نفسه ليلبث مدة من الزمن ، ثُمَّ انتقل إلى مرحلة أخرى وهي يوم الحساب ليكون إما في نار جهنم مُعذب أو في جنة الخلد مُنّعم ، وبعد أن أوضح لهم الصورة كاملة يتوجه إلى الدعاء ، والاستغفار ليرفع عنهم العذاب في جميع المراحل التي ذكرها لهم ، عسى أن تتعض قلوبهم وتستفيق عقولهم مما هم فيه . والرسم الآتي يوضح حصول هذه الانتقالات .

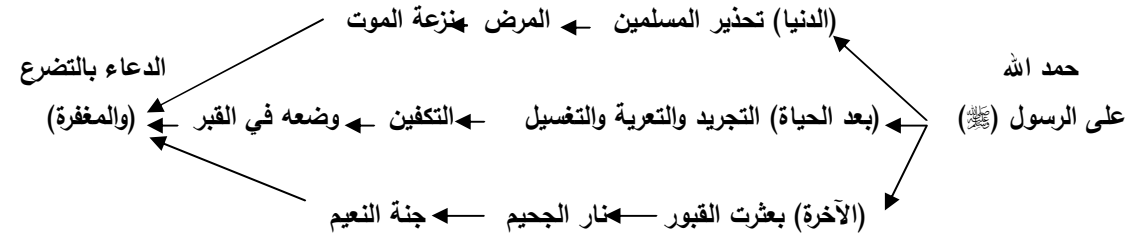

فالبحث يرى أن الخطبة قائمة على أساسين مهمين بدأهما بحمد الله والصلاة على رسوله الأمين ، وانتهى بالدعاء . وتكون الانتقالات الأساسية في ثلاث مراحل (الدنيا – بعد الحياة – الآخرة) وتأتي الانتقالات الفرعية في كل مرحلة من هذه المراحل الأساسية والسهم الذي يتحرك باتجاه اليسار يدل على خروج الإمام من موضوع إلى أخر بدون تكلف في اللفظ أو المعنى .

فهذا هو (حسن الخروج) الفائدة تكمن فيه أنه ينشط أسماع المتلقي ؛ لأن الكلام إذا كان على وتيرة واحدة نفره السامع والقارئ . وبالتالي يؤدي إلى ضعف النص .

الخـــاتمة

الخاتمة

بعد السير في جنات الخطب الحيدرية ، بحثاً عن الرياض العربية المتمثلة في المظاهر البديعية توصل البحث إلى جملة نتائج عملية تكمن في النقاط الآتية :

١- البديع : فن بلاغي ينهض في لغة الخطيب الإمام علي (عليه السلام) على مستويات الصوت ، والتركيب ، والدلالة ، وإنه ليس زخرفاً لفظياً ، ولا صناعة معنوية يلجأ إليها الأديب لغرض تحسين لغته وتجميلها .. وعليه فأن المظاهر البديعية في خطب الإمام هي مظاهر بلاغية تُعدُّ جزءاً من تركيبة النص وجماليته .

٢- لم تكن المظاهر البديعية في الخطب العلوية مبنية على الإفراط ، والتكلّف ، والتصنع ،بل جاءت في خطبه لتؤدي غرضاً مرتبطاً بالصوت ، والتركيب ، والدلالة.

٣- تمكن الإمام (عليه السلام) بفصاحته العالية ، وبلاغته المتميزة أن يُسخِّر الجانب الفني ، ولاسّيما البديع في خدمة الجانب الموضوعي لخطبه ، وعلى الرغم من حضور الجانب الديني بشكل واضح ولافت للنظر، ظلّ البديع محافظاً على موقعه داخل النص ؛ لقدرته على إيصال الموضوع للمتلقي بطريقة فنية متميزة .

٤- إنَّ وجود التكرار بأقسامه (التكرار المتوالي – التكرار المتباعد – التكرار المفرد) لم يكن شيئاً اعتيادياً ، ولاسّيما أن هذا المظهر يُعدُّ من أكبر مباحث الرسالة ، فهذا يدل على ولع الإمام (عليه السلام) بهذا المظهر ، فضلاً عمّا يتمتع به من حضور فاعل ، وكفاية متميزة تتمثل في التوكيد ، والإبلاغ ، وغيرهما .

٥- إنَّ التراكمات الصوتية المنبعثة من الخطب العلوية بأشكالها المختلفة من جرس ، وإيقاع ، وتنغيم ، أسهمت في تلوين الجناس من خلال التوارد الحاصل في اللفظين مع اختلاف الدلالة لكل واحد منهما ، محدثاً أثراً صوتياً في النص من جهة ، وإثارة ذهنية ، ونفسية لدى المتلقي من جهة أخرى . وهذا ما يسعى إليه كل متكلم ، ولاسّيما إذا كان خطيباً .

٦- إنَّ حضور السجع ، والتوازن في الخطب العلوية بأشكالهما المختلفة أسهم في انفتاح نصوص الخطب على المتلقين ؛ لما يقومان بهِ من خلق حالة من الإيقاع وجلب للمعاني ، وبما يملكانه من قدرة تتمثل في كسر الملل الذي قد يصيب المتلقي.

٧- تميَّزت خطب الإمام (عليه السلام) بأنها لم تكن على وتيرة واحدة تبعث على السأم ، والملل ، فالالتفات من خلال تحكمه ببنية النص التركيبية بالعدول في الكلام والانتقال ما بين المخاطب ، والغائب ، والمتكلم ، أو ما بين الماضي ؛ والحاضر ، والأمر ، تبعاً إلى المواقف ، والانفعالات التي تحصل لدى المتلقين أسهم في جعل الكلام متنوعاً في التركيب ، والدلالة فلم يكن على وتيرة واحدة .

٨- يتميّز مظهر الحذف دون غيره من مظاهر البديع بقدرته على خلق علاقة مشتركة ما بين المتكلم ، والمتلقي من خلال إشراك الأخير في قراءة النص الذي يحتوي على الحذف ، عن طريق تقدير المحذوف من أجل فتح فضاء أوسع للمعنى فيما يعني تقدير المحذوف ، وهذا يجعله على صلة دائمة مع النص ، ولا يغادره معناه ، فضلاً عن كون الحذف يُقدِّم الموضوع المراد طرحه بإيجاز في اللفظ ، مع بلاغة في المعنى .

٩- إنَّ العكس والتبديل يجمع في فضائه مستويات البلاغة الثلاثة ، فمن (الصوت) ترى أن التكرار حاضر بإعادة الألفاظ نفسها في العبارة الثانية بجملة العكس ، مع تبديل أماكنها التي كانت عليها في العبارة الأولى ، ومن (الدلالة) ترى أن الطباق يحصل مع بعض الألفاظ في العبارتين ، ومن (التركيب) ترى أن بنية (التقديم والتأخير) تتجلى في شكل العكس والتبديل ؛ لكون المعنى لا يحصل في هذا المظهر إلا بتقديم ، أو تأخير أحدى العبارتين ، وهذه ميزة ينفرد بها ، وتفتقر إليها مظاهر البديع الأخرى .

١٠- كانت الخطب العلوية على درجة عالية من السبك ، والجودة فيما يعني حسن المقدمة ، وحسن الخاتمة ، بل ومثلما أُريد لهما بأن تكون كل واحدة منهما

مقرعة للأسماع لا تغادرها ، ملهية للقلوب تحركها ، وأحياناً تفصح عنها ، وسواء أكانت جمل المقدمة ، والخاتمة طويلة ، أم قصيرة فهي لا تخضع لمعيار معين ، أو نظام ثابت فيما يعني الجودة ، أو الرداءة ، بل ترى أنَّ الإبداع حاضر في كِلا الشكلين .

١١- كان للطباق بجميع ألوانه الأثر الواضح في زيادة القيمة المعنوية للخطب العلوية بما قدَّمه من صور رائعة تتمثل في ثنائية (الحضور ، والغياب) مانحاً النص بُعداً دلالياً تتوسع فيه معالم الفكرة المراد طرحها ، وتزداد الدلالة توسعاً بحضور المقابلة ، فكلما كثرت المتقابلات ، أرتفع المعنى ، وتنظمت الجمل في سياق تركيبي رائع لا يشوبه أي تعسف ، أو تكلف .

١٢- إنَّ استعمال الإمام (عليه السلام) لمظاهر بديعية مثل الإجمال والتفصيل ، واللف والنشر ، وحسن التعليل أسهم بصورة كبيرة في تعميق الدلالة ، وإيضاح الغامض الذي يلف قسماً من كلامه ، مُقدِّماً لهم بهذه المظاهر أروع الصور من جهة الترغيب فيما يحبونه ، والترهيب عمّا يكرهونه .

١٣- لا يُجانب البحث الحقيقة إذا قال إن التناص بأشكاله الثلاثة (التناص الديني – التناص الأدبي – التناص التاريخي) قد هيمن على كلام الإمام (عليه السلام) ، ولاسيّما خطبه ؛ وذلك لقدرة هذا المظهر على خلق حالة من الإبداع في بنية النص من خلال الأنزياح الذي يحدثه عند المزج ما بين النصوص بأسلوب متميز ، مانحاً تلك الخطب قيمة فنية ، ومعنوية على وفق الرؤية الأسلوبية هذا من جهة ، ولعلم الإمام بالأثر الذي يحدثه في نفوس المتلقين عند استعماله في خطبه من جهة أخرى .

١٤- إنَّ استعمال الإمام (عليه السلام) لقسم من الألفاظ ، والمعاني المستغربة في خطبه لا يعني أن لغته وحشية ، أو وعرة ، وإنما تنطلق من أفق اللغة القرشية ، ولغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والإبداع البلاغي والأسلوبي عند العرب منذاك ولكنه حينما عمد إلى الاستغراب في خطبه ؛ لأجل إثارة المتلقين ، وتحريك

عقولهم نحو الصواب، فضلا عن كون هذه الألفاظ ، والمعاني لها الأثر البالغ في نفوس قبائل دون غيرها ، ولهذا فأن عدم معرفة قسم من الألفاظ عند قبيلة دون غيرها فهذا لا يعني أنها وحشية ، أو مستكرهة .

١٥-إن حسن الخروج كان مظهراً فاعلاً في تلك الخطب من خلال تنظيمه الخطبة الواحدة بأجزائها كافة من مقدمة ، وعرض ، وخاتمة دون إخلال ، فضلاً عن التنقل ما بين أجزاء الموضوع الواحد ، ولهذا فأن الإمام أجاد استعمال هذا المظهر في خطبه حينما انتقل من هذا الغرض إلى ذلك دون أن تحس بأي فراغ ، أو قطع ، أو عدم الترابط بين أجزاء الخطبة الواحدة .

١٦- لعل مما زاد في القيمة الفنية للمظاهر البديعية داخل الخطب العلوية اشتراكها مع مظاهر بلاغية أخرى داخل النص البديعي مثل التشبيه ، أو الاستعارة ، أو الكناية ، أو المجاز ُمنشِأت ما يعرف بـ(تجاور المظاهر البلاغية) .

١٧- إنّ المظاهر البديعية في خطب الإمام علي (عليه السلام) تكشف عن نسق شعري يلّون الخطب ويعمل على إيصالها إلى المتلقي بطريقة فنية رائعة .

هذا جانب مما قدَّمه البحث ، اللهم فإن أصاب فهو بفضل جودك ، وإن أخطأ فالرجاء عفوك ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وآله وصحبه الغُرِّ الميامين .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أوّلاً : ـ الكتب المطبوعة

- أ-

- الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي : د. شفيع السيد ، د.ط ، دار الفكر العربي ، الكويت ١٩٨٦.

- الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) ، ط ٣ ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥١م .

- أساس البلاغة : للزمخشري ، محمد بن عمر (ت٥٣٨ هـ) ، تحقيق : الأستاذ عبد الرحيم محمود ، ط١ ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٣م .

- أُسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير ، علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) ، تحقيق : الشيخ علي محمد معّوض ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، د. ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د. ت) .

- أسرار البلاغة : للجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ط ١ ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٩١م .

- الأسلوب والأسلوبية : كرا هام هاف ، ترجمة : كاظم سعد الدين ، (د.ط) ، دار آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٥م .

- الأسلوب مدخل نظري ودراسة تطبيقية : د. فتح الله أحمد سليمان ، (د.ط) ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، المطبعة الفنية ، ١٩٩٠م .

- الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية : د. عبد القادر عبد الجليل ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، ط (١) ، ٢٠٠٢م - ١٤٢٢هـ .

- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : للجرجاني ، محمد بن علي (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق عبد القادر حسين ، (د. ط) ، دار النهضة ، القاهرة ، د. ت .

- الأصوات اللغوية : د. إبراهيم أنيس ، ط ٤ ،مطبعة محمد عبد الكريم حسان ، ١٩٩٩م .

- إعجاز القرآن : للباقلاني ، محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) ، تحقيق : السيد أحمد الصقر ، د. ط ، دار العارف بمصر ، ١٩٦٤م .

- الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) ، تحقيق :عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٥م – ١٩٦٥م .

- الأمالي : للقالي ، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (د.ت) .

- الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي ، علي بن محمد (ت بعد ٤٠٠هـ) ، تحقيق : أحمد أمين الزين ، (د.ط) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د.ت) .

- الأمثال في نهج البلاغة : محمد الغروي ، ط ١ ، مطبعة فيروزآبادي ، قُم ، ١٤٠١هـ .

- أُمراء البيان : محمد كرد علي ، (د.ط) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

- أنوار الربيع في أنواع البديع : لابن معصوم المدني ، علي صدر الدين (ت ١١٢٠هـ) ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، ط ١ ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٦٩م .

- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع : القزويني محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق : لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ، (د.ط) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (د. ت) .

- ب -

- البداية والنهاية : لابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق د. أحمد أبي ملحم وآخرين ، ط ١ ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

- البديع : لابن المعتز ، عبد الله (ت ٢٩٩هـ) ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠م .

- البديع تأصيل وتجديد : د. منير سلطان ، د. ط ، مؤسسة دار الأرقم ، ١٩٨٦م .

- بديع القرآن : لابن أبي الإصبع المصري ، عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤هـ) ، تحقيق حفني محمد شرف ، ط ١ ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧م .

- البديع في ضوء أساليب القرآن : د.عبد الفتاح لاشين ، ط ١، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

- البديع في نقد الشعر : لأُسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) ، تحقيق : أحمد بدوي ، د. حامد عبد المجيد ، (د.ط) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، (د.ت) .

- البرهان في علوم القرآن : للزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٤م .

- البرهان في وجوه البيان : لابن وهب الكاتب ، إسحاق بن إبراهيم ، تحقيق : د. أحمد مطلوب ، و د. خديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٧م .

- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : د.إبراهيم سلامة ، ط ٣ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢.

- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها : د.محمد العمري ، (د. ط) ، أفريقيا الشرق ، بيروت - لبنان ، (د. ت) .

- البلاغة العربية البيان والبديع : د.ناصر حلاوي ، د. طالب محمد الزوبعي ، (د. ط) ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ، ١٩٩١م .

- البلاغة العربية تأصيل وتجديد : د. مصطفى الصاوي الجو يني ، (د. ط) ، مطبعة شركة الآت ولوازم الكتب ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م .

- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع) : د. بكري الشيخ أمين ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- البلاغة العربية " قراءة أُخرى " : د. محمد عبد المطلب ، ط ١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩٧م .

- البلاغة الفنية : علي الجندي ، ط ٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٦م .

- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية : د. عبد الفتاح لاشين ، (د. ط) ، دار الفكر العربي ، مطبعة دار القرآن ، (د. ت) .

- البلاغة والأسلوبية: د.محمد عبد المطلب ، (د. ط) ، الهيأة المصرية العامّة للكتاب ، ١٩٨٤م .

- بناء الأسلوب في شعر الحداثة (التكوين البديعي) : د. محمد عبد المطلب ، (د. ط) ، ١٩٨٨م .

- البنى النحوية : جومسكي ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة د. مجيد المشاطة ، (د. ط) ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٧م .

- بيان إعجاز القرآن : للخطابي ، حمد بن محمد (ت ٣٨٨هـ) ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، تحقيق : محمد خلف الله ، د.محمد زغلول سلام ، ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م .

- البيان والتبيين : الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق :عبد السلام محمد هارون ، ط ٧ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٩٨م .

- ت -

- تأريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعي، ط (٢)، دار الكتاب العربي ،بيروت ، ١٩٧٤م.

- تاريخ الأدب العربي :كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

- تاريخ الأدب العربي "العصر الإسلامي" : د.شوقي ضيف ، ط (٩) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- تاريخ الأمم والملوك : للطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ، صححه نخبة من العلماء الاجلاء ، (د. ط) مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٣٩م .

- تاريخ الخلفاء : للسيوطي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة المدني ، ١٩٦٤م .

- تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق : أحمد صقر ، ط ٣ ، (د. مط) ، ١٩٧٣م .

- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن : لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) ، تحقيق: د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤م .

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن : لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق : د.حفني محمد شرف ، (د. ط) ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .

- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي ، ط ١ ، دار العلم، بيروت ، ١٩٦٠م.

- التعريفات : الجرجاني ، علي بن محمد (ت ٨١٦هـ)، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٨٥م .

- التفاعل النصي (التناصية النظرية والمنهج) : نهلة فيصل الأحمد ، (د. ط) ، كتاب الرياض ١٠٤ ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، ٢٠٠٢م .

- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن): للطبري ، ط ٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩م .

- التقابل والتماثل في القرآن الكريم : د.فايز القرعان ، ط ١ ، المركز الجامعي للنشر والدعاية والإعلان ، الأردن ، ١٩٩٤م .

- التلخيص في علوم البلاغة : للخطيب القزويني ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، ط ٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٣٢م .

- التناص نظرياً وتطبيقياً : د. أحمد الزغبي ، ط ١ ، مطبعة الكناني ، عمان ، ١٩٩٥م .

- تهذيب اللغة : للأزهري ، محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، راجعه محمد علي النجار ، (د. ط) ، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والأنباء والنشر ، ١٩٦٤م .

- ج -

- الجامع الكبير في صناعة الكلام المنظوم والمنثور : لابن الأثير ، ضياء الدين (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق : د.مصطفى جهاد ، د.جميل سعيد ، (د. ط) ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٦م .

- الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق إسحاق إبراهيم أطفيش ، (د. ط) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٦٦م .

- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : د. ماهر مهدي هلال ، (د. ط) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م .

- جمهرة الأمثال : للعسكري ، الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد الحميد قطاش ، (د.ط) ، ١٣٨٤هـ .

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، أحمد زكي صفوت ، ط ١ ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، لبنان ، ١٩٨٥م .

- جواهر الألفاظ: قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) ، (د. ط) ، مطبعة الخانجي ، مصر ، ١٩٣٢م .

- جوهر الكنز(تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة) : لابن الأثير ، نجم الدين أحمد بن إسماعيل (ت ٧٣٧هـ) ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، (د. ط) ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، (د. ت) .

- ح -

- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية : د.عز الدين علي السيد ، (د. ط) ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٣م .

- حسن التوسل إلى صناعة الترسل : للحلبي ، شهاب الدين محمود (ت ٧٢٥هـ) ، تحقيق : د. أكرم عثمان يوسف ، (د. ط) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م .

- الحيوان : للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط ١ ، مطبعة مصفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٤٠م .

- خ -

- خزانة الأدب وغاية الارب : لابن حجّة الحموي ، أبي بكر علي (ت ٨٣٧ هـ) ، (د. ط) ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩١هـ .

- الخصائص : لابن جني ، أبي الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، ط ٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

- خصائص الأسلوب في الشوقيات : محمد الهادي الطرابلسي ، (د.ط) ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٨١م .

- الخطابة (أصولها ، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب) : محمد أبو زهرة ، ط ١ ، مطبعة العلوم ، ١٩٣٤م .

- الخطابة العربية في عصرها الذهبي : إحسان النص ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- الخطابة في عصر صدر الإسلام (العصر الديني ، عصر البعثة النبوية) : د. محمد طاهر درويش ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .

- الخطب والمواعظ : محمد عبد الغني حسن ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

- د -

- دراسة الصوت اللغوي : د. أحمد مختار عمر ، ط ١ ، عالم الكتب ، ١٩٧٦م .

- دروس في البلاغة وتطورها : د. جميل سعيد ، (د. ط) ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٥١م .

- دروس في الخطابة الحسينية : السيد مجتبى السويج ، ط ١ ، مطبعة فروردين ، ١٤١٥هـ.

- دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، (د. ط) ، مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٠م .

- دلالة الألفاظ : د. إبراهيم أنيس ، (د. ط) ، مكتبة الانجلو المصرية ، (د. ت) .

- ديوان ذي الرمة : تصحيح كارليل هنري مكارتني ، (د. ط) ، مطبعة كلية كمبريج ، ١٩١٩م .

- ر -

- رسائل البلغاء : محمد كرد علي ، دار الكتب العربية ، مصر ، (د. ت) .

- رماد الشعر : د. عبد الكريم راضي جعفر ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٨م .

- ز -

- زهرة الربيع في المعاني والبيان والبديع : أحمد الحملاوي ، ط ٧ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٧١م .

- س -

- سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي ، عبد الله بن محمد (ت ٤٦٦هـ) ، صححه وعلق عليهِ عبد المتعال الصعيدي ، (د. ط) ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، ١٩٥٣م .

- السيرة النبوية : لابن هشام ، عبد الملك الحميري (ت ٢٨٣هـ) ، تحقيق: مصفى السقا ، والايباري ، وشلبي ، ط ٢ ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- ش -

- شذور الذهب : لابن هشام الأنصاري ، عبد الله (ت ٧٦١هـ) ، (د. ط) ، (د. ت) .

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (د. ط) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

- شرح ديوان الحماسة : للخطيب التبريزي ، يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (د. ط) ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، (د. ت) .

- شرح قطر الندى وبل الصدى : لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (د. ط) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د. ت) .

- شرح الكافية : لصفي الدين الحلي (ت ٧٥٢هـ) ، تحقيق : د . رشيد عبد الرحمن العبيدي ، ط ١ ، بغداد ، ٢٠٠٤م .

- شرح نهج البلاغة : للبحراني ، ابن ميثم ، ميثم بن علي (ت ٦٧٩هـ) ، عُني بتصحيحه مجموعة من الأفاضل ، (د. ط) ، المطبعة الحيدرية ، طهران ، ١٣٧٨هـ .

- شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن محمد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ، بغداد ، ٢٠٠٥م .

- شعر النابغة الجعدي ، ط١، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ، دمشق، ١٩٦٤م .

- الشعرية : تودوروف ، ترجمة شكري المبخوت ، ورجاء بن سلامة ، ط ١ ، دار توبقال للنشر ، الغرب ، ١٩٨٧م .

- ص -

- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في لامها : لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، عُني بتصحيحه المكتبة السلفية ، (د. ط) ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ، ١٩١٠م .

- الصبغ البديعي في اللغة العربية : د. أحمد إبراهيم موسى ، (د. ط) ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : للجوهري ، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ) ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

- ط -

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : للعلوي اليمني، يحيى بن حمزة (ت ٧٤٩هـ) ، (د. ط) ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩١٤م .

- ظ -

- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : د. طاهر سليمان حمودة ، (د. ط) ، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م .

- ع -

- العقد الفريد : لابن عبد ربه الأندلسي ، محمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) ، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الايباري ، (د. ط) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

- علم الأصوات العام (أصوات اللغة العربية) : د. بسام بركة ، (د. ط) ، مركز الإنماء القومي ، لبنان ، (د. ت) .

- علم البديع : د. عبد العزيز عتيق ، (د. ط) ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

- علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأُصول البلاغة ومسائل البديع) : بسيوني عبد الفتاح بسيوني ، ط ١ ، جامعة الأزهر ، ١٩٨٧م .

- علم البلاغة : د. محمد بركات حمدي أبو علي ، د.محمد علي أبو حمدة ، د.عبد الكريم الحياري ، ط ٢ ، منشورات جامعة القدس المفتوحة ، الأردن ، ٢٠٠٣م .

- علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي : د. محمد حسين علي الصغير ، الموسوعة الصغيرة ، وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٩م .

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني ، الحسن (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، مطبعة حجازي بالقاهرة ، ١٩٦٤م .

- عيار الشعر : لابن طباطبا العلوي : محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ) ، تحقيق : د. طه الحاجري ، د. محمد زغلول سلام ، د. ط ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٦م .

- العين : للفراهيدي ، الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق : د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، (د. ط) ، مطبعة الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٠م .

- غ -

- غريب الحديث : لأبي عبيد القاسم بن سلام ، الهروي (ت ٢٢٤هـ) ، الهند ، ١٩٧٦م .

- ف -

- الفائق في غريب الحديث : للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، ضبطه وصححه : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية عيس البابي الحلبي وشركاءه . القاهرة ، ١٩٤٥م .

- فن البديع : د. عبد القادر حسين ، ط ١ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

- فن الجناس (بلاغة – أدب – نقد): علي الجندي ، د. ط ، دار الفكر العربي ، مصر، ١٩٥٤م .

- فن الخطابة الحسينية د. الشيخ محمد باقر المقدسي ، ط ١ ، مؤسسة الإرشاد والتوجيه الديني ، النجف الاشرف ، ١٤٢٧هـ .

- فن الخطابة وتطوره عند العرب : إيليا حاوي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د. ت) .

- فنون بلاغية البيان والبديع : د.أحمد مطلوب ، ط ١ ، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٧٥م .

- في أصول الخطاب النقدي الجديد : تودوروف وآخرون ، ترجمة د.أحمد المديني ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامّة ، بغداد ، ١٩٨٧م .

- في ظلال نهج البلاغة : شرح محمد جواد مغنية ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٣م .

- في المصطلح النقدي : د.أحمد مطلوب ، (د. ط) ، مطبعة المجمع العلمي ، بغداد - ٢٠٠٢م .

- في النحو العربي (نقد وتوجيه) : د.مهدي المخزومي ، ط ٢ ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨٦م .

- ق -

- القاموس المحيط : للفيروزآبادي ، (د. ط) ، مطبعة النهضة المصرية ، ١٩٣٥م .

- القديم والحديث : محمد كرد علي ، ط ١ ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٧٥م .

- قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : د.محمد عبد المطلب ، (د. ط) ، الهيأة المصرية العامّة للكتاب ، ١٩٩٥م .

- القزويني وشروح التلخيص : د. أحمد مطلوب ، ط ١، مكتبة النهضة، بغداد ، ١٩٦٧م .

- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني : د. محمد عبد المطلب ، ط ١ ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ١٩٩٥م .

- قضايا الشعر المعاصر: نازك الملائكة ، ط ٢ ، مطبعة دار التضامن ، بغداد ، ١٩٦٩م .

- قواعد الشعر : ثعلب ، أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ) ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٤٨م .

- ك -

- الكامل: للمبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق : د. زكي مبارك ، (د. ط) ، ١٩٣٦م .

- الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، (د. ط) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر : للعسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، ١٩٧١م .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : للزمخشري ، صححه محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م .

- ل -

- لسان العرب : لابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) ، راجعه وصححه نخبة من الأساتذة المختصين ، (د. ط) ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) : د. محمد الخطابي ، (د. ط) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩١م .

- م -

- ما هو نهج البلاغة : للشهرستاني ، السيد هبة الله الحسيني ، دار الثقافة ، النجف الاشرف ، ١٣٨٠هـ .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (د. ط) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٣٣٩م .

- مجمع الأمثال : للميداني ، أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ) ، (د. ط) ، مطبعة عبد الرحمن محمد ، ١٣٥٣هـ .

- المحكم والمحيط الأعظم : لابن سيده ، علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق جماعة ، القاهرة ، ١٩٥٨م – ١٩٧٢م .

- محمد في فصاحتهِ وأحاديثه : محمد عطيه الابراشي، دار ممصر للباعة ، القاهرة، (د. ت) .

- المدخل إلى علم أصوات العربية : د. غانم قدوري الحمد ، (د. ط) ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ٢٠٠٢م .

- المذاهب النقدية الحديثة (مدخل فلسفي) : د. محمد شبل الكومي ، تقديم : د. محمد عناني ، (د. ط) ، الهيأة المصرية العامّة للكتاب ، ٢٠٠٤م .

- المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) : د.عبد العزيز حمودة ، (د. ط) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب ، الكويت ، ١٩٩٨م .

- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : د.عبد الله الطيّب ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠م .

- مع نهج البلاغة (دراسة ومعجم) : د.إبراهيم السامرائي ، ط١ ، دار الفكر، ١٩٨٧م.

- معاني القرآن : للفرّاء ، يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق : د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، (د. ط) ، الهيأة المصرية العامّة للكتاب ، ١٩٧٢م .

- معاني النحو : د. فاضل صالح السامرائي ، ط ٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٣م .

- معجم البلدان : لياقوت الحموي ، (د. ط) ، دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر للطباعة النشر ، بيروت ، ١٩٥٧م .

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. أحمد مطلوب ، (د. ط) ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ج ١ ، ١٤٠٣هـ.١٩٨٣م ،ج ٢ ،١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م – ج٣ ،١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م .

- معجم النقد العربي القديم : د. أحمد مطلوب ، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامّة ، بغداد ، ١٩٨٩م .

- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب : لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، (د. ط) ، مطبعة المدني ، القاهرة ، (د. ت) .

- مفتاح العلوم : للسكاكي ، يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦هـ) ، تحقيق : د.عبد الحميد هنداوي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

- مقدمة تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، ضبطه الأُستاذ خليل شحادة ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨م .

- من أسرار العربية في البيان القرآني : د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، (د. ط) ، دار الأحد (البحتري أخوان) ، بيروت ، ١٩٧٢م .

- مناهج البحث في اللغة : د. تمام حسان ، (د. ط) ، دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٧٩م .

- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : للسلجلماسي ، محمد القاسم الأنصاري ، تحقيق علال الغازي ، ط ١ ، مكتبة المعارف ، المغرب ، ١٩٨٠م .

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: للقرطاجني، حازم بن محمد (ت٦٨٤هـ) ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، (د. ط) ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦م .

. موسوعة النحو والصرف والاعراب د. إميل بديع يعقوب ، ط١، طبعة مصورة عن دارالعلم، بيروت، ٢٠٠٥ م.

ـ الميزان في تفسير القرآن : للطباطبائي، السيد محمد حسين، تصحيح الشيخ حسين الاعلمي، ط٢، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ب يروت ، ٢٠٠٢م .

ـ ن ـ

ـ نقد الشعر :لقدامى بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى ، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م .

. النقد اللغوي عند العرب حتّى نهاية القرنم السابع الهجري، د. نعمة العزاوي، (د. ط)، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ، ١٩٧٨م .

. نهاية الارب في فنون الادب للنويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)، تصحيح أحمد الزين ، (د.ط) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (د.ت) .

ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز : لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق : د. إبراهيم السامرائي ، د. محمد بركات حمدي أبو علي، (د. ط) ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٥م .

. النهاية في غريب الحديث والاثر : لابن الاثير، مجد الدين المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي، محمود الطناحي، مصر ، ١٩٦٣م .

. نهج البلاغة : شرح محمد عبده، ط١، مؤسسة الاعلمي، بيروت ، ٢٠٠٣م .

ـ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة : للشيخ محمد باقر المحمودي ، ط١ ، مؤسسة الطباعة والنشر ، طهران ، ١٤١٨هـ .

ـ النوادر : لأبي مسحل الاعرابي : عبد الوهاب بن حريش (ت١٩٩هـ) ، تحقيق : د . عزة حسن، دمشق ، ١٩٦١م .

ـ و ـ

. الوساطة بين المتنبي وخصومه : للجرجاني، عل بن عبد العزيز (ت٣٩٢هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد البجاوي، (د. ط) ، دار القلم، بيروت ، (د. ت) .

ثانياً:الرسائل الجامعية

ـ الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : مجيد عبد الحميد ناجي، (أطروحة دكتوراه)، مقدمة إلى كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م .

ـ الاسلوبية في دراسات الاعجاز القرآني : عواطف كنوش، (أطروحة دكتوراه) ، مقدمة إلى مجلس كليةالآداب ، جامعة البصرة، ١٩٩٥م .

. الآيات القرآنية المتعلقة بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . دراسة بلاغية واسلوبية : عدنان جاسم محمد الجميلي، (أطروحة دكتوراه) ، مقدمة إلى مجلس كلية التربية / أبن رشد، جامعة بغداد ، ٢٠٠٣م .

. الايقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم . دراسة أسلوبية . عبد الواحد زيارة اسكندر المنصوري ، (رسالة ماجستير) ، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٩٥م .

. التقابل الدلالي في القرآن الكريم : منال صلاح الدين عزيز الصفار ، (رسالة ماجستير) ، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل ، ١٩٩٤م .

ـ التكرار اللفظي أنواعه ودلالاته قديماً وحديثاً : صميم كريم الياس ، (رسالة ماجستير) ، مقدمة إلى مجلس كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٨م .

. التناص دراسة في الخطاب العقدي العربي : سعد إبراهيم عبد المجيد ، (أطروحة دكتوراه)، مقدمة إلى مجلس كلية التربية / ابن رشد ، جامعة بغداد ، ١٩٩٩م .

ـ التوازي في القرآن الكريم : وداد مكاوي حمود الشمري ، (أطروحة دكتوراه) مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، ٢٠٠١م .

ـ الحديث النبوي الجاري مجرى المثل . دراسة أسلوبية في الصحيحينِ . : أروى عبد الغني سعيد ، (رسالة ماجستير) ، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٢م .

ـ خطب الجهاد في عصر صدر الاسلام . دراسة فنية . : بثينة إبراهيم دهش ، (أطروحة دكتوراه) ، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٧م .

ثالثاً : ـ البحوث والدوريات

ـ الاجمال والتفصيل في القرآن الكريم (دراسة تحليلية) ، د. فايز القرعان، مجلة ابحاث اليرموك ، مج ١٢، العدد الاول ، ١٩٩٤م .

. البديع في الدرس البلاغي والنقدي العربي (من الرؤية البلاغية إلى الرؤية الاسلوبية): د. فاضل عبود التميمي، جامعة واسط ،كلية التربية، ابحاث المؤتمر العلمي الثاني، دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الاشرف ، ٢٠٠٧م .

ـ التناص وإشاريات العمل الادبي، صبري حافظ ، مجلة ألف القاهرة، العدد (٤) ، ١٩٨٤م .

ـ دراسة في تعريب بعض المصطلحات (نظرية النص) : د. محمد خير البقاعي ، مجلة الموقف الثقافي في بغداد ، العدد (٨) ، السنة الثانية ، ١٩٩٧م .

. رؤيا الملك ، أوماندانا وستافروب (دراية اسلوبية) : د. فاضل عبود التميمي ، مجلة ديالى للبحوث الانسانية ، العدد (١٧) ، ٢٠٠٧ م .

. الليث والخراف المهضومة (دراسة في بلاغة التناص الادبي) : د. شجاع العاني ، مجلة الموقف الثقافي في بغداد ، العدد (١٧) ، السنة الثانية ، ١٩٩٩م .

Abstract

I have shosen to study Al –Badi'ia Aspects Al – Imam Ali's Orations for basic purpose; it is to reveal the rhetoric of the orations of one of the most impotant Arabi Oration in all ages after facing atrocious attempts of suspicion and belittlement to lesson their importance as text improvement and decoration without any impact on the structure.

The study adopts Al –Badi'ia as a full comlete term 'not as a free one. It refers to all rhetoric arts due to the pioneer rhetoricians. So, in this study, it is the third art of the familiar rhetoric arts.

As for chosing Al – Imam Ali's oration , it is because they include inculde incapacity in the level of eloquency , and rhetoric , with Arabic excellencies they vontain , and great religious and worldly words which may not be found in any other book he had devised eloquency and rhetoric to people . There for , every rhetorician and orator take from his science .

The study relies on two impotant authentic sources "Nahj Al – Balagha" explanation Ibn Abi Al – Hadeed (b-656 H), authorized by Mohammad Abu Al – Fadle Ibrahim, and "Nahj Al – Sa'ada" of the authoritator Al – Sheikh Mohammad Baquir Ai- Mahmoody. Which is considered to be morer comprehenvise than Nahj Al - Balaga because its compiler compiled in this book all that espcaped Mr – Al – Shareef Al – Radi (God biess him) .

The study relies on various soures and references: ancient and modern attempting to enrich the investigation to magnify the ancient and to look contemporarly to the new to construct according to rhetorical method that adopts analysis to examine carefully the text to seize the rhetoric of expression thought a careful iook at the three levels whih the stylistics introduced to the contemporary researchers, which

for the study they are antecedent levels of the old rhetorical orations if he worked on them.

The study includes an introducation, preface, three chapters and a conclusion. It also inculdes bibliography, thesis and researches and an abstract in English.

The preface entitled "Al- Badea'a is a Rhetorical Aspect in Al – Imam Ali's Orations" is an attempt to give an idea a bout Al – Badeaa as a term , the concept of form , and the rhetoric of Al – Imam Ali and his orations.

The first chapter entitled "Phonetic Rhetoric" falls into three setions in which the study presents the repetition and its types, homophone (Al- Jinaas) and its forms, rhyme (Al- Kafia) and balance.

The second chapter entitled "Structural Rhetoric" falla also into three sections. It explains (style change), Omation, opposite and change under the title "Al –Badi'ia Sentences of Grammatical Tendency", from good introduction, good conclusion under the title "The length and Shortness of Al- Badea'a Sentence".

The third chapter entitled " Semantic Rhetoric"falla also into three sections in which the study presents homphone (Jinaas) , contrast (Tibak) under the title " The context that stands on the presnce of homophone and cotrast , summarization , details , language , publication , completion and good reasoning under the title " The cotext Resulted from the connection of Al – Badea'a sentences with each other) , textualization , alienation and good exir under the title " Text that stand upon the semantic difference due to context difference "

The conclusion offers a number of results represented by the refusal of considering Al- Badea'a as an uttrance decoration or morale industry the literary man uses to improve and beautiful his language . Al – Badea'a with its arts is a rhetorical aspect regarded to be part of the text struture and its excellencies , and mentioning the merits of the other aspects of the other aspects of Al-Badea'a in Ali's Oration .

Despite the equality of the parts of the study, the difference is clear in the length of the chapters with each other, this is due to the domination of some aspects of Al- Badeaa in the oration to these aspects.

Finally I do hope that, in my humble work, I managed to give Al – Badea'a a fair interpreation though revealing its aspects in aunique Arabic text. I wish I shall win God's satisfaction which is most desired.

Researcher

Ministry of Higher Education and Scientific Research
Diyala University
College of Education
Arabic Dep.

Al- Badi'ia Aspects in Al –Imam Ali's Orations Arhetorical Study

A Thesis

Submitted to the Council of the College of Education, University of Diala inpartial Fulfilment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in Arabic Literature.

By :
Haider Ahmed Hussein Al – Zubaidy

Supervised
By :
Assistant Professor
Dr . Fadil Abud Khamees Al – Timimy

2007 M . ***1428 H.***